الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العاليّ والبحث العلميّ
جامعة مولود معمري، تيزي–وزو
كلّيّة الآداب واللّغات
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

التّخصّص: اللّغة والأدب العربيّ.

الفرع: لغويّ.

أطروحة لنيل درجة الدّكتوراه

الموضوع: إعداد الطّالب: محمد عرباوي

الأحاديثُ القدسيَّةُ
في ضوءِ النَّظريَّةِ الوظيفيَّةِ التَّداوليَّةِ

لجنة المناقشة:

1- أ.د/ ذهبية حمو الحاج، أستاذ، جامعة مولود معمري، تيزي–وزو..... رئيسا.
2- أ.د/ صالح بلعيد، أستاذ، جامعة مولود معمري، تيزي–وزو..... مشرفا ومقرّرا.
3- أ.د/ كمال قادري، أستاذ، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف..... مناقشا.
4- أ.د/ لخضر روبحي، أستاذ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة..... مناقشا.
5- د/ عمر بورنان، أستاذ محاضر، جامعة آكلي محند أولحاج، البويرة..... مناقشا.
6- د/ حياة خليفاتي، أستاذ محاضر، جامعة مولود معمري، تيزي–وزو..... مناقشا.

تاريخ المناقشة: 2019/01/09.

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم علينا المنّة بالإسلام والسنّة، أحمده تعالى على ما منحني من قوّة وعافية وصبر وتوفيق لإتمام هذا العمل، وأسأله أن يتمّ نعمته عليّ ويتقبّله منّي ويجعله من الأعمال الصالحة، فبالله ثقتي ورجائي.

أتوجه بالشّكر الوافر إلى من هو أهلٌ له، ممّن مدّ العون لإعداد هذا البحث العلمي المتواضع وإخراجه إلى النّور، وأخص بالذكر أستاذي المشرف؛ الأستاذ الدكتور: صالح بلعيد على دماثة خلقه، وسخاء علمه، وكرم مجالسته، فقد اعتنى بهذه الأطروحة دعماً وتوجيهاً وتنبيهاً، وتابعها بجدٍّ متفانٍ وحرص دؤوب وصبر جميل طيلة سنوات إنجازها، وأثراها قدر طاقته بالتوجيهات القيّمة، والنصائح السّديدة، حتى استوت على سوقها، فله أسمى كلمات الشكر والتقدير وأصدق عبارات الامتنان والعرفان، والله أسأل أن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وأن يجازيه عني خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أتقدّم بخالص الشكر وكثير العرفان، للسادة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على اقتطاعهم من وقتهم الثمين لقراءة هذا العمل، وعلى حرصهم وصبرهم في ملازمة تفحّصه، وتجشمهم عناء مناقشته وتصويبه وإثرائه موضوعاً ومنهجاً؛ لإعادة صقله مرة ثانية.

المقدّمة

إنّ النّاظر في ابستمولوجيا اللّسانيّات الحديثة والمعاصرة، بمنظور الرّجوع إلى وظيفة اللّغة يمكنه ملاحظة تمايُز اللّسانيّات الوصفيّة التي أعقبت اللّسانيّات التّاريخيّة والمقارنة في اتّجاهين صوريّين رئيسيّين: اتّجاه وظيفي يسعى لتفسير الخصائص الصّوريّة للّغات بربطها مع وظيفتها التّواصليّة، واتّجاه غير وظيفي يصف بنية اللّغات بمعزل عن تلك الوظيفة.

وتضمَّن كلٌّ من الاتّجاهين نظريّات مستقلّة وأخرى تنتمي إلى التّيّار البنوي أو إلى التّيّار التّوليدي التّحويلي، غير أنّ الاتّجاه غير الوظيفي اعتقد بكيانيّة البنية اللّغويّة في مستواها الصّوري مبتعداً عن الأحداث الكلاميّة الفعليّة، فتمسّك باستقلاليّة التركيبِ ووصفِ اللّغة بعزلها عن الواقع إلى أنْ وقفَ عاجزاً أمام تفسير بعض إشكالاتها وحَمَّل بنيتها ما لا تحتمل، وهكذا تحوّلَ إلى علم تجريدي شكلاني مغلق على نفسه ذي إجراءات داخليّة خالصة؛ مما أدّى إلى إخفاقه في معالجة الخطابات بصفة عامّة، وافتقار جهازه الواصف إلى الرّبط بين بنية اللّغة ووظيفتها التّواصليّة فاعتبر الخصائص الصّورية للّغة مقوّمات مستقلّة، تُفسَّر من الدّاخل في معزل عن الوظيفة؛ أي دون اللّجوء إلى عوامل دلاليّة أو تداوليّة.

وقد كانت التّداوليّة –بِعَدِّها مجالا معرفيّا غزيرا– من أسباب تعميق الهوّة بين الاتّجاهين السّابقين، حيث أيّدت الاتّجاه الوظيفي، وأمدّته برُؤى معرفيّة اشتدّ بها عضده، منها: القول بالوظيفة التّواصليّة للّغة، ودراسة الأبعاد الاستعماليّة للنّشاط اللّغوي، والسياقات والطّبقات المقاميّة التي ينجز فيها، وأغراض المتكلّمين وأحوال المخاطبين، والاتّصال المباشر بالعالم الخارجي؛ لاستقاء استدلالات لتفسير الخطاب، والبحث عن عوامل وضوح ونجاح رسالته التّواصليّة، فتجاوزَ بذلك الكيانيّة اللّغوية بمعناها البنوي الضيّق، وأنار جوانب جديدة لم يكشف عنها الاتّجاه غير الوظيفي. وهو إذْ يستفيد من التّداوليّة؛ يلتقي معها أيضاً في مصادر المعرفة، مثل: الفلسفة التحليليّة ممثّلة في فلسفة اللّغة العادية والأفعال الكلاميّة، بالإضافة إلى علم النّفس المعرفي وعلوم الاتّصال والاجتماع والمنطق.

وإذا كان هناك من يُقسّم الاتّجاه الوظيفي إلى تيّار ذي بعد تداولي وتيّار ذي بعد بنوي؛ فإنّ الأخير لا يعدو في الحقيقة أن يكون تيّاراً بنوياً صرفاً ينتمي إلى الاتّجاه غير الوظيفي، وصار الاتّجاه الوظيفي الوحيد هو الذي يحمل المكوّن التّداولي في نماذجه. والأنحاء الوظيفيّة كلّها أنحاء صوريّة على اعتبار أنها تخصّص في جهازها الواصف مستوى للوظائف التركيبيّة، في حين لا تكون جميع الأنحاء الصوريّة أنحاءً وظيفيّة؛ لأنّها تصف البنية اللّغويّة بمعزل عن الوظيفة

التّواصليّة من جهة، ولا تمثّل للوظائف الدّلاليّة والتّداوليّة، أو تعتبر هذه الوظائف مشتقة من المكوّن التّركيبي من جهة أخرى.

وبهذا؛ تتأسّس نظريّات الاتّجاه الوظيفي وظيفيّاً وتداوليّاً، حيث تنطلق من تعالق البنية والوظيفة وتبعيّة الأولى للثّانية، وتُرشّح موضوعاً لها القدرة التّواصليّة باعتبارها خزّاناً من الطّاقات اللّغوية والطّاقات غير اللّغوية، وتفترض أن الخصائص الصّورية (الصّرفيّة–التّركيبيّة والصّوتيّة) لا يتسنّى وصفها وتفسيرها بصورة كافية؛ إلّا إذا عُدَّت نتاج التّفاعل القائم بين مستويي الدّلالة والتّداول في البنية الوظيفيّة؛ حيث إنّ النّظريّة الوظيفيّة الحديثة تتضمّن بالضّرورة المكوّن التّداولي الذي لو خلا منها لأصبحت نظريّة صوريّة غير وظيفيّة، كما أنّ النّظريّات التّداوليّة البحتة لا تخضع لجميع المبادئ المنهجيّة العامّة للنّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة، ولا تتّفق معها في ذات الأجهزة الواصفة.

والحقّ أنّ اصطلاحَ النظريّة الوظيفيّة التّداوليّة عامٌّ يشمل كل نظريّات الاتّجاه الوظيفي التي أدرجت المكوّن التّداولي في البنية الوظيفيّة؛ لكن دَرج الوظيفيّون المعاصرون على إطلاق هذه التسمية على آخر نظرية وأكثرها نجاعةً واستجابةً للنّمذجة وثراءً في التّنظير؛ وهي نظريّة النّحو الوظيفي التي أرسى دعائمها الهولندي (سيمون ديك Simon Dik) سنة 1978، وأوَت عدّة نماذج أبرزها نموذجه النّواة، ونموذجه المعيار، ونموذج نحو الطّبقات القالبي لـ(أحمد المتوكل)، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي لـ (ماكنزي Mackenzie.J.Lachlan) و(هنخفلد Hengevled Kees) ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع لـ(المتوكّل).

وأَمْلَى منطق النّضج النّظري أنْ تُؤطِّر هذه النظريّةُ جهازها المركزي بإوّاليّات كليّة، تمكّنها من تنميط اللّغات والخطابات، ورصد تطوّراتها، وتكفُل لها مقاربة آليات التّواصل البشري عبر القنوات اللّغوية وغير اللّغوية، وأن تنفتح على التّوجه القطاعي الذي تكون اللّغة البشريّة حاضرةً فيه حضوراً كليّا أو جزئيّا؛ كتحليل الخطاب والترجمة والحوسبة وتعليم اللّغات ووضع المصطلح وصناعة المعاجم وغيرها.

وقد استوعبت النظريّة التّراكمات المعرفيّة للنّظريّات السّابقة لها، وأفادت منها وتمثّلت إيجابيّاتها وتجنّبت مزالقها، كما طوّرت نفسها من داخلها بتكيّفها مع المستجدّات المعرفيّة واستقطبت اهتمام بعض الباحثين الذين اتّخذوها إطاراً لدراسة لغات وخطابات متباينة، فقدّموا الدّليل على إمكانيّة تخطّي عقدة دعاة الانغلاق على الذّات، حول عدم جدوى انسجام نظريات اللّسانيّات الحديثة مع اللّغة العربيّة؛ باعتبارها فكراً مستورداً يتوجّب الحذر والحيطة منه.

ولعلّ الحديث القدسي يُعتبر مادّةً مناسبةً للمقاربة وفق النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة؛ لأنّه يُفيأُ ضمن الخطابات الدّينيّة التي تنزع إلى التّوجه الذّاتي، والغرض الإقناعي، وتعدّد الآليّة الخطابيّة ولارتباط نصّه كثيراً بالسّياق والمقام، ولثرائه بالوظائف البلاغيّة والتّداوليّة، وتنوّع أنساقه التّواصليّة ومركزه الإشاري. وفي هذا السّياق نحاول تمحيص النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة؛ بتمريرها في محكّ الانطباقيّة على الخطاب الدّيني ممثّلاً في مدوّنة الأحاديث القدسيّة؛ وعلى هذا يُخصّص بحثنا بالعنوان: **(الأحاديث القدسيّة في ضوء النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة)**.

أسباب اختيار الموضوع: من دواعي الرسوّ على هذا الموضوع ما يلي:

1- ميلنا إلى البحث في نظريّة لسانيّة حديثة، حيث مثّلت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة واحدة من النّظريّات الجديدة التي ظهرت في الآونة الأخيرة بنماذج متعدّدة، وقد أثبتت قدرتها على استيعاب المفاهيم الوظيفيّة والتّداوليّة داخل أجهزتها الواصفة، وامتلاك إوّاليّات دقيقة في التحليل، وإخراج البحث اللساني من الصّورة المغرقة في التجريد إلى الواقع التّواصلي الملموس، إلاّ أنها لا تزال فتية وغامضة، تحتاج للتبسيط والمران والانتشار أكثر.

2- اعتقادنا بأن متن الأحاديث القدسيّة ميدانٌ مناسبٌ لهذا النوع من الدراسة، لأن المتصفح والمتأمل في هذه الأحاديث يقف على ثراء لغتها بالحوار والوسائل الصّرفية-التركيبيّة والصوتيّة، ووضوح أغراضها التّواصليّة والإقناعيّة، وتعقّد المركز الإشاري فيها بوجود المتكلّم والمخاطب والوسطاء، وتوفّر خطابها على أنساق تواصليّة لغوية وغير لغوية بصورة تجعل إمكانيّة المعالجة الوظيفيّة كبيرة.

كما أن المدوّنة المعنيّة وهي (الصحيح المسند من الأحاديث القدسيّة) للشّيخ (مصطفى العدوي) التي يبلغ عدد أحاديثها المئة وخمسة وثمانين حديثاً (185) قد أعادت النّظر في مجموع الأحاديث الصحيحة وحصرتها في أقلّ عدد، مقارنةً بتلك التي جمعها الإمام (جلال الدين السّيوطي) أو الإمام (محمد متولي الشّعراوي).

3- رغبتنا في مواصلة رحلة البحث التي انطلقنا فيها من رسالة الماجستير الموسومة (دور الرّوابط في اتّساق وانسجام الأحاديث القدسيّة)، حيث تمّت مقاربة ذات المدونة وقتئذٍ وفق منهج اللّسانيّات النّصيّة؛ ووجدنا أنّ مستودعات المدوّنة لا زالت تخفي مخبوءات لم يطلها ذلك المنهج؛ كالأنساق التّواصليّة غير اللّغوية، وتمثيل عمليّات إنتاج خطابه وفهمه وتحليله وتحويله وتوليده ونقله من طرف المتخاطبين والوسطاء، فرغبنا في مواصلة مساءلته بأسئلة أخرى من المنهج الوظيفي التّداولي الذي نَرتقب مناسبته لاستجلاء تلك المكنونات.

ويحقّ التّنويه هنا أنّ عينة الدراسة التطبيقية ليست عينة عشوائية يُحدّدُ عدد أفرادها تَبَعاً لعدد أفراد مجتمع الدراسة بنِسَبٍ معيّنة، إنّما هي عينة قصدية تمتدّ حسب أهل الإحصاء من العدد واحد (01) إلى العدد أربعين (40) شَرطَ أن تتوفّر دوافع لتلك القصود في الاختيار، وتتمثّل عيّنتنا القصدية هنا في ثلاثة (03) أحاديث قدسيّة طِوال منتقاة للمران والممارسة في ضوء النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، وهي: حديث (رؤية المؤمنين ربّهم ﷻ في الآخرة) وحديث (فتنة الدّجال) وحديث (قصّة موسى مع الخضر عليه السلام).

حيث كان كل حديث منها مناسباً وموافقاً لواحد من النّماذج الثّلاثة الأخيرة للنّظريّة، وهي: نموذج نحو الطّبقات القالبي سنة 2003 ونموذج نحو الخطاب الوظيفي سنة 2008، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع سنة 2011 على التّرتيب، وهذه النّماذج الثلاثة هي أحدث نماذج النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة المطوّرة عن نموذجي النواة والمعيار للساني المؤسس للنظرية (سيمون ديك)، وقد كان النموذجان الأول والثّالث من ابتكار عربي يُنسب إلى رائد الوظيفيّة في العالم العربي (أحمد المتوكل)، أما الثّاني فهو للباحثين (هنخفلد) و(ماكنزي).

ولم يكن هذا الاختيار اعتباطيّاً عفويّاً، بل كان مقصوداً، وبُنِيَ على اختبار فحص مسبق ارتكز على منهجيّة علميّة، انطلقت من الاطّلاع على خصائص كل نموذج من النّماذج الوظيفيّة الثّلاثة وقواعده وشروطه، وفهم كيفية تشغيل جهاز مستعمل اللّغة في كلّ نموذج، بعد ذلك تمّ القيام باستقراء معظم الأحاديث القدسيّة الواردة في المدوّنة المفحوصة، ثم استنباط الآليّات والإوّاليّات الموجودة فيها والتي تفضي إلى أفضل وأنسب تحقيق للكفاية الإجرائيّة بالنسبة لكل نموذج من النماذج السابقة.

إشكاليّة البحث: تتمثّل إشكاليّة البحث في السّؤال الرّئيس الآتي: ما مدى إحراز الكفايات اللّغويّة والإجرائيّة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة عند تطبيقها في خطاب الحديث القدسي؟

ومن هذا السّؤال تنبثق الأسئلة الجزئية الآتية: ما موقع النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة بين النظريّات اللّسانيّة الحديثة والمعاصرة علميّا ومنهجيّا؟ ماهي مبادئ هذه النظرية؟ ماهي أهدافها وموضوعاتها؟ ما مدى صلاحيّة آخر ما أحدثته النّظرية من نماذج على مدوّنة الحديث القدسي؟ أين يكمن التفاوت والتباين عند اختبار انطباقيّة كلٌّ من نموذج نحو الطّبقات القالبي ونموذج نحو

الخطاب الوظيفي ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع على متن الحديث القدسي؟ ماهي الأنساق التّواصليّة اللّغويّة وغير اللّغويّة المرافقة لخطاب الحديث القدسي؟ كيف نقارن بين واقعين للحديث القدسي؛ واقع النطق بالحديث مشافهة من طرف الرسول ﷺ وهو أمام المتلقّي المتزامن للعصر والمكان، وواقع قراءته وتناوله من طرف المتلقّي المتباعد في غير ذلك الزّمان والمكان؟

فرضيّات البحث: لتجاوز الإشكالية وما ترتّب عنها من أسئلة فرعيّة؛ نفترض للبحث فرضيّة أساسيّة هي إمكانيّة تحقيق الكفايات الوصفيّة والتّفسيريّة والإجرائيّة عند تطبيق النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة على الأحاديث القدسيّة، واستجلاء سمات وخصائص خطابيّة جديدة في المدوّنة لم تكن لتظهر تحت مشرط نظريّات لسانيّة أخرى.

وتنطوي تحت هذه الفرضيّة على فرضيّات فرعيّة أهمّها:

– اعتقدنا –بالنّظر إلى الإطار الابستيمولوجي للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة– أنّها تحتلّ موقع النظريّة القائمة بذاتها؛ لكنّها تُعتبر امتداداً للأفكار والنظريّات اللّسانيّة الوظيفيّة التي ظهرت قبلها من داخل التّيّار البنوي أو التّيّار التّوليدي التّحويلي أو من خارجهما أو من الفكر اللّغوي القديم؛

– رشّحنا ارتكاز النّظريّة على مبادئ عامّة أبرزها جعل اللّغة بنية وأداة معاً، وأن وظيفتها الأساسيّة هي التّواصل، حيث تتحكّم الوظيفة في البنية، ومن سمات استمرارها قدرتها على صياغة نماذج صورية تخصّها، وسعيها لوصف القدرة التّواصليّة وإحراز الكفايات اللّغوية والإجرائية؛

– توقّعنا صلاحيّة تطبيق النّماذج الثّلاثة الأخيرة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة في مدوّنة الحديث القدسي، واستجابة هذه النماذج لاستجلاء السمات الوظيفية والتداولية.

– احتملنا وجود تفاوت وتباين بين نماذج النظرية في التّمثيل لنموذج مستعمل اللّغة الطّبيعية، وفي وصف قدرة المتخاطبين، وتفسير وظائف وسمات وخصائص الظّواهر اللّغويّة والخطابيّة والتّواصليّة.

المنهج المتّبع: فرضت طبيعة الموضوع اتّباع المنهج الوصفي؛ باعتباره الأصلح غالباً في الدّراسات اللّغويّة، وقد امتاز بالتجريد والتعميم، واتّكأ على زمرة من الآليّات المتكاملة كما يلي:

– آليّة الوصف: نظرنا للظّاهرة اللّغوية والظّاهرة الخطابيّة التّواصليّة في الحديث القدسي بنظرة وصفيّة موضوعيّة في وضعها السّاكن؛ واعتمدت على الملاحظة المباشرة لتلك الظّواهر الموجودة بالفعل، وتقرير وتسجيل واقعها اللّغوي كما هو دون فرض الأحكام المعياريّة؛

– آليّة التّحليل: تمّت بتَتَّبعنا الظّاهرة الموصوفة بواسطة تحليل مكوّناتها، واستجلاء خصائصها، وتفسير مضامينها، ومناقشة الأسباب الكامنة وراء ذلك بما يتيح الفهم الأفضل؛ وذلك

بربط بنية اللّغة في الحديث القدسي بوظيفتها التّواصليّة، والاهتمام بمستعملي الخطاب وظروف وسياقات إنتاجه وفهمه، وكشف ما هو ظاهر في البنية السّطحيّة من المكوّن النّحوي وجعله انعكاساً للبنية الوظيفيّة التّحتيّة المشكَّلة من المستويين التّداولي والدّلالي؛

– آليّة النّقد: قامت على إبدائنا الرّأي عند المقاربة الوظيفيّة لخطاب الحديث القدسي، ببيان الفروق بين النّماذج الثّلاثة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة نظرياً، والتفاوت الذي حصل بينها في المجال التّطبيقي على المدوّنة، بغرض تدارك الفجوة وإكمال النّقص اللّذين كشفتهما آليتا الوصف والتحليل على مستوى نماذج النظريّة، وجدوى تطبيقها على الظّاهرة اللّغوية والخطابيّة للمدوّنة؛

– آليّة التّقعيد: قمنا عن طريقها بوضع القواعد، والخلوص إلى النّتائج، وإطلاق الأحكام حول الظّاهرة اللّغوية والخطابية في الحديث القدسي.

وتجدر الإشارة إلى أننا اعتمدنا في هذه الأطروحة منهجيّة جديدة في التّهميش والتّوثيق هي منهجية التّوثيق بنظام الجمعيّة الأمريكيّة لعلم النفس (APA). وهو أسلوب عالمي معاصر حائز على ترقيم في معيار الإيزو، يتناسب مع العلاج الآلي للّغة وأنظمة الفهرسة الالكترونيّة، يهدف إلى الاقتصاد في الجهد وتعزيز الأمانة العلميّة ومصداقيّة البحث. (بلعيد، 2016، ص ص11–13)، ومن أهم قواعده إلغاء الهامش واستعمال توثيقٍ مختصرٍ داخل المتن يُذكر فيه الاسم الأخير للمؤلِّف وسنة النّشر والصّفحة فقط، فإذا لم توجد السّنة يُذكر العنوان، وإذا اشتملَ أخذُ الفكرة المرجعَ كلَّه فيُكتفى بذكر السّنة دون الصّفحة، ثم توثيقٍ كاملٍ في قائمة المصادر والمراجع التي تُرتّب حسب الأحرف الهجائية للاسم الأخير، مع اشتراط عدم التّمييز بين الكتاب والمقال والمداخلة والبحث الجامعي، بل تُجمع كلّها تحت اسم صاحبها، مع ترتيبها بحسب تواريخها، كما يُلغي واجهات الفصول، ويجعل المقدمة والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع والفهارس أجزاءً أساسيّة في المتن، وتُرقّم صفحاتها معه ترقيماً مستمراً.

بناء البحث: استقام بناء البحث على ستّة فصول أُطّرت بمقدمة ترأسها وخاتمة تقفوها؛ فصل تمهيدي وفصلان نظريّان وثلاثة فصول تطبيقيّة، وأُفتُتح كل فصل بمدخل يوضّح عناصره وذُيِّل بخلاصة تُجمّع فحواه.

– **المقدّمة:** تضمّنت عدّة عناصر أبرزها طرح الإشكال ووضعه في إطاره العام، وبيان المنهج المعتمد وبنية البحث.

– **الفصل التّمهيدي:** هو مرحلة أوّلية فرضت نفسها قبل الخوض في باقي الفصول، هدفت إلى إزالة اللّبس الذي قد يخامر ذهن المتلقي حول المتغيرات الرئيسيّة للبحث، حيث تطلّب الأمر

بدايةً تقديم مفاهيم أساسيّة تتعلّق بالكلمات المفاتيح لعنوان البحث وهي على الترتيب: الأحاديث القدسيّة، النّظريّة، الوظيفيّة، التّداوليّة، ثم تناول الفرق بين النّظريّة الوظيفيّة والنّظريّة الصّوريّة وعلاقة النّظريّة الوظيفيّة بالنّظريّة التّداوليّة، إلى غاية الوصول إلى مفهوم النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، ومن ثمّ مهّد هذا الفصل لبقية الفصول التي تلته.

– **الفصل الأول:** عَرَضَ للإطار الابستيمولوجي للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، من خلال عدّة مسائل رُتّبت وفق أسلوب الهرم المقلوب، حيث ننطلق من قضيّة انعطاف اللّسانيّات الحديثة والمعاصرة نحو الاتّجاه الوظيفي وتخلّيها عن تيّاراتها القديمة، مما أفرز بروز مجموعة من النّظريّات الوظيفيّة التي تُوّجت بتأسيس النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة موضوع البحث، إلى أن نقف على قضيّة انتقال هذه النّظريّة إلى اللّسانيّات العربيّة، ومشروع (المتوكل) فيها وانفتاحها على الدراسات النّصيّة، وفي خِضمّ هذا التدرّج نعرّج على الفرق بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة، وكيفية المفاضلة بين النّظريّات الوظيفيّة.

– **الفصل الثاني:** بَيَّنَ الفرشَ الوصفيَّ للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة؛ وذلك بوصف أربع ركائز كبرى تقف عليها وهي: المنطلق والهدف وموضوع الدّرس والنّمذجة، حيث يشمل المنطلق عشرة مبادئ منهجيّة، ويتمثل الهدف في تحقيق الكفايات اللّغوية والإجرائية، ويُعنى موضوع الدّرس بالمادّة المتّخذة للوصف في النّظريّة، ويقصد بالنّمذجة قدرتها على صياغة نماذج لنفسها، حيث نتطرق لأبرز نماذجها الواصفة مع المقارنة بينها.

– **الفصل الثّالث:** قارب الحديث القدسي الموسوم: (رؤية المؤمنين ربّهم ﷻ في الآخرة) في ضوء نموذج نحو الطّبقات القالبي للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة؛ لاختبار مدى استجابة القدرة الإجرائيّة لهذا النّموذج، فبعد إيراد الخطاب المنتقى ومعناه العام، نلج إلى كيفيّة اشتغال المكوّنات في نحو الطّبقات القالبي، ثم بنية مكوّنه المركزي في الخطاب انطلاقاً من البنية التحتيّة المشكَّلة من المستوى الإبلاغي بطبقاته الثّلاث (المركز الإشاري، نمط الخطاب، أسلوب الخطاب) والمستوى العلاقي بطبقاته الأربع (الاسترعاء الإنجاز، الوجه، الوظائف التّداوليّة)، والمستوى التّمثيلي بطبقاته الأربع أيضاً (التّأطيريّة، التّسويريّة الوصفيّة، الوظائف الدّلالية)، وداخل كل مستوى نبيّن انعكاس سماته ومخصّصاته في البنية السّطحيّة المكوّنة من المستوى الصّرفي– التّركيبي والمستوى الفونولوجي.

– **الفصل الرّابع:** وضع الحديث القدسي المعنون بـ: (فتنة الدّجّال) تحت مجهر نموذج نحو الخطاب الوظيفي للنّظريّة لتمحيص مدى انطباقية خطاطته النّظريّة على الخطابات الدّينيّة؛ وذلك

بمشارفة المستويات التّحتيّة للحديث وانعكاسها سطحيا في البنية المكوّنيّة، فبعد التعرّف على المدوّنة المختارة للفحص ومعناها العام، نكتشف طريقة تشغيل نحو الخطاب الوظيفي عليها بالتّركيز دائماً على المكوّن النّحوي، انطلاقاً من بنيته التّحتيّة التي تأوي مستويين فقط: المستوى التّداولي بطبقاته الأربع (المحادثة النّقلة، الفعل الخطابي، الفحوى الخطابي)، والمستوى الدلالي بطبقتيه (القضيّة، الواقعة).

– **الفصل الخامس:** عالج الحديث القدسي المسمى: (قصة موسى مع الخضر عليه السلام) بمشرط نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع للنظرية، ولاستجلاء كفايته الوصفيّة والمراسيّة للنموذج وإثبات مدى صلاحيّته على المتن، نتعرّف أوّلا على الخطاب المُعيّن للدّراسة ومعناه العام ثم نمرّ إلى عمل الجهاز الواصف لمستعمل اللّغة الطبيعيّة في نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع، بالتّركيز على المكوّنات المساعدة (السّياقي، المفهومي، الإنطاقي)، وأرباض النّص واستراتيجيّة الوظيفة التّواصليّة (أنساق وأنماط التّواصل والتّخاطب)، والتّنميط الوظيفي البنوي الموسّع للخطاب وفق المعايير القديمة (المجال، الوجه، القصد، الآليّة)، ووفق المعايير الجديدة (الوسائط، الكيفيّة).

– **الخاتمة:** أوردنا فيها استنتاجات وتقويمات واقتراحات.

الدّراسات السّابقة في هذا الموضوع: نقسّم هذه الدّراسات إلى ما يتعلّق بمتن الأحاديث القدسيّة وما يتعلّق بالنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة.

1– الدّراسات السّابقة في متن الأحاديث القدسيّة: وُجدت دراسات سابقة عالجت الأحاديث القدسيّة وفق نظريّات لسانية غير وظيفيّة، ومناهج بحثية متباينة، مثل: لسانيّات النّص، التّداوليّة والبلاغة، وهي بعيدة تماماً عن مجال بحثنا في الجانبين المعرفي والمنهجي، ولم يصل إلى علمنا وجود أيّة دراسة تطبق المنهج الوظيفي، وتحديداً النّظريّة الوظيفيّة الحديثة لمنظّريها (سيمون ديك) و(هنخفلد وماكنزي) و(أحمد المتوكل) على مدوّنة الأحاديث القدسيّة، خصوصاً التي اعتنى بجمعها الشيخ (مصطفى العدوي) في كتابه (الصحيح المسند للأحاديث القدسية) موضوع الفحص في الأطروحة.

2– الدّراسات السّابقة في النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة: تمثّلت في مجموعة من الدّراسات الأكاديميّة الوظيفيّة في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، أبرزها:

2–1– يحي بعيطيش، 2006/2005، نحو نظريّة وظيفيّة للنّحو العربي، أطروحة دكتوراه جامعة منتوري بقسنطينة. وهي عمل موسّع يربو عن الستّ مائة صفحة، يعدّ مرجعاً أساسياً في

النظرية يُفيد الباحثين عند العودة إليه، وقد أسهم فيه الباحث بالتّنظير والتّعديل في النّظريّة؛ كما سجّل حضوره في الكثير من المؤتمرات العلميّة لدى العشيرة الوظيفيّة المغربيّة.

2-2- الزّايدي بودرامة، 2014/2013، النّحو الوظيفي والدّرس اللّغوي العربي دراسة في نحو الجملة، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر بباتنة. وهي عمل دقيق هدف الباحث فيه إلى المقارنة بين رؤية النّحو الوظيفي ومنظور الدّرس اللّغوي العربي تجاه نحو الجملة، وبيّن مدى احتفاء التّراث اللّغوي العربي بالوظيفيّة واستجلائه المعنى السّياقي والمقامي والجانب التّداولي في الجملة فقط دون النّص.

2-3- لميش عبد الصّمد، 2015/2014، بنية الخطاب في الحوار المسرحي في ضوء المنهج الوظيفي مسرح توفيق الحكيم نموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري بقسنطينة. وقد هدف الباحث فيها إلى تمحيص الكفاية الإجرائيّة لنموذج نحو الخطاب الوظيفي للنظريّة في مقاربة مسرحية السّلطان الحائر لتوفيق الحكيم، وقد أبدعَ الباحث فيها إذْ جسّد انعكاس السمات التحتيّة للحوار المسرحي في البنية السطحيّة، وخصوصاً في المستوى الفونولوجي، باعتماد تقنية المحلّل الصّوتي (Audacity) للوقوف على الأداء الصّوتي للممثّلين على الرّكح، انطلاقاً من تسجيلٍ للعرض المسرحي المنجز فعليّاً وليس من نص مكتوب.

2-4- نعيمة الزّهري، 2014/أ، تحليل الخطاب في نظريّة النّحو الوظيفي، الرباط، دار الأمان. وهو عمل غير أكاديمي في شكل كتاب منشور، خاضت فيه الكاتبة المغربية التجربة الوظيفيّة بصورة جيّدة، حيث طبّقت نموذج نحو الطّبقات القالبي على أربعة خطابات متباينة (خطاب الوصف الأدبي، خطاب السّيرة الذّاتية، الخطاب الإشهاري، خطاب السّرد القصصي القرآني)، ورغم اقتضاب التّحليل الموزّع عبر مختلف أنواع هذه الخطابات؛ إلا أنّه فتح الباب واسعاً أمامنا للاستفادة من هذه التّجربة؛ بالتّوسيع والتّفصيل أكثر في عناصر التّحليل وامتطاء أنماطٍ أخرى من الخطابات، وهو العمل الذي أعاننا وشجّعنا على اقتحام باب الخطاب النّبوي وفق النّموذج القالبي.

ميزة هذا العمل: يتميّز هذا العمل عن بقية الدراسات المشابهة بثلاثة عناصر، بحكم أن جميع الدّراسات السّابقة التي تيسّر لنا الاطّلاع عليها تأخذ الوضعيات الثلاث الآتية:

1- قاربت الأحاديث القدسية بنظريات لسانية غير وظيفية، فتكون ميزة هذا البحث الأولى هي إخضاع نماذج من مدوّنة الأحاديث القدسيّة الشّريفة للمقاربة الوظيفيّة التّداوليّة الحديثة.

2- اشتغلت وظيفياً؛ لكن اتجهت إلى مدونات أخرى مقتصرة على حدود الجملة، أما في الحالة التي امتدت فيها إلى النص كميدان للإجراء فانحصرت في نموذج واحد من بين نماذج النّظريّة، وبذلك فإن ما تتميز به هذه الدّراسة عنها أيضاً هو الولوج بالنّظرية مجال الدّراسات الخطابيّة بالجمع بين آخر ما أحدثته النّظريّة من نماذج، وهي: نموذج نحو الطّبقات القالبي، نموذج نحو الخطاب الوظيفي، نحو الخطاب الوظيفي الموسّع.

3- ما أُنجز تطبيقياً بخصوص نموذج نحو الخطاب الوظيفي يتّسم بالقلّة، كما لا نعلم أيّة دراسة إجرائيّة أنجزت قبل بحثنا هذا في نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع، فيكون الفصل الأخير من هذا البحث لينهض بهذه المهمّة وليحمل على عاتقه مسؤولية هذه التّجربة المراسيّة، أي فضل السّبق لهذا البحث -بحسب علمنا إلى غاية اليوم- إلى وضع آخر نموذج وهو نحو الخطاب الوظيفي الموسّع في محكّ التّجربة المراسية على خطاب فعلي وطبيعي.

أهم الرّوافد العلميّة: شكلّت كتابات (المتوكل) أبرز رافد علمي لهذا البحث، تليها مؤلفات المنظّرين المؤصِّلين للنّظريّة مثل: (سيمون ديك) و(هنخنفلد وماكنزي)، ودراسات بعض الباحثين الوظيفيّين من أمثال: (نعيمة الزهري)، (عزالدين البوشيخي)، (يحي بعيطيش)، بالإضافة إلى كتب شروح الأحاديث القدسية، وهي كلها مُثبتة في قائمة المصادر والمراجع فلا داعي لتكرار ذكرها.

الصّعوبات: اعترضت هذا العمل حقيقةً مُعيقاتٌ جمّة؛ أبرزها:

1- وجدنا جُهدنا مُجبراً على الرّجوع دائماً إلى جهة واحدة من المصادر والمراجع؛ هي كتابات (أحمد المتوكل) التي هيمنت على الأبحاث الوظيفيّة العربيّة لأسباب عدّة، أبرزها أنه هو المُنظّر العربي الوحيد في هذا المجال خصوصاً بابتكاره نموذج نحو الطّبقات القالبي ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع؛ وكذلك لقلّة مريدي هذه النّظريّة في العالم العربي؛ حيث تنحصر الدّراسات المتخصّصة فيها في المغرب الأقصى، وبدرجة أقلّ في دول المغرب العربي، وتكاد تنعدم في المشرق العربي الذي لم يتجاوب معها بشكل مريح؛ إذْ إنّ أعمال المشارقة لا تعدو أن تكون إشارات عامة مبثوثة هنا وهناك في دراسات تتعلق باللّسانيّات العربيّة الحديثة عموماً.

2- اضطراب عرض القضايا الوظيفيّة عند (المتوكل)، فهي غير مجتمعة ومنسّقة في أعمال قليلة، بل متفرّقة بين مؤلّفاته التي تربو عن الأربعين مؤلّفاً، وغالباً ما يتفاجأ الباحث بأنّ هذا التشتّت يرافقه التّكرير في ذكر ذات القضيّة أو توسيعها أو التّعديل فيها أو إلغائها أحياناً. كما نلمس ندرة كبيرة لإنجازاته التّطبيقية الشّخصية على المستوى الخطابي التي تدعّم أعماله النّظريّة.

3- انعدام دراسات مترجمة لأعمال روّاد النّظريّة غير العرب مثل (سيمون ديك) و(هنخفلد) و(ماكنزي)، بل يُستأنس فقط بما قدّمه (المتوكل) عنها من نقل أو شرح أو تعليق؛

4- التضخم المصطلحي والتباسه في هذه النظرية، بالإضافة طبيعة القضايا الوظيفيّة التي تمتاز بالجفاء والتّعقيد والميل إلى الترميز والاختصارات؛ نتيجة تأثّر النظريّات الوظيفيّة باللّسانيّات الوصفيّة والرّياضيّة وعلوم الفلسفة والمنطق، وقد حاولنا قدر استطاعتنا تقريب مفاهيمها وتبسيطها.

5- كثرة الحرص وتوخّي الحذر في كل خطوة من خطوات معالجة خطاب الحديث القدسي باعتباره أحد مصادر الشّريعة الإسلاميّة الغرّاء، ومن أجل ذلك لم نكتف بالنّص محلّ الفحص الموجود في مدوّنة الأحاديث القدسيّة للشيخ (مصطفى العدوي) باعتبارها إطاراً عاماً وضعناه للدّراسة التّطبيقيّة، بل تطلّب الأمر العودة في كل مرّة إلى الكثير من المدوّنات التي حملت الحديث نفسه أو حديثاً يقاربه، للتأكّد من مصادر وتخريجات كلّ حديث ومعرفة سياقات إنتاجه، والتصرّفات المدمجة فيه من طرف النّاقلين، والرّجوع كذلك إلى كتب السّيرة وشروحات الأحاديث النّبويّة وتفاسير القرآن الكريم.

وأمام تلك الحواجز فقد بذلنا قُصارى جهدنا وطاقاتنا لإعداد البحث؛ وكما يُقال "لا يُعطيكَ العلمُ بعضه حتى تُعطيه كُلّك"، وإن كُنّا لا ندّعي أنّنا وَفّينا البحث حقّه أو قلنا فيه ما ينبغي قوله إلاّ أنّنا نأمل أن تحمل هذه الدّراسة المتواضعة قيمةً علميةً مضافةً لأعمال التّحليل الوظيفي للخطاب النّبوي، في الوقت الذي تتفرّد فيه الدّراسات الوظيفيّة عن تلك المندرجة ضمن الإنتاجات اللّسانية الأخرى من حيث الرّؤية والمنهج، ويقلّ فيه النّزوع المِراسي لدى البحث الوظيفي الذي يطال مستوى النّصوص على أنماطها المختلفة. فإن كان لهذا العمل من مزيّة؛ فحسْبُه أن ينزل النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الحديثة منزلتها، ويقدّم الخطاب النّبوي القدسي في رؤية معرفيّة جديدة فيأنس بها من يطّلع عليها ومن يشتغل بهذا النّوع من المواضيع دراسةً وبحثاً.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أحمد الله تعالى على أن وفّقني لتقديم هذا العمل الذي حاولت من خلاله الإسهام ولو بالقليل في خدمة البحث العلمي في مجالي اللّغة العربيّة والسنّة المطهّرة، وهو -كغيره من البحوث- لا يسلم من الحاجة إلى التّنقيح المستمر، ولا يخلو من الهنات التي أغفلتها مداركي أو اقتحمها بصري.

الفصل التّمهيدي
تحديدات مفاهيميّة أوّلية

مدخل: نُريد في هذا الفصل ضبط مفاهيم الكلمات المفاتيح لعنوان هذا البحث؛ وهي كالآتي: الأحاديث القدسيّة، النّظريّة، الوظيفيّة، التّداوليّة. وهو عملٌ أوّلي يسبق بالضّرورة باقي الفصول تكمن بواعثه في أهميّة وضع القارئ في الإطار المفاهيمي للمتغيّرات الأساسيّة للبحث، عن طريق التّحديد المتّدرج المتسلسل لها.

وننطلق من بيان مفهوم الأحاديث القدسيّة، وصيغ روايتها، ومسألة الوضع في الأحاديث القدسيّة، والفرق بينها وبين القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، كما نقدّم وصفاً عامّاً لمدوّنة الشّيخ (العدوي) التي اشتغلنا عليها.

ثمّ نمرّ إلى النّظريّة اللسانيّة المُطبّقة عليها هذه الدّراسة، حيث نُعرّج على ما يُمَكِّننا من ضبط الإطار المفاهيمي المتعلّق بتسميّتها: (وظيفيّة تداوليّة)؛ وذلك من خلال مجموعة من المباحث الأخرى تناولت مفهوم النّظريّة، ومفهوم الوظيفيّة، والفرق بين النّظريّة الوظيفيّة والنّظريّة الصّوريّة، ثمّ مفهوم التّداوليّة، وعلاقة النّظريّة الوظيفيّة بالنّظريّة التّداوليّة، لنصل إلى مفهوم النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة.

1- الأحاديث القدسيّة:

1-1- مفهوم الحديث القدسيّ: إنّ الحديث القدسيّ هو كل ما رواه النّبيّ ﷺ عن ربّه تبارك وتعالى على غير النّسق القرآني ونظمه وإعجازه، ولكنّه أشبه في نظمه وأسلوبه بسائر الحديث النّبوي (الشّعراوي، 2002، ص5)، ويُنسب إلى النّبي ﷺ تبليغاً، والرّاوي يرويه عن رسول الله ﷺ مسنَداً إلى الله ﷻ، وهو كلام ينقله النّبيّ عن الله تعالى راوٍ له ولكن بلفظ من عنده هو. (صالح، 1968، ص45-46)، فهو الحديث الذي يرويه النّبيّ ﷺ بلفظ من عنده ويسنده ويضيفه إلى الله ﷻ، فالمعنى من عند الله واللفظ من صياغة النّبيّ ﷺ، ويتجلّى ذلك في ما ينقل الرّواة في آخر سند الحديث، مثل: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى...».

وسمّي هذا النّوع من الأحاديث بـ(القدسيّة) نسبة إلى اسم من أسماء الله تبارك وتعالى وهو (القدّوس) ومعناه – على ما ذكر كثير من المفسّرين- الطّاهر المنزّه عن العيوب والنقّائص. (العدوي، 1989، ص4)، ونسبة الحديث إلى القدس هو الطّهارة والتّنزيه، وإلى الإله أو الربّ لأنّه صادر عن الله ﷻ من حيث إنّه المتكلّم به أولاً والمنشئ له. (عرفات، 2001، ص3)، ومن ثمّ

يكمن سرّ التّسمية في التّكريم لهذه الأحاديث من حيث إضافتها إلى الله تعالى، وأمّا كونه حديثاً فلأنّ الرّسولﷺ هو الحاكي له عن الله تعالى.

ويُعرّف الحديث القدسيّ بصيغة من الصّيغ التي يُروى ويصدر بها، وأهمّها:

– قول الرّاوي: "قال رسول الله ﷺ في ما يروي عن ربّه"؛

– قول الرّاوي: "قال الله تعالى في ما رواه عنه رسول الله ﷺ"؛

– قول الرّاوي: "سمعت النّبيّ ﷺ يقول: «إن الله قال»، أو قال ﷺ: «يقول الله تعالى»؛

– قول الصّحابي عن النّبيّ ﷺ يرفعه، وهو في حكم قوله عن الله ﷻ. (الألباني، 2010 ص ص6–7)، والصّيغة الأولى هي عبارة السّلف، ومن ثمّ آثرها الإمام النّووي رحمه الله، ومعناها يتطابق مع معنى الصّيغة الثّانية، أمّا الصّيغة الثّالثة فقد تردّ بأشكال أخرى مثل: قول النّبيّ ﷺ: «قال ربّكم» أو «يقول ربّكم» أو «أوحى الله..أنّ..»، أو ما أشبه ذلك من الصّيغ التي تثبت القول للرّب تبارك وتعالى عن طريق إسناد فعل القول– أو ما يؤدّي معناه– إسناداً صريحا إليه.

1–2– الحديث القدسيّ بين القول والتّنزيل: اختلف العلماء في مسألة طبيعة الحديث القدسيّ: هل هو كلام الله المنزّل؟ أو هو قول الرّسول ﷺ؟ وانقسموا على قولين:

– القول الأوّل: ذهبت جماعة من العلماء إلى أنّ الحديث القدسيّ من كلام الله ﷻ لفظاً ومعنىً، وليس للنّبيّ ﷺ دخل فيه إلاّ إضافته إلى الله ﷻ وروايته عنه. (الألباني، 2010، ص ص5–6)، واستدلّوا على ذلك بالآتي:

الدّليل الأوّل: الحديث القدسيّ مُضافٌ إلى الله تعالى، فيقال فيه: حديث قدسيّ وحديث إلهي وحديث ربّاني، ويقال فيه: قال الله تعالى وقال رسول الله ﷺ في ما يرويه عن ربّه، ومن المعلوم أنّ الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لا سيما أنّ النّبيّ ﷺ أقوى النّاس أمانةً وأوثقهم روايةً.

الدّليل الثّاني: اشتملت الأحاديث القدسيّة على ضمائر المتكلّم الخاصّة بالله تعالى، فتكون من كلام الله تعالى وإن لم تكن ألفاظها للإعجاز ولا لتعبّد الله بتلاوتها.

– القول الثّاني: ذهبت طائفة من العلماء إلى اعتبار أنّ لفظ الحديث القدسيّ من قول رسول الله ﷺ ومعناه من وحي الله تعالى. (الراجحي، 2008، ص18)، واعتمد هذا القول الأخير على الأدّلة الآتية:

الدّليل الأوّل: لو كان الحديث القدسيّ من عند الله لفظاً ومعنى؛ لكان أعلى سنداً من القرآن لأنّ النّبيّ ﷺ يرويه عن ربّه تعالى بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السّياق، أمّا القرآن فنزل على النّبيّ ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ*بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء193، 194، 195، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ...﴾ النّحل102.

الدّليل الثّاني: هو أنّه لو كان لفظ الحديث القدسيّ من عند الله؛ لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأنّ كليهما على هذا التّقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتّفقا في الأصل.

الدّليل الثّالث: الأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتّسليم أنّ هذا هو الأصل لكن قد يضاف إلى قائله معنى لا لفظاً؛ كما في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنّها أضيفت معنى لا لفظاً، كما في قصص الأنبياء وغيرها، وكلام الهدهد والنّملة؛ فإنّه بغير هذا اللفظ قطعاً.

بناءً على هذه الأدّلة؛ نُرجّح القول الثّاني على الأوّل على أنّه الأقرب إلى الصّواب، حيث يُنسب الحديث القدسيّ إلى النّبي ﷺ قولاً وتبليغاً وروايةً عن ربّه ﷻ، فيكون لفظه قولٌ من عند النّبيّ ﷺ، ومعناه وحيٌ منزّلٌ من عند الله تعالى، وبذلك يجمع الحديث القدسيّ بين القول والتّنزيل (قول النّبيّ الكريم وتنزيل الرّحمن الرّحيم)؛ وسنوظّف هذه النتيجة لاحقاً تحت معيار مصدر اللفظ والمعنى في الجدول الذي يضبط تباين الحديث القدسيّ عن القرآن الكريم.

وقد وقع الخلاف بين الأشاعرة وأهل السّنة في أصل كلام الله تعالى؛ فأهل السّنة يقولون: هو كلام حقيقي مسموع يتكلّم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة يقولون: هو المعنى القائم بنفسه وليس بحرف وصوت، ولكن الله تعالى يخلق صوتاً يعبّر به عن المعنى القائم بنفسه، ولا شكّ في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة الذين يقولون القرآن مخلوق وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق وهو عبارة عن كلام الله، فقد اتّفق الجميع على أنّ ما بيّن دفتي المصحف

مخلوق، ولعلّ الأسلَم الاقتصار على القول بأن الحديث القدسيّ ما رواه النّبيّ ﷺ عن ربّه وكفى. وهذا الكلام أيضاً سيجد مجالاً لتوظيفه في الفصل الأخير من هذا البحث، وبالضّبط في مبحث الخطاب الموسّط المنقول من طرف الملَك.

1-3- جمع الأحاديث القدسيّة الصحيحة: إنّ الحديث القدسيّ مثبوتٌ في مدوّنات السنّة ومصنّفاتها المختلفة من مسانيد وسننٍ ومعاجم وجوامع وغيرها، لا يتميّز دون سائر أحاديثها في باب مستقّل أو موضع محدّد. (السّبابطي، جامع الأحاديث القدسيّة، مج1، ج201، ص ص18-19)، وقد قام بعض العلماء بجمع قسم منها، كلٌّ بحسب ما تيسّر له في كتب مستقلّة يشتمل عنوانها على لفظ (الأحاديث القدسيّة)، أو منضوية تحت عناوين أخرى متعلقة بالسُنّة عموماً.

واختلف العلماء في عدد الأحاديث القدسيّة، فقد قال الإمام أحمد بن حجر الهيثمي في شرحه للأربعين النّوويّة أنّ «عدد الأحاديث القدسيّة يتجاوز المائة، وجمع المناوي مائتين وسبعين حديثاً في كتابه المسمّى الإتحافات السّنيّة بالأحاديث القدسيّة..». (الراجحي، 2008، ص20)، ويُردّ الاختلاف في عدد الأحاديث القدسيّة إلى درجة وطبيعة المجهود الذي بذله العالِم في تصنيفها وإثبات صحتها أيضاً.

وفي مدوّنة الفحص في هذا البحث: «الصّحيح المسند من الأحاديث القدسيّة» التزم فيها صاحبها الشّيخ مصطفى العدوي المصري بجمع مائة وخمسة وثمانين (185) حديثاً صحيحاً، وقد اعتمدت خطّته في الكتاب على تخريج كل حديث وذكر أسانيده ودرجته، وشرح الغريب من ألفاظه والأجزاء المنسوبة إلى الرّب جلّ وعلا، والتّطرق إلى بعض الفوائد الفقهيّة، واعتقاد أهل السّنّة والجماعة فيه مع تعزيز ذلك بأدلّة من الكتاب والسّنّة.

إن الحديث القدسيّ منقولٌ بطريقة الآحاد كعامة الأحاديث النبويّة؛ ولذا فإنّه يطرأ عليه ما يطرأ عليها من صحّة وحسنٍ وضعف ووضع، بل إنّه لإقبال العامّة عليه كان مجالاً لاختراع الكذّابين واختلاق الوضّاعين، ممّا يستلزم ضرورة النّظر في أسانيده وفحص متونه، ليُعرَف صحيحه من سقيمه. (السّبابطي، جامع الأحاديث القدسيّة، مج1، ج201، ص19)؛ أيْ مسّت الأحاديث القدسيّة -شأنها شأن الأحاديث النّبويّة عموماً- ظاهرة وضع وإدراج بعض النّصوص مما لم يتلفّظ به رسولنا الكريم ﷺ، ويُنسب هذا الفعل إلى اليهود وأعداء الإسلام ممن أرادوا بثّ الرّيب في الدّين الحقّ، والتّشكيك في السّنّة المطهّرة ببعض الأحاديث الموضوعة.

ونجد من الأحاديث القدسيّة الموضوعة حديث «ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»، وحديث «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني».

(يليق، 1986، ص ص95-96)، فكل ما هو صحيح مقبول وما هو موضوع مردود، وهناك درجات أخرى بين الصّحيح والموضوع مثل: الحديث الحسن والحديث الضّعيف، وذلك لأسباب تتعلّق بضعف الرّواية أو الجرح في الرّاوي وغيرها. ولبيان طبيعة الحديث القدسيّ أكثر نرصد ما يختلف به عن القرآن الكريم، وما يُباينه عن بقيّة الأحاديث النّبويّة.

1-4- اختلاف الحديث القدسيّ عن القرآن الكريم: يوجد اختلاف كبير بين الحديث القدسيّ والقرآن الكريم ذكره العلماء. (يُنظر مثلاً: (العدوي 1999، ص4-5)، و(الرّاجحي، 2008، ص19)، ويمكننا تنسيق هذا الاختلاف حسب معايير مذكورة في الجدول الآتي:

الجدول رقم 01: اختلاف الحديث القدسيّ عن القرآن الكريم

المعيار	الحديث القدسي	القرآن الكريم
كيفية النّزول	قد يكون نزل به وحياً، أو بالإلهام، أو بغير ذلك.	نزل به جبريل عليه السلام من الله تعالى على نبيّنا محمدﷺ وحياً والوحي أنواع.
التّقسيم	غير مُقسّم، ولكن صنّفه العلماء بحسب موضوعاته.	مُقسّم إلى سور وآيات وأحزاب وأجزاء.
الإعجاز	ليس مناطَ إعجاز بلفظه ومعناه، وليس محلَّ تحدٍّ.	مُعجزٌ بلفظه ومعناه إعجازاً باقياً على مر الدّهور، وقد تحدّى الله العالمين أن يأتوا بمثله لفظاً ومعنى.
قابليّة رواية المعنى	يجوز نقله وروايته بالمعنى.	لا تجوز روايته أو تلاوته بالمعنى بالإجماع.
مصدر اللّفظ والمعنى	معناه من عند الله ولفظه من عند النبي ﷺ.	هو كلام الله لفظاً ومعنى.
التّعبد به	لا تشرع قراءته في الصلاة وليس فيه فضل التعبّد بالقراءة وإن كان حافظه يُثاب.	تُشرع قراءته في الصّلاة ومنه ما لا تصحّ الصّلاة بدون قراءته، ويُتعبّد بتلاوته فيثاب بقراءة كل حرف منه عشر حسنات.

الحفظ الإلهي	غير محفوظ كالقرآن، فقد يرد الوهم إلى أحد رواته فيرويه على الخطأ، فيقع فيه التّغيير والزّيادة والنّقص.	محفوظ من عند الله ﷻ من التّغيير والتّبديل ولا يتطرّق إليه الخطأ؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر09.
شرط الطّهارة	يجوز مسّه وتلاوته للمحدث والجنب.	لا يمسّه إلا المطهّرون، ولا يقرأه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح.
جواز البيع	لا يمنع بيعه.	يمنع بيعه عند الإمام أحمد ويكره عند الشافعية.
درجة الثبوت	ظنّيّة الثّبوت؛ لأن أغلبها أخبار آحاد، ولو أنكر أحد شيئاً منها مدعّياً أنه لم يثبت أو استنكره لحال روايته لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ.	جميعه قطعي الثّبوت؛ لأنّه منقول بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر أحد من القرآن حرفاً أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً.

يفيدنا هذا الجدول في الدّراسة التّطبيقيّة من هذا البحث، حيث سنتوسّع أكثر في المعايير الآتية: (كيفيّة النّزول، قابليّة رواية المعنى، مصدر اللفظ والمعنى، فضل الحفظ الإلهي، درجة الثّبوت)، من خلال المقاربة الوظيفيّة لخطاب الحديث القدسيّ، وخصوصاً في الفصل الأخير من العمل.

وليس للحديث القدسيّ قوة إعجازٍ خاصةٍ كالقرآن الكريم، ولكنّه لجلالة نسبته، ولطف موضوعه كان له موقعٌ خاصٌّ في السّمع واستقبالٌ متميّزٌ في النّفس، وأثرٌ ظاهر في الشّعور والوجدان. (الشّعراوي، 2002، ص5)، وأجمع العلماء على أنّ الحديث القدسيّ ليس من القرآن وإن كان كلّ واحد منهما قد بلّغه النّبيّ ﷺ أمّته عن الله ﷻ، فالقرآن محفوظ ومعجز بلفظه ومعناه أمّا الحديث القدسيّ فليس فيه من ذلك الفضل والإعجاز.

1-5- تباين الحديث القدسي عن الحديث النّبوي: تناول العلماء والأئمة ما يُباين به الحديث القدسي عن الخطاب النّبوي عموماً (يُنظر مثلاً: (القطّان، 2000، ص ص16-21))، وبدورنا نقوم بتنظيم هذه التباينات وفق الجدول الآتي:

الجدول رقم 02: تباين الحديث القدسي عن الحديث النّبوي

المعيار	الأحاديث القدسيّة	الأحاديث النبويّة
النسبة	ينسبها النبي ﷺ إلى الله ﷻ.	لا ينسبها النبي ﷺ إلى الله ﷻ.
الكم	قليلة.	كثيرة.
الطبيعة	قوليّة.	قوليّة وفعليّة وتقريريّة.
الموضوع	يتعلّق أغلبها بموضوعات الخوف والرّجاء، وكلام الله ﷻ مع مخلوقاته، وقليل منها يتعرض للأحكام التكليفية.	تتطرّق إلى جميع هذه الموضوعات.
مصدر اللفظ والمعنى	معانيها من عند الله وألفاظها من عند النبي ﷺ.	معانيها وألفاظها من عند النبي ﷺ.

ولا يتعرّض الحديث القدسيّ لتفصيل الأحكام الفقهيّة، ولا لبيان الشّرائع التعبّديّة كالحديث النّبوي، ولكنّه يركّز على بناء النّفس الإنسانيّة وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشّرعيّة، والمقاصد الربّانيّة. فالحديث القدسيّ يحضّ النّفس على الطّاعات، ويحذّر من المعاصي والمنكرات، ويدعو إلى الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق، ويوجّه النّفس إلى حبّ الله وطلب رضاه، ويرغِّب في الجنّة ويخوف من النّار. وهو في جملة القول يدور في فلك الوعظ والتّوجيه والتّربية. (الشّعراوي، 2002 ص6)، وتتوجّب الإشارة أيضاً إلى أنّ الحديث القدسيّ يقتصر على الحديث المرفوع إلى النّبيّ دون الموقوف أو المقطوع، لأنّ الحديث القدسيّ ثابت رفعه إلى الرّسولﷺ فهو الموّكل له رواية المعنى عن ربّه وبأسلوبه اللغوي الخاص، أمّا الحديث الموقوف عن صحابته أو المقطوع عن تابعيه ففيه الأسلوب اللغوي الخاص بهم ولا يمكنهم الرّواية عن الله ﷻ، ويعدُّ الحديث القدسيّ في جملة السنّة النبويّة لكون راويه هو النّبيّ ﷺ، ويتضمّن الحديث القدسيّ شطراً واحداً من أقسام الحديث الشّريف والسّنة وهو شطر القول دون الشّطرين الآخرين الفعل والتّقرير.

2- النظريّة: يُحدّد مفهوم النظريّة وشروطها على النّحو الآتي:

2-1- مفهوم النظرية: «النّظريّة إطار فكري يفسّر حقائق علميّة ويضعها في نسق علمي مترابط، أو مجموعة من القضايا التي ترتبط بطريقة عمليّة منظمة، عن طريق مجموعة الفرضيات المتعالقة ضمن رؤية منتظمة. قد تكون النّظريّة كاملة أو جزئيّة أو متوسطة المدى؛ لأنّها لا تنطبق إلاّ على مواضيع خاصّة داخل فرع خاص. وتلعب النّظريّة دوراً هاماً في صياغة القانون الذي هو بمثابة تبيان للعلاقة الثّابتة بين الظّواهر المعنيّة ولا يجعلها قابلة للتّغير». (بلعيد، 2005 ص18)، ويمكننا القول أيضاً أنّها مجموعة من المفاهيم والمصطلحات والقواعد التي تقوم بينها علاقات تُقدِّم وجهة نظر منتظمة بغرض الوصف والتفسير والتّنبؤ لقضيّة معيّنة، ومن المعلوم أن كل نّظريّة ترتكز على مجموعة من الأسس والشروط نوضّحها في الآتي.

2-2- شروط النّظريّة: يرى الأستاذ (صالح بلعيد) أنّ من شروط النّظريّة: التحكّم في المنهج، الامتداد الزّمني، التطوّر في مفاهيم النّظريّة، صلاحها لكثير من اللّغات، أن يكون لها أتباع أو مريدون. (2004، ص76)، ويضيف في مكان آخر: «إنّ كلّ النّظريّات تتطلّب مجموعة من الشّروط التي تجعلها تحمل مصطلح النّظريّة، فالنّظريّة اللّغوية مثلاً يُشترط فيها أن تكون شاملة وذات منهج ولها مريدون، ويكون لها الامتداد الزّماني والمكاني وتكون قابلة للتطوّر وتمتاز بالفرادة والايجاز». (2005، ص18)، ويمكن أن يُضاف لها شرط الأصالة أيضاً؛ أي تأصّلها في المادّة العلمية الخام التي أخذت منها قواعدها، وليس من مواد هجينة وغريبة عنها، وليس بالضّرورة أن يتعارض هذا الشّرط مع شرط الانطباقيّة على بقيّة اللّغات، إذْ يمكن أن يكون أصيلاً في لغته من حيث المصدر، وممتدّاً في الوقت ذاته في لغات أخرى من حيث الانطباقيّة.

وهذه الشّروط لا تبتعد كثيراً عن شروط الوظيفيّين للنّظرية اللّغوية، وهي تحقيقها للمبادئ المنهجيّة العامّة، وأهمّها: قدرتها على النّمذجة وإحراز مجموعة من الكفايات وهي: الوصفيّة التّفسيريّة، التّطوريّة، النّمطيّة؛ ويُقصد بالنّمذجة تمثّلها في نماذج صوريّة واصفة للظّاهرة اللغويّة وتعني الكفاية النّمطيّة انطباق النّظريّة على مختلف أنماط اللّغات الطبيعيّة، أما الكفاية التطوريّة فهي أن تتمتع النظريّة بقدرتها على وصف وتفسير اللّغات عبر مختلف أنواع تطوّراتها، في حين تدلّ الكفاية الإجرائيّة على قابليّة النّظريّة للتّمحيص التّطبيقي على مختلف أنواع الأنساق التّواصليّة اللغويّة وغير اللغويّة، وسنعرض للمبادئ المنهجيّة لنظريّة النّحو الوظيفي في الفصل الثّاني بالتّفصيل.

3- الوظيفيّة:

3-1- مفهوم الوظيفيّة: يُقصد بالوظيفيّة في مجال اللّسانيات التّيّار الذي «ينظر إلى اللّغة على أنّها ظاهرة اجتماعيّة تربط البنية اللّغويّة بوظيفة الاتّصال». (دك الباب، 1996، ص61) ومن ثمّ يدرس التّيّار الوظيفي الوحدات اللّسانية من خلال دورها الذي تلعبه في التّواصل والتّبليغ والبيان، وتهتم بارتباط بنية اللّغة بتلك الوظيفة ارتباطاً يجعل البنية انعكاساً للوظيفة وتابعة لها حيث إنّ «اللّغات الطّبيعية بنيات تحدّد خصائصها (جزئيا على الأقل) ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسيّة وظيفة التّواصل». (المتوكل، 1985، ص8)، وهو تّيّار عام يمكن تقسيمه مبدئياً إلى اتّجاه وظيفي ذي بعد تداوّلي، واتّجاه وظيفي ذي بعد بنوي، وفي مرحلة لاحقة من تطوّر الوظيفيّة وبالضّبط مع ظهور آخر نظريّة وهي نظريّة النّحو الوظيفي لـ (سيمون ديك) يُطرح تماما الاتّجاه الثّاني (ذو البعد البنوي) من مجال الوظيفيّة، ويُحسب على التّيّار البنوي البحت.

ونالت الدّراسات الوظيفيّة شهرة واسعة في اللّسانيات المعاصرة، واستقطبت اهتمام الكثير من الباحثين بعدما أثبتت موضوعيّتها العلمية وواقعيّتها اللّغوية؛ مما أدى بالتّيّارات الأخرى إلى فقد الكثير من مصداقيّتها وجاذبيّتها، ونظريّة النّحو الوظيفي من أهم النّظريات التي كان لها وقع كبير في ميدان الدّراسات اللّغويّة الحديثة، مما دفع ببعض أصحاب النّظريّات اللّسانيّة السّابقة، مثل النظريّة التّوليديّة التّحويليّة، إلى النّظر مجدّدا في أسس نظريّتهم، أو التّحول عنها إلى التّيّارات الوظيفيّة. (صحرواي، 2003، ص13)، ويعود سبب ذلك إلى اعتنائها بأساسيّات يفرضها الواقع اللّغوي وأهملتها النّظريّات السّابقة، ومنها الحالة النفسيّة والاجتماعيّة للمتخاطبين، وظروف إنجاز الخطاب وملابساته وأغراضه.

وتسعى النّظريّات الوظيفيّة إلى وضع مبادئ عامّة تضبط علاقة اللّغة بالسّياق، وصياغتها لأجهزة واصفة تُقرُّ بأنّ الوظيفة التّواصليّة تحدّد البنية وأن هذه الأخيرة هي انعكاس لها، وتربط البنية الصّرفية التركيبيّة بالبنية الوظيفيّة (الدلاليّة والتداوليّة).

3-2- الفرق بين النّظريّة الوظيفيّة والنّظريّة الصّوريّة: أفرز الفكر اللغوي الحديث في العقود الخمسة الأخيرة نظريّات لغويّة متعدّدة، وتزايدت داخل النّظريّة اللغويّة الواحدة النّماذج والاقتراحات المختلفة، خاصة في النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة والنّظريّات الوظيفيّة، حتّى أصبح المهتّم بالبحث فيها يجد صعوبة في تصنيفها، ويطرح أسئلة من قبيل: ما الفرق بين النّظريّات الوظيفية والنظّريات الصّوريّة؟ هل ثمة تناقض في أن تجمع النّظريّة الواحدة بين الصّوريّة والوظيفيّة؟

وتعني الصّورنة أن يتحقق في النّظريّة وصف صوري رياضي تجريدي شكلي للظّاهرة اللغويّة، سواء بالنّسبة لخصائص بنيتها التّركيبيّة–الصّرفيّة والصّوتيّة، أم بالنّسبة للنّموذج الذي يتضمّن مستويات تمثيليّة للظّاهرة اللغويّة تربط بينها أنساق من القواعد المصوغة صياغة منطقيّة رياضيّة. بناءً عليه قُسِّمت النّظريّات اللسانيّة المعاصرة باعتبار تصوّرها لوظيفة اللغات الطّبيعيّة إلى مجموعتين اثنتين: نظريّات صوريّة تعتبر اللغات أنساقا مجرّدة، يمكن وصفها بمعزل عن وظيفتها التّواصليّة؛ ونظريات وظيفيّة (أو تداوليّة) تعتبر اللغات بنيات تحدّد خصائصها ظروف استعمالها في إطار وظيفتها التّواصليّة. (المتوكّل، 1989، ص17)، يُقصدُ أن المقاربة الصّوريّة تعتبر اللغة بنية مجرّدة تضمّ مجموعة من الجمل تربط بينها علاقات صرفيّة تركيبيّة ودلاليّة فتدرس خصائصها في حدّ ذاتها، دون النّظر إلى القصد الذي تُستخدم من أجله، أمّا المقاربة الوظيفيّة فتقارب تلك الخصائص البنويّة على أساس أنها أدوات تُسخّر لتأدية أغراض تواصليّة داخل المجتمعات البشريّة.

ويمكن أن نمثّل ذلك بالجملتين الآتيتين: (أ– قرأ الطّالبُ روايةً، ب– روايةً قرأ الطّالبُ) حيث تجد المقاربة الصّوريّة أنّ الفرقَ بين هاتين الجملتين فرقٌ بنوي صرف؛ يتعلّق بموقع المكوّن المفعول، ففي الأولى بقي في مكانه الأصلي بعد الفعل، وفي الثّانية تقدّم على الفعل واحتلّ صدر الجملة. أمّا المقاربة الوظيفيّة التي تعتدّ بأداتيّة اللغة؛ فإنّ الفرق البنوي السّابق تُرجعه إلى فرق في القصد، ففي الأولى كان الغرض هو إخبار المخاطب بمعلومة جديدة لا يعلمها، أمّا الثّانية فكان للرّد على جملة من قبيل: (علمتُ أن الطّالب قرأ قصيدة)، ويتّضح أنّ الهدف هو تصحيح إحدى معلومات المخاطب، أو لجواب السّائل: (أقصيدةً قرأ الطّالبُ أم روايةً؟)، فيكون القصد هو اختيار أحد الاقتراحين.

ونعلم يقيناً أنّ كل تفسير وظيفي (تداولي أو دلالي) للجملة لا بدّ أن يمرّ على وصف صوري لخصائصها التّركيبيّة–الصّرفيّة والصّوتيّة، فكل نظريّة وظيفيّة هي بالأساس صوريّة، لكن هل كل نظريّة وظيفيّة هي أيضاً نظريّة تداوليّة؟ هذا التّساؤل يقودنا إلى معرفة المقصود بالتّداوليّة أولاً، ثمّ التّفريق بين النّظريّة الوظيفيّة والنّظريّة التّداوليّة.

4– التّداوليّة:

4–1– مفهوم التّداوليّة: يعود أقدم تعريف للتّداوليّة للسّيميائي (شارل موريس Charles Moris) الذي عدّها سنة 1938 جزءاً من السّيميائية، تدرس العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات. (شاهر، 2001، ص157)، وذلك حين شرح الأبعاد الثّلاثة للسّيميائية: الدّلالي، التّداولي، التّركيبي، فالعلامة ينبغي أن تُركّب في الخطاب وأن تكون لها دلالةٌ ومُداولٌ يُحدثها.

ويقرّ (فرانسواز أرمينغو Françoise Armingaud) أن التّداولية: «درس جديد وغزير لا يملك حدوداً واضحة... تقع التّداولية كأكثر الدّروس حيويّة في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللّسانية» (1986، ص7)، حيث تشغل التّداولية اهتمام المناطقة والسّيميائيين والفلاسفة والسّوسيولوجيين والسّيكولوجيين والبلاغيين وعلماء التواصل واللّسانيين، وبذلك لا يمكن تصنيفها في أي مستوى من مستويات التّحليل، ولا تدرس جانبا محددا في اللّغة، بل تستوعبها جميعا، وليس لها وحدات تحليل أو أنماط تجريديّة. (نحلة، 2002، ص10)؛ لذلك نجد مفاهيمها تتقاذفها مصادر معرفيّة عديدة، وليس اللّسانيّون وحدهم المعنيّين بها، فقد تجاوز اهتمامها الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتّواصل والخطاب لتصبح نظريّة عامّة للنّشاط الإنساني.

وقدّم (هانسون Hansson) سنة 1974 تصوّرا متميّزاً يهدف من خلاله إلى توحيد أجزاء التّداوليّة، وفق درجة تعقّد السّياق من جزء لآخر، حيث ميّز فيها بين ثلاث درجات (بلخير 2013، ص24):

– تّداوليّة الدّرجة الأولى: تشمل مختلف نظريات التلفظ.

– تّداوليّة الدّرجة الثّانية: تدرس الأسلوب الذي يرتبط فيه القول بقضيّة مطروحة، حيث تكون هذه الأخيرة متباينة مع الدّلالة الجانبيّة للملفوظ، فهي تتناول بالدراسة قوانين الخطاب والظواهر الضمنيّة للغة.

– تّداوليّة الدّرجة الثّالثة: تشمل نظريّات أفعال الكلام.

ويُسجّل هنا أن التّداولية لم يُنظر إليها بعدّها نظريّة متكاملة مستقلة، بقدر ماهي مجموع نظريّات عديدة، يجمعها مبدأ عامّ هو: دراسة كيفيّة استعمال الناطقين اللّغة في حالات الخطاب الملموسة، وجعلت كل قضيّة من قضاياها نظريّة بذاتها، نحو: نظريّة الخطاب، نظريّة أفعال الكلام، نظريّة التّفاعل، نظريّة السّياق، نظريّة الذاتيّة اللّغويّة، نظريّة الملفوظيّة، نظريّة الحجاج وغيرها. (بوجادي، 2009، ص85)، فقد نشأت نشأة غير مستقرّة، وذلك بتداخل مجموعة كبيرة من النّظريّات تتّفق في الطّابع الاستعمالي للّغة واندماجها وتماسّها، لكن يبقى مجالها واسعاً وثرياً ويصعب حصر موضوعاتها، وهذا ما جعل منها تداوليّات عديدة بحسب تخصّص مريديها.

إنّ أهمّ ما تقدّمه التّداوليّة هو تخليص النّص الأدبي من هيمنة النّظر في نظامه وتراكيبه بلسانيّات اللّغة، والانتقال به إلى لسانيّات الكلام التي تتجاوز النّظرة الإفرادية إلى النّظرة التّداوليّة التي تعدّ النّص خطابا تواصليا. (بوجادي، 2009، ص234)، حيث تشرح مكوّنات أداء الخطاب وتبحث في علاقة المعنى بشكل بنيته مستعينة بما تمليه عليها البلاغة ونظريّة الاتّصال.

وتهتمّ التّداولية في عمومها بجميع شروط الخطاب، وتعتمد أسلوباً ما في فهمه وإدراكه بدراسة كيفيّة استخدام اللّغة، وبيان الأشكال اللّسانيّة التي لا يتحدّد معناها إلا بالاستعمال. (أرمينغو، 1986، ص8)؛ لذلك تُسمّى عند بعضهم بلسانيّات الاستعمال اللغوي أو علم استعمال اللّغة، ويرتبط بموضوع استعمال الرّموز اللّغوية جوانب عديدة منها: علاقة المتكلّم بالسّامع وجميع ملابساتها، مقاصد المتكلّم، المقام وسياق الحال المتعلّقان بلحظة أداء المتخاطبين خطاباتهم وبوظائف منطوقاتهم وملفوظاتهم المؤدّاة، والأفعال الكلاميّة، والحجاج، وسمات الاتّصال والتّفاعل كما تفتح أبواب التّأويل ودراسة الضّمني وما لم يُقل في الخطاب.

وتكمن أهميّتها من حيث إنّها «تهتمّ بالأسئلة الهامّة، والإشكالات الجوهريّة في النّص الأدبي المعاصر؛ لأنّها تحاول الإحاطة بعديد من الأسئلة، من قبيل: من يتكلّم وإلى من يتكلّم؟ ماذا نقول بالضّبط عندما نتكلّم؟ ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟ كيف نتكلّم بشيء ونريد قول شيء آخر؟». (أرمينغو، 1986، ص5)، وتتّضح أهميّتها من حيث إنّها مشروع واسع لدراسة الخطاب بدءاً من ظروف إنتاجه المقترنة بمقاصد المتكلّم، إلى ما يمكن أن تحدثه من أثر في السّامع.

ويعود الفضل في دراسة اللّغات في جانبها التّداولي لفلاسفة اللّغة العادية الذين عالجوا ظواهر لغويّة من قبيل الإحالة والاقتضاء والأفعال اللغويّة والاستلزام الحواري، وانتقلت هذه المفاهيم عن طريق الاقتراض إلى حقل الدّراسات اللّغويّة. (المتوكل، 1989، ص18)، فقد أبرز الفلاسفة تلك الظواهر المتعلقة بالواقع الاستعمالي للّغة في المقامات المختلفة، ثم اقترضها روّاد اللّسانيّات فتجاوز الدّرسان الوظيفي والتّداولي التّفكير الفلسفي وعملا على صقل أدوات تحليلهما الخاصّة.

وإذا كانت النّظريّة موضوع الدّراسة تجمع في عنوانها بين مصطلح التّداوليّة ومصطلح الوظيفيّة، فيتوجب علينا تحديد العلاقة بين هذين العلمين اللغويّين التّداوليّة والوظيفيّة.

4-2- العلاقة بين النّظريّة الوظيفيّة والنّظريّة التّداوليّة: شهدت الدّراسات اللغوية خلال القرن العشرين تطوّراً ملحوظاً حين استعانت بمعارف كثيرة من حقل العلوم الإنسانيّة الأخرى خصوصا الفلسفة والمنطق والأنثروبولوجيا، فنتج عن ذلك اتّجاهات لسانيّة جديدة منها الاتّجاه التّداولي والاتّجاه الوظيفي، فما هي العلاقة الموجودة بينهما؟

درسَ التّيار الفلسفي في البداية الجوانب الدّلاليّة والجوانب التّداوليّة للّسان الطّبيعي؛ حيث اقترح فلاسفة اللغة العادية تحليلات للظّواهر اللغوية المرتبطة بالإحالة والاقتضاء والأفعال اللغوية والاستلزام الحواري وغيرها. (المتوكّل، 1989، ص18)، وانتقلت هذه المفاهيم عن طريق الاقتراض إلى حقل الدّراسات اللسانيّة؛ إذ وُظّفت في وصف اللغات الطّبيعيّة من طرف مجموعة من النّظريّات اللغوية تنتمي إلى الاتّجاه الوظيفي أو الاتّجاه التّداولي.

وقد تبلورت النّواة الأولى للتّداوليّة –كما ذكرنا– على يد العالم الأمريكي (تشارل موريس) الذي صنّف علم السّيميائيات إلى ثلاثة فروع: علم التّراكيب وعلم الدّلالة وعلم التّداوليّة؛ فأولّها يتّصل بالنّحو، وثانيها يتّصل بالمعنى، وثالثها يتّصل بالوظيفة التي تؤدّيها العلامة، وأصبح الاتّجاه التّداولي يُعنى بقدرة الرّموز اللغوية على نقل رسالة ما من المتكلّم إلى المتلقّي، مع الإحاطة بالعوامل المؤثّرة في استعمال اللغة وإقامة التّواصل كالظّروف السّياقيّة والمقاميّة والحالة العامّة للمتخاطبين. (النّجار، 2013، ص05)، ونشأت اللسانيّات التّداوليّة نتيجة تلك الاقتراحات الفلسفيّة، وبسبب إخفاقات النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة في نموذجها الأوّل الذي تمسّك باستقلاليّة التّركيب، مما أدّى إلى توجيه التّفكير نحو البعدين: الدّلالي والتّداولي.

وبرزت في أواسط السّبعينيات من القرن العشرين ثورة ثالثة في تاريخ ثورات اللسانيّات الحديثة، بعد ثورة الدّاليات (البنويّة) وثورة الدّلاليات (التّوليديّة التّحويليّة)، وهي ثورة التّداوليّات التي ميّزتها اللسانيّات التّبليغيّة (التّواصليّة).

وقد ظهرت اللّسانيّات التّبليغيّة على يد عالم الأجناس الأمريكي (ديل هايمز Dill Hymes) حيث شنّ هجوما عنيفا على التّصوّر التّجريدي الذي انحصر فيه البحث اللّساني، سواء مع رائد اللّسانيّات الحديثة (دي سوسير De Saussure) الذي قصر موضوع تنظيره في اللّغة دون الكلام، أم مع صاحب النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة (نعوم تشومسكي Naom Chomsky) الذي قصر موضوع تنظيره على القدرة اللّغويّة، دون الكلام أو التأدية. (بعيطيش، 2006/2005، ص39)، ويعدّ (هايمز) في قائمة اللّسانيّين التّداوليّين والوظيفيين معاً، حيث استنار بفكرة الكلام عند (سوسير)؛ وجعل البحث اللساني يركّزُ على الكلام، وارتبط موضوع أبحاثه بالشخص المتكلم وأفعاله الكلاميّة المحقّقة، وطرق استعماله لها.

وتكاد تجمع النّظريّات اللسانيّة الحديثة على أنّ موضوع الدّرس اللغوي هو قدرة المتكلّم أو المستمع، إلاّ أنها تختلف من حيث تحديد طبيعة هذه القدرة، حيث دشّن (هايمز) اتّجاها جديدا بيّن فيه أن القدرة اللغويّة هي قدرة واحدة تجمع بين النّحو والتّداول يطلق عليها القدرة التّواصليّة بخلاف اعتقاد (تشومسكي) من أنّها قدرتان: قدرة نحويّة صرف وقدرة تداوليّة، وهو الاتّجاه الذي سار فيه الوظيفيون والتّداوليون بوجه عام.

فقد أفرد (هايمز) لموضوع القدرة التّواصليّة كتاباً أصدره سنة 1972 تحت عنوان القدرة التّواصليّة، وقبل هذا الكتاب سبق لـ (هايمز) أن انتقد (تشومسكي) في مقال له سنة 1971، جاء فيه: «إن نظريّة (تشومسكي) القائمة على توليد الجمل اللغويّة المختلفة صحيحة تماما، إذا كان المقصود منها وصف اللغة ككيان مستقل بذاته، بعيدا عن المواقف الاجتماعيّة، والحياة التي

تستخدم فيها اللغة، لكن اللغة لا قيمة لها ككيان مستقل... فهي ليست قوالب وصيغا وتراكيب مقصودة لذاتها، وإنّما هي موجودة للتّعبير عن الوظائف المختلفة: كالطّلب والتّرجي والأمر والنّهي والدّعاء والوصف والتّقرير... وغير ذلك من آلاف الوظائف اللغويّة». (خرما، وحجاج، 1988 ص185)؛ يُفهم من هذا القول أنّ (هايمز) يرفض وصف اللغة باعتبارها كياناً مستقلاً عن واقعها الاجتماعي، لأنّ قيمة اللغة لا تكمن في دراسة شكلها فحسب، بل للتّعبير عن وظائف لغويّة يريدها المتكلّم في واقع استعمالها.

ويلفت (هايمز) هنا الأنظار مرّة أخرى إلى ضرورة اتّخاذ المنحى الوظيفي سبيلا لدراسة اللّغة، وبمواقفه هذه أُعيد بعث النظريّات السّياقيّة، كنظريّات أفعال اللّغة لفلاسفة اللّغة العادية وأشهرهم: (أوستين J.L.Austin)، و(سورل J.R.Searle)، ونظريّات التّداول والملفوظيّة، والنّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة خاصة نظريّة النّحو الوظيفي لـ(سمون ديك).

إنّ هذه النّظريّات تركّزُ على مرجع العلامة اللّغويّة، أو المكوّن التّداولي للكلمة أو الجملة أو النّص، الذي أصبح مضبوطا بوظائف تداوليّة محدّدة تربط بسياقات وطبقات مقاميّة وبشبكة من العلائق المختلفة: كالعلائق الاجتماعيّة المنظّمة لمقاصد المتخاطبين والعلاقات المنطقيّة التي تضبط محاوراتهم. (بعيطيش، 2006/2005، ص40)، وتطوّرت –موازاةً مع ذلك– النّظريّات الوظيفيّة منذ نظريّة براغ إلى غاية نظريّة النّحو الوظيفي عند (سيمون ديك)، ولتعارض أهدافها في ما بعد؛ تم فرزها واقتصار إطلاق صفة الوظيفيّة على النّظريّات التي لا تكتفي بالوصف الصّوري لبنية اللغة، وإنّما تربط وصف وتفسير خصائص بنية اللّغة بوظيفتها التّواصليّة وسياق استعمالها. ولأنّ التّداوليّة تُعنى بعمليّة التّواصل مع الغير؛ عُدّت الوظيفة التّواصليّة للّغة من أهمّ أغراضها وهذا ما أدّى إلى اقتران الاتّجاهين التّداولي والوظيفي معاً.

يُضاف إلى هذا؛ عدم عناية الدّرس الفلسفي بالجوانب التّداوليّة المرتبطة بالبنية الإخباريّة للجملة، وإغفاله أنواع العلاقات الإخباريّة القائمة بين مكوّنات الجملة وهي: العلاقات الدّلاليّة كالمنفّذ والمتقبّل والمستقبل والأداة، والعلاقات التّركيبيّة كالفاعل والمفعول، والعلاقات التّداوليّة كالمبتدأ والذّيل والمنادى والمحور والبؤرة. (المتوكّل، 1989، ص32)، وهنا سعت النّظريّات الوظيفيّة إلى إدماج هذه العلاقات في الدّرس اللساني، فعولجت الجوانب التّداوليّة للغات الطّبيعيّة في النّماذج المصوغة لتمثيلها، واعتمد النّحو الوظيفي على مبدأ هام هو أنّ المكوّن التّركيبي– الصّرفي والمكوّن الصّوتي في الخطاب يحدّدهما إلى حدّ بعيد المكوّن التّداولي والمكوّن الدّلالي. وهو السّبب الذي خلق التّكامل والتّداخل، بل التّعالق الذي لا يمكنه فصله بين الاتّجاه الوظيفي والاتّجاه التّداولي، فظهرت نظريّات يطلق عليها بأنّها وظيفيّة وتداوليّة في آن واحد.

ويترتّب على ذلك أنَّ تَأَثُّرَ اللسّانيّات البنويّة واللسانيّات التّوليديّة التّحويليّة باللسانيّات التّبليغيّة (هايمز) نجمَ عنه ظهور عدّة اتّجاهات لسانيّة جديدة يمكن تصنيفها كالآتي: اتّجاه غير وظيفي بقي مع اللسانيّات الوصفيّة عموماً ولم يتغيّر، اتّجاه وظيفي ذي بعد بنوي، اتّجاه وظيفي ذي بعد تداولي، اتّجاه تداولي صرف، وهذا الأخير تعود بداياته إلى تأثّر اللسانيّات بمصادر المعرفة غير اللسانيّة مثل فلسفة اللغة العاديّة، وعلم النفس المعرفي. ويحاول الشّكل الموالي بيان أهمّ تلك الاتّجاهات اللسانيّة، وخصوصاً العلاقة بين الاتّجاهين: الوظيفي والتّداولي.

الشكل رقم 01: علاقة الاتجاه الوظيفي بالاتجاه التداولي

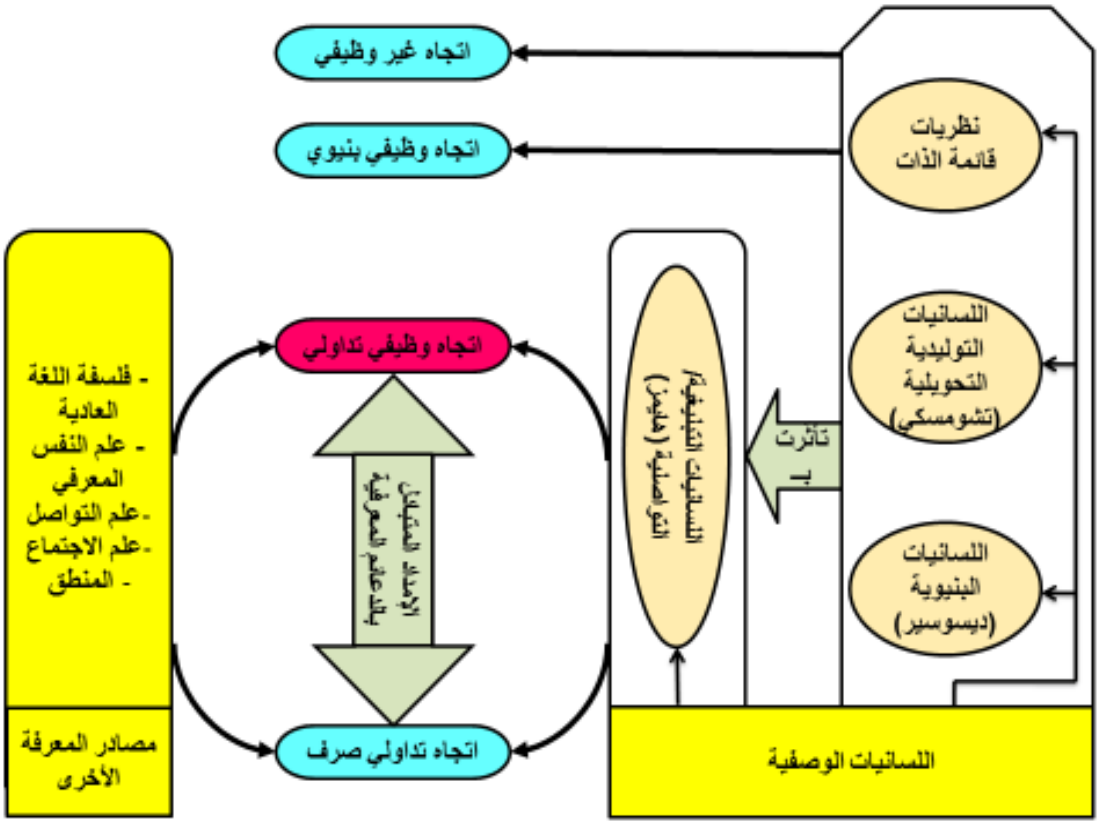

إنّ النّحو الوظيفي يندرج من حيث أهدافه ومبادئه المنهجيّة في زمرة الأنحاء المؤسّسة تداولياً التي تتّخذ موضوعاً لها دراسة خصائص اللّسان الطّبيعي البنويّة (الصّوريّة) في ارتباطها بوظيفته التّواصليّة. (المتوكّل، 1987/أ، ص05)، ورغم أن الدّرس التّداولي يلتقي مع النّحو الوظيفي في مصادر المعرفة مثل: الفلسفة التّحليليّة للّغة العاديّة، وعلم النّفس المعرفي والمنطق وغيرها؛ إلاّ أنّه يبقى كل واحد من التّيارين الوظيفي والتّداولي يقدم للآخر دعائم هامّة لتفسير الخطاب.

ويُقسّم البحث اللّغوي في اللّسانيّات الغربيّة إلى نموذجين لسانيّين متنافسين: المنحى الشّكلي الصّوري، والمنحى الوظيفي التّواصلي الذي ظهر متأخراً عن الأول بعض الشّيء. وقد كانت التّداوليّة من أسباب تعميق هوّة الخلاف بين هذين التّوجهين؛ إذْ أذكت جذوة الخلاف ومعركة

التّنافس بين التّيارين، بل إنّ الكفّة قد رجّحت لصالح الثّاني منهما؛ أي الاتّجاه الوظيفي بدعم وتأييد من التّداوليّة بما بثته من مفاهيم ورؤى اشتدّ بها عضد التّيار الوظيفي الجديد. (صحراوي 2005، ص14)؛ يعني أنّه بعد اختراق ساحة العلوم اللّغويّة بتيّارات فلسفيّة ونفسيّة واتّصاليّة أصبحت التّداوليّةُ أيضاً من أهمّ الرّوافد للنّظريّات الوظيفيّة فأمدّتها بكثير من الأسس المعرفيّة.

ونغتنم هذه الفرصة التي مكّنتنا من التفريق بين الاتجاهين الوظيفي والتداولي، وبيان العلاقة بينهما، لإيراد أمثلة عن أشهر النظريات التي قد يُلتبس في تصنيفها، وهذا وفق الشكل الآتي:

الشكل رقم 02: أشهر النظريات الوظيفية والنظريات التداولية

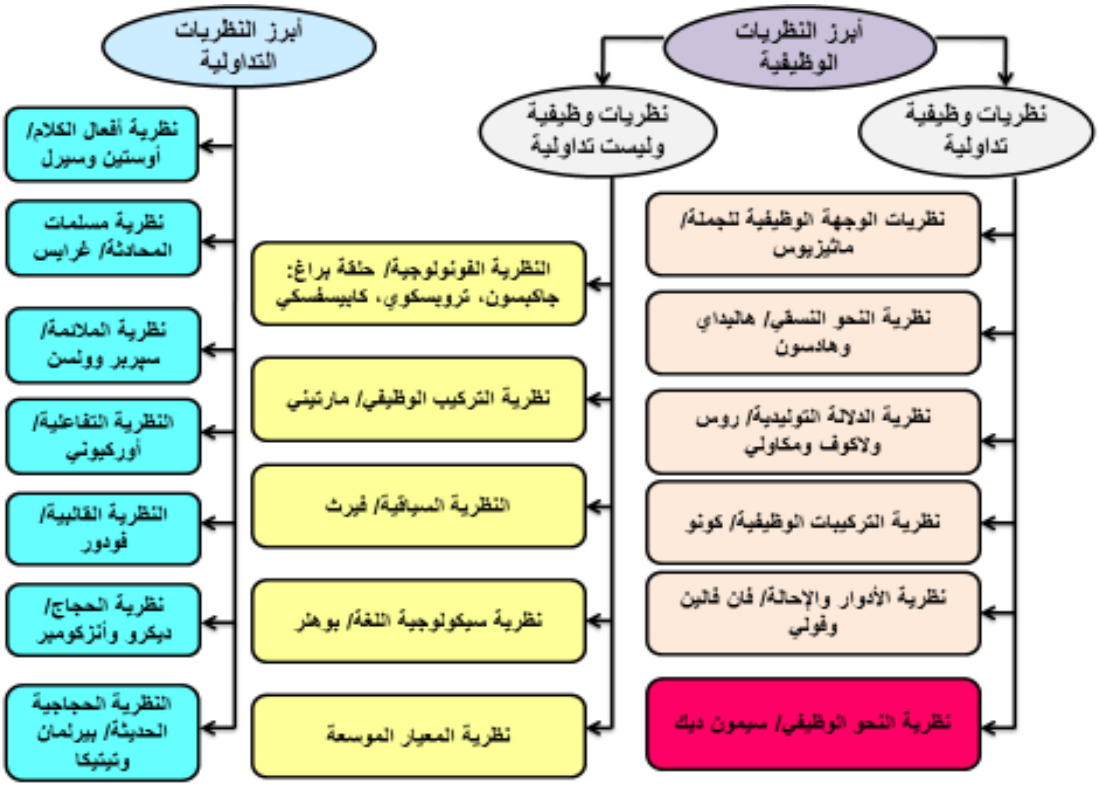

يتّضح من الشّكل أنّ النّظريّات الوظيفيّة تنقسم إلى مجموعتين، كما يلي:

– نظريّات وظيفيّة تداوليّة، وهي موضوع بحثنا مُمَثّلةً في آخر محطّة منها وهي نظريّة النّحو الوظيفي عند (سيمون ديك)؛

– نظريّات وظيفيّة وليست تداوليّة: وهي التي يُطلق عليها بالنّظريّات الوظيفيّة البنويّة؛ لأنّها وقفت عند حدود البنية ولم تُدرج المكوّن التّداولي في بنيتها التّحتيّة الوظيفيّة، وهنا مَرْبَطُ الفرس؛ حيث إنّ الوظيفيين المحدثين تنازلوا تماماً عن تسمية هذا النّوع من النّظريات بالوظيفيّة البنويّة أو الوظيفيّة غير التّداوليّة، وإنّما سمّوها نظريّات غير وظيفيّة أصلاً، وسنقف على هذا الأمر في مبحث خاص من الفصل الأوّل تحت عنوان: (النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة).

ويتبيّن من الشّكل أيضاً أبرز النّظريّات التّداوليّة الخالصة المنبثقة من فلسفة اللغة العادية وعلم النّفس المعرفي، وهي مجموعة من النّظريّات المستقلّة عن النّظريّات الوظيفيّة لكن أمدّت الصنف الأول منها بالمفاهيم والأسس التّداوليّة.

تبعاً لذلك، أصبح النّحو الوظيفي جزءاً من نظريّة تداوليّة واسعة، ويبيّن (المتوكّل) أنّه في مقابل إلحاح (ديك) على ضرورة إدراج النّحو الوظيفي في إطار نظريّة أعمّ كان يسمّيها (النّظريّة التّداوليّة الوسعى)؛ فإنّه يقترح نظريّة تسمّى (النّظريّة الوظيفيّة العامّة) التي يمكن داخلها أن تتّصل نظريّة النّحو الوظيفي بنظريّات أنساق تواصليّة أخرى فتتفاعل مختلف النّظريّات في عمليّة تواصل واحدة (المتوكّل، 2003، ص56)، وتحت أي مسمّى لهذه النّظريّة سواء تداوليّة وُسعى أم وظيفيّة عامة؛ فهي نظريّة لغويّة شاملة تجمع مختلف نظريّات التّواصل اللغوي أو غير اللغوي بما فيها النّظريّة التّداوليّة والنّظريّة الوظيفيّة، وتعكس مدى ترابطهما وتجذّرهما في أصل واحد.

وتمتاز النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة بالقدرة على النّمذجة وصياغة نماذج صوريّة دقيقة وأجهزة واصفة ثابتة تصف وتفسّر ظواهر اللغات الطّبيعيّة وتمتدّ إلى التّوجّه القطاعي في مجالات حياتيّة متعدّدة؛ الأمر الذي لا يوجد في التّيار التّداولي فهو لا يختصّ بالدّراسات اللغوية فقط وإنّما هو مجال تشترك فيه الكثير من العلوم ولا يزال كذلك إلى اليوم، ذو مفاهيم عامّة وما صدّق شاسع ليس له نظريّة لغوية موّحدة وثابتة أو نماذج صوريّة تخضع للتّطور والتّعديل أو يضبطه جهاز واصف دقيق كما هو الحال عند النّظرية المذكورة.

5- النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة: إنّ ما نقصده بالنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة هو نظريّة النّحو الوظيفي التي ظهرت على يد اللساني (ديك)، وقد آثرنا في بحثنا استعمال هذه التّسمية انسجاماً مع رأي (المتوكّل) (1985 ص09): «يُعتبر النّحو الوظيفي (functional grammar) الذي اقترحه (سيمون ديك) في السّنوات الأخيرة، في نظرنا، النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الأكثر استجابة لشروط التّنظير من جهة ولمقتضيات النّمذجة للظّواهر اللغوية من جهة أخرى»؛ وتعود مبرّرات إطلاق هذا الحكم إلى أنّ النّحو الوظيفي يمتاز عن غيره من النّظريّات التّداوليّة بنوعيّة مصادره، وأنّه محاولة لصهر بعض من مقترحات نظريّات لغويّة (النّحو العلاقي، نحو الأحوال، الوظيفيّة) ونظريّات فلسفيّة (نظريّة الأفعال اللّغويّة) أثبتت قيمتها، وذلك في نموذج صوري مصوغ حسب مقتضيات النّمذجة في التّنظير اللّساني الحديث.

ويمكن تقسيم النّظريات اللّسانية إلى قسمين نظريّات وظيفيّة ونظريّات غير وظيفيّة، ولكل نظريّة لغويّة أصول وجذور مهّدت لظهورها، والنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة موضوع البحث تجد جذورها الأولى في نظريات الاتّجاه الوظيفي ذي البعد التّداولي، وهو متفرّع عن اللّسانيات البنوية

واللّسانيات التّوليديّة التّحويليّة، وعن نظريّات مستقلّة بذاتها تأثّرت كلّها باللّسانيّات التّبليغيّة (التّواصليّة) وببعض مصادر المعرفة الأخرى كفلسفة اللّغة العادية وعلم النّفس المعرفي وعلوم الاتّصال وغيرها؛ حيث إن النّظريّة الوظيفيّة الحديثة تتطلّب أن تنطوي على الجانب التّداولي في جهازها الواصف، وإلاّ أصبحت نظريّة صوريّة غير وظيفيّة (بنويّة أو توليديّة تحويليّة أو غيرهما) فإطلاق التّسمية بالنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة هو حكم يلازمه تداخل في الوصف لا يمكن فكّه.

إنّ النّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة كثيرة، لكن هنا سنتوقف بالدّرس والفحص والتّطبيق عند المحطّة الأخيرة من المحطّات التي مرّ بها قطار هذه النّظريّات وهي نظريّة النّحو الوظيفي، ولأنّها أيضاً الأكثر نجاحا واستجابة لشروط التّنظير والنّمذجة من بين مثيلاتها من النّظريّات التي سبقتها فعندما نتحدث في بحثنا عن النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة فإنّنا نقصد نظريّة النّحو الوظيفي توافقاً مع كل ما سبق ذكره.

خلاصة:

تعرّفنا في هذا الفصل التّمهيدي على مفاهيم عامّة تشكّل مفاتيح للبحث بأكمله، وتتعلق بشقّين أساسيّين: المدوّنة والنّظريّة؛ حيث إنّ المدوّنة هي مجموعة الأحاديث القدسيّة، والنّظريّة هي نظريّة النّحو الوظيفي أو كما دُرج على تسميتها بالنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة.

ويكون مصدر معاني الأحاديث القدسيّة منزّلاً من الله تعالى، أمّا لفظها فهو من صياغة الرّسول ﷺ، وبذلك فهي تنزل منزلة وسطى بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشّريف، وهي كلّ ما يرويه الرسول ﷺ عن ربّه ﷻ، ومواضيعها متعلّقة كثيراً بالغيبيّات وعلاقة المؤمن بربّه، والجزاء والعقاب وغيرها.

وتعتبر النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة نظريّة لسانيّة تندرج في الاتّجاه الوظيفي ذي البعد التّداولي، فهي ليست من الاتّجاه الوظيفي ذي البعد البنوي، كما أنّها ليست من الاتّجاه التّداولي الصِّرف، فلكلّ اتّجاه من هذه الاتّجاهات الثّلاثة مجموعة من النّظريّات التي تنطوي تحته، وما نلمسه من تقاطع وتشابه في بعض المفاهيم والمصطلحات بينها؛ ناتجٌ عن عمليّات الاقتراض والإمداد المتبادل بينها في الدّعائم والأسس المعرفيّة.

الفصل الأوّل
الإطار الابستيمولوجي للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة

مدخل: نروم في هذا الفصل التّعرف على الإطار الابستيمولوجي للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة انطلاقاً من واقعة مهمّة حدثت في حياة اللسانيّات العربية الحديثة؛ تتعلّق بابتعادها عن تيّاراتها التقليديّة، وعلى رأسها التّيار البنوي والتّيار التّوليدي التّحويلي، وانعطافها نحو الاتّجاه الوظيفي متطرّقين بذلك إلى مجموعة من النّظريّات التي حَقَّ عليها الوصف بأنها نظريّات وظيفيّة، حيث كانت هذه الأخيرة بمثابة التّوطئة الضّروريّة لقيام النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الأخيرة؛ لذلك يَحسُن أن نشير منذ البداية أنّه خلال عرض مختصر لهذه النّظريات سيتبيّن مدى سبقها إلى ضبط الكثير من المصطلحات والمفاهيم الأساسيّة التي سنلتقي بها مرة أخرى عندما نصل إلى النّظريّة موضوع الدّرس.

وبعد بيان ذلك الانعراج في المعرفة اللسانية؛ نبيّن الفروقات التّنظيريّة الأساسيّة بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة، ثم كيفيّة المفاضلة بين النّظريّات الوظيفيّة، ثم تأسيس النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة وانتقالها إلى اللّسانيات العربيّة، ومشروع (المتوكّل) فيها وانفتاحها على الدّراسات النّصيّة.

أولاً: انعطاف اللّسانيات الحديثة والمعاصرة نحو الاتّجاه الوظيفي: نقصد بالاتّجاه الوظيفي هنا هو التّيار الذي يشمل النّظريّات اللسانيّة التي اختارت التّنظير في مجال الوظيفيّة؛ وهو اتّجاه عام يمكن تقسيمه مبدئياً إلى اتّجاه وظيفي ذي بعد تداولي، واتّجاه وظيفي ذي بعد بنوي، وفي مرحلة لاحقة من تطور الوظيفيّة وبالضّبط مع ظهور آخر نظريّة وهي نظريّة النّحو الوظيفي لـ (سيمون ديك) يُطرح تماما الاتّجاه الثّاني (ذو البعد البنوي) من مجال الوظيفيّة، ويُحسب على التّيار البنوي البحت.

يتوجّب علينا هنا، قبل عملية التّصفية تلك، أن نعرف باختصار طبيعة النّظريات الوظيفيّة التي ولدت من رحم اللسانيات الحديثة والمعاصرة، وجهازها الواصف الذي أبقاها حيّة في الاتّجاه الوظيفي أو نفاها إلى الاتّجاه البنوي، وكذلك أصولها وتطوراتها. ولأنّ لكلّ نظرية لغوية أصولاً وجذوراً مهّدت لظهورها؛ فإنّ النّظرية الوظيفيّة التّداولية موضوع البحث تجد جذورها الأولى في نظريات الاتّجاه الوظيفي التي تفرّعت عن اللّسانيات البنوية واللّسانيات التّوليديّة التّحويليّة وعن نظريّات مستقلة بذاتها؛ ولهذا من المفيد أن نعرض لتلك الأصول لإدراك طبيعة العلاقة التي تربطها بنظريّتنا الوظيفيّة الأخيرة وأفق امتدادها النّظري.

انطلق التّيار الوظيفي من حلقة براغ في الثّلاثينيّات من القرن العشرين، ثم تطوّر في مرحلة التّيار البنوي طوال النّصف الأوّل من ذات القرن، حيث ظهرت مدرستا براغ ولندن الوظيفيّتان اللّتان امتدّ تأثيرهما إلى نهاية السّبعينيات، فانبثق عن مدرسة براغ نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة وعن مدرسة لندن نظريّة النّحو النّسقي، كما ظهرت نظريّتا البراڤمانتكس والتّركيبات الوظيفيّة من داخل المنهج التّوليدي التّحويلي، ونظريّتا التّركيب الوظيفي والنّحو الوظيفي من خارجه.

1. التّوجه الوظيفي للّسانيّات البنويّة: تعتبر اللّسانيّات البنويّة أوّل مرحلة في اللّسانيّات الحديثة، وتبدأ بصدور كتاب (دروس في اللسانيّات العامّة) لديسوسير في 1916، وتنتهي ببداية اللسانيّات التّوليديّة التّحويليّة في 1957.

حصر (ديسوسير) موضوع اللّسانيّات في اللّغة التي هي نظام من العلامات، واقتصر بحثه في العلامة اللّسانيّة على ثنائيّة الدّال والمدلول (ديسوسير 1985، ص37)، ثم وسَّعَ علمُ السيميولوجيا التّفكيرَ في العلامة اللسانيّة فجعلها في ثلاثة أبعاد: الدّال والمدلول والمرجع، ثم أضافت التداولية فيما بعد البعد الرابع وهو الاستخدام أو الاستعمال.

وتُسمَّى اللسانيّات البنويّة بمرحلة الدّاليّات؛ لأنّها ركزّت على تقطيع دوال العلامات اللغويّة وتفتيتها إلى عناصرها الأساسيّة، باحثة عن القوانين الدّاخليّة المتحكّمة فيها، وعملت على تجريد الأنساق اللغويّة وتقنينها. (بعيطيش، 2006/2005، ص37-38)، فأسَّسَ الاتّجاه البنوي بذلك لمنهج علمي لساني صارم توجهت إليه الدّراسات اللغويّة من بعده، وأحدثت قطيعة مع الدّراسات اللغوية التّاريخيّة والمقارنة، ورغم ذلك لم تتخلص كليّاً من البحث في عناصر وعلاقات تستعصي على الضّبط والتّقنين كمفهوم (المدلولات) حين وصلت إلى مرحلة الدّلاليّات، و(المرجع) في مرحلة السيميائيات، و(الاستعمال) في مرحلة التّداوليات.

وأثمر ذلك عدة نظريّات ومدارس لسانيّة أخرى، تزعمها أعلام لسانيون روّاد أبرزهم: التشيكي (نيكولاس تروبيسكوي Nicolase Troubetskoy) رئيس حلقة براغ، ثم (رومان جاكبسون Roman Jakobson)، والأنڤليزي (جون فيرث John Firth) زعيم المدرسة السّياقيّة في لندن والدانماركي (لويس هلمسليف Louis Hjelmslev) رئيس نادي كوبنهاغن أو المدرسة النّسقيّة أو الغلوسيماتيك، و(أندري مارتيني André Martinet) زعيم البنويين الوظيفيين في فرنسا، و(ليونارد بلومفليد Leonard Bloomfield) زعيم المدرسة التّوزيعيّة في أمريكا، ثم (زليغ هاريس Harris Zellig)، ثم تلميذه (نعوم تشومسكي) صاحب النّظرية التّوليديّة التّحويليّة.

لقد بقيت كل تلك النّظريات والمدارس البنويّة في الاتّجاه البنوي الصّرف، ولم تنعطف منها نحو الاتّجاه الوظيفي سوى نظريّتين وظيفيّتين مشهورتين فقط، هما: نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة المنبثقة عن مدرسة براغ اللّغويّة، ونظريّة النّحو النّسقي المنبثقة عن مدرسة لندن.

1-1- نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة (Functional Sentence Perspective):

تُسمّى هذه النّظرية أيضاً بنظريّة المنظور الوظيفي للجملة، وتُنسب للعالم التشيكي (فيلهام ماثيزيوس Vilhem Mathésius) الذي صاغها في الثّلاثينيّات من القرن التّاسع عشر، وقد نالت شهرة كبيرة في اللّسانيّات لما أثارته من تمييز بين الموضوع والمحمول في الجملة. وقد انبثقت هذه النّظرية من حلقة براغ، لذا سنعرض باختصار إلى هذه الحلقة اللسانيّة البنويّة أولاً.

أسّس العالم التشيكي (ماثيزيوس) حلقة براغ سنة 1926، وأصبح في ما بعد مدرسة امتد تأثيرها إلى نهاية السّبعينيات، وتوسّعت بانضواء عدّة علماء من أوروبا تحت لوائها مثل: (نيكولاس تروبيسكوي) و(رومان جاكبسون) و(سارج كارسيفسكي Serge Karcevski) من روسيا، و(كارل بوهلر Karl Buhler) من النمسا و(أندري مارتني) من فرنسا، و(آلف سومرفيل Alf Sommerfelt) من النرويج، و(فان فيك Van Wijk) من هولندا، و(هالمار لاندروث Hjalmar Lindroth) من السويد. (سامسون، 1997، ص ص105-133)، حيث استفادت حلقة براغ من آراء (دي سوسير) وكوّنت لنفسها نظريّة لغويّة ينطلق منهجها من اعتبار اللّغة نظاما وظيفيّا يرمي إلى تمكين الإنسان من التّعبير والتّواصل، وكل ما لا يضطلع بدور التّواصل فهو لا ينتمي إلى اللّغة.

ورأى روّاد هذه المدرسة أن العلامة اللّغويّة تحقّق ثلاث وظائف أساسيّة: وظيفة تمثيل عالم الأشياء في الواقع الخارجي، ووظيفة التّعبير التي يعبّر بها المتكلّم عن مشاعره وأحاسيسه الدّاخليّة ويبيّن بها أغراضه، ووظيفة النّداء التي يمارس بها المتكلّم تأثيرا على المستمع. (دلاش، 1992 ص13)، وهذه الرّؤية تخالف تماما ما ذهب إليه (ديسوسير) حول مفهوم ودور العلامة اللّغويّة.

ودشن الرّوسي (تروبسكوي) وصاحباه: (جاكبسون) و(كارسيفسكي) في ظلّ هذه الرّؤية الوظيفيّة، منهجا جديدا في تحليل أصوات اللّغة وظيفيّا، بلوره في نظريّة متكاملة في كتابه (مبادئ الفونولوجيا) متّبعا أفكار زميله (كارل بوهلر) الذي عمّق مفهوم الوظيفة في هذه المدرسة بفضل بحثه الشّهير عن سيكولوجيّة اللّغة الذي درس وظيفة اللّغة في موقف الكلام نفسه. (الموسى

1987، ص84)؛ ويُقصد بهذه السّيكولوجيّة أن اللّغة التي تعدّ نظاما من الرّموز تؤدّي وظيفة الأداة التي يستطيع الإنسان أن يخبر بها غيره عن أشياء تخصّه ضمن موقف كلامي.

وامتدّ اهتمام مدرسة براغ الوظيفيّة إلى الجانب الاجتماعي للّغة، ولم يقتصر على الجانب الصّوتي والجانب السّيكولوجي، حيث درّست وظيفة اللّغة في إطارها الاجتماعي العام الذي تخدم فيه اللّغة المجتمع وطبقاته المختلفة.

تميزت اللسانيات في براغ بنظرتها إلى اللغة من خلال الوظيفة، فقد حلل علماؤها اللغة بهدف إبراز الوظائف التي تؤديها مكوناتها البنوية المختلفة في استعمال اللغة بأجمعها، ونظروا إلى اللغة كما ينظر المرء إلى محرك محاولاً أن يفهم الوظائف التي تؤديها أجزاؤه المختلفة وكيف تحدد طبيعة جزء معين طبيعة الأجزاء الأخرى، وحاولوا تجاوز الوصف إلى التفسير، أي أنهم لم يكتفوا بالحديث عن ماهية اللغة بل تحدثوا عن السبب وراء اتخاذ اللغات أشكالها التي نجدها عليها بينما اقتصر الأمريكيون على الوصف فحسب. (سامسون، 1997 ص ص105-106)، فالدّراسة الوظيفيّة عند مدرسة براغ تعتبر اللّغة آلة، وعلى اللّساني أن يبحث في وظائف أجزائها، وكيف يؤثّر كل جزء في عمل باقي الأجزاء، وتعمل كل وظائف اللّغة من أجل خدمة الوظيفة الأساسيّة للّغة والمتمثّلة في التّواصل الاجتماعي.

وانطلاقاً من توسّع الدّراسات الوظيفيّة في حلقة براغ؛ نشأت نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة بريادة مؤسّس المدرسة دائماً وهو (ماثيزيوس)، ثم طوّرها من بعده لغويّون كُثُر على رأسهم (دانيش F. Danes) و(فيرباس J. Firbas).

ويرجع تاريخ هذه النّظريّة إلى القرن الماضي حين درس اللّغويّون الألمان الجملة من منظور نفسي مهتمين خاصّة بمفهوم (الفاعل النّفسي)، وتوبع هذا النّوع من الدّراسات في ما بعد في تشيكوسلوفاكيا، في فترة ما بين الحربين على يد لغويّين مثل (ماثيزيوس)، حيث تبلور مفهوم (الوجهة الوظيفيّة للجملة) كأحد المفاهيم المتحكّمة في ترتيب المكوّنات. (المتوكّل، 1989 ص117).

ويرى (ماثيزيوس) أن الجملة تنقسم إلى قسمين: الموضوع؛ ويدّل على شيء يعرفه السّامع لأنّه غالبا ما يذكر في الجمل السّابقة، والخبر (المحمول)؛ ويدّل على حقيقة جديدة تتعلّق بالموضوع المذكور، فالموضوع هو الاسم الذي تخبر عنه الجملة أو الكلمة التي هي محور الكلام في جملة ما، والخبر هو كل ما يقال عن موضوع الكلام، وعادة ما يسبق الموضوع الخبر إلا إذا

كان الغرض التّوكيد على بعض أجزاء الجملة. (مومن، 2015، ص139)، والحقيقة أنّ ليس التّوكيد فقط الذي يغيّر ترتيب كل من الموضوع والمحمول في الجملة، بل هناك الكثير من الظّواهر اللّغوية، منها صيغ التّعجّب والبناء للمجهول وغيرها.

إنّ التّقسيم الجديد للجملة الذي اقترحه (ماثيزيوس) يعتمد معيار ربط الجملة بالسّياق أو الموقف الكلامي، فإذا كان التّقسيم البنوي الشّكلي العام للجملة هو مجموعة المسند إليه والكلمات التي ترتبط به، ومجموعة المسند والكلمات المرتبطة به؛ فإن التّقسيم الوظيفي الجديد يميّز بين العنصر الأساسي الذي يكون قبل كل شيء نقطة ابتداء الكلام، أو أساس الكلام الذي يكون معلوما أو على الأقل باديا للعيان وينطلق منه المتكلّم، وبين نواة الكلام وهي ما يحدث به المتكلّم عن نقطة الابتداء أو بخصوصها (دك الباب، 1980، ص117)؛ أي أنّ المنظور الوظيفي للجملة يجعلها تتكوّن من جزئين وفق التّرتيب الآتي: الجزء الأول وهو نقطة ابتداء الكلام التي تمثّل أساس الموضوع، ويكون معلوما لدى المتخاطبين أو موجوداً في السّياق الكلامي، الجزء الثّاني وهو نواة الكلام التي تمثّل الجزء المحمول على ذلك الأساس، ولا يكون معلوما لدى المتخاطبين بل يحمل خبرا جديدا.

بناءً عليه، فإن التّرتيب التّسلسلي العادي للكلمات في الجملة الخبريّة ينطلق من ذكر الموضوع أولا ثم ذكر المحمول بعده، ويسمّى هذا التّرتيب ترتيبا موضوعيّا وهو الوجهة الوظيفيّة الموضوعيّة للجملة، لكن قد تبرز ضرورة ذاتيّة انفعاليّة للمتكلّم، تجعله يعكس التّرتيب فيبدأ بالمحمول ثمّ يضيف بعده الموضوع، ويسمّى هذا القلب بالتّرتيب الذّاتي، وهو الوجهة الوظيفيّة الذّاتية. (دك الباب، 1980، ص117)؛ يمكن أن نوضح هذا التّرتيب المفرداتي الموضوعي أو الذّاتي للوجهة الوظيفيّة للجملة بالمثال الآتي: في حالة الجملة الإخباريّة: (قرأ الباحث القصيدة) يكون ترتيب مفرداتها ذا منظور موضوعي، حيث تشكّل (قرأ الباحث) موضوعاً و(القصيدة) محمولاً، أمّا إذا شحنت الجملة ذاتها بالتّعجب وجاءت وفق التّركيب: (القصيدةَ قرأ الباحث!)؛ فإنّ ترتيب مفرداتها ذو منظور ذاتي، حيث آثرَ المتكلم توجهه الذاتي في ترتيب أطراف الجملة، فبدأ بالمحمول أولاً (القصيدة)، ثم يليه الموضوع (قرأ الباحث)، ويسمى هذا الترتيب في البلاغة العربية التقديم على نية التأخير.

وطبّق (ماثيزيوس) منظور الجملة الوظيفي على لغته التشيكيّة وعلى اللغة الأنقليزيّة وبعض اللغات الأوربيّة، وهو منهج استعملته مدرسة براغ لتحليل الجمل حسب مضمونها الإخباري، حيث يكون لكل عنصر أساسي في الجملة إسهاماً دلالياً حسب دوره الدّيناميكي الذي يلعبه في عمليّة

الاتّصال. (مومن، 2015، ص140)، ولاقت أفكار (ماثيزيوس) إقبال الكثير من اللغويّين في أوروبا خاصة أولئك المنتسبين لمدرسة براغ واجتهدوا في توسيع نظريتّه، فقد طوّرها (دانيش) مقترحا مقاربة تحليليّة للجملة، وفق ثلاثة مستويات: المستوى الدّلالي والمستوى النّحوي والمستوى الوظيفي.

وتتضمّن الجملة عند (دانيش) في المستوى الدّلالي (حدثا) ومشاركين في هذا الحدث كالمشارك (المنفّذ) والمشارك (المتقبّل) أو (الهدف). وفي المستوى النّحوي، تُعد المكوّنات الأساسيّة الثّلاثة: المنفّذ والحدث والمتقبّل؛ فاعلاً وفعلاً ومفعولاً. وفي المستوى الوظيفي، مستوى تنظيم الجملة على أساس مطابقتها للسّياق التّواصلي، فإن الجملة تتضمّن مكوّنين أساسيين: المكوّن (المحور) الدّال على ما يشكّل محطّ الحديث ويحمل المعلومة المتقاسمة بين المتخاطبين المربوطة سياقيّا، والمكوّن (التّعليق) الدّال على ما يشكّل الحديث ذاته وهو الحامل للمعلومة الجديدة والحامل لنبر الجملة. (المتوكّل، 1989، ص ص117-119)، يتبيّن هنا أنّ المستوى الوظيفي عند (دانيش) يربط توزيع مكوّنات الجملة بالسّياق التّبليغي، ويجعل مكوّن المحور هو الموضوع ومكوّن التّعليق هو المحمول، وعادة ما يحمل المحور معلومة قديمة يتقاسمها المتخاطبان، ويمكن استمدادها من السّياق، بخلاف التّعليق الذي يحمل معلومات جديدة بشأن ما يُتحدّث به عن المحور، وقد احتفظت نظرية النحو الوظيفي الأخيرة ببعض مصطلحات نظرية الوجهة الوظيفية للجملة مثل (المنفذ، المحور، البؤرة،...) دون الابتعاد كثيراً عن مدلولاتها.

ويضيف (فيرباس) للمستوى الوظيفي مفهوم (الحركيّة التّبليغيّة) الذي يقصد به مدى إسهام مكوّنات الجملة في تقدم التّواصل وتطوّره، حيث تأخذ المكوّنات الحاملة للمعلومات الجديدة أعلى درجات الحركيّة التّبليغيّة، في حين تأخذ المكوّنات الحاملة للمعلومات المعطاة (الموجودة في السّياق) أدنى درجات الحركيّة التّبليغيّة، وبما أنّ المكوّنات الحاملة للمعلومات القديمة في الجملة تتقدّم على المكوّنات الحاملة للمعلومات الجديدة، فإن الحركيّة التّبليغيّة تقوى بقدر تأخّر المكوّنات داخل الجملة. (المتوكّل، 1989، 118)؛ بعبارة أخرى يخضع ترتيب مكوّنات الجملة لمبدأ قدم أو جدّة ما تحمله من معلومات، ومبدأ قوّة حركيّتها التّبليغيّة أو ضعفها، حيث تتقدّم المكوّنات الحاملة للمعلومة القديمة ذات الحركيّة التّبليغيّة الأضعف، وتتأخّر المكوّنات الحاملة للمعلومة الجديدة ذات الحركيّة الّتبليغيّة الأقوى.

تبعاً لذلك، فإنّه يمكن أن نفسّر ترتيب الجملة في اللّغة العربيّة مثلاً وفق مفهوم الحركيّة التّبليغيّة عند (فيرباس) كالآتي: إذا كانت الجملة العربيّة تأخذ البنية التّركيبيّة: (فعل، فاعل

مفعول)؛ فإنّ هذا التّرتيب قائم على أساس وظيفي هو مطابقتها للسّياق التّواصلي، وتُوزَّع درجات حركيّتها التّبليغيّة كما يلي: يأخذ المفعول أعلى درجات الحركيّة التّبليغيّة، ويأخذ الفاعل الدّرجة الثّانية التي تليه، في حين يأخذ الفعل الدّرجة الثّالثة.

نستطيع أن نلخّص ما ورد حول المستوى الوظيفي للجملة عند نظريّة الوجهة الوظيفيّة في الجدول الآتي:

جدول رقم 03: المستوى الوظيفي للجملة عند روّاد نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة.

	المستوى الوظيفي للجملة	
	المحور (الموضوع)	**التعليق (المحمول)**
حسب (ماثيزيوس)	1- الرّتبة الأولى في أجزاء الجملة	1- الرّتبة الثّانية في أجزاء الجملة
	2- نقطة بدء الحديث	2- نواة الحديث
حسب (دانيش)	3-محطّ الحديث	3-الحديث ذاته حول المحور
	4-المعلومة القديمة (سياقيّة مشتركة)	4-المعلومة الجديدة
	5- غير حامل لنبر الجملة	5-حامل لنبر الجملة
حسب (فيرباس)	6-الحركيّة التّبليغيّة الأضعف	6-الحركيّة التّبليغيّة الأقوى

أقرّ لغويو مدرسة براغ، بهذا، على أنّ عناصر كل مستوى من المستويات الثّلاثة (الدّلالي والنّحوي والوظيفي) تقوم بدور معين في تحديد بنية الجملة، إلاّ أن عناصر المستوى الوظيفي تقوم بالدّور الأساسي؛ لأنّ ترتيب المكوّنات داخل الجملة يعود إلى وظيفتي المحور والتّعليق؛ وفق التّرتيب الطبيعي لمكوّنات الجملة: [محور-تعليق]. وعلى هذا الأساس اقترح (دانيش) تحليلا تحويليّا للجملة قائما على أن مجال التّحويل ليس بنيات تركيبيّة بل بنيات وظيفيّة من قبيل [محور-تعليق]. (المتوكّل، 1989، ص120)؛ ومثال هذا التّحليل التّحويلي أنّ تشكيل الجملة المركّبة يتمّ بواسطة تحويلات محوريّة من عدّة جمل، بتطبيق تحويل يدمج بنية محوريّة من جملة في بنية محوريّة لجملة أخرى؛ أي انطلاقا من المستوى الوظيفي وليس من المستوى التّركيبي.

1-2- نظرية النّحو النّسقي (Systemic Functional Grammar): تُسمى نظريّة النّحو النّسقي أيضاً بنظريّة القواعد النّظاميّة، وهي من مقاربات مدرسة لندن وتُنسب لصاحبيها (هاليداي M.A.K. Halliday) و(هادسون R.A.Hudson)، وهما من الذين واصلوا البحث في ما توقّف عنده أستاذهم اللّساني البريطاني (فيرث) لذلك يُلقّبون بالفيرثيين الجدد. وقد مارست هذه النّظريّة تأثيرا قويّا في فترة السّتينيّات، ولا تزال تحظى بقبول في أوساط المنشغلين بتقدم الأبحاث اللّسانيّة.

تعود أبحاث مدرسة لندن إلى القرن الحادي عشر الميلادي، حين انصبّ اهتمام اللغويّين البريطانيين على ميكانيزمات الوصف اللّغوي الدّقيق لانتقاء لغة فصيحة من بين اللّغات المستعملة في أرجاء بريطانيا حيث تم اختيار الأنقليزيّة لغة رسميّة على حساب اللّغة الويلزيّة والأسكتلنديّة وغيرهما. (مومن، 2015، ص170)، وفي القرن التّاسع عشر الميلادي اتّسعت رقعة مستعمرات بريطانيا، وزادت الحاجة لدراسة لغاتها المختلفة لأغراض السّيطرة وتسهيل نشر اللّغة الأنقليزيّة فيها، ولتحقيق ذلك اهتمّ لغويوها بالدّراسة العلميّة للأصوات اللغوية، فاشتهرت مدرسة لندن بالصّوتيات، وأبرز أعلامها: (هنري سويت Henry Sweet) و(دانيال جونز Daniel Jones) و(جون فيرث).

لقد ربط (فيرث) بين البحثين الصّوتي والوظيفي، وتمكّن من بلورة نظريّة فونولوجيّة، على غرار فونولوجيّة مدرسة براغ، درس فيها خصائص الأنظمة الفونيميّة المتعدّدة للّغات البشريّة والصّوتيات الوظيفيّة الفوقطعيّة التي تشمل علم العروض، وظواهر النّبر والفاصل والنّغم والتّنغيم وغيرها. (مومن، 2015، ص ص182-183)، وبذلك أحدث تغييراً جذرياً في التّنظير اللساني وتكوَّنَ على يديه جيل من اللّسانيين داخل إنقلترا وخارجها، تأثّروا بنظريّته السّياقيّة وبأفكاره الوظيفيّة.

وتميّزت تلك السّمات الصّوتية عند (فيرث) بقيمة وظيفيّة، فهي تكشف عن شخصيّة المتحدّث وسنّه وجنسه وطبقته الاجتماعيّة والأمّة التي ينتمي إليها. وقد اعتبر (فيرث) المعنى أساسيا في الدرّاسة اللغويّة، كما خالف الثّنائيّة (لغة/كلام) لديسوسير والثّنائيّة (فرد/مجتمع) لإميل دوركايم بانطلاقه من فكرة الأحاديّة التي تعتبر شخصيّة الفرد وحدة قائمة بذاتها. (أيوب، 1969 92)؛ وبهذا خالف (فيرث) اللّسانيين البنويّين وعلى رأسهم (ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield) الذين أسقطوا المعنى من دراساتهم اللغويّة، كما أن اللّغة أصبحت عند (فيرث) أفعالاً كلاميّة واقعيّة، وليس لها وجود ذهني مختلف عن الكلام.

وترتّب على ذلك أن دراسة اللّغة لا تتمّ بمعزل عن السّياق، وهو نوعان: داخلي وخارجي. فالسّياق الدّاخلي يرتبط بالبنية التّركيبيّة الشّكليّة للّغة، وفيه شبكتان من العلاقات: علاقات على المحور الرّكني الأفقي وعلاقات على المحور الاستبدالي الرّأسي، أمّا السّياق الخارجي فيرتبط بالظّروف الخارجة عن بنية اللّغة ويتمّ فيها إنجاز الفعل الكلامي، وفيه شبكتان من العلاقات أيضاً: سياق الموقف الكلامي، والعلاقات القائمة بين أجزاء النّص. (مومن، 2015، ص175) ولم يقتصر نشاط مدرسة لندن على الدّراسة الصّوتيّة والفونولوجيّة، إنّما امتدّ إلى دراسة النّحو

والقواعد، حيث يُعرف التّحليل التّركيبي عندها بالقواعد النّظاميّة. وتم وصف هذه القواعد بإطلاق مصطلح (نظاميّة)؛ لأنها تعتبر أنّ اللّغة تتكوّن من شبكة من الأنظمة.

ويُعتبر النّظام في نظريّة القواعد النّظاميّة مجموع الاختيارات أو البدائل التي يمكن استعمالها في نقطة معيّنة من البنيّة اللّغويّة، وتعني القواعد النظاميّة بطبيعة الاختيارات المتعدّدة التي يستخدمها الشّخص شعوريا أو لا شعوريا. (مومن، 2015، ص185)، وقد كان للنّظرية السّياقيّة عند (فيرث) إشعاع كبير على الفيرثيين الجدد، فقد اعتنى (هاليداي) و(هادسون) بنظريّة القواعد النّظاميّة أو كما أُشتهرت تسميتها بنظريّة النّحو النّسقي، التي تقوم على أن الظّاهرة اللغويّة تتأسس على شبكة من الأنظمة الاختياريّة.

ويشرح (المتوكّل) هذه الأنظمة بأنّ النّحو النّسقي يتأسّس على ثلاثة مفاهيم أساسيّة هي: الوظيفة، النّسق، البنية؛ كما يلي:

1-2-1- الوظيفة: تؤدّي اللّغة ثلاث وظائف أساسيّة: وظيفة تمثيليّة عندما تعبّر عن الواقع، سواء كان هذا الواقع العالم الخارجي ذاته أم كان الواقع النّفسي للمتكلّم. ووظيفة تعالقيّة لمّا تعبّر عن الدّور الذي يتّخذه المتكلّم إزاء مخاطبه وفحوى خطابه. ووظيفة نصّية حينما تمكّن من تنظيم الخطاب طبقا لمقتضيات الموقف التّواصلي، فتنقله من مجموعة من العناصر إلى نص متماسك متسّق. (المتوكّل، 1989، ص122)؛ بمعنى أنّ اللّغة تضطلع بتمثيل الواقع النّفسي للمتكلّم والواقع الفيزيقي المادّي الخارجي عنه، وتعكس التّعالق بين أفراد الجماعة اللغويّة في موقف تواصلي معين، وفيها موقف المتكلّم من المتلقّي (موقف السائل أو الآمر أو المخبر...)، وموقفه من فحوى الخطاب (موقف المُتيقّن أو المُتشكّك أو المُحتمِل...)، وتمكّن المتخاطبين من تنظيم الخطاب ليكون متسّقا منسجما مع متطلّبات التّواصل.

1-2-2- النّسق: يتألّف النّسق العام لكل لغة من اللغات الطّبيعيّة من ثلاثة أنساق: نسق التّعدية ويطابق الوظيفة التّمثيليّة، نسق الصّيغة ويطابق الوظيفة التّعالقيّة، نسق المحور ويطابق الوظيفة النّصّية. (المتوكّل، 1989، ص122)؛ بذلك يعكس النّسق العام للّغة وظائفها الثّلاث: الوظيفة التّمثيليّة، الوظيفة التّعالقيّة، الوظيفة النّصّية.

أ- **نسق التّعدية:** الجملة تعبيرٌ عن حدث؛ لذلك تقوم على المفاهيم الدّلاليّة التّالية: الحدث والمشاركين في الحدث، وظروف الحدث، فالمشاركان هما الذّات المحدّثة للحدث (المنفّذ) والذّات محط تأثير الحدث (المتقبّل)، وتشمل الظّروف الذّوات التي تقوم بدور ثانوي بالنّسبة للحدث، مثل: الزّمان أو المكان أو الأداة وغيرها. (المتوكّل، 1989، ص122)، ويمكن توضيح ذلك من خلال المثال الآتي: (كتب الباحث النّص اليومَ بالقلم)، يتكوّن نسق التّعدية في هذه الجملة من حدث

يمثله الفعل (كتب)، ومشاركان أساسيّان هما المنفّذ للحدث وهو (الباحث)، ومتقبّل متأثّر بالحدث وهو (اللوحة)، في حين تبقى ملابسات الحدث لظرف الزّمان الذي يدّل على الوقت الذي جرى فيه الحدث وهو (اليومَ)، وظرف الأداة الذي يدّل على الوسيلة التي تمّ بها الحدث وهو (القلم).

ب- نسق الصّيغة: تتضمّن الجملة بالنّظر إلى نسق الصّيغة العناصر الآتية: القضيّة والصّيغة والجهة، حيث تتكوّن القضيّة من محمول وفاعل وفضلة وتوابع، وتطابق هذه المكوّنات بصفة عامّة، الحدث والمنفّذ والمتقبّل والظّروف؛ على التّوالي. أمّا الصّيغة فيمكن أن تكون إمّا صيغة التّدليل أو صيغة الأمر، وفي الحالتين تكون إمّا صيغة إثبات أو صيغة نفي. (المتوكّل 1989، ص123)، ويُقصد بمفهوم الجهة؛ جهة الإمكان وجهة اليقين وغيرهما. وللتّمثيل نوظف الجملة السّابقة لبيان نسق التّعدية ونسق الصّيغة فيها كما يلي:

الجدول رقم 04: التّمثيل لنسق التّعدية ونسق الصّيغة

الجملة		كتب	الباحثُ	النصَّ	اليومَ	بالقلم
نسق التّعدية		حدث	منفذ	متقبل	زمان	أداة
نسق الصّيغة	**القضية**	محمول	فاعل	فضلة	تابع	تابع
	الصّيغة	صيغة تدليل وإثبات (كتب)				
	الجهة	جهة اليقين				

ج- نسق المحور: تتضمّن الجملة باعتبارها نصّا؛ أي سلسلة من العناصر المنظّمة طبقا للموقف التّواصلي الذي يمكن أن تُنجز فيه، مكوّنا محورا دالًّا على محطّ الحديث، ومكونا تعليقاً دالّا على الحديث ذاته. كما تتضمّن، بالنّظر إلى حمولتها الإخباريّة، مكوّنا معطى دالا على المعلومة الممكن استمدادها من السّياق اللغوي أو الموقفي، ومكوّنا جديدا دالا على المعلومة غير الممكن استمدادها من السّياق. (المتوكّل، 1989، ص123)، فالمحور والتّعليق في نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة هو نفسه في هذه النّظريّة، لكن ما أضافته هو التّمييز في الجملة بالنّظر إلى حمولتها الإخباريّة بين مكوّنين: مكوّن معطى مستمد من السّياق ومكوّن جديد.

ويتعلق تحديد المكوّن المعطى أو المكوّن الجديد في حديث المتكلّم بالأسئلة المقدّمة من المخاطب التي تقودنا لمعرفة المعلومة الموجودة والمشتركة بينهما (المكوّن المعطى) والمعلومة الجديدة التي كانت غير موجودة في سياقهما (المكوّن الجديد).

وجرت العادة كما عرفنا في النّظريّة التي سبقت نظريّة النّحو النّسقي، أن تُقدّم المعلومات القديمة وتُؤخّر المعلومات الجديدة، لذلك يُحتمل أن يكون سؤال المخاطب في مثالنا السّابق: ماذا كتب الباحث؟ أو متى كتب الباحث النّص؟ أو بماذا كتب الباحث النّص اليومَ؟ فيكون المكوّن

الجديد الموافق لتلك الأسئلة هو إمّا (النّص) أو (اليومَ) أو (القلم) على التّوالي، ويكون المكوّن المعطى هو باقي الجملة في كل حالة.

يجدر التّنويه أن فكرة الموضوع والمحمول أو المحور والتّعليق وترتيبهما في الجملة وما يتعلق بهما من محور معطى ومحور جديد وغيرها، لا تنطبق تماماً في اللغة العربيّة بالمفهوم نفسه الذي رآه أصحاب نظريّة النّحو النّسقي أو نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة، ويرجع ذلك إلى اختلاف أنماط اللغات الطّبيعة، فتصوّرهم بُني أساساً على نمط اللغة الفرنسيّة واللغة الأنقليزيّة التي تتّصف بنحو خاص يُخضع جُملها لقانون الرّتبة (فاعل، فعل، مفعول)، أما اللغة العربيّة فقانون رتبتها الخاص هو (فعل، فاعل، مفعول).

ويحيلنا هذا الإشكال إلى جهود (المتوكل) في نظريّة النّحو الوظيفي التي وظّفت نسق المحور، لكن بمفاهيم الوظائف التّداوليّة كالمحور والبؤرة وفروعهما (المعطى والجديد...)، ومدى تمكّنه من توسيعها وتكييفها مع اللغة العربيّة.

1-2-3- البنية: يمكن إجمال تصّور بنية النّحو النّسقي، حسب (هاليداي) كما يلي:

- يرتبط النّحو بنظريّة عامّة للسّلوك الاجتماعي أو التّفاعل البشري داخل المجتمعات، مع الاحتفاظ باستقلاله عن هذا السّلوك الاجتماعي؛

- يتضمّن السّلوك الاجتماعي مجموعة من الأنشطة اللغويّة تتلخّص في ثلاثة أنشطة، يعبّر عنها بوظيفة التّمثيل للواقع، ووظيفة التّعالق بين المشاركين في النّشاط اللغوي نفسه، ووظيفة تنظيم الخطاب، حسب مقتضيات مقامات التّواصل؛

- يتألّف النّحو من ثلاثة أنساق، تُعتبر انعكاساً ووسائل لتأدية الوظائف الثّلاث، وتتحقّق جميعها في بنية واحدة. (المتوكّل، 1989، ص125)، نوضّح هذا الكلام وفق الشّكل الآتي:

الشّكل رقم 03: مجالات وأنساق ووظائف النّحو النّسقي

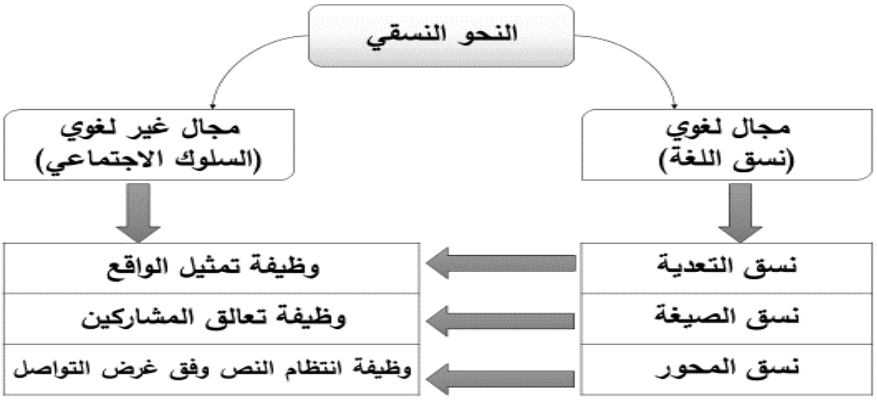

ويتبيّن من الشّكل أن النّحو النّسقي يجمع بين المجال اللّغوي (صميم بنية اللغة) والمجال غير اللّغوي (مجال التّفاعل البشري داخل المجتمع)، باعتبار أن الأول انعكاس صوري للثّاني حيث إن الوظائف الثّلاثة الموجودة في السّلوك الاجتماعي (التّمثيليّة، التّعالقيّة، النّصيّة) هي مفاهيم اجتماعيّة تقع خارج مجال اللغة، وتنعكس في الأنساق الثّلاثة للّغة في شكل مفاهيم لغويّة في مستوى نحو اللغة؛ كالمفاهيم الدّلاليّة (حدث، منفذ، متقبل،...) في نسق التّعدّية، والمفاهيم النّحويّة (فاعل، فضلة، تابع،...) في نسق الصّيغة، والمفاهيم النّصيّة (محور، تعليق، معطى،...) في نسق المحور.

والخلاصة؛ إن مسار اللسانيّات البنوية انعطف نحو الاتّجاه الوظيفي من خلال الأفكار الوظيفيّة لمدرسة براغ ومدرسة لندن التي تُوِّجت بنظريّتين وظيفيّين موازيّتين للنّظريّات النّحويّة البنويّة، هما: نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة ونظريّة النّحو النّسقي، اللّتان سيطرتا على الدّراسات النّحوية الوظيفيّة إلى نهاية السّبعينات، وامتدّ تأثيرهما إلى النّظريّات الوظيفيّة التي ظهرت بعدهما وبالمقابل لم تكن اللسانيّات التّوليديّة التّحويليّة بمنأى عن هذه التّحويلات الجديدة؛ فقد ظهر الاتّجاه الوظيفي أيضاً من داخلها.

2- التّوجّه الوظيفي للسانيّات التّوليديّة التّحويليّة: ظهر التّيار التّوليدي التّحويلي على يد اللساني الأمريكي (نعوم تشومسكي) بصدور مؤلّفه (البنى التّركيبيّة) سنة 1957، وتميّز هذا التّيار بمنهجه العقلي الذي ثار على المنهج البنوي لاكتفائه بوصف الظّاهرة اللغويّة وتصنيفها دون أن يفسّرها أو يعلّلها.

لقد قَلَبَ (تشومسكي) مثلّث (دي سوسير) فجعل اللّسان في قاعدته بدل اللّغة، ودرس اللّغة وفق مفهوم اللسان عند (دوسيسير)؛ أي كقدرة كامنة عند الإنسان، تجعله قادرا على النّطق وإصدار أصوات مع ربطها بمعان ومدلولات. (المسدي، 1986، ص ص81-105)، وتُمَكِّنُ القدرة اللغويّة للمتكلّم/السّامع عنده من إنتاج ما لا نهاية من الجمل الصّحيحة وفهمها، ولا تمكّن من إنتاج مدوّنة لغويّة محدودة فحسب.

وتزامناً مع وجود النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة في أمريكا؛ ظهرت دراسات وظيفيّة أمريكيّة متأثّرة بأعمال مدرسة براغ ومدرسة لندن، وخاصّة عند انتقال (جاكبسون) أحد أقطاب مدرسة براغ إلى أميركا، وإنشائه نادي نيويورك اللساني. (مومن، 2015، ص147)، حيث ظهر الصّراع عميقا بين التّيار التّوليدي التّحويلي وبين الاتّجاه الوظيفي الجديد في أمريكا، لاختلافهما تماما من حيث المبدأ العام وهو كيفية تفسير الظّاهرة اللغويّة.

ورأى التّيار التّوليدي التّحويلي أنّ التّفسير غير النّحوي؛ كالظّروف والملابسات الخارجيّة ومواقف الكلام وغيرها قليل الأهميّة، وأنّ الظّاهرة اللغويّة تنضبط من حيث المبدأ بشروط نحويّة خالصة قابلة للتّشكيل على نحو محكم، وتتجسّد في القواعد التّحويليّة التي تجعل التّركيب مستقّلاً عمّا يُسمّى بالبنية الدّلاليّة والتّداوليّة وعن أيّة وظيفة تواصليّة. في حين رأى الاتّجاه الوظيفي أنّ الظّواهر اللغويّة، ليست إلاّ انعكاسا للوظيفة التّواصليّة، لذا تحكمها عوامل غير نحويّة، ولا أهميّة للتّحويلات المرتبطة بها. (الموسى، 1987، ص82)، وفي خضمّ هذا الصّراع تطوّر التّيار التّوليدي التّحويلي وعرف في داخله عدة نظريّات لسانيّة منها: (النّظريّة المعيار، النّظريّة المعيار الموسّعة، النّظريّة المعيار الموسّعة المراجعَة، نظريّة الرّبط العاملي، النّحو العلاقي، نحو الأحوال النّحو المعجمي الوظيفي، نظريّة الدّلالة التّوليديّة، ونظرية التّركيبات الوظيفيّة).

لقد انعطفت اللسانيّات التّوليديّة التّحويليّة نحو الاتّجاه الوظيفي؛ حينما صاغت نماذجها على أساس ضرورة إدخال المكوّن التّداولي فيها، لتجلّي دوره في تحديد البنية التّركيبيّة الصّرفيّة للجملة وخضوعاً لمبدأ عدم استقلال التّركيب عن الدّلالة والتّداول، وكان ذلك من خلال نظريّتَيها الأخيرتين: الدّلالة التّوليديّة والتّركيبات الوظيفيّة؛ كما سيتّضح مما يلي:

2-1- نظرية الدّلالة التّوليديّة (Generative Semantics): وتسمّى أيضاً نظريّة البراڤمانتاكس (Pragmantax)، حيث أدخل أصحاب هذه النّظريّة مكوّن الدّلالة ثمّ مكوّن التّداول ضمن البنية العميقة للجملة خلافا لتشومسكي، وأصبحت البنية دلالية تركيبيّة تداوليّة، ووسّعوا العمليّة التّحويليّة للاشتقاق من البنية العميقة الى البنية السّطحيّة.

بدأت الدّلالة التّوليديّة في أواسط السّتينيّات حين دار النّقاش في حظيرة النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة نفسها حول وضع الإحالة ودورها في النّحو. فكان ذلك انطلاقاً لمنعطف هام داخل هذه النّظريّة، حيث انقسم اللغويون التّوليديّون إلى قسمين: لغويون على رأسهم (تشومسكي) ينادون بمبدأ تأويليّة الدّلالة شأنها في ذلك شأن القواعد الصّوتيّة، ولغويون منهم على الخصوص (لاكوف G. Lakoff) و(مكاولي J.D.Maccawley) و(روس Russ) يدافعون عن أطروحة توليديّة الدّلالة. (المتوكّل، 1989، ص38)؛ وبذلك فتحوا المجال لتكثيف البحث الدّلالي، وتناولوا العلامة اللغوية بتفكيك بنيتها الدّلاليّة وكشف وظائفها وعلاقاتها المنظّمة لها. فقامت نظريّة الدّلالة التّوليديّة على مبدأين أساسيين: عدم استقلال التّركيب بالنّسبة للدّلالة، والطّبيعة الدلّاليّة للبنية مصدر الاشتقاق.

إن مصدر اشتقاق الجملة هو بنية منطقيّة دلاليّة مصوغة طبقاً لمنطق المحمولات، فتتضمّن محمولاً (فعلياً أو اسميا أو صفّياً...) يربط بين عدد معيّن من الموضوعات. وتعدّ المحمولات

وحدات معجميّة مركّبة يتعيّن التّمثيل لها في البنية الدّلالية في شكل وحدات دلاليّة أولى. تُبسّط البنيّة عن طريق تطبيق قاعدة تصعيد المحمول من الجملة المدمَجة إلى الجملة المدمِجة، وبواسطة قاعدة الإدماج المعجمي يعوّض المحمول المركّب بالمفردة الملائمة. تُعدّ البنية خَرَجُ الإدماج المعجمي دَخَلًا للقواعد التّحويليّة التي تنتج عنها بنية سطحيّة تؤول صوتيّا عن طريق القواعد الصّوتيّة. (المتوكّل، 1989، ص ص101–103)، ولتوضيح هذه الفكرة نسوق المثال الآتي: الجملة (يمحو الطالب الكلمة) تتكوّن من محمول فعلي (يمحو) وموضوع1 (الطّالب) وموضوع2 (الكلمة).

وتتصوّر نظريّة الدّلالة التّوليديّة أنّ هذه الجملة قبل وصولها إلى صورتها النّهائيّة قد مرّت بعمليات تحويل في بنيتها الدّلاليّة العميقة التي هي أصل اشتقاق الجملة ثم عمليّة تحويل إلى بنية سطحيّة بواسطة القواعد التّحويليّة، نقسّم ذلك إلى مرحلتين كما يلي:

– المرحلة الأولى: تضمّ عمليات تحويل في البنية الدّلاليّة المنطقيّة كالآتي:

1– كانت الجملة السّابقة مشكّلة من وحدات دلالية أولى، حيث يمكن أن يكون الموضوع2 (الكلمة) عبارة عن جملة مدمَجة في الجملة الأصل وتتكوّن هي الأخرى من محمول (لا مكتوبة) وموضوع (الكلمة)؛ أي أصل البنية هو: جعل الطّالب (لا مكتوبة + الكلمة).

2– يتمّ تصعيد المحمول من الجملة المدمَجة إلى مستوى محمول الجملة المدمِجة، فيلتقي المحمولان معاً في محمول مركّب من وحدتين معجميتين (يجعل + لا مكتوبة). وتصير البنية: (يجعل لا مكتوبة) الطّالبُ الكلمةَ.

3– يتمّ الإدماج المعجمي للمحمول المركّب (يجعل + لا مكتوبة) في محمول مفرد (يمحو) تصبح البنية: (يمحو) الطّالب الكلمة.

– المرحلة الثّانية: تتضمّن عملية تحويل البنية الدّلاليّة إلى بنية سطحيّة بواسطة قواعد التّحويل، حيث يتم فيها التّأويل الصّوتي الجملة عن طريق القواعد الصّوتيّة.

إنّ النّحو في نموذج الدّلالة التّوليديّة لا يتضمّن مكوّنا دلاليا، بخلاف النّماذج التّوليديّة التّحويليّة ذات الطّابع التّأويلي؛ لأنّ الخصائص الدّلاليّة للجملة ممثّل لها بدءا في البنية المنطقيّة مصدر الاشتقاق. (المتوكّل، 1989، ص104)، وقد عدت هذه البنية نفسها، المستوى الملائم لتمثيل الخصائص التّداوليّة، حيث أُدخِل فيها التّداول في ما بعد، وصيغت على أساس أنّها بنية دلاليّة تركيبيّة تداوليّة.

وأُثْرِيَتْ هذه البنية في السّبعينيّات بمفاهيم تداوليّة مستعارة من فلسفة اللغة العاديّة كمفهومَي القوّة الإنجازيّة والاقتضاء ومن نظريتَي النّسقيّة والوجهة الوظيفيّة للجملة كمفهوم البؤرة، وأصبح

يُمثّل للخصائص التّداوليّة على أساس أنّها خصائص عميقة تحدّد الخصائص الصّوريّة السّطحيّة للجملة، بخلاف النّظريّة المعيار الموسّعة التي تُمثّل للخصائص التّداوليّة على أساس أنّها خصائص سطحيّة تسهم في التّأويل الدّلالي العام للبنية التّركيبيّة السّطحيّة. (المتوكّل، 1989 ص39)؛ وهو الأمر الذي جعل (تشومسكي) نفسه يعترّف في نهاية السّبعينيّات بأنّ قدرة المتكلّم/السّامع قدرتان: قدرة نحويّة وقدرة تداوليّة، إلاّ أنّه ومن معه من أصحاب الدّلالة التّأويليّة اعتبروا المكوّن التّداولي مكوّنا غير أساسي، حيث جعلوه تأويليّا ومثّلوا لبعض وظائفه في البنية السّطحيّة.

وقد رأى (روس) ومتزعمو الدّلالة التّوليديّة أنّ البنية العميقة مركّبة من جملتين اثنتين: جملة عليا؛ تؤشّر للمتكلّم والمخاطب والفعل اللغوي الإنجازي، وجملة سفلى؛ تدل على المحتوى القضوي ثم تنتقل البنية العميقة إلى بنية سطحيّة عن طريق تطبيق قواعد تحويليّة مثل جواز حذف الجملة العليا برمتها. (المتوكّل، 1989، ص ص105-106)، نمثّل لذلك بالجملة: (قرأ الطّالب الكتاب).

البنية المنطقيّة العميقة مصدر اشتقاق هذه الجملة مكوّنة من جملة عليا وجملة سفلى، كما يلي:

الجملة العليا = فعل لغوي إنجازي (قال) + مؤشّر المتكلّم (أنا) + مؤشر المخاطب (أنت).

الجملة السفلى = المحتوى القضوي لقراءة الطّالب الكتاب.

وتصبح البنية السّطحيّة في صورتين: إذا حذفنا الجملة العليا؛ فهي: (قرأ الطّالب الكتاب) وإذا لم نحذفها؛ فهي: (أقول لك قرأ الطّالب الكتاب)؛ لأنّ الحذف جوازي.

وقد توسّع (لاكوف) و(قوردن D.Gordon) في مفهوم القوّة الإنجازيّة المستلزمة وتصوّرا أنّها تُنتج في طبقة مقاميّة معيّنة بواسطة دخول قواعد تأويليّة تسمّى مسلّمات الحوار على البنية المنطقيّة فتجعلها تستلزم قضيّة معيّنة. حيث تتكوّن الجملة مزدوجة القوّة الإنجازيّة (حرفيّة ومستلزمة) من بنيتين منطقيتين، الأولى مستلزَمة (حرفيّة) والثّانية مستلزِمة، وهما مصدرا اشتقاق مترابطان لجملتين مختلفتين. (المتوكّل، 1989، ص ص111-112)، نمثّل بالجملة: (هل تستطيع أن تناولني الكتاب؟)، حيث تحمل هذه الجملة قوّة إنجازيّة مركّبة (الاستفهام + الالتماس) فهي عبارة عن جملتين مختلفتين ومترابطتين: الأولى مشتقّة من مصدر يمثله البنية المنطقيّة المستلزَمة (استفهام)، والثّانية هي اشتقاق من مصدر يمثّله البنية المنطقيّة المستلزِمة (التماس).

ورأى (صادوك J.Sadock) و(قرين G.Green) -بخلاف ذلك- أن الجملة ذات القوّة الإنجازيّة المزدوجة هي جملة ذات بنية منطقيّة واحدة مركّبة من جملتين متعاطفتين تتشكّل كل منهما من جملة عليا وجملة سفلى، حيث تمثّل الجملة العليا في الأولى القوّة الإنجازيّة الحرفيّة وفي الثّانية القوّة الإنجازيّة المستلزمة، في حين أنّ الجملة السّفلى في الجملتين معاً تمثّل للمحتوى

القضوي، ثمّ يتمّ نقل البنية المنطقيّة إلى بنية سطحيّة عن طريق تطبيق قواعد تحويليّة أهمّها تقليص العطف وحذف الجمل العليا (الإنجازيّة) برمتّها. (المتوكّل، 1989، ص ص111-112) بهذا المنظور تكون البنية المنطقيّة للجملة السّابقة مكوّنة من جملتين متعاطفتين هما (أسألك عن مدى استطاعتك مناولتي الكتاب و ألتمس منك مناولتي الكتاب)، وتمثّل الجملة العليا في الأولى القوّة الإنجازيّة الحرفيّة (السّؤال)، وفي الثّانية القوّة الإنجازيّة المستلزمة (الالتماس)، في حين أنّ الجملة السّفلى في الجملتين معاً تمثّل للمحتوى القضوي (مناولتك لي الكتاب).

لقد غيّر كلٌّ من (لاكوف) و(روس) و(مكاولي) نظرته إلى الدّلالة التّوليديّة على أنّها ضرب من القواعد التّحويليّة؛ لأنّ الأخيرة –في رأيهم– غدت مجرّد مقاربة لغويّة تمهيديّة محدودة الآفاق. وكان (مكاولي) قد صرّح في أوّل الأمر أنّ الدّلالة التّوليديّة كالزّائدة الفطريّة في جنب القواعد التّوليديّة. (مومن، 2015، ص255)، وهكذا شارك عدد كبير من اللسانيين في تطوير نظريّة الدلّالة التّوليديّة (البراڤمانتاكس)، فظهرت فيها تعديلات عديدة أبعدتها تماماً عن النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة لـ(تشومسكي)

ومسّت هذه التّعديلات بالخصوص البنية العميقة، والتّمثيلات الدّلاليّة، وبعض القواعد الاشتقاقيّة الأخرى. حيث وسّعت عمليات التّحويل الاشتقاقيّة من البنية العميقة الى البنية السّطحيّة، وأدخلت مكوّن الدّلالة ثمّ مكوّن التّداول ضمن البنية العميقة للجملة، وأصبحت البنية دلالية تركيبيّة تداوليّة.

2-2- نظرية التّركيبات الوظيفيّة (Functional Syntax): يتبنّاها (كونو S.Kuno) الذي سعى إلى إدماج نتائج أعمال لغويي نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة في الأنحاء التّوليديّة التّحويليّة؛ حيث بيّن ضرورة ورود المفاهيم الوظيفيّة التي من قبيل (المحور، البؤرة، الجديد المعطى) في هذه الأنحاء باعتبارها قيودا للخصائص التّركيبيّة.

انطلق (كونو) من مبدأ أنّ التّركيب مقيّد تقييدا قويا بالنّظر إلى الوظائف الدّلاليّة والتّداوليّة والإدراكيّة التي يقوم بها اللسان الطّبيعي، وأنّ التّركيب لا يمكن أن يُفهَم الفهم الملائم إلاّ على ضوء هذه الوظائف. (المتوكّل، 1989، ص39)، وبهذا حدّد (كونو) نظرية التّركيبيات الوظيفيّة على أنّها أحد حقول اللسانيّات الوظيفيّة؛ لأنّها تقارب تحليل البنيات اللغويّة التّركيبيّة على أساس وظائفها التّواصليّة. فتُعطي الأهميّة لعلاقاتها البنوية بالإضافة إلى الوظيفة التّواصليّة لعناصر تلك البنيات.

إن الأنحاء التّوليديّة التّحويلية عنده يمكنها رصد الخصائص التّركيبيّة البحتة لظاهرة ما في إطار المكوّن التّركيبي، ورصد خصائصها الوظيفيّة في إطار المكوّن الخطابي. حيث يسوغ لها أن

تُفيد من استخدام المنظور الوظيفي في تحليل الظّواهر التّركيبيّة بإفراد مستوى للقيود الوظيفيّة الضّابطة لسلامة الجملة أو السّلاسل الجمليّة، يتضمّن مفاهيم تخضع لها القواعد التّركيبيّة مثل: (المعلومة القديمة وهي الواردة في السّياق السّابق، المعلومة الجديدة وهي غير الواردة في السّياق السّابق، المحور وهو العنصر محطّ الحديث في الجملة، البؤرة وهي العنصرُ الحامل للمعلومة الأجَدّ). (المتوكّل، 1989، ص 114)، ويتّضح أن (كونو) جمع بين التّركيبات البحتة والتّركيبات الوظيفيّة، وتأسّست فكرته على إغناء أي نموذج من النّماذج اللغوية للأنحاء التّوليديّة التّحويليّة بالتّمثيل للوظائف التّداوليّة داخل البنية العميقة عن طريق إدماج نسق من القيود المرتبطة بوظيفة التّواصل، يتضمّن هذا النّسق مفاهيم تداوليّة تقيّد بعض القواعد التّركيبيّة.

ودليل هذا الطّرح ظاهرة الحذف التّركيبي للمكوّنات غير الضّروريّة في الجملة؛ حيث يسوغ حذف المكوّن الحامل للمعلومة القديمة ويمتنع حذف المكوّن الحامل للمعلومة الجديدة؛ أي المكوّن بؤرة الجملة. (المتوكّل، 1989، ص115)، مثال: الجملة (هل تريد أن ترافقني إلى مكتبة الكليّة؟ – نعم أريد مرافقتك إلى المكتبة)، لاحظ أنّه يجوز حذف المكوّن (الكليّة) في الرّد عن السّؤال لأنّها معلومة قديمة ومدلول عليها بباقي الحوار.

وصفوة القول؛ إنّ الثّمرة الوظيفيّة للتّيار التّوليدي التّحويلي تجلّت في نظريتين لغويتين (الدّلالة التّوليديّة والتّركيبيات الوظيفيّة)، فرغم انتمائهما إلى الأنحاء ذات الطّابع التّحويلي التي تَستخدم في إواليات وصفها قواعد تحويليّة تربط بين البنية العميقة والبنية السّطحيّة؛ إلّا أنّهما حاولتا إدماج مكوّن تداولي (وظيفي) في تلك الأنحاء، بحيث تتّصل قيود هذا المكوّن اتّصالاً مباشراً بالقواعد التي يتضمّنها المكوّن الذي يضطلع برصد الخصائص التّركيبيّة.

3- التّوجّه الوظيفي لنظرياتٍ قائمة الذّات: هناك نظريات قامت بذاتها غير محسوبة على تيار لساني معين سواء بنوي أم توليدي تحويلي، ولكنها اختارت لنفسها توجها وظيفياً وهي على وجه التّحديد: نظرية الأدوار والإحالة، ونظرية النّحو الوظيفي.

3-1-نظريّة نحو الأدوار والإحالة (Role and Reference Grammar): ويُطلق عليها أيضا نظريّة التّركيب الوظيفي، اقترحها في نهاية السّبعينيّات كل من (فان فالين Van Valin) و(فولي W.A.Voley) في كتابهما (التّركيب الوظيفي والنّحو الكلّي). ويتشابه اسم هذه النّظريّة مع اسم نظرية التّركيبات الوظيفيّة لـ (كونو)، كما يتطابق مع اسم نظريّة التّركيب الوظيفي المنسوبة إلى (مارتيني)، لكنّهما تختلفان من حيث المضمون، والأخيرة استبعدناها من مجال النّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة.

تنتج الجملة في هذه النّظريّة حسب بنيات ثلاث: بنية دلاليّة (أو أدوارية) وبنية تداوليّة (أو إحاليّة) وبنية صرفيّة–تركيبيّة، وتضطلع برصد هذه البنيات الثّلاث ثلاثة أنساق من القواعد: قواعد دلاليّة وقواعد تداوليّة وقواعد صرفيّة تركيبيّة؛ حيث إن البنية الصّرفيّة–التّركيبيّة تنتج عن التّفاعل بين أنساق القواعد المذكورة وبين البنيتين: الدّلالة والتّداول، بخلاف الأنحاء التّوليديّة التّحويليّة التي تجعل المكوّن التّركيبي مستقلاّ عن المكوّنين الآخرين الدّلالي والتّداولي. (المتوكّل، 1989 ص126)، فهذه النّظريّة تتطابق مع النّظريّات الوظيفيّة السّابقة من حيث اعتماد المبدأ المنهجي الوظيفي العام القائل بأنّ الخصائص الوظيفيّة تُحدِّد الخصائص الشّكليّة الصّوريّة (التّركيبيّة الصّرفيّة) للعبارات اللغويّة؛ أي البنية اللغويّة هي انعكاس للوظيفة التّواصليّة. حيث تُشتق الجملة عبر بنيات ثلاث: بنية دلاليّة، بنية تداوليّة، بنية صرفيّة–تركيبيّة كما يلي:

أ- **البنية الدّلاليّة:** تقوم البنية الدلاليّة للجملة في هذه النظريّة على مفهومين أساسيين: مفهوم الأدوار الدّلاليّة (أو المحوريّة)، ومفهوم انقسام المحمول إلى مجموعة من المحمولات الأولى.

تُختزل الأدوار الدّلاليّة لموضوعات المحمول في دورين أساسيين: دور العامل ودور المتحمِّل، حيث: يحمل دورَ العامل الموضوعُ الدّال على المشارك الذي يُنجز الواقعة التي يدّل عليها المحمول أو يتسبّب في إنجازها أو يراقبها. ويحمل دورَ المتحمِّل، الموضوعُ الدّال على المشارك الذي لا ينجز ولا يراقب أيّة واقعة، بل يتحمل أو يتأثّر بإنجازها. (المتوكّل، 1989، ص ص126–127)، ويمكن توضيح ذلك بالمثال الآتي: الجملة (كَتبَ الباحثُ النصَّ) تتضمّن:

- (كتب): محمول فعلي؛
- (الباحث): موضوع1، ويشغل دور دلالي هو العامل؛ لأنّه المشارك الذي يُنجز واقعة المحمول؛
- (النصّ): موضوع2، ويشغل دور دلالي هو المتحمِّل؛ لأنّه المشارك الذي يتأثر بإنجاز الواقعة.

ويظهر أن هذين الدّورين الدّلاليين مُعمَّمان؛ تندرج تحتهما عدة مفاهيم من نظريّة النّحو الوظيفي وخاصّة الوظائف التّركيبيّة (الفاعل والمفعول)، والوظائف الدّلاليّة (المنفّذ، المتقبّل المستقبل، الأداة، الظّرف).

ويمكن أن ينقسم مدلول المحمول إلى محمولات أساسيّة (أولى) يربط بينها مخصّص (أو رابط). (المتوكّل، 1989، ص128)، مثال: (يمحو الطّالب الكلمة)؛ تُصاغ البنية الدّلاليّة للمحمول (يمحو) كما يلي: [(الطّالب يفعل شيئاً) جعل (صار لا مكتوب الكلمة)]، حيث (جعل) هي الرّابط الجملي الذي يربط بين الجملة المتضمّنة المحمول الأوّل (يفعل) وتدّل على الحدث المعلِّل، والجملة المتضمّنة المحمول الثّاني (صار لا مكتوب) وتدّل على الحدث المعلَّل.

إنّ جميع مكوّنات الجملة لا تأخذ الأهميّة نفسها في البنية الدّلاليّة، حيث تميّز هذه النّظريّة بين ثلاثة قطاعات أساسيّة (النّواة والصّلب والهامش)، فيشكّل نواة الجملة محمولها سواء مركبّا أم بسيطا، ويشكّل صلب الجملة العناصر التي تعدّ موضوعات للمحمول، أمّا هامش الجملة فيتضمّن العناصر الدّالة على ظروف الحدث (الزّمانيّة، المكانيّة) وعلى المشاركين الثّانويين في الحدث. (المتوكّل، 1989، ص129)؛ مثال: الجملة (أعطى الأستاذُ الطّالبَ كتاباً اليومَ في المكتبة) تتكوّن بنيتها الدّلاليّة من القطاعات التّالية: النّواة وتعادل المحمول الفعلي (أعطى) الدّال على الواقعة أو الحدث، الصّلب ويتضمّن المكوّنات المشاركة أساساً في إنجاز الواقعة (الأستاذ، الطّالب، كتاباً) الهامش ويحوي الظّروف (اليومَ، في المكتبة).

وتتحكّم المخصّصات في العناصر التي تشكّل حيّزها، وتنقسم إلى مخصّصات النّواة ومخصّصات الصّلب ومخصّصات الجملة ككل؛ حيث إنّ مخصّص الجهة مخصّص نووي يأخذ حيّزاً له النّواة فيتّصل بمحمولها دون غيره، وإنّ مخصّص الصّيغة مخصّص صلبي يأخذ حيّزاً له الصّلب، وإنّ المخصّص الزّماني مخصّص صلبي وهامشي، يأخذ حيّزا له المحمول وموضوعاته وإنّ مخصّص القوّة الإنجازيّة مخصّص جملي، باعتباره حيّزا للجملة برمّتها. (المتوكّل، 1989 ص ص130-131)، وهذا التّحكم من قبل الرّوابط أو المخصّصات في عناصر الجملة الدّاخلة في حيّزها يتطابق تماما مع فعل الأدوات النّافية والأسوار.

ب- البنية التّداوليّة: البنية التّداوليّة هي البنية المنظَّمة على أساس الأدوار الخطابيّة التي تحملها مكوّنات الجملة، حيث يتحكّم في تنظيم هذه البنية نوع المعلومات (قديمة/جديدة) التي تحملها المكوّنات بالّنظر إلى حمولة الجملة الإخباريّة، كما تبنى بقيّة مكوّنات الجملة على مكوّن رئيسي يشكّل مركز الاهتمام، يسمّى القيمة التّداوليّة أو العماد. وبين العماد والمحور خصائص مشتركة إلاّ أنّ العماد عنصر داخلي من عناصر الجملة ذاتها، في حين أنّ المحور عنصر خارجي، يتموقع خارجها ويفصل عنها بوقف. (المتوكّل، 1989، ص131)؛ نمثّل بالجملة (الكتابَ قرأه الطّالبُ)، عمادها هو (الكتابَ)؛ لأنّه عنصر داخلي في الجملة، تحدّده عوامل خطابيّة مثل كونه معطى ومحال إليه، ولأهمّيته التّداوليّة يأخذ الموقع الأكثر بروزاً، أمّا الجملة

(الكتابُ، قرأه الطّالبُ)، فكلمة (الكتابُ) هي محور وليس عماداً؛ لأنّه عنصر خارج عن الجملة وقد فُصل عنها بفاصلة. وهذا التّعريف للمحور يوافق تعريفه الذي جاء في نظريّة النّحو الوظيفي.

ج- البنية التّركيبيّة الصّرفيّة: تنتج عن تفاعل البنيتين الدّلاليّة والتّداوليّة، ويتجلّى مدى تحديد الخصائص الدّلاليّة والخصائص التّداوليّة للخصائص التّركيبيّة الصّرفيّة، أساسا، في ترتيب المكوّنات وفي الوسم الإعرابي، حيث تتموقع المكوّنات ذات الحمولة الإخباريّة (المعطاة) في حيّز المواقع الأولى من الجملة، في حين تتموقع المكوّنات ذات الحمولة الإخباريّة (الجديدة) في حيّز المواقع الأخيرة. (المتوكّل، 1989، ص132)؛ ويظهر ذلك في تقديم المفعول على الفاعل في اللغة العربيّة مثال: الجملة (قرأ الروايةَ الطّالبُ)، ترتيب مكوّناتها الأصلي هو أن يتأخّر المفعول (الروايةَ) عن الفاعل (الطّالبُ) بالنّظر إلى وظيفته التّركيبيّة، لكن المفعول تقدّم عن الفاعل؛ لأنّه دال على الشّيء الذي يشكّل محطّ الحديث، وحامل معلومة معطاة يتقاسم معرفتها كل من المتكلّم والمخاطب، أما الفاعل فتأخر لأنه حامل معلومة جديدة، فهذه الجملة قد تأتي جواباً للسّؤال (من قرأ الروايةَ؟).

ويشمل الوسم الإعرابي جميع وسائل التّأشير لوظائف الموضوعات الاسميّة الواردة في الجملة، كالصُّرفات الإعرابية والرّتبة، حيث يُمَيَّز إعرابياً في بعض اللغات بين المكوّنات الصلبيّة والمكوّنات الهامشيّة؛ فالأولى تحمل إعراباً محايداً (غير موسوم)، في حين تحمل الثّانية إعراباً موسوماً عن طريق إضافة الحروف. حيث يمكن التّأشير لوظائف المكوّنات الصّلبيّة كالعماد والمفعول برتبة المكوّنات (التّقديم والتّأخير)، وبمطابقة الفعل لإحداها من خلال لاصقة بالفعل تعتبر علامة مطابقة (من حيث العدد والجنس والشّخص). (المتوكّل، 1989، ص134)، وبالرّغم من أنّ هذا الكلام وُضع على أساس انطباقيته على كثير من اللغات الأجنبيّة، إلاّ أنّه يمكن أن نجد في اللغة العربيّة أمثلة تناسب الفكرة.

ونضع لذلك المثال الآتي: جملة (المجتهدون ينجزون أعمالهم في الوقت) تتضمّن مكوّنات هامشيّة هي الظّرف الزّماني (في الوقت) وتمّ وسمه إعرابياً بحرف الجر (في)، أمّا بالنّسبة للمكوّنات الصّلبيّة فنجد العنصر (المجتهدون) هو مكوّن صُلبي تمّ إعرابه حيادياً دون وسم بل بالتّأشير إلى وظيفته التّركيبيّة (الفاعل) عن طريق المطابقة مع الفعل من حيث (الجمع: واو الجماعة، التّذكير)، والتّأشير إلى دوره التّداولي (العماد) بالرّتبة من خلال تقدّمه على المكوّن النّووي وهو الفعل (ينجزون)، وكذلك المكوّن الصّلبي (أعمالهم) تمّ التّأشير لوظيفته التّركيبيّة (المفعول) عن طريق الرّتبة والمطابقة مع الفعل.

يُلحظ في نظريّة نحو الأدوار والإحالة أنّها نظريّة تنطبق عليها المعايير الوظيفيّة التّداوليّة وظهرت في الوقت الذي نشط فيه أصحاب التّيار التّوليدي التّحويلي، إلاّ أنّها نشأت بذاتها وتأسّست خارج هذا التّيار ولم تتأثّر بمبادئه التي تأثّر بها بعض البراغيين الجدد، أمثال (دانيش) الذي رأى ضرورة تدعيم نظريّة الوجهة الوظيفيّة بالقواعد التّحويليّة.

وتَعزَّز موقف نظريّة الأدوار والإحالة من النّظريّة التّوليديّة بصفة عامّة، ومن قواعدها التّحويليّة بصفة خاصّة، مع ظهور نظريّة النّحو الوظيفي التي جعلت إبعاد التّحويلات من المبادئ الأساسيّة لجهازها الواصف.

3-2- نظريّة النّحو الوظيفي (Functional Grammar): نظريّة النّحو الوظيفي هي النّظريّة الأخيرة حالياً لتاريخ النّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة، وآخر محطّاتها، ظهرت سنة 1978 على يد اللساني الهولندي (سيمون ديك)، وقد أطلق عليها (أحمد المتوكّل) اصطلاح النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، ووصفها بأنّها الأقرب إلى النّظريّة الوظيفيّة المثلى، وهي موضوع دراستنا في فصول بحثنا، وسنتطرّق إليها نظرياً وتطبيقياً بشكلٍ موسّعٍ في باقي مواضعها من البحث.

ويمكن تلخيص بيانياً ما تناولناه في مبحث انعطاف اللسانيّات الحديثة والمعاصرة نحو الاتّجاه الوظيفي من خلال الجدول الآتي.

جدول رقم 05: أهم النّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة الحديثة

أصول النّظريّات	المتوّجهة وظيفياً تداولياً	أهمّ روادها
نظريات التّيار البنوي	نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة	ماثيزيوس، دانيش، فيرباس.
	نظريّة النّحو النّسقي	هاليداي، هادسون.
نظريّات التّيار التّوليدي التّحويلي	نظريّة الدّلالة التّوليديّة (البراقمانتاكس)	روس، لاكوف، مكاولي.
	نظريّة التّركيبات الوظيفيّة	كونو.
نظريّات قائمة بذاتها	نظرية نحو الأدوار والإحالة(التّركيب الوظيفي)	فان فالين، فولي.
	نظريّة النّحو الوظيفي	سيمون ديك.

لقد بدأ الاتّجاه اللّساني الوظيفي بنظريّات تأسّست وظيفيّا وهي نظريّة الوجهة الوظيفيّة التي أسّسها (ماثيزيوس) وطوّرها أتباعه من مدرسة براغ، ثمّ نظريّة النّحو النّسقي لـ(هاليداي) التي تأثّرت بأفكار (فيرث) ومدرسة لندن، وقد سارت النّظريتان في إطار التّيار البنوي، وتزامنت مع النّظريّات التّوليديّة التّحويليّة الأولى، حيث أفضى الصّراع بين النّموذج التّحويلي والنّموذج الوظيفي إلى ظهور نظريتين وظيفيتين هما: نظريّة التّركيب الوظيفي لـ(فان فالين) و(فولي) ونظريّة النّحو الوظيفي لـ(سيمون ديك)، وحُسم الصّراع لصالح النّموذج الوظيفي منذ أواسط السّبعينيّات عندما

دخل المكوّن التّداولي إلى النّظريات المؤسّسة في إطار التّيار التّوليدي التّحويلي، وخصوصاً نظريّة البراڤمانتاكس عند (روس) و(لاكوف) و(مكاولي) ونظريّة التّركيبيات الوظيفيّة عند (كونو).

إنّ ما يجعل كل هذه النّظريّات توصف بالوظيفيّة هو سعيها لوضع مبادئ عامّة تضبط علاقة اللغة بالسّياق، وصياغتها لأجهزة واصفة تُقرُّ بأنّ الوظيفة التّواصليّة تحدّد البنية وأنّ هذه الأخيرة هي انعكاس لها، وتربط البنية الصّرفيّة التّركيبيّة بالبنية الوظيفيّة (الدّلاليّة والتّداوليّة)، وفي ما يلي نبيّن الفرق الجوهري بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة وفق المقاربة اللسانيّة الحديثة.

ثانياً- الفرق بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة: تراجع (المتوكّل) عن التّقسيم السّابق، والقائل بأنّ النّظريّات اللسانيّة تنقسم إلى قسمين: نظريّات وظيفيّة ونظريّات صوريّة، واعتبَرَهُ يؤدي إلى بعض المغالطات؛ إذ لا يعقل أن يُبنى نحو يرصد الجوانب التّداوليّة للّغات الطّبيعيّة في غياب جوانبها الصّوريّة.

يقول (المتوكّل) في هذا الصّدد: «إنّ التّمييز بين أنحاء صوريّة وأنحاء وظيفيّة غير وارد؛ إذ إنّ الأنحاء جميعَها صوريّة بالضرورة، وإنّ التّمييز المطابق لواقع التّنظير في الدّرس اللغوي هو التّمييز الذي يقابل بين أنحاء وظيفيّة وأنحاء غير وظيفية». (1989، ص11)، لكنّه عاد لينطلق مرّة أخرى من معيار مفهوم وظيفة اللسان الطّبيعي في التّفاعل داخل المجتمعات البشريّة، واقترح أن يعوَّض التّمييز الدّراج بين النّظريّات الصّوريّة والنّظريّات الوظيفيّة بالتّمييز بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة.

ورأى أن مبدأ الوظيفيّة يتيح التّمييز بين تيّارين عامّين:

- التّيار الوظيفي: يشمل النّظريّات اللسانيّة التي تسعى إلى تفسير الخصائص الصّوريّة للّغات الطّبيعيّة بربط هذه الخصائص ووظيفةَ اللسان الطّبيعي التّواصليّة؛

- التّيار غير الوظيفي: يشمل النّظريات اللسانيّة التي تجعل من مبادئها المنهجيّة العامّة أنّ بنية اللغات الطّبيعيّة يسوغ وصفها وتفسيرها بمعزل عن وظيفتها التّواصليّة. (المتوكّل، 1989 ص13)؛ يعني أن جميع النّظريّات اللغويّة هي نظريّات صوريّة، تصف اللغات الطّبيعيّة بواسطة جهاز صوري يرصد خصائصها، وتستخدم عدة منطقيّة رياضيّة في النّمذجة، يُسعى بواسطتها إلى التّمثيل المجرّد لمختلف جوانب الظّاهرة اللغويّة.

وليس ثّمة تناقض في الجمع بين الوظيفيّة والصّوريّة؛ إذ يمكن تقسيم النّظريّات الصّوريّة إلى وظيفيّة أو غير وظيفيّة؛ حيث إنّ النّظريّات الوظيفيّة تصف صورة اللسان الطّبيعي انطلاقا من

وظيفته التّواصليّة باعتبار أن الأخيرة هي التي تحدّد الصّورة، أما النّظريّات غير الوظيفيّة فتعتمد مبدأ استقلال بنية اللسان الطّبيعي عمّا يمكن أن يؤدّيه من وظائف تواصليّة. ورغم ذلك تتشابه النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة في بعض الخصائص، غير أنّ ما يخالف بين هاتين الزّمرتين أكثر ممّا يؤالف بينهما، ويمكن إجمال ذلك في ما يلي:

أ- **وجوه الائتلاف:** تأتلف هذه النّظريات في العناصر الآتية:

1- تهدف إلى وصف خصائص اللغات الطّبيعيّة وتفسير ظواهرها ووضع نحو كلّي يجمع بين اللغات وتتفرّع عنه أنحاء خاصّة لوصف كل لغة على حدة.

2- تصوغ نماذج صوريّة لتمثيل الظّواهر الموصوفة، كما تصوغ أنحاء قدرة لا أنحاء إنجاز أي تصف قدرة المتكلّم ومعرفته للغته التي تمكّنه من الإنجازات في مواقف تواصليّة معيّنة.

3- تفرد جميع هذه النّظريّات، بدرجات متفاوتة، مستويات للتّمثيل للجوانب التّركيبيّة والجوانب الدّلاليّة والجوانب التّداوليّة. (المتوكّل، 1989، ص14)، ونُسجّل أمام قلّة هذه النّقاط الائتلافيّة الكثير من النّقاط الخلافيّة بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة.

ب- **وجوه الاختلاف:** يمكن نبينها في الجدول الآتي:

الجدول رقم 06: وجوه الاختلاف بين النّظريّات الوظيفيّة والنّظريّات غير الوظيفيّة

النّظريّات الوظيفيّة	النّظريّات غير الوظيفيّة
اللغة نسق رمزي يؤدي عدة وظائف أهمّها وظيفة التّواصل.	اللغة نسق مجرد يؤدي عدة وظائف أهمّها وظيفة التّعبير عن الفكر.
تُرصد خصائص بنية اللغة بربطها بوظيفة التّواصل والطّبقات السّياقة المستعملة فيها.	توصف خصائص بنية اللغة دون اللجوء إلى وظيفتها وبمعزل تام عن سياقات استعمالها.
القدرة هي معرفة المتكلّم للقواعد التّواصليّة (التّركيبيّة والدّلاليّة والصّوتيّة والتّداوليّة).	القدرة هي معرفة المتكلّم للقواعد اللغويّة البحتة (التّركيبيّة والدّلاليّة والصّوتيّة).
يتعلّم الطّفل العلاقات القائمة بين الأغراض التّواصليّة والوسائل اللغويّة المتحققة بواسطتها.	يتعلّم الطّفل نحو اللغة مستعينا بالمبادئ التي فطر عليها.
الكليّات اللغويّة هي مبادئ صوريّة-وظيفيّة.	الكليّات اللغويّة هي مبادئ صوريّة يفطر عليها الطّفل.
إفراد مستوى مركزي لتمثيل الخصائص التّداوليّة ليحدّد مع المستوى الدّلالي خصائص المستوى الصّرفي-التّركيبي.	بعضها يضع قواعد لا تقوم مع المستوى الدّلالي إلاّ بالتّأويل التّداولي للبنيات المولّدة تركيبيا.

ويمكن التّأكيد –من هذا الجدول– على أنّ أهمّ فارق بين الزّمرتين هو أن النّظريّة الوظيفيّة تفترض أنّ الخصائص الصّوريّة (الصّرفيّة–التّركيبيّة والصّوتيّة) لا يتسنّى وصفها وتفسيرها بصورة كافية إلا إذا عُدت نتائج للتّفاعل القائم بين مستويي الدّلالة والتّداول في البنية الوظيفيّة؛ لأنّهما يتضمّنان كلّ المعلومات التي تحتاجها الخصائص الصّوريّة. في حين أنّ النّظريّة غير الوظيفيّة تعتبر الخصائص الصّورية للّغة مقوّمات مستقلّة عن الدّلالة والتّداول، فتصفها وتفسّرها من الدّاخل في معزل عن الوظيفة؛ أي دون اللجوء إلى عوامل دلاليّة أو تداوليّة.

بناءً على ما سبق؛ تكون الأنحاء الوظيفيّة كلّها أنحاء صوريّة، على اعتبار أنّها تخصّص في جهازها الواصف مستوى للوظائف التّركيبيّة (النّحويّة)، في حين لا تكون الأنحاء الصّوريّة أنحاء وظيفيّة؛ لأنّها تصف البنية اللغوية بمعزل عن الوظيفة التّواصليّة من جهة، ولا تمثّل للوظائف الدّلاليّة والتّداوليّة، أو تعتبر هذه الوظائف مشتقّة من المكوّن التّركيبي من جهة أخرى. إلاّ أنّ (المتوكّل) رغم ضبطه التّمييز بين النّظريّة الوظيفيّة والنّظريّة غير الوظيفيّة؛ يبدو أنّه لم يستطع التّخلّص من الوصف الصّوري للنّظريّات غير الوظيفيّة لذلك نجده في كتاباته اللاحقة لا يزال يستعمل لفظة صوري/صورية بدل غير وظيفي/غير وظيفيّة.

ويشهد على ذلك قوله: «يمكن للمشتغل بأبستمولوجيا الفكر اللساني وبتاريخ هذا الفكر واتّجاهاته أن يميّز بين تيّارين أساسيين اثنين: تيّار صوري يقف في مقاربته للّغات الطّبيعيّة عند بنيتها لا يكاد يتعدّاها، وتيّار وظيفي يحاول وصف بنية اللغات الطّبيعيّة، يربطها بما تؤدّيه هذه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشريّة» (المتوكّل، 2006، ص19)، ولم تستقر الكثير من النّظريّات اللسانيّة الحديثة في الوصف الصّوري البحت وحاولت أن تقارب الاتّجاه الوظيفي التّداولي.

وقد تفرّعت عن النّظرية التّوليديّة التّحويليّة عدّة نماذج متباينة منها: الدّلالة التّوليديّة التّركيبات الوظيفيّة، النّظريّة المعيار، النّظريّة المعيار الموسّعة، نظريّة الرّبط العاملي، النّحو العلاقي، النّحو المعجمي الوظيفي، كما واكبت تطوّر هذه النّظريّة نظريّات أنحاء وظيفيّة أخرى كالنّحو المركّبي المعمّم، ونحو مونتاغيو. (المتوكّل، 1989، ص13)، لكن اتجّه من هذه النّظريّات إلى الوجهة الوظيفيّة نظريتان فقط هما: نظريّة الدّلالة التّوليديّة ونظريّة التّركيبات الوظيفيّة.

ويُسجَّل أنّ النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة تراجعت عن نموذجها الأوّل الذي اقتصر على المكوّنين التّركيبي لتوليد البنيات التّركيبيّة والصّوتي لتأويلها صوتياً، وأضافت في السّتينيّات المكوّن الدّلالي ليقوم بتأويل دلالي للبنيات التي يولّدها المكوّن التّركيبي، ثمّ أضافت بعد عشر سنوات في

نموذجها (النّظريّة المعيار الموسّعة) قواعد تداوليّة داخل المكوّن الدّلالي تقوم بإسناد تمثيل تداولي للبنية السّطحيّة. (المتوكّل، 1989، ص ص34-35)؛ أي أضافت قواعد فقط تضطلع بدور تأويلي لبنيات مولّدة تركيبيا، وليس مكوّناً تداوليا يضطلع بتحديد الخصائص التّركيبيّة الصّرفيّة.

إنّ الكثير من المدارس والنّظريّات اللسانيّة الحديثة يوصف بالوظيفيّة مثل: المدرسة الوظيفيّة الفرنسيّة (مارتيني) والمدرسة النّسقيّة (هاليداي) ومدرسة براغ (دانيش)، ونظريّة النّحو الوظيفي (ديك)، ونظريّة الأفعال اللغويّة في فلسفة اللغة العاديّة، ونظريّة الفرضيّة الإنجازيّة (لاكوف) ونظريّة التّركيبات الوظيفيّة الأمريكيّة (كونو)، وهاتان الأخيرتان مدمجتان في نماذج النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة، بل إنّنا نجد في الدّرس اللغوي القديم إرهاصات واضحة للوظيفيّة وإن لم تستعمل هذا المصطلح. (المتوكّل، 2006، ص43)، وحقيقة الأمر أنّها ليست كلّها نظريّات وظيفيّة بالنّظر إلى شروط النّمذجة وإلى المفهوم الحديث المبيّن آنفاً. وقد سبق الحديث بأنّ من مظاهر الصّوريّة عمليّة النّمذجة؛ وهي صياغة نموذج أو جهاز واصف قمين بالتّمثيل الملائم لجوانب الظّاهرة اللغويّة المروم وصفها.

ويشترط (المتوكّل) لفرز هذا الخلط في الوصف أن يستجيب الجهاز الواصف للنّظريّة الوظيفيّة لشرطين هما:

1- الشرط الأول: أن يتضمّن مكوّنا لتمثيل الجوانب التّداوليّة بالإضافة الى المكوّنات التي تتكفّل بالتّمثيل للجوانب الدلّاليّة والتّركيبيّة الصّرفيّة والصّوتيّة.

2- الشرط الثاني: أن يكون منظّما على أساس أنّ الجوانب التّداوليّة تحدّد الجوانب التّركيبيّة الصّرفيّة؛ أي على أساس أن يكون من دُخُولِ قواعد المكوّن التّركيبي خَرْجُ قواعد المكوّن التّداولي. (1989، ص100)، وبمقتضى هذين الشّرطين تُقصى الأنحاء التي لا يتضمّن نموذجها المكوّن التّداولي، أو التي تتضمّن المكوّن التّداولي، لكنّه يحتّل فيها موقعا لاحقا بالنّظر إلى المكوّن التّركيبي الصّرفي كأن يكون مكوّنا تأويليا تطبّق قواعده على خرج المكوّن التّركيبي الصّرفي.

ويُعدُّ النّموذج اللغوي وظيفياً عندما يتضمّن مستوى قائم الذّات لتمثيل الخصائص التّداوليّة باعتبارها تسهم في تحديد البنية التّركيبيّة الصّرفيّة للجملة. وهذه الميزة متوفّرة في نماذج لغويّة متعدّدة منها ما يندرج في النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة كنموذجي (الدّلالة التّوليديّة) و(التّركيبات الوظيفيّة)، ومنها ما خرج من بيت التّيار البنوي كـ(النّحو النّسقي) و(الوجهة الوظيفيّة للجملة) ومنها ما هو نظريّة وظيفيّة قائمة الذّات مثل (الأدوار والإحالة) و(النّحو الوظيفي).

ويؤدّي ذلك المعيار إلى عدم إمكانيّة عدّ نموذج (النّظريّة المعيار الموسّعة) نحوا وظيفيا ولو توفّر فيه الشّرط الأوّل (وجود المكوّن التّداولي)، فهو يفرّد قواعد لتمثيل الخصائص التّداوليّة للبنية

السّطحيّة؛ إلاّ أنّها قواعد تأويليّة تطبّق على خرج القواعد التّركيبيّة. (المتوكّل، 1989، ص100) يعني أنّ الخصائص التّداوليّة هنا مشتقّة من الخصائص التّركيبيّة لا العكس.

ويترتّب عنه أيضاً إبعاد نظريّة التّركيب الوظيفي لـ(مارتيني) مثلا من النّماذج النّحويّة الوظيفيّة؛ لأنّها لم تدرج في وصفها مستوى لتمثيل الخصائص المقاميّة التّداوليّة، فهي على غرار الأنحاء البنوية التي تفرّغت كليّة للخصائص البنوية الشّكليّة، وقد حذّر (مارتيني) من مزالق المعنى بصفة عامّة، ودعا صراحةً إلى إبعاد المقام كليّة من الدّراسة التّركيبيّة، فلا يدرج ضمن الاتّجاه الوظيفي سوى نظريتّه الفونولوجيّة. (بعيطيش، 2006/2005، ص42)؛ ويبدو أنّ حرصه على الدّقة العلميّة والصّرامة المنهجيّة جعل دراسته تصبغ بالطّابع المادّي الذي يسهّل ضبطه وتقنينه بعيداً عن الواقع؛ ممّا يسمح لنا بتصنيف نظريّته التّركيبية ضمن النّظريّات البنوية لا الوظيفيّة.

وتتحدّد –في النّهاية– أبرز النّظريّات التي تنحو منحى وظيفياً في ست نظريّات، وقد توقّف تطويرها أو استمرار تأثيرها العلمي باستثناء ثلاث نظريّات لا تزال حاضرةً في الحقل اللساني وهي: (التّركيبات الوظيفيّة) و(النّسقية الوظيفيّة) و(نظرية النّحو الوظيفي). وهي كلّها تؤمن بمشروعيّة الوظيفة، وأداتيّة اللغة، وتبعيّة اللغة لوظيفة التّواصل، وتأثير المستعملين وسياق الاستعمال في نسق اللغة، ويمكن تمثيل هذا الكلام وفق الشّكل الآتي:

الشّكل رقم 04: النّظريّات الوظيفيّة التّداوليّة الحاضرة في الحقل اللساني

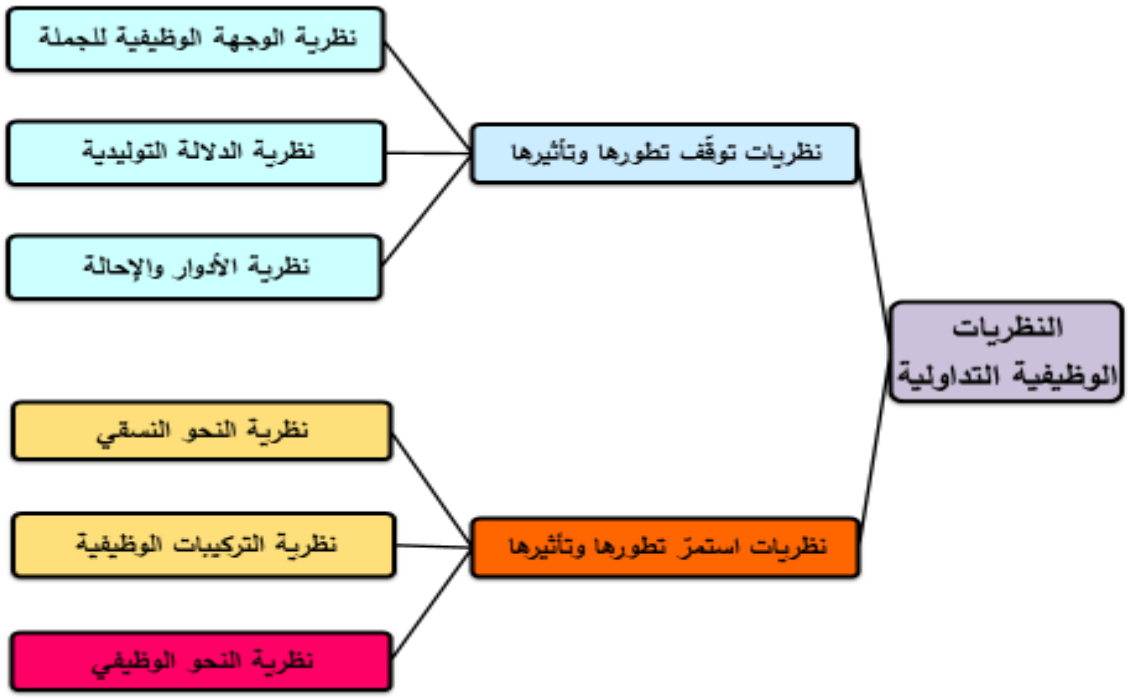

ثالثاً- المفاضلة بين النّظريّات الوظيفيّة: تتأسّس عمليّة المفاضلة والتّقويم بين النّظريّات والأنحاء الوظيفيّة عن طريق معيار مدى تحقيقها مجموعة من الكفايات؛ فالنّحو الأكفى هو النّحو المصوغ على أساس استجابته لمعايير الكفاية الوظيفيّة (التّداوليّة) والبساطة والواقعيّة النّفسيّة والكفاية النّمطيّة.

وقد بسطها (المتوكّل) (1989، ص ص90-92) مرتّبة حسب أولويّة وأهميّة المعيار نوردها موجزة كما هو آتٍ:

- معيار الكفاية الوظيفية التداولية: يُنتقى النحو الذي يصف اللغة وصفا يكشف عن ترابط خصائصها البنويّة وخصائصها الوظيفيّة (الغرض التّواصلي للّغة) عن النّحو الذي يكتفي بوصف الخصائص البنويّة. فإذا اقترح كلا النّحوين التّحليل الوظيفي يُفضَّل النّحو الذي يرصد التّرابط القائم بين البنية والوظيفة على أساس أنّ الوظيفة تحدّد البنية؛

- معيار البساطة: يفضّل النّحو الذي يتيح الوصف الأبسط؛ أي الذي يستخدم أقلّ عدد ممكن من الأواليات والقواعد لوصف ظاهرة ما؛

- معيار الواقعيّة النفسيّة: يُختار النّحو الذي يقترح قواعد ذات واقعيّة نفسيّة؛ أي تطابق العمليّات القائمة في ذهن المتكلّم/ السّامع أثناء إنتاج الخطاب أو فهمه؛

- معيار الكفاية النّمطيّة: يُنتقى النّحو الذي يرقى إلى أعلى درجات التّطبيقيّة في أنماط اللغات، فيتيح رصد خصائص أكبر عدد من اللغات المختلفة نمطياً.

وهناك معيار آخر لم يذكره (المتوكّل) هنا، لكن استدركه في موضع آخر (2006، ص ص50-53)، وهو معيار الكفاية المراسيّة، فالنّحو الأكفى مراسيا، هو الذي يرقى إلى درجة عالية من الإجرائيّة، بالنّظر إلى قدرته على وصف وتفسير خصائص بنية اللغة التي يطبق عليها، وإلى قدرته النفعيّة في حل إشكالات علوم أخرى.

وقد أثبتت التجارب العلميّة التي قيم بها في هذا المجال أن قواعد التّوليد والتّحويل ليست بذات واقعيّة نفسيّة، الأمر الذي أدى إلى تقليصها أو التّخلّي عنها كليا. (المتوكّل، 1989 ص91)، وانطلاقاً من ذلك تُفضّل النّظريّات الوظيفيّة الصّادرة خارج التّيار التّحويلي التّوليدي، عن النّظريّات الوظيفيّة المنبثقة منه.

وتُفَضّل نظريّة النّحو الوظيفي على بقيّة النّظريّات الأخرى باعتماد معياري الكفاية النّمطيّة والمراسيّة؛ لأنها طُبِّقت على لغات عدّة منها اللغة العربيّة، وقدّمت العون لبعض العلوم الأخرى كالتّرجمة والتّعليميّة والنّقد الأدبي والإعلام الآلي.

ويقترح (بعيطيش) إضافة معيار جديد اصطلح على تسميته بمعيار الدّيناميّة؛ ويقصد به قدرة النّظريّة النّحوية على الإفادة من التّراكمات المعرفيّة السابقة لها، باستيعابها وتمثّلها لإيجابياتها وتجنّبها لبعض مزالقها أو التباساتها من جهة، وقدرتها على تطوير نفسها من داخلها بتكيّفها مع المستجدّات العلميّة والمعرفيّة من جهة أخرى، وبهذا المعيار تحقّق النّظريّة لنفسها الدّيمومة والانتشار. (2006/2005، ص72)، وحول هذا المعيار المقترح تظهر نظريّة النّحو الوظيفي أكثر دينامية من غيرها؛ لأنها تكيّفت مع معطيات الدّراسات اللسانيّة الحديثة.

وقد طوّرت نفسها وأفادت من التّراكمات الإيجابيّة للنّظريّات الوظيفيّة السّابقة، وتجنّبت بعض المزالق فيها كإشكاليّة ازدواجيّة المصطلح وتداخله وتناقضه أحيانا، وعدم دقّة المفاهيم والتباسها مثل الثّنائيات (الموضوع/ المحمول)، (المحور/ التّعليق)، أين يُختلف في ضبط تعاريفها من نظريّة لأخرى. حيث وضعت نظريّة النّحو الوظيفي في مقابل ذلك مصطلحين مناسبين هما (المبتدأ) للعناصر الخارجة عن البنية الحمليّة (أو الإسناديّة) للجملة، و(المحور) للعناصر الدّاخلة في البنية الحمليّة للجملة.

ويعود (المتوكّل) بعد ذلك ليُعدّل في المعايير السّابقة تماماً، ليرى أن أساس المفاضلة بين النّظريّات الوظيفيّة هو مدى تطابقها مع المبادئ العامّة لما يسمّى بالنّظريّة الوظيفيّة المثلى التي سيأتي التّفصيل فيها في الفصل الموالي.

وتفترق النّظريّات الوظيفيّة –حسبه– بالدّرجة وليس بالنّوع، حيث تُقاس درجة وظيفيّة النّظريّة بمعيار واحد هو مدى الاقتراب أو الابتعاد من النّظريّة الوظيفيّة المثلى، فبعد عرضه النّظريّات السّابقة على هذا المعيار توصّل إلى عدم إمكانيّة إقامة تراتبيّة مضبوطة لها، واستخلص فقط أنّ أقربها إليه هي نظريّة النّحو الوظيفي، بدليل تجميعها لأكبر عدد من المنطلقات المنهجيّة الوظيفيّة وسعيها في مجاوزة الوصف إلى التّفسير الوظيفي إلى التّوجه القطاعي، وبناؤها لنحو يجمع بين الوظيفيّة والصّورنة والقابليّة للحوسبة، ولا يمثّل للمعرفة اللغويّة فحسب بل لكل الطّاقات التي تسهم في عملية التّواصل. (المتوكّل، 2006، ص53)؛ لذلك ما يهم بحثنا الآن هو النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الأفضل من بين النّظريّات الوظيفيّة السّابقة التي خضعت لمعيار المفاضلة، وهي نظريّة النّحو الوظيفي الأخيرة التي ظهرت عند (ديك) وأسهم فيها اللسانيّون من بعده وعلى رأسهم (المتوكّل) و(هنخفلد) و(ماكنزي).

رابعاً- تأسيس النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة وانتقالها إلى اللسانيّات العربيّة:

نشأت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة عند اللساني الهولندي (ديك)، حيث أرسى أسس النّحو الوظيفي واقترح الخطاطة العامّة لتنظيم مكوّناته، وقدّم الصّياغة الأوّليّة له من خلال النّموذج النّواة سنة 1978، الذي كان بداية لظهور نماذج أخرى للنّظريّة.

وانتشرت هذه النّظريّة في مختلف الأقطار العالميّة، وظلّت تكتسب المزيد من الاغتناء المعرفي بفضل النّدوات الدوليّة التي تُعقد كل سنتين تقريباً حول النّحو الوظيفي، حيث بيّن (المتوكّل) (2006، ص61) أنّها أُبرمت في: أمستردام بهولندا في 1984، أنتويرب ببلجيكا في 1986، أمستردام في 1988، كوبنهاجن بالدنمارك في 1990، أنتويرب في 1992، يورك بإنجلترا في 1994، قرطبة بإسبانيا في 1996، أمستردام في 1998، المحمديّة بالمغرب في 1999، مدريد بإسبانيا في 2000، أمستردام في 2002، أكادير بالمغرب في 2003، خيخون بإسبانيا في 2004، سان باولو بالبرازيل في 2006.

وعقدت ندوات أخرى حول نحو الخطاب الوظيفي في: لشبونة بالبرتغال في 2012، غنت ببلجيكا في 2013، خيين بإسبانيا في 2014، فينّا باستراليا في 2016، وستُعقد النّدوة المواليّة في سلفادور بالبرازيل في 23-25 جويلية 2018، بناءً على ما ورد في الموقع الالكتروني للنّحو الوظيفي: ((http://home.hum.uva.nl/fdg/Events_index.asp)، تاريخ الاطّلاع: 2018/01/02).

وقد ظهر الاتّجاه الوظيفي عموما في اللسانيّات العربيّة الحديثة عند مجموعة من اللسانيين العرب الذين درسوا في الجامعات البريطانيّة، حيث تعرّفوا على الآراء الوظيفيّة للّساني (فيرث) وانعكست في كتاباتهم، وأهمّهم: (إبراهيم أنيس) و(تمّام حسان) و(عبد الرّحمن أيّوب)، ثمّ انحصرت في ما بعد عناية كثير منهم في الوظيفيّة البنويّة للفرنسي (مارتيني) ذات البعد الوصفي فعمدوا إلى ترجمتها وتطبيق مفاهيمها في الجملة العربيّة. وقد استثنينا نظريّته من النّظريّات الوظيفيّة ذات البعد التّداولي. ثم انتقلت نظريّة النّحو الوظيفي ذات البعد التّداولي النّاشئة في هولندا عند (ديك) إلى اللسانيّات العربيّة بفضل جهود اللساني المغربي (المتوكّل)، حيث اتّسمت كتاباته بوحدة الرّؤية النّظريّة والمنهجيّة المتطابقة مع أصول اللسانيّات الوظيفيّة والمكيّفة مع معطيات اللغة العربيّة، وبالمتابعة الدّقيقة لتطوّرات نظريّة النّحو الوظيفي التي وضعها (ديك).

ويشغل الأستاذ (أحمد المتوكل) منصب عضو في اتّحاد اللسانيين المغاربة، وعضو دائم في الجمعيّة الدوليّة للتّداوليّات (IPRA) وعضو في لجنتها الاستشاريّة، وكانت له مشاركة متميّزة في معظم مؤتمراتها الدّوليّة حول النّحو الوظيفي المشار إليها في المبحث السّابق. (الزّهري، 2005

ص11)، وقد أثمرت مسيرته العلميّة الحافلة خلال أربعة عقود مضت مقالات ومصنّفات بلغت الخمسين عملاً باللغات الثّلاث: العربيّة والفرنسيّة والأنقليزيّة، ولهذه الأعمال قيمة كبيرة داخل الحقل اللساني العالمي عامّة والفكر اللساني العربي الحديث خاصّة، وهي تجسّد مقاربة حداثيّة للنّحو الوظيفي تتّخذ اللغة العربيّة الفصحى ودوارجها مادّة لها، وتتقيّد بصرامة البحث العلمي وشروطه النّظريّة والمنهجيّة المتمثّلة في تحديد الموضوع وتوضيح الإطار النّظري والدّقة والشّموليّة في التّحليل.

ويُشهد لإسهامات (المتوكّل) في تطوير النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة على الصعيد الدولي. (البوشيخي، 2005، ص78)، وكتاب (ديك) (الجزء الأول 1989 والجزء الثاني 1997) خير دليل على ذلك، إذ تم تبنّي العديد من اقتراحاته. (جدير، 2005، 163)، وقد انفرد بين الوظيفيّين بإغناء الجانب التّداولي الذي يميّز النّحو الوظيفي عن الأنحاء غير الوظيفيّة، وأثبتت أبحاثه على إمكانيّة تخطي الحاجز الفكري المصطنع حول عدم جدوى اللسانيّات الحديثة للّغة العربيّة.

لقد مرّ انتقال هذه النّظريّة إلى اللسانيّات العربيّة بثلاث مراحل كما يلي: مرحلة الاستنبات التي أخذت فيها النّظريّة مكانها بين الاتّجاهات اللسانيّة التي كانت سائدة آنذاك في العالم العربي وعلى رأسها الاتّجاه البنوي، والاتّجاه التّوليدي التّحويلي، بالإضافة إلى الدّرس اللغوي العربي القديم ثم مرحلة التّأصيل، حيث تمّ ربطُ النّظريّة بالفكر اللغوي العربي القديم، على أساس أنّ الأخير أصلٌ لمنحى وظيفي عربي يمتدّ بواسطة الدّرس اللساني الوظيفي الحديث، ثم مرحلة الإسهام في تطوير النّظريّة. (مليطان، 2014، ص15)؛ ففي المرحلة الأولى دخلت النّظريّة اللغويّات العربيّة ونبتت فيها بالوصف والتّفسير حتى انطلق منحاها اللساني جنباً إلى جنب مع باقي المناحي اللسانيّة التّقليديّة والجديدة. وفي المرحلة الثّانية تأصّل هذا المنحى بالتّراث اللغوي العربي من نحو وبلاغة وتفسير وأصول فقه بوصفه مرجعا للاحتجاج ومصدرا للاقتراض والاغتناء. وفي المرحلة الثّالثة طعّمت الجهاز النّظري ذاته ووسعت مجال انطباقيّته وإجرائيّته.

ولخّص (المتوكّل) (2006، ص161) مرحلة الإسهام بقوله: «تمّت إسهامات البحث اللساني الوظيفي العربي في ثلاثة مستويات: أولا: وضع نحو وظيفي متدرّج للّغة العربيّة يتطوّر بتطوّر النّظريّة العامّة؛ ثانيا: المشاركة في التّنظير العام بتعديل النّماذج القائمة واقتراح نماذج جديدة؛ ثالثا: فتح النّظريّة الوظيفيّة على مجالات وحقول اجتماعيّة–اقتصاديّة حيويّة إلى جانب الدّرس اللساني الصّرف».

وفعلاً، فقد أسّس (المتوكّل) لنحو وظيفي عربي منسجم في تطوّره مع النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة في العالم، وعدّل في النّماذج الوظيفيّة المطروحة قبله خاصّة في بنيتها التّحتيّة التّداوليّة

والدّلاليّة حين بادر إلى معالجة ظاهرة التحجّر في كتابه (1995)، وأضاف القوى الإنجازيّة والمستلزمة في كتابه (1986)، وغيّر الوظائف التّداوليّة بإضافة المنادى وتفريع المحور والبؤرة في كتابيه (1993/أ) و(2001)، كما ابتكر نموذج نحو الطّبقات القالبي في كتابه (2003)، ثمّ نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع في كتابه (2011).

يُضافُ إلى ذلك إسهامات جزئيّة لباحثين آخرين، كما فعل (البوشيخي) حين أضاف المكوّن التّخييلي إلى مكوّنات النّموذج المعيار في أطروحته (1998/1997)، على أساس إضافته الملكة الإبداعيّة إلى ملكات القدرة التّواصليّة العامّة التي يتمّ تفعيلها بدرجات متفاوتة بين مستعملي اللغة الطّبيعيّة. وقبل التوسّع أكثر في هذا المبحث ننوّه بأن المراحل الثّلاث السّابقة كانت للمتوّكل اليد الطولى في تشكيلها وتعزيزها من خلال مشروعه الوظيفي الذي نتطرّق إليه في المبحث الموالي.

خامساً- مشروع (المتوكّل) في النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة: إنّ النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة بعدما انتقلت إلى اللسانيّات العربيّة؛ وَضَعَ لها (المتوكّل) مشروعاً متكاملاً يعد من أنضج المشاريع اللسانيّة العربيّة الحديثة وأكملها لكونه واضح المعالم من حيث الموضوع والأهداف والأدوات المفاهيميّة والإجرائيّة، ونجح (المتوكّل) في تجسيد مشروع نحو اللغة العربيّة الوظيفي من خلال مؤلّفاته الكثيرة، واعتماداً على ثلاثة محاور كبرى تتميّز بالتّناسق والتّكامل هي: الوظيفيّة واللغة العربيّة، الوظيفيّة والتّوجه القطاعي، الوظيفيّة والتّراث اللغوي العربي.

أ- الوظيفيّة واللّغة العربيّة: لم تكن العلاقة بين اللغة العربية ونظريّة النّحو الوظيفي مجرّد تطبيق إطار نظري معين في دراسة متن لغوي بل كانت علاقة إفادة متبادلة.

تسنّى وضع نحو وظيفي للّغة العربيّة أنار جوانب جديدة منها لم يكشف عنها النّحو العربي التّقليدي ولا الأنحاء الصّوريّة الحديثة البنويّة منها والتّوليديّة التّحويليّة. وفي المقابل أسهم النّحو الوظيفي العربي في التّنظير الوظيفي العام، وكانت له بصماته في الدّفع بالنّظريّة نحو إحراز الكفاية اللغويّة والكفاية الإجرائيّة. (المتوكّل، 2006، ص ص142-143)، فقد أفادت اللغة العربيّة كثيراً الجوانب التّنظيريّة في النّحو الوظيفي، كما مكّنت هذه النّظريّات في الاتّجاه المقابل من تطوير اللغة العربيّة وتطويع الخطابات وتحليلها.

ويتأسّس هذا المحور على مبادئ مفادها أنّ اللغة العربيّة مهما خصّت خصائصُها فهي تبقى لغة بشريّة ينطبق عليها من المناهج ما ينطبق على اللغات الطّبيعيّة بوجه عام، وأنّ المنهج الوحيد لدراستها هو المنهج اللساني الذي لا يعدله منهج آخر، وأن أقرب المقاربات إلى وصف ظواهر اللغة وتفسيرها هي المقاربة التي تربط بنية اللغة بوظيفتها التّواصليّة، فتدرس هذه البنية على أساس

أنّها تابعة لتلك الوظيفة التّواصليّة إلى حد كبير. (مليطان، 2014، ص16)، من هنا تحقق المشروع المتوكّلي في وضع نحو وظيفي متكامل للّغة العربيّة، فدرس هذه اللغة صرفاً وتركيباً ودلالةً وتداولاً من منظور ترابط البنية بالوظيفة، ورصد ظواهرها فصحى ودوارج وحاول وصفها وتفسيرها، كما بحث في تنميطها وتطورها بمقارنتها مع غيرها من اللغات.

وقد توصّل إلى تنميط يميّز بين فئتين رئيسيتين من اللغات، اللغات المؤسسة دلالياً واللغات المؤسسة تداولياً –وإليها تنتمي اللغة العربية– وهي التي تُغلّب المستوى التّداولي على المستويين الدّلالي والصّرفي–التّركيبي. (المتوكّل، 2003، ص191)، ولم يكتف بهذا الحدّ من التّنميط، بل وسّعه إلى التّمييز بين نمطين من الخطابات: الخطاب المغّلب للقالب التّداولي والخطاب المغّلب للقالب الدّلالي، وهذا سعياً في الرّبط بين تنميط اللغات وتنميط الخطابات.

وأثبت (المتوكّل) من حيث تطوّرها أن اللغة العربيّة تنزع إلى الانتقال عن طريق دوارجها من فئة اللغات المغلِّبة للتّداول إلى فئة اللغات المغلِّبة للدّلالة، ويرافق هذا الانتقال بالضّرورة تغيّر اللغات من شفافة التّركيب إلى لغات كاتمة التّركيب ثمّ العكس، وأوضح أنّ الدّوارج العربيّة الآن لم تعد تحرّر الرّتبة للدّلالة على الوظائف التّداوليّة؛ لأنّها فقدت الإعراب وأصبحت الرّتبة هي الدّالة على الوظائف التّركيبيّة. (2005/أ، ص ص194–195)، والجديد عنده يكمن في توطيد انفتاح المنحى الوظيفي على الدّراسات المقارنة–التّأريخيّة، وتأسيس المقارنة على مبدأ الانعكاس البنوي وتوسيعها لتَتَمَوْضَعَ بين أنماط الخطابات وبين اللغات وبين حقب وسنكرونيّات اللغة الواحدة.

ب– الوظيفيّة والتّوجّه القطاعي: سبق (المتوكّل) غيره من الوظيفيين إلى نقل اللسانيّات من الوصف اللغوي المحض إلى الإجراء بولوج حقول التّنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وذلك بتسخير آليات النّظريّة واستثمار نتائجها في المجالات الحيويّة كالتّرجمة وتعليم اللغات وتحليل النّصوص وأنماط التّواصل اللغوي وغير اللغوي والاضطرابات اللغويّة النّاجمة عن الأمراض النّفسيّة والعقليّة، وهذا تأكيداً لفكرته التي نافح عنها دوماً وهي وجوب إحراز أية نظريّة لسانيّة كفايتين اثنتين: كفاية لغويّة، وكفاية إجرائيّة حين تُطبَّق النّظريّة نفسها في قطاعات اجتماعيّة واقتصاديّة.

وثَوَتْ خلف هذا التّوجه القطاعي منهجية تقوم على ثلاث أطروحات متلازمة دافع عنها (المتوكّل) في مناسبات كثيرة هي: أولاها، أن مستعمل اللغة يصدر عن نموذج ذهني واحد مهما اختلفت مجالات استعمال اللغة، وثانيتها، أنّ مقاربة التّواصل وتعليم اللغات والاضطراب اللغوي مجالات لا تقتضي بناء نظريّة مستقلّة لكل مجال بل يجب أن تؤول إلى إطار نظري ومنهجي

واحد، وثالثتها، أنّ مقاربة هذه المجالات وغيرها يجب أن تؤطّرها نظريّة لسانيّة واحدة تجمع بين كفايتين اثنتين: كفاية الوصف والتّفسير في دراسة اللغة باعتبارها موضوعا قائم الذّات وكفاية الإجراء في القطاعات ذات الصّلة باللغة. (المتوكّل، 2011، ص10)، وقد تميّز مشروع (المتوكّل) في الدّرس اللساني العربي بهذا المحور الذي برز في الكفاية الإجرائيّة خصوصاً في تمحيص انطباقيّة النّموذجين اللذين ابتكرهما: نحو الطّبقات القالبي ونحو الخطاب الوظيفي الموسّع.

واقترح (المتوكّل) أن يتمّ تعليم اللغات عن طريق الوظائف لا البنيات، وذلك بفحص الخصائص الوظيفيّة (الدّلالية والتّداوليّة) للظّاهرة اللغوية المروم تلقينها، ثمّ الانتقال إلى فحص الخصائص البنويّة التي تشمل الوسائل المسخّرة لتحقيق الخصائص الوظيفيّة السّابقة. وهي المسطرة نفسها التي طبّقها في معالجته لترجمة النّصوص حيث أثبت أنّ التّرجمة لا تكون بين عبارتين بل تكون بين بنيتين تحتيتين لعبارة مصدر وعبارة هدف، بواسطة قواعد تعبير ونحو مقارن ومعجم مزدوج. (2006، ص153 وص ص156-157)، وهذا انطلاقاً من الفكرة الوظيفيّة المركزيّة النّاصّة على أنّ ما يؤالف بين اللغات هو ما تتوفّر عليه في بناها التّحتيّة من خصائص دلاليّة وتداوليّة، وليس ما يوجد في بناها السّطحيّة من خصائص صرفيّة وتركيبيّة وصوتيّة.

وقد أشرف (المتوكّل) بالنّسبة للاضطرابات اللغويّة على بحوث انتهى فيها الباحثون إلى أن النّحو الوظيفي يمكّن من رصد الاضطرابات اللغويّة الثانوية خلف الاضطرابات اللغوية، وجُلّها اضطرابات تداوليّة. (مليطان، 2014، ص18)، وقد تمت هذه الأبحاث في إطار نحو الطبقات القالبي.

وشكّل متنا لهذه الأبحاث تسجيلات لبعض المرضى نفسياً أو عقلياً مكنت من تصنيف تلك الاضطرابات حسب نوع الخلل ومحطه بالنّظر إلى المستوى اللغوي المختل (بلاغي، علاقي تمثيلي) أو إلى إحدى طبقاته (إنجاز، وجه، وظائف تداولية) أو بالنّظر إلى مقومات تناسق الخطاب، مثل انعدام المحور أو البؤرة أو انكسار السّلسلة المحوريّة في الخطاب بالانتقال غير المبرّر من محور إلى آخر. (المتوكّل، 2006، ص158)، ولعلّ تصحيح الاضطراب اللغوي هنا يكون بالحثّ على تناسق الخطاب بالمحافظة على السّلسلة المحوريّة، ومحاولة إبراز الوظائف التّداوليّة والقوّة الإنجازيّة للعبارة اللغويّة، وإذا تمّ التعاون بين الباحث اللساني والطّبيب النّفسي يمكن

إيجاد التّعالق بين الاضطرابات اللغويّة والإصابات النّفسيّة والعقليّة، وتشخيص تلك الأمراض ومعالجتها.

ج- الوظيفيّة والتّراث اللّغوي العربي: إنّ هذا الجزء في غاية الأهميّة من مشروع (المتوكّل) لأنّه يُعدّ بمثابة إنصاف ورد الاعتبار للفكر اللغوي العربي القديم، وهي ميزة عند هذا الباحث تختلف عن بقيّة اللسانيين العرب المحدّثين، حيث لم يقف من المنجز التّراثي موقف المقلّل أو المقوّض، وإنما اعتبره أصلاً ممتداً في المنجز الحديث، ويُفاد منه بإعادة قراءته.

يرى (المتوكّل) أنّ للدّرس اللغوي القديم سماته وخصائصه التي هي ناتج سياقه التاريخي ومحيطه المعرفي، لذا تلافيا للإسقاط والحيف معاً، يجب أن نُحكّم في تقويم هذا النتاج ما نُحكّمه في تقويم النّظريّات اللسانيّة الحديثة خاصة معايير علوم العصر وتقنياته، إلاّ أنّ هذا التباين لا يرفع وجود مفاهيم ومقاربات وظيفية في التّراث اللغوي وإن سمّيت بمصطلحات معارف ذلك العهد. (2006، ص54)، وهنا لم يقف (المتوكّل) عند حدود القراءة التّمجيديّة للتّراث اللغوي العربي التي تقود للكسل الفكري وتسدّ باب الاجتهاد، بل اتّصفت قراءته بالتّفاعليّة التي تجمع بين التّراث والنّظريّات الحديثة في موقفٍ منصفٍ لكليهما بعيدٍ عن التّقديس أو الإلغاء، فتنظر إلى هذين الفكرَين اللغويين من زاوية معرفيّة خطابيّة ترقُب عناصر التّفاعل والتّداخل والتّلاقح المعرفي الممكنة والمحتمَلة لإغناء الفكر اللساني الإنساني.

وينطبق هذا مع الوصف الذي عرضه (مصطفى غلفان) حين رصد ثلاثة أنواع من قراءات اللسانيين العرب المحدّثين الرّامية إلى إبراز قيمة التّراث اللغوي ضمن الفكر اللساني الحديث.

فهناك قراءة ممجّدة له واضعة إيّاه في درجة علميّة أعلى من النّظريّات اللسانيّة الحديثة نجدها مثلا عند (عبد السلام المسدي)، (نهاد الموسى)، (جعفر دك الباب)، (رمضان عبد التوّاب)، وهناك قراءة إصلاحيّة تستهدف تخليص النّحو العربي من المعوقات العالقة به من تجريد وتعليل وحذف وعامل وتقدير، وأبرزها كتابات (تمام حسان)، وهناك قراءة تفاعليّة تحاول إعطاء التّراث اللغوي مكانته اللائقة به في الفكر اللغوي الإنساني، لخلق تفاعل بينه وبين اللسانيّات الحديثة قائم على الأخذ والعطاء والقرض والاقتراض، ويعد (المتوكل) أبرز من كتب فيها. (غلفان 2013، ص ص186-188)، ويشمل الفكر اللغوي العربي القديم علوماً عديدة من نحو وصرف وبلاغة ومعجم وفقه اللغة وأصول فقه وتفسير وغيرها، وقد أرسى (المتوكّل) منهجيّة علميّة عامّة

قمينة بتأطير إعادة قراءة هذا التّراث ووصله بالبحث اللساني الوظيفي الحديث تعتمد على المبادئ الآتية:

1- تَحَاشَي الانطلاق من نظريّة بعينها حديثة أم قديمة، ووضع ميتا-نظريّة تعلو جميع النّظريّات وتشكّل المرجع والحكم الوحيدين في القراءة والمقارنة معاً؛ هي النّظريّة الوظيفيّة المثلى التي يكفل تحكيمها الإقساط وتلافي الإسقاط لجميع النّظريّات الوظيفيّة حديثة أم قديمة. (المتوكّل 2006، ص170)، وهكذا يخضع التّراث اللغوي العربي للتّحكيم الوظيفي دون إجحاف أو محاباة وسنعود في الفصل الموالي لبيان مبادئ النّظريّة الوظيفيّة المثلى.

2- رَفَعَ مفهوم القطيعة المعرفيّة عن علاقة اللسانيّات الحديثة بالتّراث اللغوي، واعْتَبَرَ المنحى الوظيفي العربي الحديث تطوراً وامتداداً طبيعياً للتّراث العربي. (المتوكّل، 2008 ص07) حيث لا قطيعة تفصل بينهما خلافاً لما يعتقد، ويكمن التباين بينهما في اختلاف الظروف التّاريخيّة التي تحيط بإنتاجهما.

3- يُتَّخَذُ التّراث اللغوي من اللسانيّات الحديثة أحد الأوضاع الثّلاثة التّالية: وضع المرحلة التّاريخيّة كحقبة من حقب مسار فكري واحد، ووضع المرجع الذي يمكن أن يوفر الحجّة الخارجيّة عند الحاجة، ووضع المخزون المعرفي بوصفه مصدر اقتراض لآراء ومقاربات لم تفقد ورودها رغم مرور الزّمن. (المتوكّل، 2010، ص12)؛ أيْ إقامة حوار بين اللسانيّات الوظيفيّة الحديثة والتّراث اللغوي العربي على أساس أنّه تاريخ ومصدر تُؤخذُ منه مفاهيم وتحليلات تُغْنِي المقاربة الوظيفيّة للّغات، ومرجع يُحتكم إليه للحجاج بورود مقاربة ظواهر لغويّة عربيّة معيّنة.

4- تُعَدُّ عمليّة الاقتراض هذه عمليّة إدماج جزئي مؤقّت ونسبي بعد إعادة صياغة ما يدمج ولا تعني بحال من الأحوال إلغاء المصدر المقترض منه. (المتوكّل، 2010، ص12)، وهذا البرنامج القرائي التّفاعلي الذي صاغه (المتوكّل) يعتبر النّص القديم نصا معرفيا مفتوحا للقراءة على الدّوام، يغتني من النّصَ الحديث كما يغتني هذا الأخير من محاورته.

وتتعامل هذه النّظرة مع النّصين بمنطق يتوخّى الإقساط والاستيعاب المتبادل، على فرض أن التّراث اللغوي العربي أصل من أصول الوظيفيّة الحديثة وأحد روافدها، ينتظمان في مسار فكري واحد، ويجود مستودعه عليها بالحجج الخارجيّة ويقرضها مفاهيم لا تزال قائمة بذاتها.

وتطبيقاً لهذه المنهجيّة وتدليلاً على جدواها، حاول (المتوكّل) في كتابه: (المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد) أن يرصد ويتتبع معالم المنحى الوظيفي الذي يتخلّل الدّرس اللغوي العربي القديم مراعيا الفارق التّاريخي والمعرفي. وفعل الشّيء نفسه من قبل في

بحثه: (اقتراحات من الفكر اللغوي لوصف ظاهرة الاستلزام التّخاطبي)، وكتابه: (من قضايا الرّابط في اللغة العربية)، وكذلك فعلت (نعيمة الزّهري) في كتابها: (التّعجّب في اللغة العربيّة من الفكر اللغوي العربي القديم إلى النّحو الوظيفي).

وقد توصّل (المتوكّل) إلى أنّ الفكر الدّلالي في علوم اللغة العربيّة هو تنظير وظيفي في العمق قائم على المبادئ الوظيفيّة الأساسيّة، وهو أصل من أصول اللسانيّات الوظيفيّة العربيّة الحديثة ويدفعها إلى الإغناء والتّطوير. (2006، ص216)، كما توصّل في كتابه: (مسائل النّحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي) إلى إرجاع مجموعة من المسائل الصّرفيّة–التّركيبيّة وردت في أبواب متفرّقة من كتب النّحو العربي كالنّعت المقطوع والمستثنى والمعطوف المفصول والجمل التي لا محلّ لها من الإعراب والبدل والمبتدأ (مقدمّاً ومؤخرّاً) إلى ثلاث قضايا وظيفيّة كبرى هي (المتّصل/ المنقطع) و(المدمج/ الملحق) و(المركز / الرّبض).

ويُراد أن الدّرس اللساني الحديث ليس مجرد بديل مصطلحي للنّحو والبلاغة القديمين، بل تربطه مع التّراث اللغوي العربي علاقة امتداد لأصل تسمح بإحيائه واستثماره، وأن هذا التّراث يأوي إلى أساس معرفي واحد هو الأساس الوظيفي، من حيث المفاهيم والمنهج.

وقد عالج (غلفان) إشكاليّة (علاقة لسانيّات التّراث باللسانيّات الحديثة)، فأدرج موقف (المتوكّل) منها لمّا اعتبرها علاقة امتداد وتطوّر؛ وعقّب على ذلك بأنّ (المتوكّل) يؤمن بأهميّة اقتراحات الفكر اللغوي القديم ويعطيها قيمتها، كما أنّه لا يبقى في حدود اقتراحات القدماء بل يساير اللسانيّات الوظيفيّة الحديثة، مما يجعل كتاباته الوظيفيّة تعكس روحا علميّة تقوم على المناقشة والنقد البنّاء والأخذ بأورد الافتراضات والاقتراحات. (غلفان، 2000، ص276)، فإذا كانت جلّ الدّراسات اللسانيّة العربيّة الحديثة قد أثارت مسألة استثمار التّراث اللغوي العربي؛ فإنّ الدّرس الوظيفي واحد منها، لم يُبقِ نفسه بمنأى عن هذه القضيّة، حيث تعامل (المتوكّل) مع هذا التّراث في بعده التّصوري عن طريق إعادة القراءة والتّمثّل، ثمّ في بُعده المِراسي باستهداف الاستثمار والاختبار.

وانطلق من إجرائه مراجعة نقديّة لبعض المحاولات التي أخفقت في عمليّة قراءة الفكر اللغوي العربي القديم، فوضع ضوابط منهجيّة محددة لفعل القراءة، واستثمر كنوز هذا التّراث والاقتراحات الوظيفيّة الحديثة، فحدد وشائج الاختلاف والائتلاف بينهما واستفاد من التلاقح المعرفي الموجود بينهما، ثم سعى إلى تجسير العلاقة بين هذا التّراث والنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الحديثة، واستطاع

تجسيد الموقف الاستمراري لتلك العلاقة وإعادة بعث قوّة ومناعة اللسانيّات العربيّة، وتطوير اللسانيّات الوظيفيّة وانفتاحها على النّصوص ومختلف القطاعات.

سادساً- انفتاح النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة على الدّراسات النّصّيّة: كانت أبحاث النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة في بداياتها الأولى منحصرة في أطر جمليّة فحسب؛ لأسباب عمليّة برنامجيّة لكن سرعان ما تغيّر مجال انطباقيتها وامتدّ ليشمل النّص.

رأى الوظيفيّون أن مبدأ الوظيفيّة ومبدأ التّداوليّة يقتضي وجود تواصل عن طريق خطاب ما وأنّ هذا الخطاب قد يكون نصاً أو جملة أو حتّى كلمة، فمفهوم الخطاب عندهم مُحدّدٌ بمعيار وظيفي وليس بمعيار بنوي؛ لأنّه ينسحب من حيث ما صدّقه على «كل ملفوظ/مكتوب يشكّل وحدة تواصليّة تامّة» (المتوكّل، 2003، ص22)، وكان الانطلاق بدراسة الجملة في النّموذج النّواة للنّظريّة عمليّة مرحليّة أوليّة فقط، سبقت دراسة النّص ومهدّت لها، إلاّ أنّ بنية الجملة في النّحو الوظيفي تبقى هي البنية الأساس التي أُسقطت على بنية النّص.

وقد بنى (ديك) نموذجه المعيار سنة 1997 على أساس إسقاط بنية الجملة على بنية النّص مكوّنات وعلائق، يقول: «أظنّ أنّها فكرة جيّدة أن نفترض أن العلاقات الوظيفيّة الواردة داخل الجملة يمكن أن تُسقط على مستوى النّص» (ديك، 1997/ب، ص432)، وعلى هذا أشار (ديك) إلى أن النّحو الوظيفي ليس نحو جملة بالمفهوم الصّوري بل هو نحو خطاب نظرا لتوجّهه الوظيفي التّداولي، ودعا إلى الانتقال به من نحو الجملة إلى نحو النّص.

وتصدّى (ديك) في الفصل الأخير من مؤلّفه (1997/ب) لعمليّة توسيع النّحو الوظيفي وبيان كيفيّة الانتقال به من الجملة إلى النّص، كما أفرد (المتوكّل) في هذا الباب كتاباً بأكمله (2001) سمّاه (قضايا اللغة العربيّة في اللسانيّات الوظيفيّة-بنية الخطاب من الجملة إلى النّص) يشرح فيه هذا المشروع الانتقالي.

ويمكن أن نلخّص المنطلقات الأساسيّة لمشروع النّحو الوظيفي النّصي كما يلي:

1- يجاوز الخطاب في النّحو الوظيفي الجملة المنفردة إلى مجموعة من الجمل التي تشكّل نصاً كاملا يتمّ به التّواصل بين مستعمليه، يقول (ديك): «لا يتواصل مستعملو اللغة الطّبيعيّة عن طريق جمل منعزلة بل إنّهم يكوّنون من هذه الجمل قطعا أكبر وأعقد يمكن أن نطلق عليها اللفظ العام (الخطاب)... وبما أنّ الجمل، باعتبار بنيتها الدّاخليّة، تتأثّر بعدد من العوامل الخطابيّة يكون وضع نظريّة مثلى للجملة المنعزلة من قبيل المستحيل» (1997/ب، ص409)، بهذا تجاوز اهتمام نظريّة النّحو الوظيفي بالجمل المنعزلة إلى الجمل المندرجة في خطابات تامّة، وليس هذا

المفهوم وليد نظريّة النّحو الوظيفي، بل هو مقترض من أفكار (هاليداي) في لسانيّات النّص ونظريّة النّحو النّسقي. فليس النّص مجرد سلسلة اعتباطيّة من الجمل المرصوفة، وإنّما هو مجموعة من الجمل المتّسقة والمنسجمة وتشكّل وحدة تواصليّة قائمة الذّات، ولذلك يستحيل تحقيق مشروع نحو الجملة المنفردة؛ لأنّ البنية الدّاخليّة للجملة يحددها النّص الذي ترد فيه.

2- تتضمّن كل من بنية النّص وبنية الجملة مستويين؛ المستوى العلاقي والمستوى التّمثيلي وكما للجملة نواة هي المحمول (فعل، اسم، صفة...) فإن للنّص نواة أيضاً هي مجموع محمولات الجمل التي تكوّن النّص. (المتوكّل، 2003، ص98)؛ يعني أنّ البنيتين لا تختلفان، بل تتناظران من عدّة وجوه؛ كالمستويات، والطبقات، والمكوّنات، والعلاقات.

3- النّص كالجملة ينقسم إلى وحدات، ووحداته عبارة عن قطع وقطع فرعيّة وفقرات، تقوم بين وحدات النّص علاقات يحددها نمط النّص فهي تناظر العلاقات القائمة بين وحدات الجملة وتقوم بالأدوار التي تقوم بها الحدود في الجملة، وتحمل الوظائف الدّلاليّة والتّداوليّة نفسها التي تحملها الجملة. (المتوكّل، 2003، ص99)، مفاد هذا أنّ بنية النّص تتكرّر في قطعه وفقراته وفي الجملة، وهذا ما أدّى بالوظيفيين إلى تبنّي أطروحة التّماثل البنوي بين الجملة والنّص وفكرة البنية النّموذجية للخطاب.

تبعاً لهذه الأسباب؛ تُدورك التّنظير في النّحو الوظيفي النّصي، حيث أُضيف إلى جهود (سيمون ديك) في نموذجه النّواة سنة 1978 ونموذجه المعيار سنة 1997 نماذج جديدة تمثّلت في: نموذج نحو الطّبقات القالبي من طرف (المتوكّل) سنة 2003، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي من طرف (هنخنفلد) و(ماكنزي) سنة 2008، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع من طرف (المتوكّل) سنة 2011، فتوسّعت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة باستبطانها خمسة نماذج أساسيّة نوضّحها في الشّكل الموالي:

الشّكل رقم 05: تعدّد نماذج النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة

وتكون هذه الأعمال نتيجةً لهذا المشروع المقترح، واستجابة لمعايير الكفاية للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، وانسجاماً أيضاً مع طموحات (ديك) (1997/ب، ص409) حين قال في هذا الباب: «إذا أرادت نظريّة النّحو الوظيفي أن ترقى إلى مستوى معايير الكفاية التي اشترطتها على نفسها تحتّم عليها على المدى البعيد، أن تضع نحواً وظيفياً للخطاب»، وهذا سيكون له نصيب من استعمال أدوات النّماذج الثّلاثة الأخيرة لمساءلة النّص في الدّراسة التّطبيقيّة من هذا البحث، بعدما نتعرف أكثر على المنطلقات الكبرى للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة في الفصل الموالي.

خلاصة: عرضنا في هذا الفصل إلى ضبط إبستيمولوجي للنّظريّة الوظيفيّة التّداولية، تبيّن أنّها اغترفت من علوم شتّى أهمّها فلسفة اللّغة العاديّة، المنطق، الريّاضيّات، علم النّفس المعرفي اللسانيّات البنويّة، اللسانيّات التّوليديّة التّحويليّة، اللسانيّات التّداوليّة.

لقد اتّخذت اللسانيّات الحديثة والمعاصرة منحى وظيفياً؛ من خلال بروز نظريّة الوجهة الوظيفيّة للجملة في مدرسة براغ، ونظريّة النّحو النّسقي في مدرسة لندن، وكلتاهما من داخل بيت التّيار البنوي، وظهور كلّ من نظريّة الدّلالة التّوليديّة (البراڤمانتاكس)، ونظريّة التّركيبات الوظيفيّة من تحت جناح التّيار التّوليدي التّحويلي، مما أفضى إلى نشوء نظريّات وظيفيّة أخرى قائمة الذّات تمثّلت في نظريّة نحو الأدوار والإحالة (التّركيب الوظيفي) ونظريّة النّحو الوظيفي.

وحقَّ الحكم على النّظريّات المذكورة بأنها نظريّات وظيفيّة تداوليّة؛ لأن أجهزتها الواصفة للظّاهرة اللغويّة تضيف بنية وظيفيّة إلى جانب البنية الصّرفيّة التّركيبيّة، وتُدرج مكوّناً تداولياً داخل البنية الوظيفيّة، غير أن نظريّة النّحو الوظيفي أُثريت بمفاهيم ومصطلحات تلك النّظريّات، واكتمل نضجها؛ حتى غدت الأكثر انسجاماً مع منطلقات النّظريّة الوظيفيّة المثلى التي تشرئبُّ إلى إحراز الكفاية اللغويّة؛ والكفاية الإجرائيّة؛ بجميع مستوياتهما في اللغات الطّبيعيّة؛ ومختلف الأنماط الخطابيّة.

إنّ هذه النّظريّة التي ظهرت في العالم الغربي قد أوجدت لنفسها مكاناً في اللسانيّات العربيّة بفضل جهود (أحمد المتوكّل) في نقلها وتأصيلها وتطويرها وإغنائها؛ من خلال المشروع الوظيفي الذي تبنّاه، وقام على ثلاث دعائم رئيسيّة هي: ربط الوظيفيّة باللغة العربيّة، واستثمار المنحى الوظيفي للفكر اللغوي العربي القديم، وتوجيه النّظريّة إجرائياً لخوض جوانب لغوية وخطابية في قطاعات اجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة.

الفصل الثّاني
الفرشُ الوصفيُّ للنّظريّةِ الوظيفيّةِ التّداوليّةِ

مدخل: تسعى النّظريات الوظيفيّة إلى بلوغ النّظرية الوظيفيّة المثلى التي تقوم على أربع ركائز عامة هي: المنطلق والهدف والنّمذجة وموضوع الدرس؛ حيث إنَّ المنطلق يشمل عشرة مبادئ منهجيّة، والهدف هو تحقيق الكفاية اللغويّة والإجرائيّة، والنّمذجة هي قدرتها على صياغة نماذج لنفسها، يكون لكلِّ نموذجٍ جهازٌ واصفٌ له، وموضوع الدّرس هو المادة المتّخذة للبحث والوصف في النظريّة. ونظريّة النّحو الوظيفيّ أو النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة كما سمّاها (المتوكِّل) واحدة من بين تلك النّظريات التّي حقّقت تجانساً مع النّظرية المثلى المقترحة من طرفه وهي تحذو حذوها، حيث تقوم على تلك الرّكائز الأربع.

سنعرض في هذا الفصل الفرش الوصفيّ للنّظريّة الوظيفيّة التداوليّة من حيث الركائز الكبرى التي تعتمدها، فنتطرّق إلى المبادئ المنهجيّة للّنظريّة وهي: (أداتية اللّغة، وظيفة اللّغة الطبيعيّة نسق استعمال اللّغة، سياق استعمال اللّغة، مواقف مستعمل اللّغة، القدرة اللغويّة، تحكّم الوظيفة في البنية، إسهام الوظيفة في تطور اللّغة، الكلّيات اللّغوية، اكتساب اللّغة)، ثم موضوع الدرس اللساني في النظريّة.

ونتناول بعدها المطامح العامّة للنظريّة وهي سعيها في تحقيق مجموعة من الكفايات: (التداوليّة، النفسية، النّمطية، الإجرائيّة، الحاسوبيّة، التّطورية)، ثم نمرّ إلى بيان أبرز نماذجها الواصفة وهي: (النواة، المعيار، نحو الطبقات القالبي، نحو الخطاب الوظيفي، نحو الخطاب الوظيفي الموسّع)، ثم نقارن بين هذه النماذج، ونختم بتوضيح الإطار المنهجيّ المعتمد في الدراسة التّطبيقيّة التّي تلي هذا الفصل.

أولاً- المنطلقات المنهجيّة للنّظريّة: نقصد بالمنطلقات المنهجيّة للنّظريّة المبادئ التي تُؤسّس وظيفيتها في الدّرس اللّساني المعاصر، وهي أسس ثابتة لا تحيد عنها، وتشترك فيها جميع النّماذج اللّغويّة للنّظريّة.

قدَّمَ (المتوكّل) هذه المبادئ موجزة كمداخل لأعماله الأولى، وتحديداً في كتابه (الوظائف التّداوليّة في اللّغة العربية) (1985، ص ص10-11)، ثمّ في كتابه (دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفي) (1986، ص ص9-11)، لكن يبدو أنه رأى في ما بعد أنّ هذه التمهيدات لم تعد كافية لتمكين القارئ من الاطّلاع الدّقيق والواسع لها، فبسّطها بالتفصيل في كتابه: (اللّسانيات الوظيفيّة مدخل نظري) (1989، ص ص49-93)، ثمّ جعل يُذَكّر بها في كثير من المؤلّفات

التّي صدرت بعده، مثل كتاب (التّركيبات الوظيفيّة قضايا ومقاربات) (2005/أ، ص47–52) وكتاب (المنحى الوظيفيّ في الفكر اللّغويّ العربيّ الأصول والامتداد) (2006، ص ص19–36) وكتاب (قضايا اللّغة العربيّة في اللّسانيات الوظيفيّة) (2013، ص ص21–30)، ومن البديهيّ أنّ النّظريات الوظيفيّة منذ نشأتها وخلال تطورها تتفاضل في ما بينها، من حيث المنطلقات والأهداف غير أنّ هذه المفاضلة في النهاية تتمّ حسب رأي (المتوكّل) في إطار نظريّة وظيفيّة مثلى.

ويقول (المتوكّل) في هذا السياق: «إنّ اختبار النّظريات اللّغويّة الوظيفيّة قديمها وحديثها والمفاضلة بينها لا يمكن أن يتمّ من داخل إحداها، وإن ظُنّ أنّها بلغت من الكفاية العلميّة ما بلغت بل يتمّ في إطار ميتا–نظريّة عامّة تعلوها جميعا نقترح تسميتها النّظرية الوظيفيّة المثلى» (2006 ص15)، ويؤدّي هذا إلى اعتبار النّظريّة الوظيفيّة المثلى هي النّظريّة الهدف التي يُرجى من جميع النّظريّات الوظيفيّة أن تصل إلى مستواها المنهجيّ والعلميّ، وقد نحَت منحاها النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، أو ما دُرج على تسميتها بنظريّة النّحو الوظيفي، واتّفقت معها إلى حدّ بعيد، واجتمعت فيها جميع مضامين مبادئها المنهجيّة العشرة.

وتشكّل هذه المبادئ منطلقات الأرومة المنهجيّة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، وتتمثّل في: أداتية اللّغة، وظيفة اللّغة الطبيعيّة، نسق استعمال اللّغة، سياق استعمال اللّغة، مواقف مستعمل اللّغة، القدرة اللّغوية، تحكّم الوظيفة في البنية، إسهام الوظيفة في تطور اللّغة، الكلّيات اللّغوية اكتساب اللّغة.

1. أداتية اللّغة: تقارب النّظريات اللّسانية الوظيفيّة البنية اللّغوية باعتبارها أداة تُسخّر لتأدية أغراض ومقاصد أثناء التّفاعل البشري. (المتوكّل، 2006، ص20)؛ أي تتبنّى النّظريّة مبدأ أداتية اللّغة بخلاف التّيار اللّساني الصوري الذي يقارب اللّغة بعدّها بنية مجرّدة صِرف منعزلة عن القصد الذي تُستعمل من أجله، تتّضح لنا وظيفة هذه الأداة أكثر في المبدأ الموالي.

2. وظيفة اللّغة: يُقصد بالوظيفة هنا تلك المرتبطة باللّغة بصفة عامّة، وليس الوظائف الخاصّة التّي تعني العلاقات القائمة بين مكونّات الجملة كالوظائف الدلاليّة والوظائف التركيبيّة والوظائف التّداوليّة.

وتُعدُّ اللّغة في الأنحاء الوظيفيّة بنية وأداة في الوقت نفسه، وليست مجرّد نسق أو بناء من الخصائص الصوريّة (الصوتيّة، الصرفيّة، التركيبيّة، المعجميّة...)، وتكمن أداتية اللّغة في الوظائف التّي تؤدّيها، وللحديث عن وظيفة اللّغة نرى أنّه من المفيد عرض موقف التّراث اللّغوي العربيّ وموقف الفكر اللّساني الحديث قبل سَوقِ موقف النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة.

أ- **موقف التّراث اللّغوي العربيّ:** يحفل التّراث اللّغوي العربيّ بجهود قيّمة ترفعه إلى مصافّ الدّرجة العالميّة الخالدة، حيث نجد معظم اللّغويين العرب القدامي يربطون تعريف اللّغة بالغرض من استعمالها، ويكاد يتّفقون على أن وظيفة اللّغة هي تحقيق التّواصل ويُتوسّل بها للتعبير عن القصد والغرض.

ويمكننا استحضار بعض الأقوال الشّائعة في هذا الصدد، يقول (ابن جنّي): «حدّ اللّغة أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم» (الخصائص، ج1، ص33)، ويقول (ابن خلدون): «اعلم أن اللّغة في التّعارف هي عبارة المتكلّم عن مقصوده». (المقدمة، ص546)، ويقول (عبد القاهر الجرجاني): «والنّاس إنّما يكلّم بعضهم بعضا ليعرف السّامع غرض المتكلّم ومقصوده». (2004 ص530)، ويقول (الآمدي): «إنّ دلالة الألفاظ ليست لذواتها بل هي تابعة لقصد المتكلّم وإرادته». (الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص104)، وتُلخِّص هذه الأقوال كلّها أنّ المفكّرين العرب القدامى يعتقدون بالوظيفة التّواصليّة للّغة.

ويعدُّ التعبير عن الواقع وإحراز التّواصل وظيفة مركزية لكلّ لغات مجتمعات الكائنات البشريّة، وهو عين ما بيّنه (البوشيخي) في قوله: «واللّغة باعتبارها إنتاجاً ثقافياً هي إجابة عن إشكال يتعلّق بالطريقة التّي تُمكّن الكائنات البشريّة من التواصل في ما بينها. فعلى الرغم من وجود ما لا نهاية له من الوقائع؛ فإنّ لكلّ لغة إمكان التّعبير عن هذه الوقائع لتحقيق التّواصل. فإقامة التواصل إذن هي الوظيفة المركزية لكلّ اللّغات الطبيعيّة. ويعزّز هذا الاعتقاد اشتراك كلّ العشائر الاجتماعيّة في استعمال [الأداة (اللّغة) نفسها] لتحقيق التّواصل، باعتباره نشاطاً اجتماعياً يُحدث الأفراد بمقتضاه تغييرات في معلوماتهم التّداوليّة» (2011، ص36)؛ أي أنّ التّواصل هو نشاط يقع بين أفراد المجتمع البشريّ لتبادل معلوماتهم التّداوليّة حول عوالمهم وسياقاتهم وتجاربهم ومداركهم. ويُقام بواسطة أداة ثقافية مشتركة بينهم هي اللّغة.

ب- **موقف الفكر اللّساني الحديث:** يُعتبر (جاكبسون) و(هاليداي) و(تشومسكي) من أبرز اللّسانيين المحدثين الذين تناولوا موضوع وظيفة اللّغة تناولاً منطقياً يُوازي التّناول الوظيفي الحديث ورغم أنّ وجهات نظرهم مختلفة عن المفهوم الوارد في نظريّة النّحو الوظيفيّ، إلاّ أنّها مهدت لتشكيله في الوقت ذاته.

تحدّث (جاكبسون) عن وظائف اللّغة سنة 1963، وحصرها في ستّ وظائف هي: المرجعيّة، التّعبيريّة، التّأثيريّة، اللّغويّة، الشِّعريّة، الميتا لغويّة. (يُنظر: بومزبر، 2007، ص 35-65)، حيث يحيل المتكلّم بواسطة الوظيفة المرجعيّة للّغة على واقع فيتواصل مع المخاطب، ولمّا

يعبّر عن ذاته تؤدي لغته الوظيفة التّعبيريّة، وحين يسعى إلى التأثير في المخاطب تقوم لغته بالوظيفة التّأثيريّة.

وتكمن الوظيفة الشّعرية في حالة إنتاج خطاب دال داخل نفسه؛ أي ذي دلالات داخليّة، أمّا الوظيفة اللّغوية فهي استعمال اللّغة لعبارات شبه مفرغة من مدلولها الحرفي كوسائل لَغوية لإقامة الحوار أو تمديده أو إنهائه، وتؤدّي اللّغة الوظيفة الميتا لغوية عند إحالة عبارة على عبارة أخرى مثل اللّغة الواصفة عند النحاة فالعبارتان (فاعل، مفعول) ميتا لغويتان لكونهما لا تدلاّن على واقعين في العالم الخارجي بل على نمطين من العبارات تتوفّر فيهما خصائص معيّنة.

واختزل (هاليداي) سنة 1970 وظائف اللّغة في ثلاث: التّعالقيّة، التّمثيليّة، النّصيّة، حيث تَعني وظيفة التّعالق أن اللّغة تُقيم علاقة اجتماعية بين المتكلم والمخاطب بالتّعبير عن الأدوار الاجتماعيّة القائمة بينهما مثل (الإخبار، الأمر، النهي)، وتمكين المتكلّم من اتخاذ موقفٍ من خطابه؛ كأن يوجّه خطابه على جهة من جهات (اليقين، الاحتمال، الشّك). وتؤدّي اللّغة وظيفة التّمثيل للرؤى والتّجارب التّي يعيشها المتكلّم في الواقع المرتبط بذاته أو بالعالم الخارجي، أمّا الوظيفة النصّية فتجعل اللّغة تقيم علاقات التماسك في النّص، وتربطه بالطّبقة المقامية التّي يُنجز فيها، وتُمكّن المتكلّم من تأليف خطابه في شكل نصّ، وتمكّن المخاطب من التّمييز بين النّص ومجرّد سلسلة من العبارات المتوالية. (المتوكّل، 1989، ص ص52-53)، ويبدو أن وظائف اللّغة في حقيقتها غير متناهية وتختلف باختلاف الأنماط الثّقافية والمجتمعات التّي تستعملها، ولا تهم جميعها الدارس اللغوي؛ لذلك قصرها (هاليداي) في ثلاث وظائف واردة بالنسبة لجميع اللّغات الطبيعيّة، وتنعكس في مستوى الخصائص الصورية فتحدّد بنية اللّغة.

ورأى (تشومسكي) أن الوظيفة الأساسية للّغة هي التعبير عن الفكر فحسب، في استقلال عن رقابة المثيرات أو تلبية الرّغبات أو تحقيق بعض الأهداف. (البوشيخي، 2012، ص36) ودليله في ذلك أن الشخص يمكن أن يكتب شيئاً ما لمجرّد تسجيل أفكاره دون أن تكون له نيّة نشرها، ودون أن يكون في ذهنه أيّ مخاطب معين.

ج- موقف النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة: أجمع اللّغويون الوظيفيّون وفلاسفة اللّغة العاديّة على أنّ اللّغة تستعمل أساسا لإقامة وإتاحة التّواصل بين مستعمليها.

يقول (ديك): «يتأسّس النّحو الوظيفيّ على منظور وظيفيٍّ لطبيعة اللّغة الطبيعيّة، وهو منظور يعتبر اللّغة الطبيعيّة في المقام الأول أداة للتّفاعل الاجتماعي بواسطتها يمكن للكائنات الإنسانيّة أن تتواصل وأن تؤثّر في بعضها البعض» (1980، ص1)، وهنا يتبيّن أن موقف النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة من وظيفة اللّغة ليس ببعيدٍ عن موقف المفكّرين العرب القدامى، ويتقاطع

معه في أنّ الوظيفة الأساسيّة للّغة هي إحراز التّواصل، أمّا بالنسبة لموقف الفكر اللّسانيّ الحديث فالأمر مختلف، ففي معرض الاحتجاج لأساسية وظيفة التّواصل في مقابل الوظائف الأخرى انبرى (المتوكّل) في وضع بعض النّقود لموقف الفكر اللّسانيّ الحديث منها، شكلّت هذه النقود في الوقت نفسه دلائل لموقف النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، وهي كالآتي:

– أثبت (المتوكّل) فرعية الوظائف الستّ عند (جاكبسون) بالدّفع بأنّها لا تجتمع كلّها في خطاب واحد؛ بل مقيّدة بأنماط الخطاب؛ فالوظيفتان الشّعرية والميتالغويّة مثلاً لا تظهران إلاّ في الخطاب الشّعري والخطاب العلميّ بالتّوالي، ولا يصدق هذا على الوظيفة الإحاليّة (التّواصليّة) التي تبرز بجلاء في كلّ خطاب دون أن تختفي البتّة؛ مفاد ذلك أن الوظيفة التّواصليّة توجد في جميع أنماط الخطاب ولو بدرجات متفاوتة. وسبب بروز أي وظيفة أخرى في نمط معين من الخطابات هو الوظيفة التّواصليّة ذاتها، فمنشأ شعريّة الخطاب الشّعري مثلاً؛ هو خلق عالم إحالي عن طريق خرق بعض خصائص عالم الواقع المعيش الذي تتمّ داخله إحالات التّواصل العادي. (1989 ص54)؛ أي أنّ النّصوص قد تختلف من حيث الوظيفة الأكثر هيمنةً، لكنّها لا تخلو من الوظيفة التّواصليّة التّي قد تحتلّ مكانة فرعيّة في النصّ. وأنّ كل الوظائف الأخرى تتحدّد انطلاقا من وظيفة التّواصل.

– اعتبر (المتوكّل) أنّ الوظائف الثلاث عند (هاليداي) تؤول إلى وظيفة واحدة هي التّواصل؛ لأنّ التّواصل العادي بين شخصين يقتضي الإحالة على واقع خارجيّ أو واقع داخليّ مرتبط بذات أحد المتخاطبين (الوظيفة التمثيليّة)، واتّخاذ دور من الأدوار الاجتماعيّة (الوظيفة التّعالقية)، وتنظيم الخطاب حسب مقتضيات مقام إنجازه (الوظيفة النّصيّة)؛ لأنّ التّواصل لا يتمّ إذا اختل أحد هذه العناصر الثلاثة، كأن يكون الخطاب غير ذي فحوى (غير محيل على واقع خارجيّ أو ذاتيّ)، أو أن يكون غير ذي صيغة (ألاّ يكون إخباراً أو استفهاماً أو أمراً،...)، أو ألاّ يطابق بناؤه مقام إنجازه، أو غير ذي بنية على الإطلاق. (المتوكّل، 1989، ص55)؛ يعني أنّ الوظائف الثلاث المرصودة عند (هاليداي) ليست مستقلّة كما يبدو، بل لا تعدو أن تكون مجرّد أوجه وأبعاد مختلفة لحصول وظيفة واحدة؛ هي وظيفة التّواصل؛ حيث إنّ التّواصل العادي يتطلّب أن تتوفّر هذه العناصر ثلاثتها، فما هي إلّا مقومات تتكامل لإتمام عملية التّواصل.

– فنّد (المتوكّل) فكرة (تشومسكي)، بحجّة أنّ الشّخص الذّي يكتب لمجرّد تسجيل أفكاره، هو في الحقيقة يوجّه خطابه بطريقة غير واعية إلى مخاطَب ما، موجودٌ وجودَ قوّة لا وجودَ فعل؛ لأنّ بنيّة المكتوب منظّمة أصلاً على أساس التّوطئة وتوضيح الأفكار وتيسير فهمها، بالإضافة إلى استعمال الأدوات اللّغوية. (المتوكّل، 1989، ص55)، ويدلّ على ذلك أن المتكلّم إذا كتب شيئاً

ليس بغرض نشره؛ إنّما هو بهذه الطريقة قد يخاطب نفسه، أو قد يكون المخاطَب ضمنياً غير معيّن.

والخلاصة؛ إن النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة تسعى لمقاربة اللّغة على أساس أنّها أداة للتّواصل داخل المجتمعات البشريّة، تربطها من هذا الوجه علاقات بأدوات التّواصل الأخرى غير اللّغويّة المرئية والمسموعة.

إنّ مستعملي اللّغة يُسخّرون أداة اللّغة لتحقيق أغراض متعدّدة كالتّعبير عن الفكر والأحاسيس والمعتقدات والتّأثير في الغير بإقناعه أو ترغيبه أو ترهيبه أو مجرّد إخباره بواقعة ما، إلاّ أنّ هذه الأغراض وإن تعدّدت واختلفت من حيث طبيعتها آوية إلى وظيفة واحدة هي تحقيق التّواصل بين أفراد المجتمع، وأنّ التّواصل يمكن أن يتمّ عبر قنوات أخرى كالإشارة والصّورة إلاّ أنّه لا يرقى قوّةً ودقّةً إلى التّواصل المتوسّل فيه باللّغة، وقد تتضافر أدوات التّواصل غير اللّغوية مع اللّغة في أنساق تواصليّة مركبّة كالشّريط السينمائيّ مثلاً. (المتوكّل، 2006، ص21)، بمفهوم أنّ للغات الطّبيعية وظيفة أساسيّة وأصليّة هي وظيفة التّواصل بين المتعاملين بها، وما عداها فهي وظائف فرعيّة تتفرّع عنها (تعبيريّة وإقناعيّة وغيرهما). لكن هل يمكن وصف بنية اللّغة دون اعتبار ظروف وسياقات استعمالها؟

3. نسق استعمال اللّغة: يختلف نسق اللّغة عن نسق استعمالها من حيث طبيعتهما؛ فالأوّل هو الخصائص الصوريّة المجرّدة للّغة (الصّوتيّة، الصّرفيّة التّركيبيّة، الدّلاليّة)، أما الثاني فهو الأعراف والقواعد التّي تضبط التّعامل اللّغوي داخل مجتمع ما، لكن توجد علاقة ارتباط وثيق بين النّسقين.

ويقول (ديك) عن هذه العلاقة: «رغم أنّ النّظريّة الوظيفيّة للّغة يمكن أن تميّز بين نسق اللّغة واستعمالها؛ فإنّها تتجنّب دراسة إحداها في غياب الأخرى، إنّها تهتم بالتّعالق بين النصّ واستعمالاته الممكنة» (1980، ص1). وبذلك لا يمكن أن تتمّ دراسة النّسق اللّغوي إلاّ في إطار تصوّر عام حول نسق الاستعمال اللّغوي لوجود علاقة ترابط وانصهار بينهما.

ويتجلّى هذا الترابط في كون نسق الاستعمال يحدّد في حالات كثيرة قواعد النّسق اللّغوي المعجميّة والدّلاليّة والصّرفيّة–التّركيبيّة والصّوتيّة، وهو ما تُعنى به اللّغويات الاجتماعيّة، حيث تختلف خصائص العبارات اللّغوية باختلاف الوسائط الاجتماعيّة كجنس المخاطب وسنّه وطبقته المجتمعيّة والمنطقة الجغرافيّة التّي ينتمي إليها. (المتوكّل، 2006، ص21)؛ فالمتكلّم مثلاً يستعمل العبارة: (ناولني الكتاب من فضلك.) إنْ كان وضعه يساوي وضع المخاطَب اجتماعياً

والعبارة: (هل تستطيع أن تناولني الكتاب من فضلك؟) إنْ كان وضعه دون وضع المخاطَب وإحدى العبارتين: (– ناولني الكتاب! – الكتاب!) إنْ كان وضعه يعلو وضع المخاطَب.

نلاحظ من خلال هذا المثال أن المتكلّم في كلّ مرّة يريد حمل المخاطب على إنجاز واقعة معيّنة تتمثّل في مناولته الكتاب، لكن نجده يُغيّر نمط العبارات اللّغويّة بحسب الوضع الاجتماعيّ للمتكلّم وعلاقته بالوضع الاجتماعيّ للمخاطَب؛ أي أنّ نسق الاستعمال يتحكّم في نسق لغته.

4. سياق استعمال اللّغة: تطوّرت اللّسانيّات الوظيفيّة في اتجاه بحث العلاقة بين بنية اللّغة ومختلف استعمالاتها؛ لأنّ اللّغة التّي ينصرف إليها اللّسانيّ بالوصف والتّفسير ليست بريئة من الخصائص الأسلوبيّة والاجتماعيّة المرتبطة بالاستعمال، فلا يمكن عزلها عن الأهداف التّي استعملت من أجلها، ولا تستطيع أن تتخلّص من التأثّر بسياق ورودها.

ونبّه (هايمز) إلى أنّ دراسة الجمل بمعزل عن سياقها الطّبيعي، وعن متكلّميها اختيار منهجيّ استنفذت الحاجة إليه، ولم يعد من اللائق العمل به؛ لأنّ عزل الجمل عن سياقها يثير شكوكا بخصوص واقعيتها من جهة، ويتجاهل دور السّياق التّواصليّ في تحديد بنية هذه الجمل من جهة أخرى (1973، ص13 و19)، وتأسيساً على هذه الفكرة؛ ينبغي للّغة كي تؤدّي وظيفتها أن تتطابق بنيتها مع سياق استعمالها المقالي والمقامي، كما يلي:

أ– السّياق المقالي: هو مجموعة العبارات المنتجة في موقف تواصلي معين، باعتبار أنّ عملية التّواصل لا تتمّ بواسطة جمل بل بواسطة نصّ متكامل في غالب الأحوال، ومن أهم مظاهر التّرابط بين عبارات النصّ الواحد ظاهرة العود الإحالي التّي تربط بين ضمير ما ومركّب اسميّ. (المتوكّل، 2006، ص22)؛ أي هو مجموعة العبارات المستعملة في قول المتكلّم أو المخاطب وذات علاقة ارتباط مع النصّ العام المتماسك المنتج من طرفهما في موقف تواصليّ واحد.

ب– السّياق المقاميّ: هو مجموعة المعارف والمدارك الآنية والعامّة التّي تتوافر في موقف تواصليّ معين لدى كل من المتكلّم والمخاطب؛ حيث إنّ المعارف الآنية هي المدركات الحسيّة (السّمعية والبصريّة وغيرهما) الموجودة في موقف التّواصل ذاته، مثل إحالة الأدوات الإشاريّة على ذوات حاضرة أثناء التّواصل، ويستطيع المخاطَب أن يتعرّف عليها، أما المعارف العامّة فهي ما يشكّل المخزون المعرفيّ الذّهنيّ للمتخاطبين حين التّخاطب حول عالم واقعهما والعوالم الممكنة الأخرى. (المتوكّل، 2006، ص23)، ويتجلّى هنا أنّ المعارف الآنية هي سياق مقاميّ آنيّ والمعارف العامّة هي سياق مقاميّ عام، والمتكلّم–السّامع يستحضر كلّ هذه المعارف أثناء إنتاج الخطاب أو فهمه، بحسب نوع الخطاب وملابسات الموقف التّواصليّ، ورغم اضطلاع المعرفة

النحويّة البحتة بالدور المركزيّ في التّخاطب؛ إلاّ أنّ خرق السّياقات السّابقة يؤدّي إلى فشل عملية التّواصل.

وقد تكون العبارة سليمة نحوا أو دلالة لكن لاحنة تداولاً؛ أي لا تحقّق التّواصل إذا خرقت السّياق المقاميّ، مثال ذلك العبارة: (خذْ هذا) هي صحيحة من حيث النّسق اللّغويّ، لكنّها لاحنة عند المخاطَب الذي لا يجد شيئاً حاضراً في المقام يحيل إليه اسم الإشارة (هذا) حتّى يأخذه، فلا يتفاعل مع عبارة الطّلب؛ لأنّها خرقت المعرفة الآنية لديه.

وتكون العبارة: (تقع جامعة مولود معمري في الجزائر العاصمة) سليمة في بنيتها اللّغوية لكنها لاحنة عند المخاطَب الذي يعلم أنّ هذه الجامعة توجد في مدينة (تيزي وزّو) وليس في (العاصمة) فلا يقبلها؛ لأنّها خرقت إحدى معارفه العامّة. وأيضاً في حالة الاستفهام الذي تتعدّد مقاصده أو يتعلّق بشيء غير موجود في مخزون المخاطب أصلاً، فلا يجد له هذا الأخير أي جواب إن بالسلب أو الإيجاب، فلا تؤدّي عبارة الاستفهام وظيفتها التّواصليّة لمخالفة بنيتها سياق استعمالها المقاميّ.

5. مواقف مستعمل اللّغة: إنّ كلّ خطاب يحوي مضامين تّجاه قضايا معينة، ويستهدف قصداً أو أغراضاً محددّةً (إخبار، استفهام، أمر،...)، كما يحمل مواقف منتجه أو مستعمله من تلك المضامين.

وتُشكّل حمولة العبارة اللّغوية ثلاثة عناصر أساسية: فحواها القضوي، والقصد من إنتاجها وموقف المتكلّم من الفحوى القضويّ، هذا الأخير يتنوّع بين الموقف المعرفيّ (يقين أو شكّ أو احتمال)، والموقف الانفعاليّ (تعجّب، استغراب،...)، والموقف المرجعيّ (إسناد فحوى العبارة إلى مرجع خارجيّ قصد التملّص من مسؤولية تبليغه)؛ حيث يتّسع حيز موقف المتكلّم وتكثر وسائل تحقيقه في الخطابات الوجدانيّة وفي اللّغات الموجّهة تداوليا مثل العربيّة، ويتقلّص في الخطابات الموضوعيّة وفي اللّغات الموجّهة دلالياً. (المتوكّل، 2006، ص ص24-26)؛ أي قد تكون مواقف مستعمل اللّغة معرفيّة أو انفعاليّة أو مرجعيّة، فتظهر في خطابه علاماتٌ ووسائل لغويّة تدلّ على تلك المواقف وتؤشّر لحضوره في الخطاب، ويكون حيّز حضوره هو نفسه حيّز موقفه الذي يختلف باختلاف نمط اللّغة ونمط الخطاب.

ويروز ذلك أن حيز الموقف تابعٌ لنمطيّ اللّغة والخطاب، فيُغنى من حيث المساحة التّي يشغلها ومن حيث الوسائل المسخّرة لتحقيقه في حالة اللّغات الموجّهة تداوليّا وفي الخطابات الوجدانيّة، لكنّه ينزع إلى الضّمور في حالة اللّغات الموجّهة دلاليا وفي الخطابات الموضوعيّة كالخطاب العلميّ الصّرف.

6. القدرة اللّغويّة: انتقل همّ اللّسانيين من دراسة السّلوك اللّغويّ الفعليّ إلى دراسة القدرة اللّغويّة الثّاوية خلف ذلك السّلوك، حيث توجّهت نظرياتهم من البحث في اللّغة باعتبارها موضوعا سلوكيّا خارجيا إلى اكتشاف الواقع الذّهني الكامن خلفها عن طريق استهداف نسق المعرفة اللّغويّة الممثّلة في دماغ المتكلّم.

ويحيلنا مفهوم القدرة اللّغويّة إلى ثنائية قدرة/ إنجاز في النّحو التّوليديّ التّحويليّ الذي فصل بين القدرة والإنجاز؛ أي بين المعرفة الباطنيّة وبين الاستعمال الفعليّ لهذه المعرفة في الواقع. وجعل مجموعهما هو القدرة اللّغويّة.

فقد دافع (تشومسكي) عن أنّ ما يشكّل موضوع النّظريّة اللّسانيّة هو المعرفة اللّغويّة التّي يشكّل فيها نسق القدرة النّحويّة مكوّناً أساسياً، وهو من حيث بنيته وطريقة عمله مستقلٌ عن غيره من الأنساق العقلية كنسق الفهم المشترك للعالم والنّسق التّصوريّ والقدرة التّداوليّة، لكنّه يتفاعل معها في الاستعمال الفعليّ اللّغويّ. (1980، ص90)؛ أي أنّه جعل معرفة اللّغة تتطلّب تفاعل القدرة النّحويّة باعتبارها نسقاً تحتياً مع أنساق غير نحوية عديدة أهمّها وقائع الإنجاز باعتبارها سلوكا فعليا، وعدّ هذه المعرفة اللّغويّة الأساس الضّروريّ الذي يضطلع بدراسة اللّغة وتحديد أهدافها وكيفيات استعمالها، وهنا تتأثّر المعرفة اللّغوية للمتكلّم/ المستمع المثالي بالقدرة النّحويّة وبظروف الإنجاز الفعليّ.

ورُهن –بذلك– تقدّم دراسة الإنجاز اللّغويّ بمدى الفهم الذي يمكن إحرازه في موضوع قدرة المتكلّم النّحويّة، وحُسم أمر الإنجاز بجعله مصدر المعلومات التّي تكشف عن طبيعة تلك القدرة وتمّ التّمييز بين قدرة نحويّة وقدرة تداوليّة. (البوشيخي، 2012، ص20)؛ حيث تدلّ الأولى على معرفة خصائص الجمل الصوريّة والدلاليّة وتتضمّن قواعد تركيبيّة وصوتيّة ودلاليّة، وتدلّ الثّانية على معرفة كيفية استعمال هذه الجمل استعمالا يتناسب مع الأهداف المختلفة المرام بلوغها.

تلقّى (تشومسكي) تبعاً لذلك نقداً كبيراً من رائد اللّسانيات التّبليغيّة (هايمز)، انتهى فيه إلى أنّ (تشومسكي) لم يُقدّم نظريّة عن حقيقة القدرة والإنجاز، وإنمّا قدّم عنهما فرضيات مصوغة بلغة مجازيّة، فهو يتحدّث عن القدرة ويقصد النّحو بمعناه الضيّق، ويتحدّث عن الإنجاز ويقصد تجلّياته النّفسية، بل حين يتحدّث عن الاستعمال الخلاّق للّغة أو مناسبة القول للمقام يقصر تحليله على مستوى التركيب ويتحاشى تحليل السياق الاجتماعي. (هايمز، 1973، ص18)؛ هذا يعني أنّ القدرة النّحوية عند (تشومسكي) غير القدرة التّواصليّة؛ لأنّه جعل المتكلّم يمتلك الحريّة في قول ما تخوله له اللّغة فحسب دون قيود من المقام التّواصلي، وبذلك يكون (هايمز) قد فتح المجال أمام إعادة النّظر في مسألة القدرة اللّغوية، بطريقة علمية تجلّت بشكل واضح في النّظرة الوظيفيّة.

إنّ النّحو التّوليدي التّحويلي قد قصر القدرة اللّغوية في مهارة المتكلّم في إنتاج وتأويل الجمل والحكم على سلامة نحوها، ورأى أنّ وصف اللّغة يستقلّ عن الأوضاع التّي تنجز فيها، فتكون لدراسة القدرة أسبقية منطقية ومنهجية على دراسة الإنجاز، أمّا النّحو الوظيفي فتجاوز هذا المفهوم الضّيق ليبيّن أنّ القدرة لا يمكن تحديدها إلاّ في إطار تواصلي انسجاما مع الوظيفة الأساسية للّغة.

ويشير (المتوكّل) إلى أنّه يُقصد بالقدرة اللّغوية المعرفة التّي يختزنها المتكلّم/السّامع عن طريق الاكتساب والتّي تمكنّه من إنتاج وتأويل عدد غير متناه من العبارات السّليمة، والتيار الوظيفي لا يميّز فيها بين قدرة نحوية وقدرة تداولية كما هو الحال عند التّيار التّوليدي التّحويلي وإنّما هي قدرة تواصلية واحدة تضمّ إضافة إلى معرفة النّسق اللّغوي في حدّ ذاته معارف أخرى تتعلّق بالسّياق المقامي. (2006، ص ص26-27)؛ بذلك تكون القدرة اللّغوية هي القدرة التّواصلية؛ أي قدرة المتكلّم على التّفاعل الاجتماعي عبر توسّل اللّغة.

وتعتبر القدرة اللّغوية نسقا واحدا من القواعد الصّورية والقواعد التّداوليّة المترابطة، حيث يجب أن تتوافر في الجملة النّحوية سلامتان: سلامة بنوية، وسلامة مطابقتها للسياق المستعملة فيه. (المتوكّل، 1989، ص ص84-85)، والمقصود هنا أنّ اللّغويات الوظيفيّة ترى أنّ القدرة اللّغوية لا تنقسم إلى قدرتين متمايزتين: قدرة نحوية وقدرة تداوليّة، بل هي قدرة نحوية تداوليّة في آن واحد أو بالأحرى قدرة تواصليّة يكتسبها مستعمل اللّغة وتجعله مؤهلاً لإنتاج ما لا نهاية من الجمل النّحوية (السّليمة).

ويُصطلح على الجمل بأنّها نحوية -حسب هذا الطرح- إذا كانت تراعي القواعد الصوريّة (صوتيّة، صرفيّة تركيبيّة، دلاليّة) التّي تضبط صحّة نسقها، وتشكّل المعرفة اللّغوية عند المتكلّم/السّامع. كما تراعي أيضاً الأعراف التّي تضبط تداوليّة الخطاب؛ أي عند التّحقيق الملموس والإنجاز الفعليّ لهذه القواعد في شكل خطاب أثناء التّواصل؛ مثل: صدق البنية الإخبارية التّي تتضمّنها، سلامة ما تستلزمه من قوى إنجازيّة، وصحّة الاقتضاء؛ أي ملاءمة النّسق لما يقتضيه سياق استعماله من مواقف اجتماعيّة وتواصليّة.

ويكتسب مستعمل اللّغة الطبيعيّة -في النتيجة- القدرة اللّغوية التّي هي قدرة تواصليّة عامة تشمل كلّ المعارف اللّغوية والمعارف الخطابيّة التّي تمكنّه من إنتاج أي خطاب أو فهمه. وأمام شقي القدرة اللّغوية هذه؛ يتجلّى بوضوح أنّه لا يمكن وصف بنية اللّغة دون اعتبار وظيفتها التّواصليّة.

7. تحكّم الوظيفة في البنية: إذا كانت المبادئ الستّ السّابقة هي أكثر ما يميز التّيار الوظيفي عن التّيار غير الوظيفيّ؛ فإنّ هذا المبدأ هو أهمّ وأقوى مبادئ النّظرية الوظيفيّة على الإطلاق. حيث يجب ألّا يتّوقف عند إثبات الطبيعة التّواصليّة لوظيفة اللّغة؛ ولكن يجب أيضاً تحديد علاقة هذه الوظيفة ببنية اللّغة.

إنّ بنية اللّغات الطّبيعيّة ليست مستقلّة عن وظيفتها التّواصليّة، بل تربط بينهما علاقة تبعية حيث تحدّد الوظيفة خصائص البنية؛ إذْ يتعذّر وصف وتفسير الخصائص الصّورية للّغة دون ربطها بوظائفها، وتحكم الوظيفة بنية اللّغة عامّة كما تحكم بنية أنماطها الخطابيّة الممكنة.

ولئن اعتقد (تشومسكي) إمكانيةَ دراسة بنية اللّغة دون الانطلاق من وظيفتها، لأنّه لا يوجد ما يثبت أنّ الوظيفة تحدّد البنية، وأنّ الجوانب الوظيفيّة للّغة تُدرس في إطار نظريّة الإنجاز، وهي خارج النّحو؛ فإنّ منطلق الوظيفيين هو أنّ الوظيفة التّواصليّة تحدّد بنية اللّغة كما أنّ كلّ أداة من الأدوات التّي يستعملها البشر تأخذ البنية التّي تلائم الوظيفة المُستعملة من أجلها، دون أن يستلزم ثمّة وجود لكلّ خاصية بنوية تفسير وظيفيّ محدّد لها أو غرض تواصليّ يخصّها. (المتوكّل 1989، ص58)؛ يعني هذا أنّ الخصائص النّسقية (الصّوتيّة والصّرفيّة التّركيبيّة والمعجميّة) تحدّدها إلى حدّ بعيد الخصائص المرتبطة بوظيفة التّواصل وهي الخصائص الدلاليّة والتّداوليّة دون وجود اعتبارات وظيفيّة لازمة لكلّ خواص بنية اللّغة؛ أي ليس ثمّة شرط الاطّراد أو الارتباط المباشر في إرجاع كلّ خاصيّة بنويّة إلى مقتضيات التّواصل.

وتُسهِمُ العوامل الوظيفيّة بموجب ذلك في التّغيرات التّي تلحق النّسق اللّغوي؛ ففي المستوى الصّوتي نلحظ أنّ الأصوات والمقاطع السّهلة النّطق يجدها المتلقّي سهلة الإدراك والاكتساب، وأنّ النّبر يقع على المكوّن ذي الوظيفة التّداوليّة (البؤرة)، وأنّ التّنغيم يلازم القوّة الإنجازيّة؛ فإذا كانت حرفيةً يظهر التّنغيم التّنازليّ في الجملة الخبريّة والتّنغيم التّصاعديّ في الجملة الاستفهاميّة، أمّا إذا كانت مستلزمةً فيتغير تنغيمها بحسب الغرض والمقام (التماس، أمر، تعجّب..)، وفي المستوى التّركيبيّ الصّرفيّ نجد مختلف الأدوات النّحوية التّي توظَّف لظهور قوى إنجازيّة حرفيّة أو مستلزمة، مثل: (ليت) للتمنّي، (لعلّ) للترجّي، (أَوَ) للاستفهام المستلزم الإنكار، وغيرها.

وتُحدِّد الخصائص الوظيفيّة أيضاً رتبة المكوّنات في الخطاب، حيث تحتلّ المكوّنات الحاملة للمعلومات المعطاة المواقع الأولى في الجملة، أمّا الحاملة للمعلومات الجديدة فتحتلّ المواقع الأخيرة، ويعكس الترتيب: (مبتدأ، جملة نواة، ذيل) مراحل عملية إنتاج الخطاب، أما الترتيب داخل الجملة النواة ذاتها؛ فإن المكون الحامل للمعلومة الأكثر بروزا (المحور والبؤرة) يحتل عموماً الموقع الصّدر في الجملة، حيث يبرز بالصدارة فقط المكوّن (المحور) الذي يدلّ على ما يشكّل محطّ

الحديث، ويبرز المكوّن (بؤرة جديد) الحامل للمعلومة الجديدة بالنّبر فقط، أمّا المكوّن (بؤرة مقابلة) الحامل للمعلومة المتجادل فيها فيتمّ إبرازه بالنّبر أولاً ثمّ تصديره أو فصله أو استثناؤه. (المتوكّل 1989، ص ص69–70)، ونضع الأمثلة الآتية للتّوضيح: الجملة: (الكتابُ، قرأَهُ الباحثُ، بل بَعضَهُ). يبدأ فيها المتكلّم بتحديد مجال الخطاب؛ لذا يحتلّ المكوِّن (الكتاب) ذو الوظيفة التّداوليّة (المبتدأ) الموقع المتقدّم على الجملة النّواة، ثم يتلفّظ بالخطاب ذاته المقصود إبلاغه (قرأه الباحث) ثمّ يستدرك إذا اقتضى الأمر بالمكوِّن ذي الوظيفة التّداوليّة (الذّيل) الّذي يحتلّ الموقع الّذي يلي الجملة النّواة؛ لأنّه يدلّ على معلومة لتوضيح أو تصحيح أو تعديل معلومة واردة في خطابه، وفي مثالنا (بل بعضه) هي ذيل للتعديل.

ويحتلّ (المحور) داخل الجملة النّواة ذاتها الموقعَ الصّدرَ في الجملة مثال: (اليومَ، قرأ محمدٌ الروايةَ)، وتبرز (بؤرة جديد) بالنّبر فقط، مثال: (قرأ محمدٌ الروايةَ)، أمّا (بؤرة مقابلة) فتبرز بالنّبر أولاً ثمّ تصديرها (الروايةَ قرأ محمدٌ) أو فصلها (ما قرأه محمدٌ الروايةُ) أو استثنائها (ما قرأ محمدٌ إلاّ الرويةَ)، على اعتبار هذه الأمثلة الثّلاثة الأخيرة ردودا تصحيحيّة للجملة (قرأ محمدٌ القصيدةَ).

ويتموضع المكوِّن في الجملة الموقعَ الّذي تستلزمه وظيفته التّداوليّة أولاً، وإلاّ فينظر إلى وظيفته التّركيبيّة ثمّ وظيفته الدّلاليّة، فقد احتلّ المكوّن (الرّوايةَ) في (الرّوايةَ قرأ محمدٌ) الموقعَ الصّدر في الجملة النّواة بالنّظر إلى وظيفته التّداوليّة (البؤرة)، وليس بالنّظر إلى وظيفته التّركيبيّة (المفعول) التّي تقتضي أن يلي المكوّنَ (محمّدٌ) ذا الوظيفة (الفاعل)، أو إلى وظيفته الدّلاليّة (المتقبّل) التّي تلي (المنفّذ): (محمّدٌ).

ويمكننا –في ذات المثال تقريباً– سَوقَ الجمل: (أ– قرأ محمّدٌ الرّوايةَ. ب– قرأ الرّوايةَ محمّدٌ. ج– الرّوايةَ قرأ محمّدٌ)، فهذه الجمل الثلاث ليست مترادفة ولا تؤدّي غرضا تواصليّا واحدا؛ لأنّ الجملة (أ) هي ردٌّ عن السّؤال: (مَاذا قرأ محمّدٌ؟) والجملة (ب) هي ردّ عن السّؤال: (مَنْ قرأ الرّوايةَ؟)، أمّا الجملة (ج) فهي قد تكون ردّاً تصحيحيّاً لجملة من نمط: (قرأ محمّدٌ قصيدةً)، أو ردّاً اختياريّاً عن السؤال: (أَالرّوايةَ قرأَ محمدٌ أم القصيدةَ؟) يعني أنّ رتبة المكوّنات في بنية الخطاب محكومة تداوليّاً ووظيفيّاً.

ونجد في التّراث اللّغوي العربيّ مباحث كثيرة عند الأصوليين والبلاغيين بالخصوص، تتطرّق إلى قضية تحكّم الوظيفة في البنية، وتركّزت على الجانب التّركيبيّ، في أبواب علم المعاني الّتي تهتمّ بخواص تراكيب الكلام المطابق لمقتضى الحال، يقول (السكّاكي): «اعلم أنّ علم المعاني هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترّز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره» (2000، ص70)، كما تركّزت

على الجانب الصّوتيّ والصّرفيّ في تحديد علاقة أصوات وأوزان بنى الكلمات بوظيفتها التّواصليّة وبالمعاني المشحونة بها والمعلومات التي تنقلها بين المتكلّم والمخاطب، على نحو ما نجده في جهود (ابن جنّي) خصوصاً في كتابيه: (الخصائص) و(سرّ صناعة الإعراب).

وتنجح وظيفة التّواصل إذا خلت بنية الخطاب من العوائق الّتي تحول بين المخاطب وبين تأويله، والّتي يمكن أن تنتج عن الحذف والإضافة والنّقل. (المتوكّل، 2006، ص28)، فمِن الحذف حذف مجال الخطاب مثل: الجملة (وجدته) لا يقبلها المخاطَب إلّا إذا أضاف لها المتكلّم مجال الخطاب مثل: (الكتابُ، وجدته). ومن الإضافة تعدّد إدماج العبارات الموصوليّة في الجملة نفسها فيجد المخاطب عناءً في تحليلها وفهمها. ومن النّقل تغيير رتبة المكوّنات حيث يمكن أن تتسبّب بعض النُّقول في تعسير عملية التّأويل؛ مثل وضع الجمل الاعتراضية في غير مكانها فيصعب تأويل العبارة ككل وتصبح ذات مقبوليّة دنيا.

8. إسهام الوظيفة في تطور اللّغة: كما تتحكّم وظيفة التّواصل في بنية اللّغة؛ فإنّها تسهم في تطورها، فحقل دراسة وظيفيّة لغة ما يمكن أن ينير مسائل هامّة من حقل الدّراسة التّطوريّة للّغة نفسها تزامنيا في حقب متعاقبة.

ويطمح التّوجه الوظيفيّ بسبب ذلك إلى توقّع التّطورات اللّغوية الممكنة، والرّبط بين التّنميط والتطوّر اللّغويين؛ حيث قد تتطوّر اللّغات الشّفافة الّتي تفصل التّداول عن الدلالة وتنتقل إلى لغات كاتمة توحّد بينهما، أو العكس.

وتنزع بنية اللّغات عموماً إلى الشفافية؛ لأنّ هذا النّزوع يخدم نجاح التّواصل، وتكمن الشّفافية في الفصل الصّرفي–التّركيبي بين المجال العلاقي (التّداولي) والمجال التّمثيلي (الدلالي)، فقد يطرأ على اللّغة عبر تطوّرها ما يُفقدها شفافية بنيتها أو بعضاً من هذه الشّفافية، فينمحي الفصل بين المستويين العلاقيّ والتّمثيليّ، إلاّ أنّها سرعان ما تبدأ في السّعي لاستعادة شفافيتها المفقودة تحاشياً للتعتيم المخلّ بالتّواصل. (المتوكّل، 2006، ص ص33–34)، ونضع مثالاً لذلك: الجملة (الكتابُ، وجدته) تتشكّل من المكوّن المتصدّر ويدلّ على مجال الخطاب ومن المكوّن الذي يليه ويدلّ على فحوى الخطاب، وبكثرة تكرار استعمال هذه الجملة ينتج الاشتغال، حيث ينزع المكوّن الخارجي وهو المجال إلى الاندراج داخل الخطاب ذاته؛ أي يُمتصّ من طرف الخطاب، فتتحوّل الجملة السّابقة إلى الجملة (الكتابَ وجدته)، وهنا تفقد اللّغة التّمييز بين الخطاب ومجاله، فلا تتحمّل أن يطول هذا الوضع الاستثنائي؛ لأنّه يخلّ بعملية التّواصل، فتنزع مرّة أخرى إلى العودة إلى التّركيب الأصلي الأوّل، ويتدرّج التّركيب الثاني نحو الانقراض. وهكذا نجد وظيفةَ التّواصل النّاجح تسهم في تطور اللّغة من الكتامة نحو الشّفافيّة.

ويشير (المتوكّل) إلى أنّه عبر الزمن يطرأ على اللّغات الشّفافة تغيرات تؤدّي إلى تقلّص الشّفافية تدريجيا قد ينتهي بفقدانها لأسباب خارجية وداخلية، فمن العوامل الخارجية احتكاك اللّغات كأن تقترض لغة شفّافة خاصيّة من لغة كاتمة. ومن العوامل الدّاخلية فقدان حريّة الرتبة والافتقار الصّرفي الّذي يؤدّي إلى ضمور السّمات العلاقية والتِباس التّحقق الصّرفي وتقييد التّركيب وتداخل المجالين العلاقي والتّمثيلي في البنية الصّرفيّة التّركيبيّة. (2005/أ، ص ص194-197)، حيث نجد من أمثلة العوامل الخارجيّة تأثّر العربيّة المعاصرة باللّغتين الفرنسيّة والأنقليزيّة فتقترض منهما بعض السّمات الّتي تجعلها تنتقل من البنية الرتبيّة (فعل فاعل مفعول) إلى البنية الرتبيّة (فاعل فعل مفعول).

ونجد من أمثلة العوامل الداخليّة أنّه عند الانتقال من الفصحى إلى دوارجها يُلحظ تقلّص هام للصّرفات العلاقية في مجال الإنجاز كتقلّص أدوات الاستفهام إلى أداة واحدة (واش) أو إلى التّنغيم، وفي مجال الوجه كفقدان العلامات الإعرابيّة وتقلّص اللاّصقة (نوني التّوكيد)، وأدوات التّوكيد (إنّ، قد،..)، وهو ما يُسمّى بالافتقار الصّرفيّ؛ لأنّ الوسائل الصّرفية هي الوسائل المثلى للتّعبير عن السّمات العلاقيّة، وتقلّصها يؤدّي إلى ضمورٍ في المجال العلاقي لبنية اللّغات ومن ثمّ تنقّلها من شفافيتها إلى كاتميتها.

وتعمل اللّغات الكاتمة على إعادة بناء تركيبها لاسترجاع الشّفافية المفقودة، خاصّة حين تبلغ من الكتامة درجة تجعلها على شفا الانحدار إلى خانة اللّغات غير الممكنة. (المتوكّل، 2005/أ ص201)؛ أي في حالة بلوغ نزوع اللّغات الشّفافة إلى منتهى درجة الكتامة؛ تخرج من حيز اللّغات الممكنة إلى حيز اللّغات غير الممكنة، وعندها تبدأ عملية العودة للنّمط الأصل وهو شفافية التّركيب الّذي يضمن نجاح التّواصل.

وذكر (المتوكّل) ثلاثة سبل لتحقيق هذه العمليّة هي:

- تعويض الافتقار الصّرفي مثل: الصرفتان (ليت، لعلّ) المعروفتان في الفصحى فُقدتا في الدوارج، فتمّ تعويضهما باستحداث صرفات دارجة أخرى؛

- إن فقدان الإعراب الّذي أدّى إلى تقييد الرّتبة وصرفها عن التّدليل عن الوظائف التّداوليّة أو التّركيبيّة، ونقل اللّغة من خاصيّة الرّتبة الحرّة إلى خاصيّة الرّتبة المحفوظة، تمّ تعويضه باستحداث تراكيب مخصوصة تُغني وتنوب عن الرّتبة؛

- تقوية التّطريز مثل إغناء التّنغيم وتطويعه وتنويعه ليكفل وحده الدّلالة على القوّة الإنجازيّة مثل: التّنغيمات المصاحبة لعبارة (يا سلام!) أصبحت هي الوسيلة الوحيدة لتأدية عدّة قوى إنجازيّة كالاستغراب والتعجّب والإنكار. (2005/أ، ص ص201-202)، حيث يطرأ على اللّغات الشّفافة

عوامل خارجيّة وعوامل داخليّة تجعلها تستكتم بالتّدريج حتّى تبلغ الدّرجة القصوى في الكتامة الممكنة، ثمّ تعيد بناء تركيبها للرّجوع إلى الأصل واسترجاع شفافيتها المفقودة أو بعضها.

ورغم اعتراف (المتوكّل) في هذا الموضوع بأنّه لم يجد ما يكفي للاستشهاد المتني في الوصف النّظري لرجوع اللّغات إلى أصلها (الشّفافيّة)؛ إلاّ أنّه لم يتوان في البحث عن الأمثلة المناسبة لذلك، إن في اللّغة العربيّة الفصحى أو في دوارجها. ويحاول الوظيفيون، دراسة تطوّر اللّغة من خلال أربعة جوانب أساسيّة هي: دواعيه، مجاله، اتجاهه، أنواعه.

ويرى (المتوكّل) في هذا الصّدد أنّ دواعي التّطور قد تكون خارجية ذات طابع اجتماعي مثل: احتكاك اللّغات، التّعدّد اللّغوي، تنوّع اللُّغيات داخل اللّغة الواحدة، أو داخليّة نابعة من اللّغة نفسها كفقدان الإعراب الّذي يؤدّي إلى تحوّل لغة ذات رتبة حرّة إلى لغة ذات رتبة ثابتة. أما مجال التّطوّر فيشمل البنية كما يشمل الوظيفة، بل إنّ ما يمسّ البنية راجع في الغالب إلى ما يمسّ الوظيفة. واتّجاه التّطوّر هو المراحل الّتي يسلكها تغير ما في نمط من أنماط اللّغات أو في لغة من لغات نمط واحد، وهي مرحلتان: تطوّر وظيفي ثمّ تطوّر بنوي ينتج عنه، وينقسم التّطوّر الوظيفيّ بدوره إلى مرحلتين: تطوّر تداولي فتطوّر دلالي. وتتعدّد أنواع التّطوّر؛ فقد يكون انتقالاً يجاوز النّمط الواحد إلى غيره، أو تنقّلاً ينحصر في النّمط الواحد. (2003، ص ص193-196)، ويُفاد من هذا أن دراسة تطوّر اللّغة تشمل: أسباب تطوّر اللّغة الكامنة داخل اللّغة ذاتها أو الموجودة في محيطها الخارجي. كما تتطرّق إلى مجال التّطوّر؛ حيث إنّ تغير اللّغات عبر الزمن لا ينتج عن الانتقال من بنية إلى بنية في تأدية الوظيفة نفسها فحسب؛ بل ينتج كذلك عن الانتقال من وظيفة إلى وظيفة، أو فقدان إحدى الوظائف. وترصّد اتّجاه التّطوّر الّذي يعني أنّ التّغير الحاصل في بنية المكونات (الصّرفي التّركيبي) صادر عن التّغير الحاصل في الوظيفة ممثلّة في شقي البنية التّحتية (الدّلالي والتّداولي). وتُحدّد أنواع التّطور الّذي قد يكون تحوُّلَ تنقّلٍ منحصرٍ في النّمط الواحد، أو تحوُّل انتقال بين الأنماط اللّغوية.

وقد يمسّ التّطوّر الجوانب التّداوليّة مثل: تحجّر القوّة الإنجازيّة المستلزمة فتصير حرفية كصيرورة التّراكيب الاستفهاميّة المنفيّة إلى تراكيب إخباريّة مثبتة مع تولّد سمة وجهية هي التّوكيد مثل: (ألم أعطك كلّ ما أملك؟! = لقد أعطيتك كلّ ما أملك.)، وتحجّر اللّواحق فتصير مخصّصات مثل: تحوّل اللاحقة (ما) إلى مخصّص في (قلّما، ربّما). كما يمسّ الجوانب الدّلاليّة مثل: انقلاب بعض المحمولات الأفعال إلى مجرّد أفعال مساعدة تدلّ على الجهة كأفعال الشّروع وأفعال المقاربة. وتحجّر أفعال محمولات تامّة دالّة على الحركة في أوقات معينة إلى أفعال ناقصة مساعدة (ثمّ مجرّد أدوات) وظيفتها تحقيق سمة زمنية مثل: (كان)، أو سمة جهية مثل: (أصبح

أمسى، ظلّ). (المتوكّل، 2003، ص ص197–199)؛ يعني أنّ ما نسجّله من تطوّر في البنية الصّرفيّة التّركيبيّة سببه هو تطوّر في الجوانب التّداوليّة والدّلاليّة من البنية التّحتية، فالتّطور البنوي هو نتيجة التّطور الوظيفي الّذي يبدأ بتطوّر تداولي ثم تطوّر دلالي.

ويمكن تقسيم التّطور إلى ممكن وغير ممكن؛ حيث يحكم التّطوّر الممكن مبدأ الشّفافية (مبدأ الإسقاط) الّذي يقضي بتقليص المسافة بين الوظيفة والبنية؛ أي بين التّداول والدّلالة من جهة وبين النّحو من جهة ثانية، أمّا التّطوّر غير الممكن فيحصل بسبب تباعد المسافة بين الوظيفة والبنية فتلتبس بنيتها وتنأى بها عن التّطوّر المتوقّع، ثمّ يحدث فيها تلقائيا ما يكفها عن ذلك التّباعد فيخضعها من جديد إلى مبدأ الشّفافية ويعيدها إلى حدود التّطور الممكن. (المتوكّل، 2003، ص ص212–213)؛ يدلّ هذا على أنّ التّطوّر الممكن لا يؤدّي إلى الخروج عن أحد الأنماط الممكنة ويتجّه من اللّغات ذات التّركيب الكاتم إلى اللّغات ذات التّركيب الشّفاف، ومن اللّغات الموجّهة تداولياً إلى اللّغات الموجّهة دلالياً. أما التّطوّر غير الممكن فيجعل التّغيرات الوظيفيّة أو البنويّة الّتي تطرأ على اللّغة تُخرجها عن الممكن من الأنماط، إلاّ أنّ في اللّغة ميزات تُعيدها إلى التّطوّر المتوقّع.

يتّضح ممّا تقدّم أن دراسة الوظيفيين لتطوّر اللّغة بينت مدى إسهام الوظيفة في تطوّر اللّغة ودرجة تحكّمها في تغيّر بنيتها، ومن أهمّ مظاهر ذلك التحكّم نزوع اللّغة عند ترتيب مكوّنات بنيتها إلى أن تعكس أسبقية التّداول على الدّلالة، وأسبقية القصد على فحوى القصد بتقديم مجال السّمات العلاقية على مجال السّمات التّمثيليّة والفصل بينهما، ونتيجة ذلك هي الحفاظ على شفافية التّركيب، فبقدر ما تشف العبارة عن القصد من إنتاجها بقدر ما يكون فهمها وتأويلها أسهل وبالتّالي نجاح الوظيفة التّواصليّة.

9. الكلّيات اللّغوية: يتوفّر اللّسان الطّبيعي على خصائص عامة تتقاسمها اللّغات على اختلافها تسمّى الكلّيات اللّغوية، وإذا كانت هذه الكلّيات في اللّسانيات الصّوريّة هي كلّيات صرفيّة–تركيبيّة دلاليّة، فإنّها في اللّسانيات الوظيفيّة تجمع بين الصّورة والوظيفة.

تهدف اللّسانيات الوظيفيّة إلى أهداف علمية، منها: تحديد الكلّيات اللّغوية أو ما يسمّى بالنّحو الكلّي، فهو في تصورها: «عبارة عن مجموعة من التّعميمات حول علاقة بنية اللسان الطّبيعي بوظيفته التّواصليّة، ويكون دور هذا النّحو هو تحديد مفهوم نسق التّواصل اللّغوي البشري الممكن، وضبط الأنحاء الخاصّة المقترحة لرصد خصائص اللّغات الطّبيعيّة أو خصائص أنماط اللّغات الطّبيعيّة» (المتوكّل، 1989، ص88)؛ وبتعبير أوضح، ينظر الدّرس اللّغوي الوظيفيّ إلى الكلّيات اللّغويّة على أساس أنّها مبادئ صوريّة وظيفيّة تتحكّم في الملكة اللّسانيّة العامّة المتوافرة

لدى الكائن البشريّ، فترصد الخصائص الكلّية الّتي تتقاسمها مختلف اللّغات الطّبيعيّة، وتستكشف المبادئ العامّة الّتي تجمع بين بنية هذه اللّغات ووظيفتها التّواصليّة.

ويفيدها هذا في مرحلة لاحقة ضبط الأنحاء الخاصّة الّتي ترصد خصائص كلّ لغة أو كلّ نمط لغويّ؛ لأنّ لكلّ نمط من اللّغات خصائصه الّتي ينفرد بها وتميزه عن غيره من الأنماط ويتطلّب أن يوضع له نحوه الخاص.

إنّ ما يجمع بين اللّغات مجموعة من الوظائف، حيث تأتلف اللّغات أو تختلف في التّراكيب الّتي يُتوسّل بها في تحقيق هذه الوظائف. (المتوكّل، 2006، ص35)؛ بمعنى أنّ اللّغات الطّبيعيّة تتّفق في تأدية مجموعة من الأغراض التّواصليّة الكليّة، لكنّها قد تتّفق أو تختلف في تشكيل البنيات المناسبة لها، فوظيفة تصحيح المعلومة مثلاً هي وظيفة كليّة في جميع اللّغات، لكنّها تتحقّق بنويا حسب أنماط اللّغات (بالرتبة، بصُرفات معينة، بتراكيب مخصوصة كالفصل وغيره).

10. اكتساب اللّغة: لم يكن موضوع اكتساب اللّغة عناية الوظيفيين فحسب، بل انشغل به المفكّرون العرب القدامى مثل (ابن خلدون) وقبله (ابن سينا) الّذي يعدّ من أوائل المتكلّمين فيه.

لخّص (ابن سينا) عملية اكتساب اللّغة في أربع مراحل: مرحلة العقل المطلق حيث تكون القوّة النّطقية في حالتها البدائية المتميزة بالاستعداد المحض للتّصور، تليها مرحلة العقل بالملكة وفيها تصير العلوم الأوليّة، ثم مرحلة العقل بالفعل حيث يتحوّل مقدور الملكة إلى التحقّق الفعلي وأخيراً مرحلة العقل المستفاد وهي الغاية القصوى. (الأوراغي، 1990، ص ص78-79)؛ فلا يكون للطّفل عند مولده إلاّ الاستعداد المطلق للمعارف، ثمّ تحصل له بالنسبة للكتابة مثلاً أسباب تُقدره على اكتسابها مثل: الورق والقلم، ثم يكتمل له الاستعداد، فيبدأ بمحاولاته الأولى ليكتب أشياء تناسب قدراته الذّهنيّة ومهارة يده من غير حاجة لاكتساب.

ويُفطر الطّفل عند الوظيفيين على الكلّيات اللّغويّة الّتي تمكّنه بمعونة محيطه من اكتساب لغة العشيرة اللّغويّة الّتي ينمو فيها، فيكتسبُ في محيط اجتماعي معين نسقين مترابطين؛ نسق اللّغة ونسق استعمالها معاً. (المتوكّل، 2006، ص ص35-36)؛ حيث يستضمر الطّفل أثناء عملية الاكتساب قواعد لغته، ويستضمر في ذات الوقت ما يحكم استعمالها في مقامات التّواصل.

ولا يكتسب الطّفل معرفة تمكنّه من التّمييز بين جمل نحوية وجمل غير نحوية وحسب، بل أيضا معرفة تمكنّه من التّمييز -داخل الجمل النّحوية نفسها- بين جمل واردة سياقيا وجمل غير واردة. مما يدلّ أنّه حين يكتسب معرفة جمل لغته يكتسب في الوقت ذاته معرفة كيفيات استعمالها ولا شك أن هذا يتطلّب تجربة اجتماعية غنية. (البوشيخي، 2012، ص28)؛ أي أنّ اكتساب اللّغة عند الطفل يقوم على المزاوجة في البنيات والوظائف بين ما هو فطري غير ناتج عن تعلّم

وبين ما هو مكتسب بالتعلّم، حيث يكتسب الطّفل معرفة لغوية من خلال تعلّم قواعد لغته الصّوتيّة والصّرفيّة–التّركيبيّة والدّلاليّة، كما يكتسب قدرة على التّواصل مع محيطه الاجتماعي من خلال تعلّم ما تؤدّيه تلك القواعد من أغراض تواصليّة.

ثانياً– موضوع الدّرس في النّظريّة الوظيفيّة التداوليّة: يتّفق اللسانيون الوظيفيون واللسانيين غير الوظيفيين على أنّ ما يجب أن يستهدفه الوصف اللّغوي هو استكشاف معرفة المتكلّم/ السّامع للغته (قدرته اللّغوية).

ويتعلّق الخلاف القائم بينهم بنوعية هذه المعرفة، حيث يرى غير الوظيفيين أنّها محصورة في ما يشكّل النّحو باعتباره مجموعة من التّمثيلات الصّورية الصّرف، في حين يرى الوظيفيون أنّ هذه المعرفة هي امتلاك المتكلّم/ السّامع للقواعد الصّوريّة وغير الصّوريّة الّتي تؤهله لاستعمال لغته حسب ما تقتضيه الأغراض التّواصليّة الّتي يروم تحقيقها. (المتوكّل، 1989، ص ص89–90). اعتمادا على ذلك فإنّ اللّغويات الوظيفية أعادت صياغة الثّنائية المعروفة (قدرة/إنجاز) عند (تشومسكي)، وجعلت موضوع البحث اللّساني يستهدف وصف القدرة التّواصلية بشقّيها: معرفة المتكلّم/ السّامع للغته عن طريق رصد التّمثيلات الصّورية البحتة (الدلالة والصّوت والتّركيب والصّف)، وكذا معرفته قواعدَ التّخاطب والجوانب المرتبطة بوظيفة التّواصل التي تؤدّيها اللّغة وضبط التّرابط القائم بين الشقّين، باعتبار أنّ الخصائص الوظيفيّة تحدّد الخصائص البنويّة.

يحدّ (ديك) القدرة التّواصليّة بأنّها: «ما يُمكّن مستعملي اللّغة الطّبيعيّة من التّواصل في ما بينهم بواسطة العبارات اللّغويّة؛ أي ما يمكّن من التّفاهم والتّأثير في مدّخرهم المعلوماتي (المعارف العقائد، التّصورات، الأفكار المسبقة، الإحساسات) والتّأثير حتّى في سلوكهم الفعلي عن طريق اللّغة» (1989، ص11)، فموضوع الوصف اللّغوي في النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة هو القدرة التّواصليّة، وهي قدرة المتكلّم/ السّامع على التّواصل والتّفاهم مع الآخرين بواسطة اللّغة فيؤثّر في سلوكهم وفي خزينتهم المعرفيّة، وهي قدرة واحدة عامة تشمل معرفتين: معرفة القواعد الصّوريّة ومعرفة القواعد التّداوليّة الّتي تمكّن من الإنجاز في طبقات مقامية معينة.

ووسعت النّظريّة من مفهوم القدرة التّواصليّة لتصل حدّ الكفاءة الشاملة، فرصدت فيها مجموعة من الملكات (الطّاقات) لا تقف عند حدود الملكة اللّغويّة وحدَها، بل تنضاف إليها ملكات أخرى غير لغوية، يمتلكها مستعمل اللّغة وتمكنّه من إنتاج وتأويل خطابات في مواقف تواصليّة متعدّدة.

ويفترض (ديك) (1989، ص1-4) أن القدرة التّواصليّة المتوافرة لدى مستعمل اللّغة الطّبيعيّة تشمل خمس ملكات على الأقل: ملكة لغوية دائمة الحضور في عملية التّواصل اللّغوي وملكات (معرفيّة، منطقيّة، اجتماعيّة، إدراكيّة) يُلجأ إليها عند الحاجة، وهي:

أ- الملكة اللّغوية: يستطيع مستعمل اللّغة الطّبيعيّة أن ينتج ويؤول إنتاجاً وتأويلاً صحيحين عبارات لغويّة ذات بنيات متنوعة جداً ومعقدة جداً في عدد كبير من المواقف التّواصليّة المختلفة.

ب- الملكة المنطقيّة: بإمكان مستعمل اللّغة الطبيعيّة باعتباره مزوداً بمعارف معينة أن يشتقّ معارف أخرى بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي.

ج- الملكة المعرفية: يستطيع مستعمل اللّغة الطبيعيّة أن يكون رصيدا من المعارف المنظّمة، ويشتقّ معارف من العبارات اللّغوية ويختزنها في الشّكل المطلوب ويستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللّغوية.

د- الملكة الإدراكية: يتمكّن مستعمل اللّغة الطّبيعيّة من أن يدرك محيطه، وأن يشتقّ من إدراكه ذلك معارف، وأن يستعمل هذه المعارف في إنتاج العبارات اللّغوية وتأويلها.

هـ- الملكة الاجتماعية: لا يعرف مستعمل اللّغة الطّبيعّية ما يقوله فحسب، بل يعرف كذلك كيف يقول ذلك لمخاطَب معين في موقف تواصليّ معيّن قصد تحقيق أهداف تواصليّة معينة.

وأضاف (المتوكّل) ملكة سادسة سمّاها الملكة الشّعرية ومهمتها الاضطلاع بإمداد مستعمل اللّغة الطّبيعيّة بما يستلزمه من إنتاج وتأويل العبارات اللّغوية ذات الطابع الشّعري. (1995 ص17) و(2013، ص25)، وهي الملكة نفسها الّتي أضافها (البوشيخي) وسماها الطّاقة التّخييلية. (1998/1997، ص97-98)؛ حيث ترصد هذه الملكة البنيات المجازيّة والاستعاريّة والكنائيّة والرّمزية وغيرها.

ومُجمل القول؛ إنّ عملية التّواصل تتطلّب من مستعمل اللّغة التّمتّع بملكة لغوية تتمثّل في معارف لغوية تبيح له إنتاج وتأويل عدد غير محدود من الجمل الصّحيحة في مقامات تواصليّة متعدّدة، وأن يتمتّع أيضاً بملكات أخرى غير لغوية؛ كالملكة الاجتماعية الّتي تخوّل له ضبط الوضع الاجتماعي للمخاطَب، والملكة المنطقيّة الّتي تتيح له اشتقاق معارف إضافية انطلاقاً ممّا يملكه من معارف بواسطة قواعد الاستدلال المنطقيّ، والملكة الإدراكية الّتي تُقدره على استقاء معارف من موقف التّواصل ذاته بواسطة مداركه الحسيّة، والملكة المعرفية (المفهومية) الّتي تكوّن له مخزوناً منظّماً من المعارف اللّغوية وغير اللّغوية، يستخدمها في إنتاج وفهم المزيد من العبارات اللّغويّة، والملكة الشّعريّة الّتي تمدّه بالجوانب الفنّية لما ينتجه أو يؤوله من عبارات لغوية. وعلى

الرّغم ممّا يظهر لنا من استقلال وتمايز كيانات هذه الملكات، إلاّ أنّها تتفاعل في عملية التّواصل إنتاجا وفهما، وتتكامل في ما بينها فيغذّي بعضها بعضاً.

ويوضّح (المتوكّل) بعض مظاهر هذا التّفاعل، فيصف الملكة الإدراكية بأنّها ذات مهمتين: تُمكّن مستعمل اللّغة من استخدام مدركاته الحسّية في موقف تواصليّ معين (كتأويل أسماء الإشارة والضّمائر)، وتتيح له اشتقاق معارف معينة من مدركاته الحسّية يضيفها إلى معارفه العامّة الّتي يستخدمها في عمليتي الإنتاج والفهم، بذلك تتّخذ الملكة المعرفية دخلا لها خرج الملكة الإدراكية وقد يحصل العكس فتُستخدم المعارف العامّة (الملكة المعرفية) في التّعرف على ما يدرك بالحواس. كما أنّ الملكة الاجتماعية تضيف إلى الملكة المعرفيّة معلومات تتعلّق بالخلفية الاجتماعيّة–الثّقافية للمتخاطبين ولها تأثير في إنتاج العبارات أو تأويلها. (2013، ص ص26–27)، واعتماداً على هذه الملكات الخمس صاغت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة نموذجها الثّاني لمستعمل اللّغة الطبيعيّة (النّموذج المعيار)، فجعلته يتكوّن من خمسة قوالب حيث يتكفّل كل قالب منها برصد ملكة من الملكات التّواصليّة، سنعود إلى هذا في مبحث النّمذجة من هذا الفصل، أماّ الآن فنتعرّف على الكفايات المعتمدة أساساً للمفاضلة بين النّظريات والنّماذج وتندرج ضمن أهداف النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة.

ثالثاً– مطامح النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة: إنّ صياغة النّظريّات الوظيفيّة وتطويرها تنطلق من تسطير أهداف ومطامح تسعى لمشارفتها؛ وهي عبارة عن مجموعة من الكفايات.

يُبيّن (المتوكّل) أنّه إذا كان هدف نظرية النّحو الوظيفيّ هو وضع نموذج للقدرة التّواصليّة فإنّ عليها أن تحكم عملية نمذجتها إلى ضوابط ومعايير تمكّنها من المفاضلة بين ما يمكن أن يُقترح من نماذج، الضّابط الأساسيّ المعتمد في هذا الباب هو ضابط الكفاية التّفسيريّة الّتي تشمل ثلاثة أنواع من الكفايات: الكفاية التّداوليّة والكفاية النّفسيّة والكفاية النّمطيّة. (2005/أ، ص49). ويقصد أن مطامح النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة تتلخّص في الكفاية التّفسيريّة الّتي تُشكّل في الوقت نفسه ضابطاً للمفاضلة بين نماذجها الممكن إفرازها. ولأنّ هذه النّظريّة تقفو أهداف النّظريّة الوظيفيّة المثلى الّتي ترمي إلى تحقيق الكفايتين اللّغويّة والإجرائيّة؛ فإنّها لم تكتف بحدود الكفاية التّفسيريّة، بل طمحت إلى بلوغ الكفاية الإجرائية أيضاً، وفي ما يلي بيان مجموع تلك الكفايات.

1– الكفاية اللّغويّة: تسعى النّظريّة إلى تحقيق الكفاية اللّغويّة الّتي تتجاوز كفاية الوصف (الّتي لم يتعدّاها الدرس اللّغويّ البنويّ التّصنيفيّ والتّوزيعي) إلى كفاية التّفسير، ويحصل ذلك عند ربط دراسة اللّغات بثلاثة أمور أساسية وهي: قدرة المتكلّم/السّامع، اكتساب اللّغة، النّحو الكلّي. (المتوكّل، 2006، ص45)، وفي المباحث السّابقة عدّدنا هذه الأمور الثلاثة من بين المنطلقات

المنهجيّة العشرة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، وبهذا تختصّ النّظريّة بربط منطلقاتها بالكفاية اللّغويّة الّتي تقتصر عندها على الكفاية التّفسيريّة بفروعها الثّلاثة (التّداوليّة، النّفسيّة، النّمطيّة).

1-1- الكفاية التّداوليّة: تنظر النّظريّة إلى التّركيب والدّلالة من وجهة تداوليّة، وتطمح إلى تحقيق الكفاية في الاستعمال التّداوليّ؛ حيث إنّ القواعد التّداوليّة تتحكّم في إنتاج أنماط جملية تتنوّع بتنوّع أنماط المقامات المستعملة فيها.

يعرّف (ديك) الكفاية التّداوليّة بقوله: «يعتبر النّحو كافيا تداوليا في حدود كشفه لخصائص العبارات اللّغويّة الملائمة للكيفية الّتي استعملت بها؛ وذلك بشكل تترابط فيه هذه الخصائص والقواعد المتحكّمة في التّفاعل الكلامي». (1978، ص26)، حيث يربطُ بين كيفيةِ توظيف خصائص العبارات اللّغوية وملاءمتها القواعد التّداوليّة في عملية التّفاعل الاجتماعي؛ فتُساعدنا هذه الكفاية على فهم كيفية استعمال العبارات اللّغويّة بخصائصها البنويّة في وقائع تواصليّة معينة.

ويوضّح أكثر هذه الفكرة في موضع آخر فيقول: «على النّحو الوظيفيّ أن يستكشف خصائص العبارات اللّغويّة المرتبطة بكيفية استعمال هذه العبارات، وأن يتمّ هذا الاستكشاف في إطار علاقة هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ الّتي تحكم التّواصل اللّغوي؛ يعني هذا أنّه يجب ألاّ نتعامل مع العبارات اللّغوية على أساس أنّها موضوعات منعزلة، بل على أساس أنّها وسائل يستخدمها المتكلّم لإبلاغ معنى معيّن في إطار سياق تحدّده العبارات السّابقة، وموقف تحدده الوسائط الأساسية لموقف التّخاطب» (ديك، 1997/أ، ص13)؛ ويُراد من هذا التعريف أن نظريّة النّحو الوظيفي لا تنظر للعبارات اللّغويّة بوصفها بنى مستقلة، إنّما باعتبارها أدوات لتأدية غرض إبلاغي يضبطه السّياق المقالي لتلك العبارات والسّياق المقامي للموقف التّخاطبي، فيكون هدف النّظرية هو تحقيق الكفاية التّداولية الّتي تعني إنتاج اللّغة وفهمها عن طريق استكشاف خصائص العبارات اللّغويّة في إطار علاقتها بكيفية استعمالها وملاءمتها لقواعد التّواصل اللّغوي، بتعبير أدقّ؛ عن طريق معارف لغوية صرف ومعارف سياقية تحكم الموقف التّواصلي.

وينوّه (المتوكّل) هنا إلى أن اللّغة يحكمها نسقان: نسق لغوي صرف، ونسق الاستعمال يتضافران في تحديد أغلب خصائص العبارات، حيث تَنتُج تركيبيات ترتبط خصائصها بالاستعمال كالخصائص الصّرفية والتّركيبيّة والتّطريزيّة الّتي يحدّدها القصد (القوّة الإنجازيّة) والّتي يحددها موقف المتكلّم من فحوى خطابه (الوجه)، كما تنتج تركيبات مستقلة لا يتدخّل الاستعمال في تحديدها كرتبة وإعراب المركّب الاسمي الفاعل في الجملة المقترنة بالأداة (إنّ)؛ ولهذا السبب يجب أن يتّخذ المكوّن المسؤول على تحديد هذه السّمات وضعا قاعديا في الجهاز الواصف، فتتحقّق أسبقية البنية التّداوليّة الدّلاليّة في اشتقاق العبارة اللّغويّة على البنية الصّرفيّة-التّركيبيّة والبنية

التّطريزيّة. (2006، ص ص64-65)؛ يُفادُ من هذا الكلام أنّ الخصائص المستقلّة تُحدَّد مباشرة في البنية السّطحية أو بالأحرى في المكون الصّرفي-التّركيبيّ نفسه دون تبريرها بسبب تداوليّ، أما الخصائص المرتبطة بالاستعمال فتُحدَّد أيضاً في المكوّن الصّرفيّ-التّركيبيّ لكن بإيعازها إلى البنية الوظيفيّة (الدّلاليّة التّداوليّة)، باعتبار أن كل وظيفة من الوظائف التّداوليّة أو الوظائف الدلاليّة وكلّ سمة من السّمات الإنجازيّة والوجهيّة المرتبطة بقصد المتكلّم، لها بنيتها الصّرفية-التّركيبيّة التي تخصها.

ويتطلّب ذلك أن يُزوَّد النّحو الوظيفيّ بجهاز مفاهيميّ لرصد الخصائص التّداوليّة للظواهر اللّغويّة، ولأنّ بنية اللّغات تتحدّد بأهدافها التّواصليّة؛ فعلى النّحو أن يراعي -في تحديد العلاقة بين مكوّناته- أوّلية المكوّن التّداوليّ، فيفرض أسبقية التّمثيل للخصائص التّداوليّة للّغة على خصائصها الدّلاليّة والتّركيبيّة انسجاماً مع فرضية أنّ التّركيب تابع للدّلالة وأنّ كلاًّ منهما تابع للتّداول. (البوشيخي، 2012، ص42)؛ لذا حتّى تستجيب النّظرية لضابط الكفاية التّداوليّة يتعيّن عليها رصد علاقة التّبعية بين البنية والوظيفة بأن تكون قاعدة القالب النّحوي في الجهاز الواصف هي البنية الوظيفيّة (التّداوليّة والدّلاليّة)؛ أي أنّ تمثّل الخصائص التّداوليّة والدّلاليّة للعبارات اللّغويّة في مستوى البنية التّحتية، أمّا خصائصها البنويّة فتكون في مستوى متأخّر من مستويات الاشتقاق في البنية السّطحيّة؛ لأنّها تعدّ تجليات وانعكاسات لخصائصها الدّلاليّة والتّداوليّة، ومجرّد وسائل تعبير عنها.

1-2- الكفاية النّفسيّة: رغم أنّ مبادئ اللّسانيات عموما تختلف عن المبادئ النّفسية في معالجة العبارات اللّغوية بالإدراك والتّذكّر وغيرها؛ إلا أنّ النّحو الوظيفيّ طالبَ بها تحقيقاً لما يُسمّى بالكفاية النّفسيّة.

يجب على النّحو ألاّ يتعارض مع الفرضيات النّفسيّة القوّية القائمة حول معالجة اللّغة، وإلاّ كان ذلك مدعاةً لإعادة النّظر فيه وصياغته صياغةً تتّصل بنتائج الأبحاث اللّسانيّة النّفسيّة. (البوشيخي، 2012، ص44)؛ لهذا يفرض معيار الكفاية النّفسيّة على النّحو أن ينسجم مع ما يُعرف عن الطاقات النّفسيّة للبشر وعن الإوّاليات النّفسيّة اللاّزمة لوصف اللّغة الطبّيعيّة.

ويعرّف (ديك) هذه الكفاية بقوله: «تنقسم النّماذج النّفسيّة بطبيعة الحال إلى نماذج إنتاج ونماذج فهم، تُحدّد نماذج الإنتاج كيف يبنى المتكلّم العبارات اللّغوية وينطقها، في حين تُحدّد نماذج الفهم كيفية تحليل المخاطب للعبارات اللّغويّة وتأويلها. وعلى النّحو الوظيفيّ الّذي يروم الوصول إلى الكفاية النّفسيّة أن يعكس بطريقة أو أخرى ثنائية: الإنتاج/الفهم هذه» (1997/أ ص13)، وواضح جدّا من هذا الكلام أنّ الكفاية النّفسيّة تتطلّب من النّظريّة أن تراعي الجوانب

النّفسيّة والذّهنيّة الّتي تقع لدى اتّجاهي عملية التّواصل: اتّجاه الإنتاج الّذي يحدّد كيفيةَ بناء الخطابِ من المتكلّم وصياغته ونطقه، واتّجاه الفهم الّذي يحدد طريقةَ إدراكِ المخاطَبِ الخطابَ ومعالجته وتحليله وتأويله التّأويل الملائم.

وأدخلَ (المتوكّل) تعديلات على مفهوم الكفاية النّفسيّة فقال: «إذا أردنا أن نرصد بكيفية أشمل وأدقّ العمليات الّتي يستطيع أن يقوم بها مستعمل اللّغة الطّبيعيّة، إلى نماذج الإنتاج والفهم نماذج أخرى يمكن أن نسمّيها نماذج التّحويل. هذه النّماذج تحدّد الكيفية الّتي يحوّل بها المتكلّم خطاباً ما إلى خطاب آخر من لغة إلى لغة أو داخل نفس اللّغة أو من نسق تواصليّ إلى نسق تواصليّ آخر» (2012، ص29)، وهنا، تصبح الكفاية النّفسيّة تقوم على ثلاث عمليات عند مستعمل اللّغة هي: الإنتاج والفهم والتّحويل، حيث يقتصر التّحويل على عمليات النّقل كالترجمة والشّرح والتّفسير سواء داخل اللّغة أم بين اللّغات أم بين الأنساق التّواصليّة الأخرى (الرّسم الموسيقى، الإشارة،...).

وصيغت نماذج النّحو الوظيفيّ –لتحقيق الكفاية النّفسيّة– على أساس أن إنتاج الخطاب ينطلق من القصد إلى النّطق عبر الصياغة، وأَقصت القواعد التّحويليّة التّوليديّة لثبوت عدم مطابقتها لأية عملية ذهنية يقوم بها المتكلّم أو المخاطب. (المتوكّل، 2006، ص67)؛ لهذا يتعيّن على النّحو الّذي يسعى إلى تحصيل هذه الكفاية أن يُصنع الجهاز الواصف لنظرياته بما يعكس النّماذج النّفسية للقدرة والسلوك اللّغويين، ويكفل رصد إوّاليات الإنتاج والتّأويل والتّحويل وأثرها في صياغة القواعد في البنية السّطحيّة، الّتي يجب أن تخلو من القواعد التّوليديّة التّحويليّة الّتي ثبت منافاتها للواقعية النّفسيّة.

نشير هنا إلى أنّنا قد نصادف في النّظريّة التّحويليّة التّوليديّة بعض قواعد التّحويل الّتي تشبه في صياغتها القواعد الصّرفيّة–التّركيبيّة في النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة مثل العمليات الّتي تغيّر في البنية كالحذف والنّقل والتّعويض، إلاّ أنّ الفرق يكمن في أنّ هذه العمليات جافّة في النّظريّة الأولى، أمّا في النّظريّة الأخيرة فلها مبرّراتها الذّهنيّة انطلاقاً من البنية التّحتيّة الوظيفيّة (التّداوليّة والدّلاليّة) عند إنتاج الخطاب أو فهمه أو تحويله.

ونمثّل لهذا بالجملة: (روايةً قرأ الباحث)، فهي ليست مجرّد جملة محوّلة بعملية النّقل عن الجملة: (قرأ الباحث روايةً) بمفهوم (تشومسكي)، بل هي جملة تختلف عنها تماماً؛ لأنّ المكوّن المفعول: (روايةً) في الجملة الأولى يمثّل بؤرة مقابلة فيحتلّ الموقع الصّدر، أمّا في الجملة الثّانية فهو بؤرة جديد يتموقع بعد الفعل.

1-3- الكفاية النّمطيّة: على كل نظريّة لسانيّة أن تُسهم في توضيح المبادئ الأساسيّة لملكة الإنسان اللّغويّة، ويتطلّب ذلك أن تُصاغ من خلال قواعد يمكن تطبيقها على كل أنماط اللّغات الطّبيعيّة؛ لذلك سعت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة لإحراز الكفاية النّمطيّة الّتي تفيدها في القدرة على تزويدنا بأنحاء كافية لمختلف أنماط اللّغات.

ويمتلك النّحو الكافي نمطياً القدرة على وصف جميع أنماط اللّغات الطّبيعيّة، مما يستلزم مراعاة طابع المرونة في صياغة القواعد العامّة حتّى يكون بالإمكان تطبيقها على ظواهر لغوية متعدّدة تنتمي إلى أنماط متنوعة من اللّغات. (البوشيخي، 2012، ص ص44-45)، وتغتني هذه الأنحاء بمفاهيم وتعديلات جديدة بتوسّع مجال تجريبها على عدّة لغات.

ويعرّف (ديك) الكفاية النّمطية بقوله: «تعتبر نظريّة ما لقسم من التّراكيب كافية نمطيا، في حدود سماحها بوصف التّراكيب الملائمة في لغات متباينة الاختلاف نمطيا، وذلك بواسطة نفس المبادئ الأساسية بدون أن تنحاز للغات ذات نمط خاص». (1978، ص26)، ويدعو هنا إلى ضرورة اتّصاف النّظريات اللّسانية بالكفاية النّمطية الّتي توفّق بين نحو ينطبق على كل الأنماط اللّغوية وبين أنحاء خاصّة لكلّ لغة؛ ويحصل ذلك إن استطاعت بناء أوصاف للغات متباينة نمطيّا، ورصد عناصر الائتلاف وعناصر الاختلاف بين هذه اللّغات.

وسّع (المتوكّل) هذا المفهوم فقال: «من مهام النّظريّة الوظيفيّة السّاعية في تحصيل الكفاية النّمطية أن تُعنى لا بالمقارنة بين اللّغات وتنميطها فحسب بل كذلك بالمقارنة بين الخطابات وإرجاعها إلى أنماط خطابيّة حسب معايير معيّنة.» (2012، ص29)، وستكون لنا وقفة عند هذه الأنماط الخطابيّة في الفصل الأخير الخاص بنموذج نحو الخطاب الوظيفيّ الموسّع. وهنا نكتفي ببيان علاقة الكفاية النّمطيّة بالنّحو النّمطي والنّحو الكلّي.

ويلخّص (المتوكّل) (2006، ص69) مراحل تطور الفكر اللّسانيّ الحديث للوصول إلى النّحو النّمطي كما يلي:

أ- مرحلة الجمع والتّصنيف: لم تتعد تجميع المعطيات اللّغويّة وتصنيفها من حيث خصائصها التّوزيعيّة.

ب- مرحلة التّنظير: عندما نادى (تشومسكي) بتجاوز المنهج التّصنيفيّ إلى وضع نظريّة لسانيّة عامة تتضّمن نحوا كليّا تتفرّع عنه أنحاء خاصّة، وهي النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة.

ج- مرحلة التّنميط: لاحظت اللّسانيات التّنميطيّة أنّ النّظريّة التّوليديّة التّحويلية وُضعت على أساس معطيات بضع لغات، فكانت تعميماتها صالحة لتلك اللّغات وغير واردة في لغات أخرى فأقصت مفهوم النّحو الكلّي وعوّضته بمفهوم النّمط، الّذي أُتّخذ معياراً في تصنيف اللّغات بإرجاعها إلى فصائل كبرى مثل اللّغات السلسليّة واللّغات غير السلسليّة، اللّغات ذات الرّتبة الحرّة واللّغات ذات الرّتبة الثّابتة، اللّغات المبتدئيّة واللّغات الفاعليّة.

اعتقدت النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة إمكانيّةَ تعميم مبادئ النّحو الخاصّ بلغة ما (الأنقليزيّة مثلاً) على سائر اللّغات البشريّة، ومن ثمّة إقامة نموذج واحد لا غير، لكن بثبوت تمايز اللّغات بخصائص بنويّة كثيرة قد تصل إلى درجة التّناقض؛ استبدل الباحثون مبدأ التّعميم بمبدإ التّنميط الّذي يقوم على مراعاة القرابة النّمطيّة في العلاقات القائمة بين لغات تنتمي إلى نمط لغويّ معيّن. (الأوراغي، 2010، ص ص156-157)؛ يعني أنّنا أمام اتّجاهين في تصنيف اللّغات، أحدهما يقوم على المنحى الكلّي الّذي يعمّم القواعد المحصورة في لغة واحدة أو في بضع لغات إلى لغات أخرى، والاتّجاه الآخر يقوم على المنحى النّمطيّ الّذي يضع معايير ذات حياد نظريّ تُرجع جميع اللّغات إلى فصائل معيّنة.

ويحدّد (ديك) موقفه من هذين الاتّجاهين بقوله: «يزعم المنظّرون للّسان الطّبيعيّ أنّ بإمكانهم حصر الاهتمام في لغة واحدة، أو في عدد من اللّغات في ما يقارب التّنميطيون اللّغة مقاربة محايدة نظريا تعتمد منهجا استقرائيّا شبه تام. إنّ الدّراسة التّنميطيّة لا تكون ذات نفع إلاّ إذا أطرتها مجموعة من الفرضيات النّظريّة ولا تكون النّظريّة اللّسانيّة، في المقابل، ذات جدوى إلاّ إذا كشفت عن مبادئ وقواعد ذات انطباقية واسعة النّطاق» (1997/أ، ص15)، يُفهم من كلامه أنّ اللّسانيّات الوظيفيّة وقفت موقفاً وسطاً بين الاتّجاهين، ورأت أنّه حتّى تكون عملية تنميط اللّغات ذات فائدة يجب أن تكون في إطار فرضيات نظريّة تظهر جدواها عندما تضع قواعد تنطبق على أوسع عدد ممكن من أنماط اللّغات الموجودة أو الممكنة الوجود.

ووضع النّحو الوظيفيّ -لتحصيل الكفاية النّمطيّة- ضابطين هما: ربط تنميط اللّغات بالكلّيات اللّغويّة، والسّعيّ في بلوغ أكبر قدر ممكن من التّجريد في صوغ المبادئ والقواعد، لتنطبق على أكبر عدد من اللّغات، وأن تكون أقرب ما يمكن من الوقائع اللّغوية المقعد لها. (المتوكّل 2006، ص70)، يقصد أنّ النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة تضع شرطين متكاملين حتّى تستجيب لمقتضيات الكفاية النّمطيّة: (التّجريد والملموسيّة)، أوّلهما يعني صياغة قواعد الكلّيات اللّغويّة بأكبر

درجة من التّجريد لتحصيل انطباقيّة على نطاق واسع من اللّغات المتباينة الخصائص، وثانيهما يعني رصد الوقائع اللّغويّة المتحقّقة في اللّغات المراد تقعيدها، وأيضاً مقاربتها وملامستها ما أمكن ذلك، وعندها يتمّ الوصول إلى تنميط اللّغات ووضع أنحاء كلّ نمط ورصد تطوّره.

ويقول (ديك) في هذا السّياق: «نقصد بالتّجريد المسافة القائمة بين العبارات اللّغويّة في لغة ما وبين البنيات التّحتيّة الّتي تخلّف هذه العبارات... حين تكون النّظرية موغلة في الالتصاق بالواقع اللّغوي في لغات خاصّة؛ يصبح من غير الممكن استخدام مفاهيمها في وصف لغات أخرى. في المقابل، عندما تكون النّظريّة مفرطة في التّجريد؛ يعسر عليها تحقيق هدفها الذي هو الوصول إلى تعميمات دالّة في اللّغات الخاصّة وتفقد بذلك قيمتها المراسيّة». (1997/أ، ص16). ويُلحظُ هنا أنّ (ديك) لم يتوقّف في كلامه عند تعريف التّجريد؛ إنّما حذّر من الإفراط فيه ومن الإيغال في ملامسة واقع اللّغات الخاصّة، وهو هكذا يحثّ النّظريّة الرّامية إلى إحراز درجة معقولة من الكفاية النّمطية بأن تصوغ قواعدها وتمثيلاتها متوخيّة التّوسط بين التّجريد في التّقعيد والالتصاق بالواقع اللّغوي المراد مقاربته، كي تنطبق على لغات أي نمط وتكتسب القيمة الإجرائيّة ودون أن تُخلّ بتمثلات الوقائع اللّغويّة.

ويقترح (بعيطيش) إلى جانب فروع الكفاية التّفسيريّة (التّداوليّة، النّفسيّة، النّمطيّة) إضافة الكفاية الدّيناميكيّة (2006/2005، ص95)؛ ويقصد بها انفتاح نظريّة النّحو الوظيفيّ على العلوم الأخرى والاستفادة من محاسن النّظريّات اللّسانيّة السّابقة وحسن التّخلّص من الالتباسات والمزالق الّتي وقعت فيها، والتّكيّف الدّائم مع المستجدات والمرونة في استيعاب الجديد وتمثّله وتجاوزه والقدرة على تطويع المفاهيم وابتكار المصطلحات وإدخال التّعديلات وتطوير بنيتها النّحويّة العامّة مثل تطوير جهازها الواصف من نحو الجملة إلى نحو الخطاب.

ويتجّه الوظيفيون إلى الاعتقاد بأنّ كفاية النّظريّة اللّسانيّة لم تعد كامنة في وصف اللّغات وتفسير خصائصها فحسب، بل يجب أن تحصل النّظريّة، إلى جانب الكفاية اللّغويّة الّتي تتضمّن الكفاية الوصفيّة والكفاية التّفسيريّة (التّداولية، النّفسيّة، النّمطيّة، الدّيناميكيّة)، كفايات أخرى كالكفاية الإجرائية الّتي تتضمّن الكفاية التّطوريّة والكفاية التّعليميّة والكفاية التّرجميّة والكفاية الحاسوبيّة.

2- الكفاية الإجرائيّة: يُنتظر من النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة أن تتجاوز حقل وصف الظواهر اللّغويّة وتفسيرها إلى تمحيص كفايتها الإجرائيّة على مجالات حياتيّة مختلفة تشكّل فيها اللّغة عنصراً محورياً.

إنّ الكفاية الإجرائيّة هي كفاية الإسهام في قطاعات التّواصل الاجتماعيّة-الاقتصاديّة الّتي تَستخدم اللّغة بكيفية من الكيفيات؛ كالتّرجمة بمختلف أنواعها (البشريّة، الآليّة، الفوريّة،...) والإنتاج

السّمعيّ البصريّ (الأشرطة السينمائيّة، الأغاني،...)، والاضطرابات اللّغويّة الراجعة إلى أمراض نفسيّة أو عقليّة، وحتّى الأنساق التّواصليّة الّتي لا تستخدم اللّغة كالإيماء والرّسم والأفلام الصامتة والقطع الموسيقيّة الصّامتة. (المتوكّل، 2006، ص46)، حيث تسعى النّظريّة عبر التّنظير اللّسانيّ وتطبيق نتائجه إلى إحراز الكفاية المراسيّة بولوج كل مجالات التّواصل اللّغويّة وغير اللّغويّة المندرجة في القطاع الاجتماعي–الاقتصادي الّذي يستخدم النّسق اللّغوي أو الأنساق التّواصليّة غير اللّغويّة، فتلج أهمّ حقوله مثل: الحاسوبيات والتّرجمة وتعليم اللّغات والاضطرابات اللّغويّة وتحليل النّصوص والنّقد الأدبي واللّغوي. وتُثبِت الكفاية الإجرائيّة درجة واقعيّة النّظريّة ومدى نفعها في المجال التّطبيقيّ بإسهامها في حلّ مشكلات قطاعات أخرى، حيث تحقّق جملة من الكفايات منها: الكفاية الحاسوبيّة، الكفاية التّطوريّة.

2-1- الكفاية الحاسوبيّة: أُستُغِلّت التّكنولوجيا الحديثة في المجال اللّسانيّ، فظهرت اللّسانيّات الحاسوبيّة الّتي تزاوج بين النّظريّات اللّغويّة باعتبارها نظريات قدرة، وبين علم الحاسوبيّات الّذي يختصّ بمعالجة اللّغة آلياً باعتباره نظريات إنجاز، وكان من ثمار ذلك بناء حاسوب يحاكي قدرات الكائن البشريّ اللّغويّة ويمثّلها في ميادين تطبيقيّة متنوّعة مثل التّرجمة الآلية.

ويُشكّل الحاسوب مؤشراً قوياً على سمات الصّياغة الصّورية للنّظريّة وإوّالياتها، ورائزا حاسما لاختبار مدى دقّة وشمول هذه الصورنة، ومن ثمّة تُرفض النّظريّة حاسوبيا إذا اختلت سمة من السّمات المذكورة. (الزهري، 2014/ب، ص143)؛ مفاد هذا أن الحاسوب يساعد على بناء النّظريّة الوظيفيّة ومنحها الأدوات اللاّزمة لصياغة قواعدها، كما يعتبر معياراً لاختبار مدى صورنتها ودقّتها وشمولها.

وقد أُستُثمِرت الكفاية النّفسيّة السّابق ذكرها لصياغة النّحو على أساس تضمّنه لجهازين اثنين، جهاز توليد (مولّد بمصطلح الحاسوب) وجهاز تحليل (محلّل)، واقتُرح من أجل حوسبة النّحو الوظيفيّ أن يُضاف إلى جهاز التّوليد الّذي يضطلع بإنتاج العبارات في القالب النّحوي جهازُ تحليل يقوم بالوظيفة العكسية حتّى يمكّن من إرجاع العبارات المتحقّقة إلى بنياتها التّحتية. (المتوكّل، 2013، ص29)، وستكون لنا عودة إلى عمليتي التّوليد والتّحليل في الفصل الأخير المتعلّق بنموذج الخطاب الوظيفيّ الموسّع.

إنّ الكفاية الحاسوبيّة هي الطّاقة العلميّة الإجرائيّة الّتي تمكّن مستعمل اللّغة من إنتاج نماذج وصياغة أنساق من القواعد الحاسوبيّة تحاكي البنيات اللّغويّة في ذهن المتكلّم، ونادت النّظريّة

الوظيفيّة التّداوليّة بوجوب إضافة هذه الكفاية إلى الكفايتين الوصفيّة والتّفسيريّة باعتبارها ضوابط لعملية الوصف اللّغويّ، ومعايير للمفاضلة بين النّماذج الوظيفيّة.

2-2- الكفاية التّطوريّة: نادى (ديسوسير) في اللّسانيات البنويّة بضرورة دراسة اللّغة دراسة آنية (تزامنيّة) تنصبّ على بنيتها في فترة محدّدة، وليس دراسة تاريخيّة تعاقبيّة (تزمينيّة) تنصبّ على ظواهر تطوّرها.

زالت هذه الفكرة مع مجيء اللّسانيات الوظيفيّة، وأصبح البعد التّطوري التّاريخي للّغة موضوعاً ضرورياً، حيث يستثمر التّوجه الوظيفيّ فكرة تطوّر اللّغة عبر الزّمن لتفسير بنية اللّغة وبهذا تسعى النّظريّة لتحقيق الكفاية التّطورية لتقنين هذا التّطوّر وضبطه.

ويقول (المتوكّل) هنا: «في هذا الاتّجاه نقترح أن نضيف إلى الكفايات الّتي على نظرية النّحو الوظيفيّ السّعي في تحصيلها ما يمكن أن نسمّيه (الكفاية التّطوريّة) باعتبارها القدرة على الإجابة عن أسئلة من قبيل هذه: لماذا تفقد بعض اللّغات أدواتها الإنجازيّة والوجهيّة؟ لماذا يتغير موقع أسماء الاستفهام في بعض اللّغات؟ لماذا تنتقل لغة ما من بنية رتبيّة إلى بنية رتبيّة أخرى...؟ ليس المطلوب، طبعاً، أن يُكتفى برصد هذه الظّواهر بل المطلوب تفسيرها بإرجاعها إلى بضع مبادئ عامّة تنتظمها». (2005/أ، ص ص192-193)، وهذه الأسئلة المثارة في نصّ (المتوكّل) قد تمّت الإجابة عنها في مبحث سابق حول إسهام الوظيفة في تطوّر اللّغة.

ويُدقّق (المتوكّل) مفهوم الكفاية التّطوريّة بأنّها قدرة النّظريّة على رصد الانتقال من النّمط اللّغويّ أ إلى النّمط اللّغويّ ب وتفسيره، حيث يُحدَّدُ النمطان في المتواليّة التّاليّة:

لغات النّمط أ ------- لغات النّمط ب

موجّهة تداولياً --------> موجّهة دلالياً

شفّافة التّركيب <------- كاتمة التّركيب.

ويتمّ تطوّر اللّغات حسب دورات، وتكمن الدّورة التّطوريّة في انتقالين: انتقال من خاصية تحدد نمطا لغويّا ما إلى خاصيّة مقابلة تحدّد نمطا لغويّا آخر ثمّ انتقال رجعيّ من الخاصّية الثّانية إلى الخاصيّة الأولى. (المتوكّل، 2005/أ، ص193-194)، فالكفاية التّطوريّة للنّظريّة هي قدرتها على بيان التّطور النّمطيّ لغة ما عبر عدّة دورات، حيث تُبنى الدّورة التّطوريّة الواحدة على انتقال اللّغة من سمة خاصّة بالنّمط الأصل إلى سمة تجعلها في النّمط الهدف، ثم انتقال عكسيّ في السّمات يردّها من النّمط الهدف إلى النّمط المنطلق. وتوحي المتوالية السّابقة بأنّ اللّغات قد تتعرّض لانتقالين مترابطين هما الأكثر وروداً:

الانتقال الأوّل: تنزع اللّغات الموجّهة تداوليّا إلى الانتقال إلى نمط اللّغات الموجّهة دلاليّا تحت ضغط عوامل خارجيّة أو داخليّة؛ كانتقال لغة إعرابيّة إلى لغة رتبيّة، حيث تنتقل اللّغات الغنيّة بالتّداول والصّرف والإعراب إلى لغات غير إعرابيّة ثابتة الرّتبة، ويرافق هذا الانتقال بالضرورة تغيّر اللّغات من شفّافة التّركيب إلى لغات كاتمة التّركيب، فإذا بلغت درجة الكتامة الّتي تجعلها ضمن اللّغات غير الممكنة؛ بدأت في العودة تلقائيا إلى أصلها من خلال الانتقال الثّاني.

الانتقال الثّاني: من النّمط كاتم التّركيب إلى النّمط شفّاف التّركيب الّذي يؤدّي إلى نجاح التّواصل، ويرافق هذا الانتقال بالضّرورة تغير اللّغات من النّمط الموجّه دلالياً إلى النّمط الأصلي وهو الموجّه تداولياً، شفّافة التّركيب إلى لغات كاتمة التّركيب.

وغالباً ما تكون اللّغات الموجّهة تداوليّا شفّافة التّركيب تفرد للخصائص التّداوليّة مجالاً (ما قبل الرأس) متميزا عن مجال الخصائص الدّلاليّة (ما بعد الرأس) في حين لا نكاد نجد هذا التّمييز بين مجاليّ فئتي الخصائص هاتين في اللّغة الموجّهة دلاليّا. (المتوكّل، 2006، ص82)، هذا الكلام يعيدنا إلى الكفاية النّمطية المشار لها سابقاً فيتّضح التّرابط بينها وبين الكفاية التّطوريّة الّذي من أهم مظاهره اعتماد الكفايتين على ثنائية واحدة هي (الشفافية/ الكاتميّة).

وتعتبر ثنائية (شفّاف/ كاتم) من المعايير الّتي يمكن اعتمادها في تنميط اللّغات إلى نمطين قطبين؛ نمط شفّاف التّركيب ونمط كاتم التّركيب، وتتحدّد اللّغات بدرجات دنوها من هذا القطب أو ذاك، وتُتّخذ الثنائيّة نفسها ضابطاً للدورات التّطوريّة فيساعد على رصد الانزلاق التّدريجيّ نحو الكتامة ثمّ الرّجوع عبر وسائل بنويّة إلى الشّفافيّة باعتبارها أصلاً يضمن إنجاح وظيفة التّواصل. (المتوكّل، 2005/أ، ص203)، بناءً عليه فإنّ النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة تهدف إلى تحقيق الكفاية التّطورية الّتي تجعلها قادرة على تتبّع وتفسير الانتقال النّمطي للّغة بنوعيه: من النّمط التّداوليّ إلى النّمط الدّلاليّ، ومن النّمط الكاتم إلى النّمط الشفّاف، أو الانتقال العكسي لهما، وهذا عبر دورات تطوّريّة؛ حيث إنّ أبرز مظاهر وظيفة التّواصل يتمثّل في سعي بنية اللّغة في تحصيل أكبر قدر ممكن من الشّفافيّة، وذلك عند فصلها بين مجال المستوى التّداولي ومجال المستوى الدّلالي.

وتفضّل (بعيطيش) في بسط مجموعة من الكفايات الأخرى المتفرّعة عن الكفاية الإجرائيّة هي: الكفاية التّعليميّة، الكفاية التّرجميّة، الكفاية السيميائيّة، يمكن العودة إليها في: (2006/2005، ص ص100-109)، وبصورة عامّة فقد سعت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة لتحصيل كلّ الكفايات اللّغويّة والإجرائيّة الّتي عرضنا لها، فقاربت بذلك النّظرية المثلى وأحرزت الأفضلية من بين النّظريات الوظيفيّة الأخرى، ويبقى معيار الكفايات صالحاً حتّى للمفاضلة بين نماذج النّظريّة المذكورة الّتي نتناولها في المبحث الموالي.

رابعاً: نمذجة النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة: تجعل كلّ نظريّة علميّة من أوّلياتها صناعة نماذج وأجهزة صوريّة لوصف الواقع الّذي تستهدفه وتفسيرِه، وتكون النّظريّة أكثر صحّةً وانسجاماً حين تتوافق نماذجها مع منطلقاتها وأهدافها.

يسعى الوظيفيون إلى إقامة نموذج لقدرة مستعملي اللّغة الطّبيعيّة على التّواصل بواسطة اللّغة، نموذج يمثل للملكات اللّغويّة وغير اللّغويّة المسهمة في عملية التّواصل إنتاجا وفهما وبما يقوم بينها من علاقات، مكوّنات هذا النّموذج المصطنع مجموعة قوالب تتمركز حول القالب النّحوي الّذي هو القالب الأساس، وينفتح بعضها على بعض، حيث يكون بعضها خرجاً/ دخلاً لبعض. (المتوكّل، 2005/أ، ص49)، وركنت النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة كذلك إلى عملية النّمذجة وهي تُطوّر نفسها عبر الزّمن، فصاغت نماذج مختلفة للمعرفة اللّغويّة الّتي يفترض أنّها متوافرة لدى المتكلّم/ السّامع المجرّد (المثالي)، وقدّمت لكلّ نموذجٍ منها جهازاً واصفاً له، واستجابت هذه الصّياغة لقيد التّناسق الّذي يضمن عدم وقوع التّناقض بين مكوّنات النّماذج والمتطلّبات المنهجيّة للنّظريّة وأهدافها العامّة؛ لأنّ المنطلق المنهجيّ والهدف المتوخى يحدّدان بالضرورة الوسائل والأجهزة المتّخذة للنّظريّة.

وقد رازَ (المتوكّل) (2006، ص ص47–48) من النّظريّة الوظيفيّة المثلى أن تبني جهازها الواصف على أساس المتطلّبات الأربعة التّالية:

أ– يقتضي تحصيل الكفاية اللّغويّة أن تكون للجهاز الواصف: خاصّيةَ توافرِ مكونٍ (أو قالب) تداولي مفصول عن مكون الدّلالة أو مضمومٍ إليه، وخاصّيةَ تحتيةِ المكوّنَيْن التّداولي والدّلالي بالنّظر إلى المكونين الصّرفيّ–التّركيبيّ والصّوتي المسؤولين عن تسطيح العبارة اللّغويّة.

ب– يستلزم بلوغ الكفاية الإجرائيّة أن يتمّ بناء الجهاز الواصف على أساس أن يُحرز انطباقية قصوى في مجال اللّغات وفي مختلف القطاعات الّتي تستخدم اللّغة.

ج– بتحصيله قدراً معقولاً من التّجريد، يُصبح الجهاز الواصف قابلا للاندراج في النّظريّة الوظيفيّة العامّة الّتي تفرز وتحكم مختلف أنساق التّواصل، اللّغويّة منها وغير اللّغويّة.

د– السّعي إلى الوصول إلى الكفاية الحاسوبيّة للتّأكد من مدى صورنة الجهاز الواصف وإوّالياته ومدى صحّتها.

ودأبت النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة لبناء جهازها الواصف على مراعاة هذه المتطلّبات الأربعة فأفرزت منذ نشأتها وخلال مراحل تطوّرها مجموعة من النّماذج استخدمت في وصف الظّواهر اللّغويّة وفي القيام بنقلة إجرائيّة بولوج قطاعات اجتماعيّة اقتصاديّة، وعكست التّطور الحاصل في توجّهات النّظريّة من حيث مجال الدّرس وما يستتبعه من إغناء الجهاز الواصف من حيث آلياته

وإعادة النّظر في تنظيمه. وأهمّ نماذجها: النّموذج النّواة، النّموذج المعيار، نموذج نحو الطّبقات القالبيّ، نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ، نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع.

ويمكن إرجاع أسباب إفراز هذه النّماذج جميعاً إلى محرّكين أساسيين: «تعديلٌ في موضوع الدّرس، واتّجاهٌ نحو رفع سقف الأهداف، مع الحفاظ على المنطلقات النّظريّة والمنهجيّة» (المتوكّل 2012، ص ص30-31)، فالتّعديل تمثّل في انتقال الوحدة الدّنيا للخطاب من الجملة إلى الفعل الخطابي الذي قوامه متكلّم ومخاطب وقوة إنجازيّة وفحوى خطابي يتضمّن فعلا إحاليّا وفعلا حمليا، سواءً أَنَصّاً كان الفعل الخطابيّ أم جملة أم مركّبا اسميّا أم مفردة.

ورُفعت الأهداف إلى تقوّية الكفايّة التّداوليّة بفصل البنيّة التّداوليّة عن البنيّة الدّلاليّة باعتبار الأولى أعمق من الثّانية؛ لأنّ القصد أسبق من الفحوى، وإدخال المكوّن السّياقيّ إلى جانب المكوّن المفهوميّ والمكوّن الإصاتيّ ليرافقوا المكوّن النّحوي في اشتغاله، وتطوير الكفاية النّفسيّة بإضافة جهاز التّحويل إلى جهازي الإنتاج والفهم، وسنلمح هذه الأحداث في النّموذجين الأخيرين للنّظريّة.

1- النّموذج النّواة (سنة 1978): يسمّى هذا النّموذج أيضاً بالنّموذج ما قبل المعيار، وقد عرضه (ديك) في كتابه (النّحو الوظيفيّ) سنة 1978، وهو أوّل نموذج لنظريّة النّحو الوظيفيّ ويتكوّن من أربعة مكوّنات مرتّبة حسب آلية اشتغالها وهي: الخزينة، قواعد إسناد الوظائف، قواعد التّعبير، القواعد الصّوتيّة، تقوم هذه المكونات باشتقاق العبارة اللّغوية وفق الشّكل الآتي:

الشكل رقم 06: النّموذج النّواة

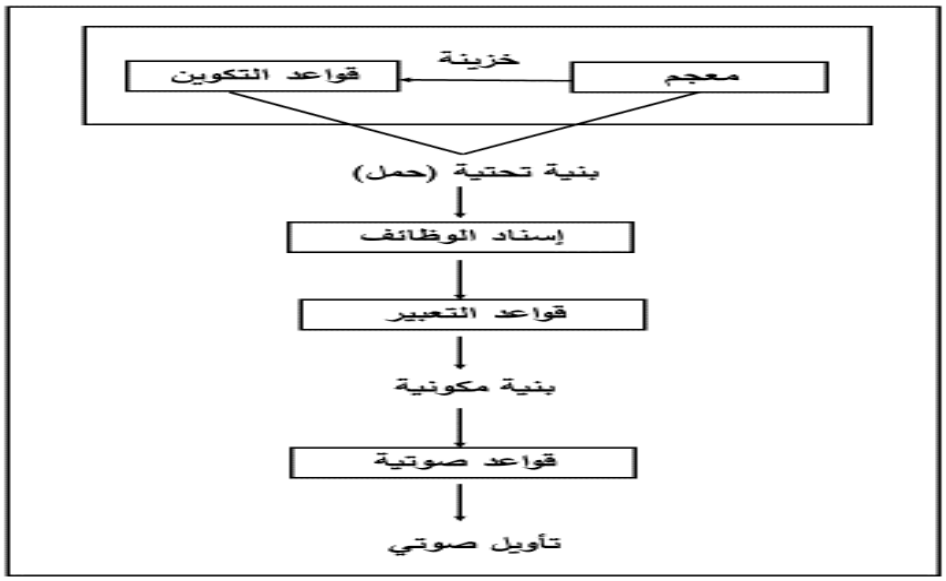

المصدر: المتوكّل، 2006، ص73.

ويمكن تبسيط كيفية تشغيل المكوّنات الأربعة لهذا النّموذج كما يلي:

أ- الخزينة: تشمل قسمين: معجم يأوي المفردات الأصول، وقواعد تكوين تضطلع باشتقاق المفردات الفروع (كأفعال الانعكاس وأفعال المطاوعة والأفعال العليّة والمصادر وأسماء الفاعلين وغيرها) من المفردات الأصول. يُمثّل لهذه المفردات في شكل أطرٍ حمليّة تُتّخذ مواد أوليّة لصياغة البنية التّحتية للعبارة اللّغويّة.

ب- تشكّل البنية التّحتية حملاً تحدد فيه كل الخصائص الدلاليّة المؤشّر لها في شكل مخصّصات وسمات (جهيّة، زمنية،...) ووظائف دلاليّة. ويُنقل الحمل إلى بنية وظيفيّة تامّة التّحديد عن طريق إسناد وظيفتي الفاعل والمفعول ثمّ إسناد الوظيفتين التّداوليتين المحور والبؤرة.

ج- تتّخذ البنية الوظيفيّة دخلاً لقواعد التّعبير، وهي القواعد المسؤولة عن تحديد الخصائص الصّرفيّة والتّركيبيّة والتّطريزيّة على أساس ما يورد في البنية الوظيفيّة.

د- يأخذ خرج قواعد التّعبير شكل بنية مكوّنية تنقل بواسطة القواعد الصّوتيّة إلى تأويل صوتي للعبارة اللّغويّة. (المتوكّل، 2006، ص72)، ويمكن تسجيل بعض المآخذ على هذا النّموذج، منها اقتصار عدد وظائفه التّداوليّة على أربع وظائف: وظيفتان داخليتان هما المحور والبؤرة ووظيفتان خارجيتان هما المبتدأ والذّيل.

ورأت النّماذج الّتي جاءت بعده أنّ هذا العدد من الوظائف لم يعد كافيا، فقسّمتها إلى فروع متعدّدة (محور معاد، محور معطى، بؤرة جديد، بؤرة مقابلة،...)، وأضافت لها وظائف أخرى مثل الفواتح والنّواقل والحوافظ والخواتم.

وانحصر النّموذج النّواة في مجالي الجملة والمركّب الاسمي، ولا يمثّل جهازه الواصف إلاّ للمعرفة اللّغوية الصّرف (النّحوية)، كما مثّل لبعض الخصائص الدّلاليّة والتّداوليّة فقط، ترصدها بنية تحتيّة خطيّة في مستوى واحد لا سلميّة تحكم عناصره (المتوكّل، 2005، ص55)، وهذا القصور حفّز النّماذج المواليّة لتداركه، فجاوزت حدود الجملة وقاربت النصّ ككل، وتعدّى جهازها الواصف إلى تمثيل المعارف الأخرى الّتي يستخدمها المتكلّم-السّامع في عمليات الإنتاج والتأويل والتحويل، أمّا المعرفة اللّغويّة البحتة فأصبحت مجرّد قالب نحوي يشتغل ضمن قوالب أخرى في الجهاز، وأضافت خصائص دلاليّة وتداوليّة جديدة مثل السّمات الإنجازيّة والوجهيّة، ومثّلت لجميع الخصائص في شكل بنية تحتيّة متعدّدة الطبقات.

ويمكن القول -في المقابل- إنّ النّموذج النّواة يعود له الفضل في كونه اللّبنة الأولى في صياغة النّماذج المواليّة له الّتي اصطنعتها النّظرية انطلاقاً من روافد الكفاية، حيث صاغت النّظريّة نماذجها وأغنتها في إطار سعيها لتحقيق الكفايات الإجرائيّة والتّفسيريّة (التّداوليّة، النّمطيّة النّفسيّة)، فكان النّموذج المعيار ناتجُ الرّافد التّداوليّ، ونموذج نحو الطّبقات القالبيّ ناتجُ الرّافد

النّمطيّ، ونحو الخطاب الوظيفيّ ناتجُ الرافد النّفسيّ، ونحو الخطاب الوظيفيّ الموسّع ناتجُ الرافدين الإجرائيّ والنّفسيّ. وقد جمعت النّماذج الثّلاثة الأخيرة بين الطبقيّة والقالبيّة في الخطاب، أمّا النّموذج المعيار فتأسّس على إسقاط مكونّات وعلاقات بنية الجملة على بنية النصّ.

2- النّموذج المعيار (سنة 1989): صاغ (ديك) النّموذج المعيار لمستعمل اللّغة (ديك (1989)، (1997/أ)، (1997/ب)) لإغناء النّموذج النّواة وتوسيعه من حيث الكفاية التّداوليّة.

تجاوز هذا النّموذج حدود الجملة الّتي رسمها النّموذج النّواة وقارب الخطاب بأكمله، حيث نبّه (ديك) إلى: «أنّ مستعملي اللّغة الطّبيعيّة لا يتواصلون عن طريق جمل منعزلة بل إنّهم يكوّنون من هذه الجمل قطعا أكبر وأعقد يمكن أن نطلق عليها اللّفظ العام (الخطاب)». (1997/ب، ص409)، وأصبح بذلك مفهوم الخطاب هو كلّ ملفوظ/ مكتوب يشكّل في حد ذاته وحدة تواصليّة تامّة.

وقد أشرنا في نهاية مبحث موضوع الدرس في النظرية من هذا الفصل إلى أن موضوع النظرية الوظيفية التداولية هو وصف القدرة التواصلية، حيث جعلها (ديك) تتكون من خمس ملكات، وعلى أساسها بنى نموذجه المعيار في خمسة قوالب يقوم كل قالب برصد ملكة واحدة منها، وصاغ جهاز مستعملي اللغة في الشكل الآتي:

الشكل رقم 07: النّموذج المعيار (نموذج مستعمل اللّغة)

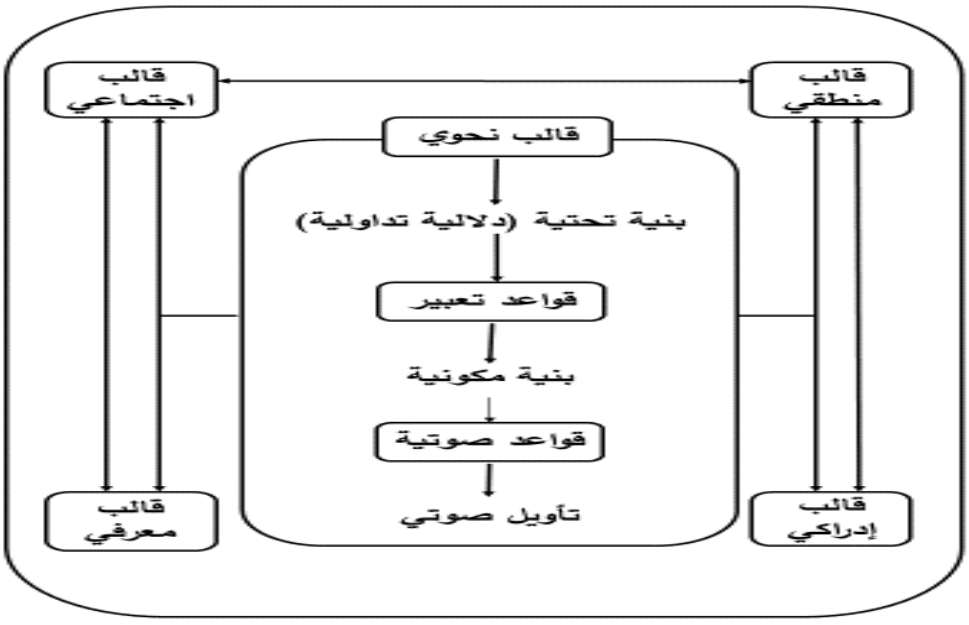

المصدر: المتوكّل، 2011، ص71

ويمكن توضيح تكوين هذا الجهاز وطريقة اشتغال مكوّناته كما يلي:

أ- يتضّح من الشّكل أنّ الجهاز يتكوّن من خمسة قوالب هي: القالب النّحويّ والقالب المنطقيّ والقالب المعرفي والقالب الإدراكي والقالب الاجتماع، و«يشكّل كل قالب من هذه القوالب نسقاً مستقلاً من القواعد يتميّز عن القوالب الأخرى من حيث موضوعه ومن حيث إوّالياته، إلاّ أنّ هذه القوالب جميعها تربط بعضها ببعض علاقة تفاعل». (المتوكّل، 1993/ب، ص9)؛ أي يتمتّع كلّ قالب باستقلال مبادئه وأدواته لكنّه يتفاعل مع القوالب الأخرى تبعاً لتفاعل الملكات الخمس المشكّلة للقدرة التّواصليّة في ما بينها.

ب- «هذه الملكات المختلفة يجب أن تتفاعل في ما بينها بحيث تشكّل كلّ ملكة منها خرجاً يكون أساسيّا بالنسبة لعمل الملكات الأخرى. وفي نموذج مستعمل اللّغة الطّبيعيّة يجب أن تكون ثمّة إوّاليات تصل بين مختلف القوالب الّتي تضطلع برصد الملكات». (ديك، 1989، ص2) بمعنى أنّ قوالب جهاز مستعمل اللّغة تتعالق في علاقة تفاعليّة تتمثّل في أنّ كلّ قالب يشكّل دخلاً أو خرجاً لباقي القوالب، وهذا عن طريق إوّاليات تخصّ القوالب وكفيلة برصد خصائص العمليّة التّواصليّة.

ج- يمكن تقسيم القوالب الخمسة إلى فئتين: قالبين أداتين هما القالب النّحوي والقالب المنطقيّ وقوالب مخازن هي القالب المعرفيّ والقالب الاجتماعي والقالب الإدراكيّ. (المتوكّل 2010، ص15)؛ ويقصد بالقالب الأداة الوسيلة الفعليّة الّتي يستخدمها مستعمل اللّغة الطّبيعيّة في التّخاطب والتّواصل من بين قوالب التّواصل، أما القالب المخزن فهو المستودع الّذي يجمع المعارف والمفاهيم الّتي يأخذ منها القالب الأداة وتشكّل الدّافع إلى الممارسة التّواصليّة.

د- يستأثر القالب النّحويّ بالوضع المركزيّ؛ لأنّ حضوره دائمٌ في العمليتين معاً، في حين تلعب القوالب الأخرى أدواراً مساعدة متفاوتة الأهميّة، يُلجأ إليها عند الحاجة وحسب نمط الخطاب المروم إنتاجه أو تأويله؛ فالخطاب الحجاجيّ يستدعى تشغيل القالب المنطقيّ تشغيلا مكثّفاً في حين يقتضي تشغيل القالب الاجتماعيّ في خطاب المحافل الرّسميّة على الخصوص، ويشكّل القالب المعرفيّ مصبّاً متنامياً تنقل إليه بطريقة نسقية المعارف المنتقاة من القوالب الأخرى فالمدارك الّتي يوفرها القالب الإدراكيّ مثلاً تنقل مفردة إلى القالب المعرفي لتنتظم داخل نسق المعارف العامّة. (المتوكّل، 2010، ص15)؛ يعني أنّ القوالب الخمسة لا تتساوى من حيث اشتغالها فى عمليتيّ إنتاج الخطاب وفهمه من حيث الكمّ ولا من حيث الكيف.

هـ- تناول هذا النّموذج السّمات التّداوليّة (القوّة الإنجازيّة والوَجه) في طبقتين تعلوان طبقتيّ القضيّة والحمل في بنية تحتيّة متعدّدة الأحياز، حيث يقع الحمل في حيز القضيّة، وتقع القضيّة في حيز الوجه الّذي يتموضع في حيز القوّة الإنجازيّة، وأضاف إلى وظيفتي المبتدأ والذّيل وظائف

خارجيّة أخرى صُنّفت إلى فواتح ونواقل وحوافظ وخواتم باعتبار دورها في تنظيم بنية الخطاب، كما فُرّعت وظيفة المحور إلى محور معطى ومحور معاد ومحور جديد، ووظيفة البؤرة إلى بؤرة جديد وبؤرة تعويض وبؤرة قصر وبؤرة انتقاء. (المتوكّل، 2006، ص75 وص76)؛ أي أنّه قام بإدخال تعديلات في الشقّ التّداولي مسّت بالخصوص توسيع الخصائص التّداولية المحصورة في الوظائف التّداوليّة حتى تشمل السّمات التّداوليّة، كما أثرى وفرّع الوظائف التّداوليّة الأربع في النّموذج النّواة بعدما تبيّن أنّها غير كافية لرصد ما يتعلّق بها من ظواهر.

ويمثّل للخصائص التّداوليّة (القوّة الإنجازيّة والوظائف والوجوه) داخل القالب النّحوي ذاته لأنّ التّداول يشكّل جزءاً من القدرة اللّغوية، لا سمة من سمات الإنجاز (كما في النّحو التّوليدي التّحويليّ). (المتوكّل، 2010، ص15)، ونلاحظ هنا أنّ البنية التّحتيّة الّتي عرفنّاها في النّموذج النّواة مجرّد حمل أصبحت في النّموذج المعيار بنية تامة التّحديد من حيث الدّلالة والتّداول معاً.

وقد ترك (ديك) قائمة القوالب مفتوحة، فأتاح إضافة قوالب أخرى؛ حيث اقترح (البوشيخي) إضافة قالب سادس اصطلح على تسميته القالب التّخييلي (1998/1997، ص102)، حيث أفرده للملكة الشّعريّة الّتي لا تخصّ مستعملاً دون آخر وتشكّل جزءاً من قدرته اللّغويّة، وهو ذات القالب الّذي اقترحه (المتوكّل) تحت مُسمّى القالب الفنّي أو الشّعري (1996)، لكنّه لم يبين كيفية اشتغال هذا القالب بالطّريقة الّتي شرح فيها تفاعل القوالب الخمسة المقترحة من طرف (ديك).

واستجاب الوظيفيون لروز وتجريب إجرائية النّموذج المعيار في تحليل قطع من أعمال إبداعية قصصيّة وروائيّة، حيث تعدّ دراسة (المتوكّل) (1993/ب، ص ص131-161) لروايتيّ (نجيب محفوظ): (خان الخليلي) و(زقاق المدن) المُتناولة في الفصل الأخير من كتابه (آفاق جديدة في نظريّة النّحو الوظيفيّ) من الإسهامات الأولى في ولوج الدّراسات الوظيفيّة التّطبيقيّة مجال النّص، لكنّ أعماله التّطبيقيّة تبقى قليلة بالنّظر إلى حاجة القارئ لفهم أفضل لهذه النّماذج الوظيفيّة عن طريق تطبيقها على خطابات فعلية متنوّعة الأنماط. ونسجّل أيضاً من المقاربات المتكاملة لنظريّة النّحو الوظيفيّ ما يمنحه نموذج نحو الطبقات القالبيّ الّذي نبسط القول فيه في المبحث الآتي.

3- نموذج نحو الطّبقات القالبيّ (سنة 2003): تفرّع عن النّحو الوظيفيّ المعيار ما يسمّى نحو الطبقات القالبيّ الّذي راده (المتوكّل) من خلال كتابه (الوظيفيّة بين الكليّة والنّمطيّة) سنة 2003. ويعدّ أول إسهام عربي في نظريّة النّحو الوظيفيّ.

ونعتبر على المستوى الإجرائي كتاب (تحليل الخطاب في نظريّة النّحو الوظيفيّ) للدكتورة (نعيمة الزهري) من الأعمال السبّاقة والرّائدة في تطبيق نموذج نحو الطبقات القالبيّ على عينّة من

الخطابات المتنوّعة من حيث المجال والآليّة، ورغم أن تاريخ صدور كتابها (2014) جاء بعد ظهور آخر نماذج نظريّة النّحو الوظيفيّ؛ إلاّ أنّها وظّفت النّموذج القالبيّ (2003) في التّحليل وغضت الطرف عن اعتماد أحد النموذجين اللّذَين جاءا بعده، وهما: نموذج نحو الخطاب الوظيفي (2008)، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسع (2011)، دون تقديم أي تبرير لاختيارها هذا.

وقد قدّم (المتوكل) نموذج نحو الطبقات القالبي وفق الشكل الآتي:

الشكل رقم 08: نموذج نحو الطبقات القالبي

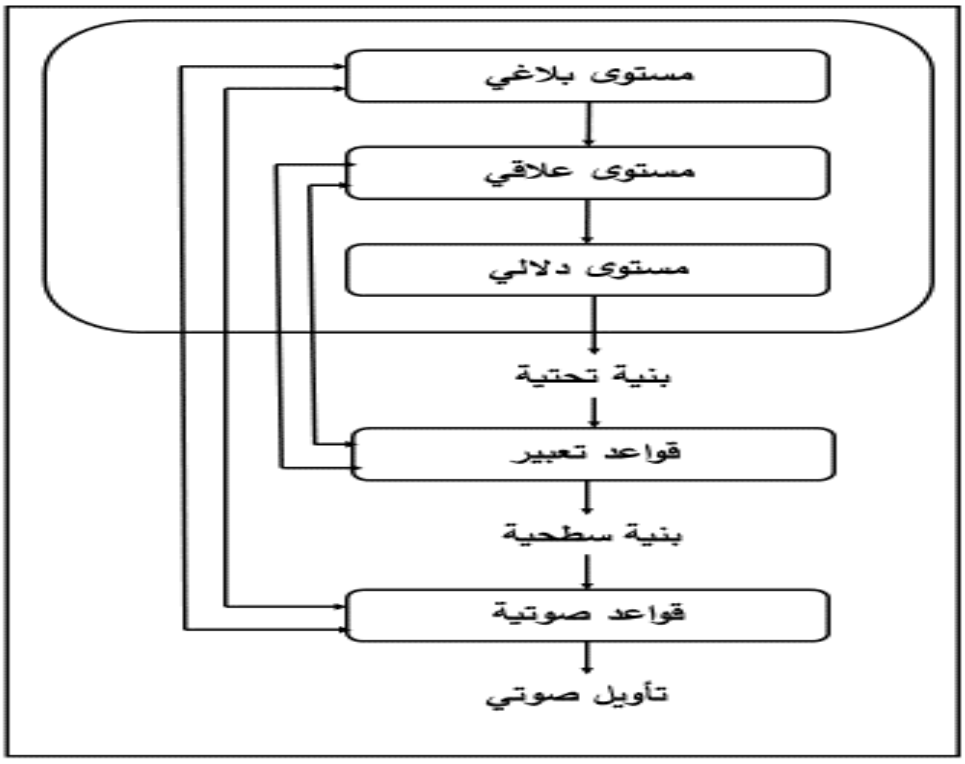

المصدر: المتوكّل، 2011، ص72.

ويمكننا شرح أساس هذا النّموذج وفق المنطلقات الآتية:

1- تؤول جميع الخطابات إلى بنية نموذجيّة واحدة، وهي: «بنية مجرّدة يتم تحققها في مختلف أقسام الخطاب تنازليّا انطلاقا من النّص إلى المفردة ومروراً بالجملة والمركّب الاسمي، وفقاً للطاقة الإيوائية لكلّ قسم من هذه الأقسام». (المتوكّل، 2006، ص81)، وهنا ينافح (المتوكّل) على أطروحة مفادها أنّ الخطابات مهما اختلفت أنماطها فهي آوية إلى بنية واحدة ثابتة تُعورف على نعتها ببنية الخطاب النّموذجيّة؛ حيث إنّ الخطاب يتحدّد بوظيفته التّواصلية وليس بحجم بنيته، فتكون سلميّة تحقّقه كما يلي: النّص > الجملة > المركّب الاسمي > المفردة.

وقد يثوي خلف الجملة نمط شبه الجملة الّذي يجعله (المتوكّل) «كل ملفوظ/ مكتوب دون الجملة يؤدّي تواصليا ما تؤدّيه الجملة» (2005، ص108)، وهو عبارةٌ تتضمّن فعلاً خطابياً على

الأقلّ، تكون من حيث الشّكل إما مركّبات اسميّة أو صفيّة أو ظرفيّة أو أدوات، وتكون من حيث المضمون ذات محتوى دلاليّ تام أو فارغة دلاليّا مثل: (نعم، لا، آه، هيهات، شكراً، عفواً...).

2- تُعدّ بنية الخطاب النّموذجيّة «ذات مستويات خمسة هي: (المستوى البلاغي، والمستوى العلاقي، والمستوى التّمثيلي) عمقاً، والمستويان (الصّرفي-التّركيبي والفونولوجي) سطحاً، باعتبار المستويين الأوّلين شقّين لبنية تداوليّة» (المتوكّل، 2012، ص24)، ويتّضح من الشّكل أنّ هذه المستويات تشتغل في شكل قوالب مستقلّة ويفضي بعضها إلى بعض، تماما كما عرفنا في النّموذج المعيار الّذي بُني على قوالب ترصد ملكات القدرة التّواصليّة، وتترابط في علاقة تفاعلية لإنتاج الخطاب وفهمه.

3- «تتّخذ السّمات المتوافرة في كلّ المستويات الثّلاثة دخلاً على أساسه تشتغل قواعد التّعبير الّتي تنقل البنية التّحتيّة إلى بنية سطحية تؤول صوتيا بواسطة القواعد الصّوتية». (المتوكّل، 2006، ص79)، والمقصود من ذلك أن السّمات المؤشّر لها في المستويات الثّلاثة للبنية التّحتية (البلاغيّ والعلاقيّ والدّلالي) تتحكّم في تحديد خصائص مستويي البنية السّطحية (الصّرفي-التّركيبي والفونولوجيّ)، وهذا حين تشتغل عليها قواعد التعبير لنقلها من البنية التّحتيّة إلى البنية السّطحيّة عن طريق تأويلها إلى صورة صوتيّة.

ويمكن تفصيل هذه المستويات كما يلي:

أ- المستوى البلاغيّ: يتضمّن طبقة المركز الإشاري وطبقة نمط الخطاب وطبقة أسلوب الخطاب. (المتوكّل، 2006، ص78)، حيث تشمل طبقاته السّمات الإشاريّة الّتي تؤشّر للمتخاطبين وزمان ومكان التّخاطب في حين تؤشّر السّمات النّمطية والأسلوبيّة إلى صنف الخطاب (حديث، سرد، نصّ حجاجيّ أو فنيّ...)، وأسلوبه (رسميّ/ غير رسميّ، مهذّب/ غير مهذّب...) في شكل مخصّصات (ما قبل الرّأس) أو لواحق (ما بعد الرّأس).

ب- المستوى العلاقيّ: يتضمّن طبقة الاسترعاء وطبقة الإنجاز وطبقة الوجه. (المتوكّل 2006، ص78)، حيث تأوي طبقاته السّمات الاسترعائيّة الّتي تتحقّق بواسطة أدوات كأدوات النّداء والسّمات الإنجازيّة الحرفيّة منها والمستلزمة (إخبار، سؤال، أمر، وعد، وعيد...)، والسّمات الوجهية الّتي تؤشّر لموقف المتكلّم من فحوى خطابه (شكّ، يقين، انفعال، تعجّب، مدح، ذمّ...).

وتتدخل سمات المستوى العلاقيّ، مثلا، في تحديد صرفات البنيّة السّطحيّة ورتبة مكوّناتها كما تقوم بدور تحديد الخصائص التّطريزيّة حيث يسند التّنغيم طبقا للقوّة الإنجازيّة والنّبر للمكوّن الحامل للوظيفة التّداوليّة البؤرة. (المتوكّل، 2006، ص81)، مثال جملة (أَكِتاباً قرأ الباحثُ؟)

تعيّنت بؤرة المقابلة بتقدّم المكوّن المفعول وبالنّبر المركزيّ، وتعيّنت القوّة الإنجازيّة (الاستفهام) بتصدّر الجملة بأداة الاستفهام (الهمزة) وبالتّنغيم المتصاعد.

ج- المستوى الدلاليّ: يتناول الوقائع والذّوات المحال إليها في ثلاث طبقات: تأطيريّة وتسويريّة ووصفيّة، حيث تأوي الطّبقة التّأطيريّة تحديد الإطار الزمانيّ والمكانيّ لها، وتؤشّر الطّبقة التّسويريّة لكمّ وحجم وعدد الوقائع والذّوات، وتكفل الطّبقة الوصفيّة وصف كيفيات تحقيقها (المتوكّل، 2003، ص232)؛ وطبقاته -مخصّصات ولواحق- هي محطّ التّأشير للسّمات الزمنيّة والجِهيّة المرحليّة (شروع، مقاربة، استمرار...)، والجهيّة الكميّة (تام/ غير تام) على التوالي. وسنرى في نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ أنّ هذه الطبقات الثّلاث للمستوى الدلاليّ/ التّمثيليّ ستتقلّص إلى طبقتين: طبقة القضيّة، وطبقة الواقعة، تتقاطعان مع الطّبقات الثّلاث السّابقة في سمات ووظائف تمثيليّة.

ويمكن الاستفادة من سمات مستويات البنيّة التّحتيّة (البلاغيّ، العلاقيّ، الدلاليّ) ومن خصائصها في معرفة انعكاساتها على البنيّة السّطحيّة للّغة، وأيضاً في معرفة الاختلاف بين اللّغات الّذي يُردُّ إلى قانون التّغليب، يقول (المتوكّل): «الاختلاف بين اللّغات، إذن، لا يكمن في انتقاء عناصر وإقصاء عناصر بل تغليب عناصر على أخرى». (2003، ص167)، فقد توصّل في النّموذج القالبيّ الّذي اقترحه أن الاختلاف النّاشئ بين اللّغات، يعود إلى التّباين في وسيط التّغليب الّذي يعني أن تقوم لغة ما بعملية تغليب خصائص على أخرى داخل بنيتها التّحتيّة (التّداوليّة والدلاليّة) أو بنيتها السّطحيّة المكونيّة (الصّوريّة).

ويرى (المتوكّل) أيضاً أن اعتماد مفهوم الانتقاء التّغليبيّ دون مفهوم الانتقاء الإقصائيّ ألصق بواقع اللّغات، وأجدر أن يؤسّس لتنميط أورد وأكفى، فمن مزايا تأويل الانتقاء على أنّه تغليب أنّه يتيح تلافي الثّنائيات الصّارمة التّقابل الّتي درج المنمّطون على اعتمادها في تصنيف اللّغات من أمثلة ذلك أن اللّغات لا تنقسم إلى لغات إلصاقيّة من جهة ولغات اشتقاقيّة من جهة أخرى، بل إلى لغات تغلب الصّرف الإلصاقي على الصّرف الاشتقاقي ولغات تفعل عكس ذلك. (المتوكّل 2003، ص167)، وباختصار؛ يُؤوَّلُ الانتقاء على أنّه تغليب، فيكون مردّ تنميط اللّغات هو الانتقاء التّغليبيّ للّغة الّذي يغلب عناصر على عناصر أخرى، وهو غير الانتقاء الإقصائيّ الّذي يجتزئ عناصر دون أخرى داخل نموذج مستعملي اللّغة.

ويقع التّغليب بين البنيات وقوعه في عناصر هذه البنيات فيغلب مستوى على آخر أو طبقة على أخرى أو قيمة طبقيّة على أخرى، وبهذه العمليّة التّغليبيّة تفترق اللّغة عن غيرها من اللّغات.

ويمكن أن يمسّ التّغليب لا البنية المكوّنية فحسب، بل كذلك البنية التّحتيّة بشقّيها التّداوليّ والدلاليّ، ويمكن أن يغلب مستوى من مستويات البنية التّحتية على مستوى آخر، ويمكن أن يمسّ التّغليب مكوّنات المستوى الواحد فتغلب طبقة (أو طبقتان) على طبقة أخرى. (المتوكّل، 2003 ص168)، ومثال تغليب المستوى هو أن اللّغات الموجّهة تداوليّا تغلب المستويين التداوليين البلاغيّ والعلاقيّ على المستوى التّمثيلي، بعكس اللّغات الموجّهة دلاليّا الّتي تغلب المستوى التّمثيليّ على المستويين التّداوليين، ومن أمثلة تغليب الطّبقة أن اللّغات السّامية ومنها العربيّة هي لغات جهيّة أكثر منها زمنيّة؛ لأنّها تغلب داخل المستوى التّمثيليّ الطّبقتين الوصّفيّة والتّسويريّة على الطبقة التّأطيريّة؛ لأنّهما ترمزان للخصائص الجهيّة.

أفضى مبدأ التّغليب –في النّهاية– إلى وضع محور مقارنة بين اللّغات في صورة «متواليّة قطباها لغات موجّهة تداوليّا ولغات موجّهة دلاليّا، وبين هذين القطبين لغات تختلف باختلاف قربها وبعدها من التوجّه التّداوليّ أو التّوجّه الدلاليّ». (المتوكّل، 2012، ص24)، وتقترب اللّغة العربيّة الفصحى هنا من التّوجّه التّداولي باعتبار تغليبها للسّمات التّداوليّة (القوى الإنجازيّة، الوظائف التّداوليّة، الإحالة، النّداء...).

4- نموذج نحو الخطاب الوظيفي (سنة 2008): تفرّع عن النّحو الوظيفيّ المعيار أيضاً نحو الخطاب الوظيفيّ الّذي راده (هنخفلد) في البدايّة (هنخفلد (2004))، ثمّ اكتمل هذا النّموذج مع (هنخفلد) و(ماكنزى) (هنخفلد وماكنزي (2008))، وهو نموذج مستعمليّ اللّغة الطّبيعيّة يمثل لقدرات المتكلّم–المخاطب اللّغويّة وغير اللّغويّة والمعارف الّتي يستخدمها في عمليتيّ إنتاج الخطاب وفهمه. ويسمّى كذلك بنحو الخطاب الوظيفيّ النّموذج النّواة، تمييزاً له عن النّموذج الّذي يأتي على إثره ويحمل الاسم نفسه تقريبا وهو نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ الموسّع. واقتُرحت فيه صيغة لنموذج مستعمل الخطاب يوضّح معالمها الشّكل الآتي:

الشكل رقم 09: نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ

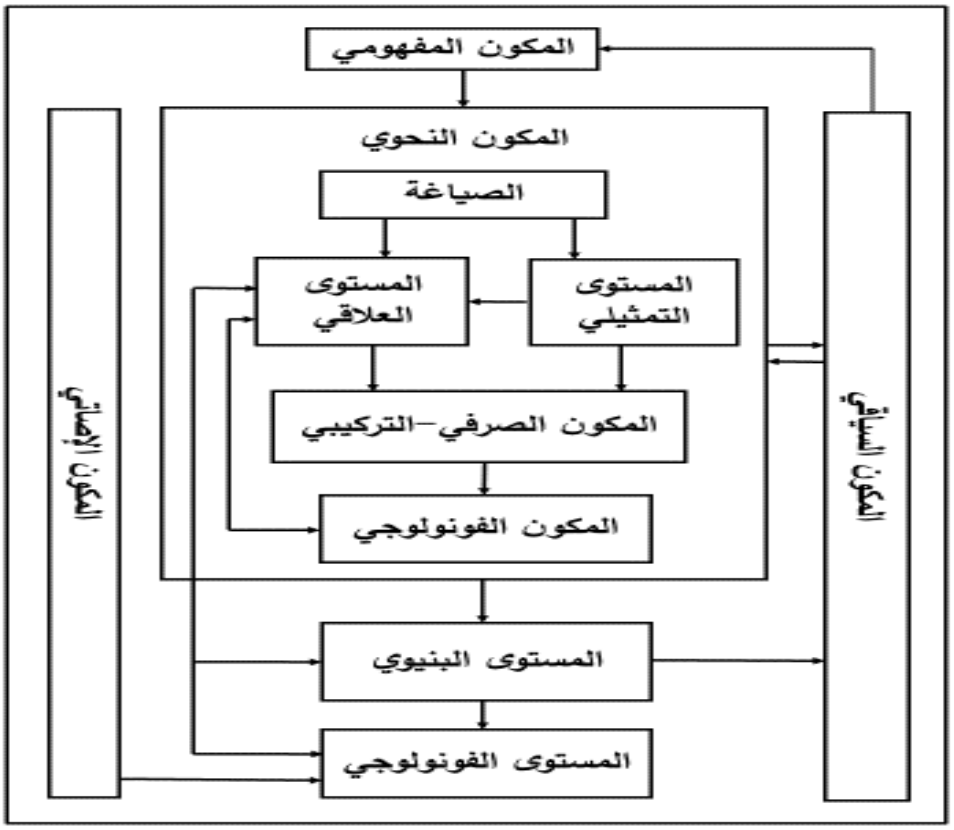

المصدر: المتوكل، 2012، ص33.

يمكن تبسيط هذا الشّكل الّذي يبيّن الجهاز الواصف لمستعمل اللّغة الطّبيعيّة في نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ كما يلي:

– يقوم نحو الخطاب الوظيفيّ بعمليتين اثنتين: عملية اختزال قوالب نحو الطّبقات القالبيّ وعملية إضافة، حيث يختزل القالبين المعرفيّ والمنطقيّ في مكوّن واحد يسمّى المفهوميّ، والقالبين الاجتماعيّ والإدراكيّ في مكوّن واحد يسمّى السّياقيّ، ثمّ يضيف المكوّن الإنطاقيّ. (المتوكّل 2011، ص78)، وهكذا يُقدّم نحو الخطاب الوظيفيّ على أربعة مكوّنات أركان هي: المكوّن المفهوميّ (المعرفيّ)، والمكوّن النّحويّ، والمكوّن السّياقيّ، والمكوّن الإصاتيّ (الإنطاقي/ الخَرَجُ) حيث يعتبر قوام هذا النّموذج مكوّن مركزيّ هو المكوّن النّحويّ، أمّا المكوّنات الثّلاثة الأخرى؛ فهي مكوّنات خارجيّة مصاحبة ومساعدة فقط.

– يُشكّل المكوّن المفهوميّ القوّة الدّافعة لباقي المكوّنات، تُرصد داخله كلّ المعارف المتوافرة لدى منتج الخطاب بما في ذلك معارفه اللّغوية والخطابيّة، ومعارفه عن العالم الواقع منه والمتخيّل. ويضطلع المكوّن السّياقي برصد وتخزين المعلومات المستقاة من السّياق بشقيّه المقالي والمقامي وإمداد المكوّنات الأخرى بها عند الحاجة. هذه المعلومات كما هو معلوم فئتان: معلومة تُؤخذ من

الموقف التّواصليّ نفسه مباشرة عن طريق الإدراك الحسيّ ومعلومات تُفاد من خطاب سابق يشار إليها عادة بالعود الإحاليّ. (المتوكّل، 2010، ص17)، فالسّعي لتقوية الكفاءة التّداولية أدّى إلى موقعة المكوّن السّياقي داخل النّموذج، واعتباره ضرورياً لاشتغاله إلى جانب المكوّن المفهوميّ.

– إنّ المكوّن الإصاتيّ ذو طبيعة مسموعة إذا كان الخطاب منطوقاً، وطبيعة غير مسموعة (خطيّة أو إشاريّة) إذا كان الخطاب غير منطوق، وهو يختلف جذرياً عن المكوّن الفونولوجي – التّابع للمكوّن النّحويّ– الّذي يفضي إلى تمثيل مجرّد متدرّج في البنية التّحتيّة، تمثيل يتحقّق بواسطة المكوّن الخرج بالصّوت أو الخط أو الإشارة أو غير ذلك. (المتوكّل، 2010، ص18). وجدير بالتّعقيب هنا أن الوسائل الصّرفيّة والتّركيبيّة والتّطريزيّة في المكوّن النّحويّ لا تحقّق الخطاب إلاّ صوتا أو خطاً وليس بالإشارة كما ذُكر؛ أي بشكل منطوق أو مكتوب فقط، أما تحقيقه بشكل إشاري فيستدعي حركات جسميّة وإيماءات، يتكفّل بها المكوّن الإنطاقيّ دون المكوّن النّحويّ، وهي تُتناول في علم الإشارة أو علم اللّغة الحركيّة، وليس في علوم الصّرف والتّركيب والأصوات.

– يقوم المكوّن النّحوي على ثلاثة مكوّنات فرعية هي: مكوّن الصّياغة والمكوّن الصّرفي– التّركيبيّ والمكوّن الفونولوجيّ. يضطلع مكوّن الصّياغة بتحديد المستويين العلاقيّ والتّمثيليّ، ويقوم المكوّن الصّرفيّ–التّركيبيّ بتحديد المستوى الصّرفي–التّركيبيّ (أدوات وصرفات وتراكيب)، أمّا المكوّن الفرعيّ الفونولوجيّ فيحدّد المستوى الصّوتيّ بشقّيه المقطعيّ والتّطريزيّ تنغيما ونبرا. ويفضي المكوّنان الصّرفيّ–التّركيبيّ والفونولوجيّ إلى المستوى البنوي تامّ التّحديد. (المتوكل 2010، ص17)، وبذلك يقوم المكوّن النّحويّ على أربعة مستويات رئيسيّة مرتّبة كما يلي: المستوى التّداوليّ/العلاقيّ، المستوى الدلاليّ/ التّمثيليّ، المستوى الصّرفيّ–التّركيبيّ، المستوى الفونولوجيّ، ويضمّ كلّ مستوى مجموعة من الطّبقات، وكل طبقة تقوم على مجموعة من المخصّصات.

– يشمل المستوى التّداوليّ ثلاث طبقات: طبقة الحديث، وطبقة النّقلة، وطبقة الفعل الخطابيّ التّي تتضمّن القوّة الإنجازيّة ومؤشّري المتكلّم والمخاطب، ثمّ الفحوى الخطابي الّذي يضمّ أفعالاً حمليّة وأفعال إحاليّة، تُسند إليها وظائف تداوليّة، ويشمل المستوى الدلاليّ طبقة القضيّة وطبقة الواقعة. (المتوكل، 2010، 48)، وتحدّد مخصّصات طبقات المستوى الصّرفي–التّركيبيّ والمستوى الفونولوجيّ الوسائل الصّرفية والتّركيبيّة والتّطريزيّة (التّنغيمية والنبريّة) الّتي تستخدم في تحقيق المستويات التّحتيّة السّابقة للخطاب: صوتا، خطّاً، إشارة، أو غير ذلك.

– تمّ فصل البنية التّداوليّة عن البنية الدّلاليّة، وإن كانتا معا تشكّلان البنية التّحتيّة نفسها الّتي تنقل إلى بنية صرفيّة–تركيبيّة وبنية فونولوجيّة. (المتوكل، 2012، ص32)، وهذا ضمانا لإحراز أكبر قدر ممكن من الكفاية التّداوليّة؛ لأنّ وضع نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ كان من نتائج التّطورات الحاصلة في موضوع الدّرس وفي سقف الكفايّة التّداوليّة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة.

– تُعدُّ البنية التّداوليّة أعمق من البنية الدلاليّة؛ لأنّ القصد أسبق من الفحوى، حيث «يُرجَّحُ إنتاج أي خطاب إلى ثلاث مراحل هي القصد والفحوى والنّطق». (المتوكل، 2011، ص43) لذلك يتبيّن من الشّكل أسبقيّة المستوى التّداولي على المستوى الدلاليّ، وأسبقيتهما معاً على مستوى الصّرف والتّركيب والصّوت، وهو الترتيب الّذي يتوافق مع عملية إنتاج الخطاب.

– عَدّل نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ الوحدة الدّنيا للخطاب، فبعدما كانت هي (الجملة) فقط أصبحت (الفعل الخطابيّ) الّذي قد يكوّن جملةً أم نصّا كاملا أم مركبّا اسميّا أم مفردة، شريطة أن تُشكّل هذه المقولات وحداتٍ تواصليّة قائمة الذّات، وهذا استدعى إعادة النّظر في مقومات البنية التّداوليّة حيث أصبح يمثّل لها باعتبارها فعلا خطابيّا قوامه قوّة إنجازيّة ومتكلّم ومخاطب وفحوى خطابيّ يتضمّن فعلا إحاليّا وفعلا حمليّا. (المتوكل، 2012، ص31)، فإذا كانت نظريّة النّحو الوظيفيّ منذ نشأتها مؤسّسة تداوليّا؛ تتّخذ موضوعا لها الملفوظ/المكتوب مؤطّرا بظروف إنتاجه (سياقه)، فإنّ هذا الملفوظ/ المكتوب كان عبارة عن جملة وأصبح فعلا خطابيّاً.

واتخذّ (المتوكل) من نموذج نحو الخطاب الوظيفي إطاراً نظريّاً للقيام بعمليتين متوازيتين: إعادة قراءة آراء النّحاة والبلاغيين والأصوليين العرب، ودراسة بنية الخطاب في اللّغة العربيّة من خلال: القوّة الإنجازيّة، والإحالة، والتّبئير والتّقويّة، مع الدّفاع عن أطروحة مفادها أن للخطاب الطّبيعيّ على اختلاف أنماطه بنية عامّة ترصد ثوابتها ومتغيّراتها نظريّة لسانيّة واحدة.

ويُعابُ على نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ نقصه من حيث الكفاية النّفسيّة الّتي مرّ بنا أنّها تقتضي التّمثيل لإنتاج الخطاب وفهمه بوصفهما وجهين لعمليّة تواصليّة واحدة.

يذهب (هخنفلد) و(ماكنزي) في هذا الصدد، إلى أنّ نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ قابل؛ لأن يضطلع بالتّمثيل للإنتاج والفهم كليهما؛ إذا ما ازْدَوَجَ بمعكوسه الّذي ينطلق من خرج المكوّن الإصاتي إلى البنيتين الفونولوجيّة والصّرفية–التّركيبية، ثمّ البنيّة الدلاليّة فالبنية التّداوليّة؛ أي المستوى التّمثيلي والمستوى العلاقيّ. (المتوكل، 2012، ص34)، وقد استغلّ (المتوكل) هذا النّقص الموجود في نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ وصاغ نموذجه الجديد المسمّى نحو الخطاب الوظيفيّ الموسّع، حيث استفاد من الإشارة السّابقة لصاحبيّ النّموذج في كيفية تعويض نقص الكفاية النّفسيّة، وعدّل النّموذج منطلقاً من فكرة أنّ فهم الخطاب يتمّ بمعكوس آلية إنتاج الخطاب

حيث ينتقل المخاطب من البنية السّطحيّة إلى البنية التّحتيّة؛ من المستوى الصّوتي إلى المستويين العلاقي والتّمثيلي عن طريق تفكيك قواعد التعبير، ثمّ وسّع نموذجه ليشمل مختلف أنواع الخطابات.

5- نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ الموسّع (سنة 2011): نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع، وهو نفسه نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ لكنّه في الصّورة الّتي استطاع بها القيام بالنّقلة الإجرائية لولوج مجال الخطاب الموسّط، وقد عرض له (المتوكل) في كتابه (الخطاب الموسّط مقاربة وظيفيّة موحّدة لتحليل النّصوص والتّرجمة وتعليم اللّغات) سنة 2011، ويعدّ هذا النموذج الإسهام العربي الثّاني في نظرية النّحو الوظيفيّ. وقد اصطنع (المتوكل) جهازه الواصف لمستعمل اللّغة الطّبيعية حتّى يكون عامّا ومتكاملاً يختلف فحوى مكوّناته وطريقة تشغيلها بحسب أنساق وأنماط التّواصل وفق الشّكل الموالي.

الشكل رقم 10: نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ الموسّع

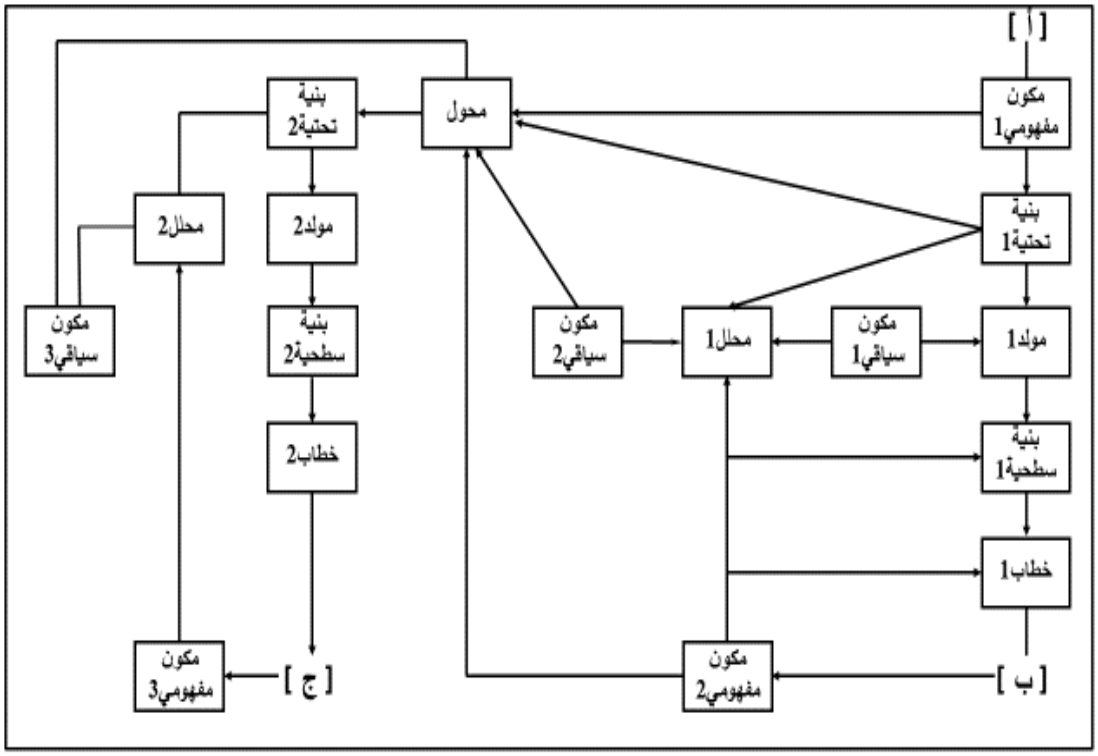

المصدر: المتوكل، 2012، ص35.

ويكفل الجهاز المقترح، باعتباره مجموعة من آليات التّوليد والتّحليل والتّحويل، رصد عمليتي إنتاج الخطاب المباشر وتحليله في حالتي سلامته واضطرابه، كما يرصد مختلف العمليات الّتي يستلزمها الخطاب الموسّط. ويشغّل الجهاز نفسه باعتماد المسطرة نفسها مع تكييفات محليّة فى كلّ الإنجازات الّتي يمكن أن يقوم بها مستعمل اللّغة سواءً أنقلا محضا كانت أم تعليما للّغة ثانية

أم ترجمة، وسواءً أترجمةً نسقيةً كانت هذه التّرجمة فتتمّ بين لغتين أو داخل اللّغة نفسها، أم ترجمة أنساقيّة تمد الجسور بين أنساق التّواصل ومختلف قنواته (المتوكل، 2011، ص99)، وقد اعتمد (المتوكل) في هذا النّموذج على ملاحظته النّقص في نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ من حيث الكفاية النّفسية الّتي تقتضي التّمثيل لإنتاج الخطاب وفهمه بوصفهما وجهين لعمليّة تواصليّة واحدة، فأضاف إلى الجهاز معكوسه الّذي يصورن عملية الفهم الّتي تنطلق من خرج المكوّن الإصاتيّ إلى البنيتين الفونولوجيّة والصّرفيّة–التّركيبيّة ثمّ البنية الدلاليّة فالبنية التّداوليّة، كما أضاف إلى جهازي الإنتاج والفهم جهاز التّحويل الّذي لم يكن وارداً من قبل؛ وهذا لرصد عملية نقل خطاب ما إلى خطاب آخر عن طريق التّرجمة أو الشّرح أو التّفسير أو التأويل أو التّلقين.

إنّ تشغيل هذا الجهاز ينطبق على جميع الأنماط اللّغوية والخطابيّة، مع إمكانية تكييفه مع كل ما ينجزه مستعمل اللّغة الطّبيعية في الواقع، عند النّقل المحض لهذه الأنماط، أو تعليمها، أو ترجمتها.

وتُحَدِّدُ نماذج التّحويل الّتي أضافها (المتوكل) في هذا الجهاز الطّريقة الّتي يحوّل بها المتكلّم خطابا ما إلى خطاب آخر، سواءً عن طريق التّرجمة البينية الّتي تتمّ من لغة إلى لغة أخرى، أم بوسيلة التّرجمة العينيّة الّتي تقع داخل اللّغة نفسها؛ في مستوى لغوي واحد أو من مستوى لغوي إلى آخر داخل اللّغة الواحدة كالانتقال من اللّغة العربيّة الفصحى إلى إحدى دوارجها، وتشمل عمليات الشّرح والتّلخيص والتّفسير والتّأويل، أم بواسطة التّرجمة النّسقيّة الّتي تكوّن داخل النّسق التّواصليّ الواحد (لغة، إشارة، صورة،...)، أم عن طريق التّرجمة الأنساقيّة الّتي تحدث من نسق تواصليّ إلى آخر كالانتقال من اللّغة إلى الإشارة أو الرّسم أو غير ذلك.

وأُعدّ هذا الجهاز ليكون قادراً على رصد مختلف العمليات الّتي تتمّ أثناء التّواصل المباشر أو التّواصل الموسّط (غير المباشر)، باستعمال اللّغة أو نسق تواصليّ آخر (صورة، صوت غير لغوي، إشارة،..)، ومن أجل ذلك يُحرز الجهاز ثلاث مواصفات أساسيّة هي: الخصوصيّة والشّمول والعموم.

5-1- الخصوصيّة: تتعدّد الخطابات وتتباين مجالا وآليات وأهدافا لكنّها تؤول إلى: بنية خطابيّة عامّة واحدة، ثوابتها داخل كلّ مستوى من المستويات الأربعة: (العلاقيّ، التّمثيلي الصّرفي–التّركيبي، الفونولوجيّ)، كما توجد داخل كلّ منها المتغيرات الّتي تتولّد عنها الأنماط الخطابية وتكمن في اختلاف القيم المسندة إلى عناصر كلّ مستوى، حيث تُسند القيم التّحتية إلى مخصّصات ووظائف طبقات المستويين العلاقيّ والتّمثيلي، وهي بدورها تحدّد الخصائص الصّرفية–التّركيبيّة للنّمط الخطابيّ. (المتوكل، 2011، ص79–80)؛ بمعنى أنّ الخطابات في

أصلها بنية خطابيّة واحدة، وتحمل داخل مستوياتها ثوابت تشترك فيها جميع الخطابات، ومتغيّرات تتغير بحسب النّمط الخطابي، ناشئة عن كيفية إسناد القيّم لعناصر المستويات التّحتية الّتي تتحكّم بدورها في خصائص المستويات السّطحية، وبهذه الأخيرة تتعدّد الخطابات وتتباين مجالا وآليات وأهدافا.

وتكمن أهميّة تحديد النّمط الخطابي بالتّأشير له في مستوى البنية التّحتية في التنبّؤ بخصائص الخطاب، وفي ضبط عمليّة التّرجمة بضمان الانتقال داخل النّمط الخطابي نفسه، مع وجوب اعتبار النّمط اللّغوي للّغتين ووجوه الائتلاف والاختلاف بينهما من حيث التحقّق الصّرفي–التّركيبي لخصائص نمط الخطاب. (المتوكل، 2011، ص80)؛ ويُقصدُ أن تحديد النّمط الخطابي يفيدنا في التنبّؤ بخصائص الخطاب في مستوى البنية التّحتيّة، ومن ثمّة التّحكم في عمليات التّرجمة داخل النّمط الخطابيّ نفسه، وعند التّحقيق الصّرفي–التّركيبي لتلك الخصائص ينبغي مراعاة الفروقات بين نمطيّ لغتي التّرجمة (الأصل والهدف).

تجاوزت النّظرية الاهتمام بالمقارنة بين اللّغات وتنميطها فقط إلى تحديد الأنماط الخطابيّة حسب معايير عديدة منها: المجال (أدبي، علمي، سياسي...)، والقصد (إخباري، إقناعي تضليلي...)، والآلية (سردي، وصفي، حجاجي...)، والقناة أو النّسق التّواصلي المستعمل (لغوي إشاري، صوري، متعدد القنوات...)، والكيفية (شفّاف، كاتم (ملتبس، مطوي، منعرج، متداخل)). وستكون لنا فرصة في الفصل الأخير من هذا البحث للانخراط في مثال وافر لتنميط الخطاب وفق المعايير السّابقة.

5-2- الشّمول: قام (المتوكل) بتعديل الجهاز الواصف لمستعمل اللّغة في نحو الخطاب الوظيفي؛ فأضاف آلية التّحليل إلى آلية الإنتاج، ثمّ زوّده بآلية تحويل (مُحَوّل) تنقل البنية التّحتية للخطاب المصدر إلى البنية التّحتية للخطاب الهدف.

يُعلّل هذا بغاية إحراز الجهاز قدراً معقولاً من شمول الكفاية النّفسية؛ برصده للقدرة على إنتاج الخطاب المباشر وفهمه، والقدرة على القيام بمختلف عمليات التّحويل الّتي يستلزمها إنتاج الخطاب الموسّط. (المتوكل، 2011، ص81)، وقد انطلق في هذا التّعديل من فكرة أن فهم الخطاب يتمّ بمعكوس آلية إنتاج الخطاب، حيث ينتقل المخاطب من البنية السّطحية إلى البنية التّحتية؛ أي من المستوى الصّوتي إلى المستويين العلاقي والتّمثيلي عن طريق تفكيك قواعد التّعبير.

5-3- العموم: يُؤخذ الجهاز على أنّه نسق مجرّد من القوالب المولّدة والمحلّلة والمحوّلة الفارغة، يستخدم مبدئياً لرصد التّواصل أيا كان نمطه وقناته، على أن يخصّص فحوى هذه القوالب عند الاقتضاء؛ فتكون لغوية أو إشارية أو صورية، أو يكون بعضها لغويا وبعضها غير لغوي

ليُصبح النّموذج تحقّقا لغويا لنموذج التّواصل العام، وتصبح الكفاية التّداوليّة كفاية تواصليّة، وتُدرج نظرية النّحو الوظيفي في نظرية أعمّ هي: النّظرية الوظيفيّة العامّة الّتي تعدّ مسؤولة عن التّنظير للتّواصل بمختلف أنساقه اللّغوية وغير اللّغوية. (2011، ص81)؛ فيكون (المتوكل) بهذا قد أدخل تعديلاً على الكفايات السّابقة اللّغوية (الوصفيّة والتّفسيريّة) والإجرائيّة، حيث ألزم النّظرية الوظيفيّة بأن تُحصّل لا الكفاية اللّغوية التّداوليّة البحتة فقط، بل أيضاً الكفاية التّواصليّة بوجه عام، الّتي تُصبح بدورها معياراً للمفاضلة بين النّظريات الوظيفيّة، على أساس قابليتها للانخراط في ما يسمّيه بالنّظرية الوظيفيّة العامّة (نظرية التّواصل العامّة) الّتي تتضمّن كلّ أنساق التّواصل اللّغوية وغير اللّغوية (الإشاريّة، الصّورية،...).

ونعتقد أنّ تطبيق نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع يحمل بعض المآخذ الّتي تشكّل عائقاً أمام تحليل إنتاج الخطاب وتأويله أهمها:

أ- إنّ تحصيل الكفاية النّفسية مرهون بمدى مطابقة قواعد هذا النّموذج لعمليات الإنتاج والفهم والتّحويل، فإذا كانت عملية الإنتاج في هذا النّموذج يعيننا على إدراكها العودة إلى النّماذج السّابقة (نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ، والنّموذج القالبيّ)، فإنّ عملية الفهم الّتي أضافها لتشكّل الدور العكسي لعملية الإنتاج لا نجد لها تجسيداً في النّماذج السّابقة، وأنّ عملية التّحويل واردة بشكل تجريدي فقط لا نتلمس فيها التّفصيل والتّفسير الّذي يحفّز القارئ للخوض في التّجربة المراسيّة بشكل سليم ووافٍ لمعطياتها.

ب- ينعدم هذا النّموذج لحدّ الآن من أيّة دراسة تطبيقيّة تتبعه وتُوضِّح خطواته وآلياته من طرف المنظّرين له، وتبعث على الاستيثاق من قدرته الإجرائيّة.

ج- إن مجموع إوّالياته مختزلة جدًّا، وغير متوسّع فيها بشكل يروز النّقلة الإجرائيّة، ويكفي لمقاربة النّصوص مقاربة تكشف وظيفتها التّواصليّة بعكس ما عَرفناه في النّماذج السّابقة له خصوصاً نموذج نحو الطّبقات القالبيّ.

وتجعلنا هذه الأسباب في الوقت نفسه نرفع التّحدي للخوض فيه وإخضاعه للتّجربة، ووضعه على المحك لمعرفة مدى نجاعته الإجرائيّة، إذْ لا نرى مانعاً من الاستعانة عند الحاجة بآليات وإوَّاليات ما سبقه من نماذج؛ طالما أنّ كل نموذج ما هو إلاَّ امتدادٌ لسابقه، وأن معهود تطور النّظرية الوظيفيّة العربية سار وفق مبدأ عدم تناقض معطياتها وقواعدها؛ إلّا ما كان فيها من تعديل له مبرّراته المنطقيّة. وقبل الخوض في التّجربة المراسيّة على نصوص المدوّنة، توجّب علينا وضع بعض الفروق بين أهم النّماذج الّتي عرضنا لها وهي النّماذج الّتي عوّلنا عليها في مساءلة نصوص المتن.

خامساً- المقارنة بين نماذج النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة: تسعى هذه المقارنة إلى تحديد أوجه التّشابه بين نماذج النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة وإيجاد الفروقات الأساسيّة بينها، وتستهدف نموذج النّحو الوظيفي المعيار (ديك (1989) و(1997/أ-ب) ونموذج نحو الطّبقات القالبي (المتوكل (2003)) ونموذج نحو الخطاب الوظيفيّ (هنخفلد وماكنزي (2008))؛ أي أنّها تستبعد النّموذج النّواة لبعده عن النّماذج الأخرى من حيث تحقيق الكفايات الرئيسيّة للنّظريّة، وتستثني نحو الخطاب الوظيفي الموسّع؛ لأنّه نسخة من نحو الخطاب الوظيفي إلاّ أنّه موسّع ليشمل كلّ الخطابات بمختلف أنماطها ويجسّد بشكل أفضل تفاصيل عملتي إنتاج الخطاب وفهمه.

1- أوجه التّشابه: تتشابه نماذج النّظرية (النّحو المعيار، النّحو القالبي، نحو الخطاب الوظيفي) في ما يلي:

- إنّ المعارف الّتي تُفعّل في عمليتي إنتاج الخطاب وفهمه معارف اجتماعية وإدراكيّة ومنطقيّة إضافة إلى المعارف اللّغوية؛
- إنّ العلاقة الرّابطة بين مختلف مكوّنات النّحو علاقة قالبيّة حيث يتّخذ خرج بعضها دخلا لبعض؛
- يُشكّل التّداول والدّلالة البنية التّحتية للخطاب التي تتضمّن المعلومات التي تحدّد البنيتين الصّرفية – التّركيبيّة والفنولوجيّة؛
- إنّ المكوّن النّحوي هو المكوّن المركزي، ويشتغل مع مكوّنات خارجية مواكبة له، ويبدأ الاختلاف بين نماذج النّظريّة في توزيع مختلف الطّاقات داخل مكونّات النّموذج وكيفية رصدها.
- تشمل الطّاقات الّتي تستقرّ لإنجاح عمليتي إنتاج الخطاب وفهمه الطّاقة اللّغوية وطاقات أخرى، حيث ترصد هذه الطّاقات في مكوّنات النّموذج الّتي يحكم تفاعلها مبدأ القالبيّة.
- تؤول كلّ النّماذج إلى الأرومة المنهجيّة نفسها المتشكّلة من المبادئ العامّة النّظريّة.

2- أوجه الاختلاف: نبيّن أوجه الاختلاف بين النّماذج الثّلاثة من خلال الجدول الموالي.

الجدول رقم 07: الاختلاف بين النّموذج المعيار والنّموذج القالبيّ ونحو الخطاب الوظيفيّ

المعيار	القالبي	الخطابي الوظيفي
الوحدة الدّنيا للخطاب هي الجملة		الوحدة الدّنيا للخطاب هي الفعل الخطابي
يجعل البنية التّحتية (الدّلالية– التّداولية) موحّدة ولا يفصل بين التّداول والدّلالة.	يقسّمان البنية التّحتية إلى بنيتين منفصلتين تماماً هما البنية التّداولية والبنية الدّلالية.	
لا تضمّ البنية التحتية مستويات وإنّما طبقات متداخلة الأحياز، حيث يقع الحمل في حيز القضية، وتقع القضية في حيز الوجه الذي يقع في حيز القوّة الإنجازية.	يميّز بين المستويين البلاغي والعلاقي.	يجمع بين المستويين البلاغي والعلاقي في مستوى واحد للتقليل من كلفة آليات التّمثيل.
	يتضمّن المستوى التّداولي ثلاث طبقات: الاسترعائيّة، الإنجازيّة، الوجهية.	يتضمّن المستوى التّداولي ثلاث طبقات: المحادثة/ الحديث، النّقلة، الفعل الخطابي.
	يتناول المستوى الدّلالي ثلاث طبقات: التّأطيرية، التسويريّة، الوصفيّة.	يتناول المستوى الدّلالي طبقتين: طبقة القضية، وطبقة الواقعة.
يمثل للسّمات الوجهية في طبقة القضيّة، في المستوى الدلالي.	يمثل للسمات الوجهية في الطبقة الوجهيّة في المستوى التّداولي.	تتوزع السّمات الوجهية بين طبقة القضيّة في المستوى الدّلالي، وطبقة الفحوى في المستوى التّداولي.
يرصدان الطّاقات غير اللّغوية في أربعة قوالب، هي القالب المعرفيّ والقالب المنطقيّ والقالب الاجتماعيّ والقالب الإدراكي.		يختزل القالبين المعرفيّ والمنطقيّ في المكوّن المفهوميّ، والقالبين الاجتماعي والإدراكي في المكوّن السّياقي، ثم يضيف المكوّن الإنطاقيّ.

يرصد لنا هذا الجدول التّطور المنهجيّ لأشهر نماذج نظرية النّحو الوظيفي، والتّعديل الذي مسّ النّظرية وهي تسعى لتحقيق كفاياتها اللّغوية والإجرائيّة، فقد تغير تصوّر الوحدة الدّنيا للخطاب، وتطوّرت وجهة النّظر لبنية نموذج مستعمل اللّغة الطّبيعيّة من حيث مكوّناته وقوالبه التي ترصد ملكات وطاقات القدرة التّواصليّة سواء اللّغوية أم غير اللّغوية، وتمّ إعادة النّظر في كل مرّة في تقسيمات مستويات وطبقات البنية التّحتية للمكوّن النّحوي المركزي في الخطاب، وانتهت إلى

فصلها إلى بنيتين: بنية تداوليّة وبنية دلاليّة، مما يتيح ربط المستوى التّداولي بالمستويين الصّرفي-التّركيبي والفونولوجي ربطا مباشرا في تحقيق عناصره دون المرور بالمستوى الدلاليّ، كما يسوغ إدماج العبارات الفارغة دلاليا مباشرة في المستوى التّداولي نفسه.

ويهمّ الدّراسة التّطبيقيّة في هذا الجدول نموذج نحو الطّبقات القالبي ونموذج نحو الخطاب الوظيفي فقط، أما نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع؛ فهو لا يزيد عن النّموذج الّذي سبقه إلا في تحقيق أفضل لعملتي الإنتاج والفهم من أجل تقوية الكفاية النّفسية، وأيضاً في توسيع معايير تنميط الخطاب وأنساق التّواصل فيشمل كلّ خطاب مباشر أو موسّط، وكلّ أنساق التّواصل سواء بنسق اللّغة أم بأنساق أخرى غير لغوية كالإشارة والرّسم والموسيقى، وبتلك الوساطة يوظّف في قطاعات أخرى كالشّرح والتّفسير والتّأويل والتّرجمة وتعليمية اللّغات.

وقد عرفنا أنّ من مميّزات النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة الانفتاح على الدّراسات النّصية، فما يقع على الجملة من قواعد نحويّة وظيفيّة يمكن توسيعه وامتداده ليطبّق على النّص كله؛ يعني مثلا إذا تحدّثنا عن محمول فعلي باعتباره وظيفة دلاليّة في الجملة، يمكن تناول مسألة المحمولات الفعليّة بالدّراسة في النصّ كوظائف دلاليّة وكوقائع (أعمال وأحداث، حالات وأوضاع) في طبقة الواقعة في المستوى التّمثيلي الدّلالي.

طالما أنّ الأمر كذلك؛ سيكون عملنا في الفصول التّطبيقيّة مركزاً على النّص ككل باعتباره وحدة خطابيّة كبرى، ولا داعي لتمثيل الجمل تمثيلا رمزيّا. حيث سنُخضع مجموعة منتقاة من الأحاديث القدسية الطِّوال لمشرط المعالجة، وفق النماذج الثلاثة الأخيرة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة بغية تتبّع الجديد وملاحقة آخر ما توصّلت إليه النّظريّة عموماً، وهي: نموذج نحو الطّبقات القالبي، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع.

خلاصة: تقوم النّظرية الوظيفيّة التّداولية على عشرة منطلقات منهجيّة تؤكّد أنّ اللّغة بنية وأداة في الوقت ذاته وليست بنية فحسب كما عُرفت في النّظريات البنويّة، وأنّ الوظيفة الأساسيّة والمهيمنة للّغات الطّبيعيّة هي التّواصل بين الأفراد والجماعات البشريّة، وأنّ هذه الوظيفة تتحكّم في البنية إلى حدّ بعيد، وتُسهم في تطور اللّغة، وتولي اهتماماً كبيراً لقضايا القدرة اللّغوية والكّليات اللّغوية واكتساب اللّغة، وتجعل لدراسة أيّة لغة ضرورة إشراك العناصر المرتبطة بنسق وسياق استعمالها ومواقف مستعمل اللّغة منها.

إنّ موضوع الدّرس والوصف في النّظرية هو القدرة التّواصليّة الّتي تتكوّن من قسمين: معرفة المتكلّم/ السّامع للغته، ومعرفته بقواعد التّخاطب وجوانب التّواصل، ثمّ ضبط التّرابط القائم بينهما، وهذه القدرة التّواصليّة تشتمل على ملكة لغوية دائمة وستّ ملكات توظّف عند الحاجة (معرفيّة، منطقيّة، اجتماعيّة، إدراكيّة، شعريّة).

وتسعى النّظرية لتحقيق الكفاية اللّغوية الّتي تجمع بين الوصف والتّفسير؛ حيث إن الكفاية التّفسيريّة تتضمّن بدورها الكفاية التّداولية والكفاية النّفسية والكفاية النّمطية، كما تهدف إلى إحراز كفايات أخرى كالكفاية الإجرائيّة والكفاية الحاسوبيّة والكفاية التّطورية.

وصدرت عن النّظرية منذ نشأتها إلى يومنا هذا عدّة نماذج، فقد انطلقت من النّموذج النّواة ثمّ النّموذج المعيار لـ(سيمون ديك)، بعدها جاء الدّور العربي في إغنائها بنموذج نحو الطبقات القالبي لـ (أحمد المتوكل)، ثمّ ظهر نموذج نحو الخطاب الوظيفي لـ (هخنفلد) و(ماكنزي)، ثمّ النّموذج العربيّ الثّاني نحو الخطاب الوظيفي الموسّع لـ(المتوكل)، وعلى الرّغم من الفروقات الكثيرة الّتي يمكن ضبطها بين هذه النّماذج إلاّ أنّها تكاملت وأفاد بعضُها بعضاً لإنضاج النّظرية واستوائها.

الفصل الثّالث
الحديث القدسيّ في ضوء نحو الطّبقات القالبي

مدخل: نسعى في هذا الفصل المراسيّ إلى أن نُسائل الجهاز الواصف للنّظريّة الوظيفيّة التّداولية من خلال اختبار نموذج نحو الطّبقات القالبي، وتمحيص مدى كفايته على المستوى الإجرائيّ في الحديث القدسيّ، حيث يتمّ كشف مدى استجابة تحليلات وتفسيرات المتن للمعايير العلميّة العامّة المعتمدة في التّنظير.

نتعرّف أولاً على الخطاب المختار للدّراسة ومعناه العام، ثمّ كيفيّة اشتغال المكوّنات في نحو الطّبقات القالبي، لنتطرّق إلى بنية المكوّن النّحوي في هذا الخطاب، من خلال البنية الوظيفيّة للحديث القدسيّ والمشكّلة من المستوى الإبلاغي بطبقاته الثّلاث: (طبقة المركز الإشاري، طبقة نمط الخطاب، طبقة أسلوب الخطاب)، والمستوى العلاقي بطبقاته الأربع: (الطّبقة الاسترعائيّة الطّبقة الإنجازيّة، الطّبقة الوجهيّة، طبقة الوظائف التّداوليّة)، والمستوى التّمثيلي بطبقاته الأربع أيضاً (الطّبقة التّأطيريّة، الطّبقة التّسويريّة، الطّبقة الوصفيّة، طبقة الوظائف الدّلاليّة). وفي الوقت ذاته نناقش مع كلّ طبقة انعكاس سماتها وخصائصها التّحتيّة على البنية السّطحيّة للخطاب بمستوييها: المستوى الصّرفي–التّركيبي، المستوى الصّوتي.

أولاً: الخطاب المختار للفحص ومعناه العام: يكون الإجراء في هذا الفصل على حديث قدسيّ أُنتُقِيَ لنموذج نحو الطّبقات القالبيّ، لمناسبة نصّه الهدف الّذي نرنو إليه من حيث توافر الأدوات والعلاقات في البنيتين التّحتيّة والسّطحيّة، وتمتّعه بطاقة إيوائيّة تستوعب البنية النّموذجيّة للخطاب، والحديث المعني موسوم بـ (رؤية المؤمنين ربّهم ﷻ في الآخرة)، وهو الآتي نصّه:

قال الإمام البخاري رحمه الله: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قلنا يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْواً؟»، قلنا: لا، قال: «فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا، يُنَادي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إلى ما كَانُوا يَعْبُدونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحابُ الصَّليبِ مَعَ صَليبِهِمْ، وَأَصْحابُ الأَوْثانِ مَعَ أَوْثانِهِمْ، وَأَصْحابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ حتّى يَبْقَى مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ، ثمّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ فيُقالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْراً ابْنَ اللهِ، فيُقالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اِشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اِشْرَبُوا، فَيَتَسَاقَطُونَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ

كَأْنَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فيُقالُ لَهُمْ: ما يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فيقولونَ: فَارَقْنَاْهُم وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَا إِلَيْهِ اَلْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَاْدِيًا يُنَاْدِي: لِيَلْحَق كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَاْنُوْا يَعْبُدُوْنَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا قال: فَيَأْتيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غيرَ صُورَتِهِ التي رَأَوْهُ فيها أَوَّلَ مَرَّةٍ، فيقولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فيقولونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فلاَ يُكَلِّمُهُ إلاَّ الأَنْبِيَاءُ، فيقولُ: هلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفونَهُ؟ فيقولونَ: السَّاقُ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ثمّ يُؤْتَى بِالجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ»، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تكونُ بِنَجْدٍ يُقالُ لَها: السَّعْدَانُ المُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكالبَرْقِ وكالرِّيحِ وكأجاوِيدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا فما أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً في الحقّ –قد تَبَيَّنَ لكم– مِنَ المُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وإذا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا في إِخْوَانِهِمْ، يقولونَ: ربَّنا إخْوانُنا الذِينَ كانُوا يُصَلُّونَ مَعَنا وَيَصُومُونَ مَعَنا وَيَعْمَلونَ مَعَنا، فيقولُ اللهُ تعالى: اِذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلى النَّارِ، فَيَأْتونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قد غَابَ في النَّارِ إلى قَدَمِهِ وإلى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ فَيُخْرِجونَ مَنْ عَرَفُوا ثم يَعُودونَ فيقولُ: اِذْهَبوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجوهُ، فَيُخْرِجونَ مَنْ عَرَفُوا ثمّ يَعُودونَ، فَيَقُولُ: اِذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجونَ مَنْ عَرَفُوا، –قال أبو سعيد فإن لم تصدّقوني فاقرءوا ﴿إِنّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثقَالَ ذَرّة وإِنْ تَكُ حَسنةٌ يُضاعِفْهَا﴾– فَيَشْفَعُ النَّبِيُونَ وَالمَلاَئِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَتَهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ في نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ في حَافَّتَيْهِ كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ قد رَأَيْتُمُوها إلى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإلى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إلى الشَّمْسِ مِنْهَا كانَ أَخْضَرَ، وَمَا كانَ منها إلى الظِلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجونَ كأَنَّهم اللُّؤْلُؤ فَيُجْعَلُ في رِقابِهم الخَوَاتيمُ فَيَدْخُلونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: هَؤُلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوه وَلاَ خيرٍ قَدَّمُوهُ، فيُقالُ لَهم: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»». [حديث صحيح أخرجه البخاري (7439) ومسلم (183)]. (العدوي، 1989، ص134).

انطلاقاً من مضامين كتب شروح الأحاديث القدسيّة المعتمدة في هذا البحث (متولي 2013، ص ص676–686)، (رمضان، 2009، ص ص36–39)؛ صُغنا خلاصة المعنى العام لهذا النّص كالآتي:

سأل الصّحابة رسول الله ﷺ عن إمكانيّة رؤية ربّهم يوم القيامة، فأكّد لهم بأنّ هذا الأمر سيتحقّق بوضوح ودون مشقّة مثل رؤيتهم الشّمس والقمر عندما تكون السّماء صافية، حيث يُحشر النّاس يوم القيامة ويُنادَون إلى اتباع ما كانوا يعبدون في الدّنيا، فيذهبون مجموعاتٍ بحسب إلههم

المعبود (الصّليب، الأوثان، آلهة أخرى) وكلّها تنقاد إلى النّار، حتّى يبقى من كان يعبد الله من برّ وفاجر وبقايا من أهل الكتاب. ثمّ يُؤتى بجهنّم ويُسأل أهل الكتاب من اليهود والنّصارى عمّا كانوا يعبدون في الدّنيا، فيجيبون: عزير ابن الله عند اليهود، والمسيح ابن الله عند النّصارى، ثمّ يطلبون السّقيا فيتساقطون في جهنّم، حتّى يبقى من كان يعبد الله من برّ وفاجر ينتظرون ربّهم، فيأتيهم الجبّار في صورة غير صورته الّتي رأوه فيها أوّل مرة، فيعرفونه بآية هي السّاق، في هذا الموقف لا يكلّمه إلاّ الأنبياء، حيث يكشف عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً يحاول أن يسجد فلا يستطيع. ثمّ يُؤتى بالجسر أو الصّراط وهو مكان لا تستقرّ فيه الأقدام عليه شوك عظيم يسمّى السّعدان وحدائد معكوفة تَعْلَق بها الأبدان، فيمرّ النّاس على هذا الجسر بسرعات مختلفة بحسب أعمالهم في الدّنيا، فمنهم من ينجو سالماً ومنهم من ينجو مخدوشاً، ومنهم المدفوع في نار جهنّم. وبعد نجاة المؤمنين يسألون ربّهم عن إخوانهم الّذين سقطوا في النّار وكانوا معهم في الدّنيا من المصلّين والصّائمين والعاملين، فيأمرهم الجبّار بأن يُخرجوا من النّار من وجدوا في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثمّ مثقال نصف دينار من إيمان، ثمّ مثقال ذرّة من إيمان، فيفعلون وقد حرّم الله وجوههم على النّار. وبعد أن يشفع النّبيون والملائكة والمؤمنون؛ تأتي شفاعة الجبّار فيقبض قبضته من النّار ويخرج أقواما سوداً من شدّة احتراقهم، فيُلقون في نهر بأفواه الجنّة يسمّى ماء الحياة، فينبتون في حافّتيه كما تنبت البذور في ما يحمله السّيل، ثمّ يخرجون كأنّهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتيم ويدخلون الجنّة عُتقاءَ، ثمّ يقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه.

وسنُشغّل في المبحث الموالي جهاز مستعمل اللّغة للنّموذج النّحوي المُسمّى نحو الطّبقات القالبيّ، لاستنطاق ومساءلةِ خطاب الحديث القدسيّ الآنف وروده.

ثانياً: اشتغال نحو الطّبقات القالبيّ على الخطاب المنتقى للدّراسة: لا يسوغ وصف أو تفسير أي خطاب خارج نظريّة لسانيّة عامّة تكفل رصد خصائصه ورصد قدرة مستعمل اللّغة على إنتاجه وتأويله. (الزّهري، 2014/أ، ص81)، وسنرصد هنا خصائص الخطاب المنتقى، وفق النّموذج القالبيّ للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، على اعتبار أنّ القدرة الخطابيّة جزء من القدرة اللّغويّة العامّة.

يشتغل نموذج نحو الطّبقات القالبيّ كما عرفنا في الفصل الثّاني وفق أربعة مكوّنات: المكوّن المفهوميّ، المكوّن السّياقيّ، المكوّن النّحويّ، المكوّن الإصاتيّ/ التّحقّقي بشكليه المسموع وغير المسموع.

سنكتفي في دراستنا التّطبيقية بالتّصدي للمكوّن النّحوي ونركّز عليه باعتباره المكوّن المركزي من بين المكوّنات السّابقة وأهمّها وأوسعها، ويقوم المكوّن النّحوي على بنيتين بنية تحتيّة تشكّل

الدّخل، وبنية سطحيّة تشكّل الخرج؛ حيث إنّ البنية تضمّ مستويات، والمستوى يأوي طبقات والطّبقة تحوي مخصّصات.

تأوي الخطابات مهما اختلفت أنماطها إلى بنية واحدة ثابتة، تُعْورِف على نعتها ببنية الخطاب النّموذجيّة، هذه البنية ذات مستويات خمسة هي: (المستوى البلاغيّ والمستوى العلاقيّ والمستوى التّمثيلي) عمقاً، و(المستويان الصّرفي–التّركيبي والفونولوجي) سطحاً، باعتبار المستويين الأوّلين شقّين لبنية تداوليّة. (المتوكّل، 2012، ص24)، ويشغل العمق ما يُسمّى بالبنية التّحتيّة أو الدّاخليّة وتشمل ثلاثة مستويات: المستوى الإبلاغي بثلاث طبقات (المركز الإشاري، نمط الخطاب، أسلوب الخطاب)، المستوى العلاقيّ بأربع طبقات (الاسترعائيّة، الإنجازيّة، الوجهيّة الوظائف التّداوليّة)، المستوى التّمثيلي بأربع طبقات أيضاً (التّأطيريّة، التّسويريّة، الوصفيّة والوظائف الدّلاليّة).

إنّ وجود هذه الطّبقات تحكمه قيود في فئتين: قيود خطيّة تضبط توارد طبقات المستوى الواحد، وقيود سلميّة تضبط تحديد عناصر مستوى ما من مستويات البنية لعناصر المستوى الّذي يسفله، فكل نمط خطابي يستتبع قيماً إنجازيّة ووجهيّة وزمانيّة وجهيّة تناسبه. (المتوكّل، 2003 ص29)، فتتحدّد مثلاً قيم طبقات المستويين العلاقيّ والتّمثيلي بالنّظر إلى قيم طبقات المستوى البلاغيّ.

ويشغل سطح بنية الخطاب ما يُسمَّى بالبنية الخارجيّة المكوّنيّة أو المكوّن البنوي، وتأوي مستويين رئيسيين: المستوى الصّرفي–التّركيبي، ويضمّ وسائل صرفيّة (صرفات حرّة، أدوات ولواصق،..)، ووسائل تركيبيّة (رتبة، تراكيب مخصوصة،..)، المستوى الصّوتي ويضمّ وسائل تطريزيّة (النّبر، التّنغيم). (المتوكّل، 2012، ص62)، غير أنّنا لا نتطرّق إلى البنية السّطحيّة في مبحث مستقلّ لتفادي تكرار مضمون المستويات التّحتيّة وإوّاليات انعكاسها على المستويات السّطحيّة، بل سنقوم أثناء بياننا للبنية الوظيفيّة التّحتيّة للحديث القدسيّ بتوضيح انعكاس عناصرها على البنية السّطحيّة مباشرة.

1- المستوى الإبلاغي: اقترح (المتوكّل) بنية تحتيّة واحدة لا لأقسام الخطاب المختلفة فحسب؛ بل كذلك لأنساق التّواصل اللّغوي منها وغير اللّغوي، ثمّ ليجعل هذه البنية نموذجيّة أغناها بإضافة طبقة ثالثة للمستوى العلاقيّ سمّاها الطّبقة الاسترعائيّة، وإضافة مستوى ثالث للبنية سمّاه مؤقتاً المستوى البلاغيّ. (المتوكّل، 2003، ص27)، وبيَّنَ أنّ سبب هذه التّسمية المؤقّتة أنّه لم يجد آنذاك مصطلحا يَفْضُلُه للدّلالة على ما يقصده، وأشار إلى أنّ معناه لا يطابق فحواه العربيّ القديم تمام التّطابق.

ونميل إلى إطلاق التّسمية الّتي اقترحها –في ما بعد– الأستاذ (بعيطيش) وهي المستوى (الإبلاغي) بدلاً من (البلاغي) (2006/2005، ص ص350–351)، وهذا لاقتناعنا بأنّ هذا المصطلح هو الأنسب بعد اطّلاعنا على الحجج الّتي أوردها في هذا الشّأن؛ وأهمّها: أنّ مصطلح البلاغي يحيلنا حتماً إلى علم البلاغة العربية بمحتواه الشّاسع، في حين المقصود بطبقات هذا المستوى هنا هو التّبليغ أو الإبلاغ فقط. وبعد تطوير نموذج نحو الطّبقات القالبي إلى نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ –كما سنرى في الفصل الموالي– يعود (المتوكّل) ليلغي هذا المستوى تماماً ويضمّ طبقاته إلى طبقات المستوى العلاقي باعتبارهما شقّين لمستوى تداولي واحد؛ لينسجم مع النّموذج الجديد.

وتُعلَّل إضافة المستوى الإبلاغي كونه محلّ التّمثيل لخصائص خطابيّة أساسيّة كالمركز الإشاري (أو الفضاء التّخاطبي) الّذي يحدّد المتخاطبين وما يقوم بينهما من علاقات، وزمان ومكان التّخاطب، والنّمط الذي ينتمي إليه الخطاب (سرد، محادثة، علمي، أدبي،..)، والأسلوب المتّخذ (رسمي/ غير رسمي، مهذّب/ غير مهذّب،...). (المتوكّل، 2003، ص29)، وهكذا يأوي هذا المستوى السّمات الخطابيّة التي تؤشّر إلى درجة إبلاغيّة النّص من حيث طبقة المركز الإشاري، وطبقة نمط الخطاب، وطبقة أسلوب الخطاب. والظّاهر أنّ الحديث القدسيّ يعجُّ بسمات المستوى الإبلاغيّ باعتباره خطابا موجّها توجيها ذاتياً.

1–1– طبقة المركز الإشاريّ: تضمّ طبقة المركز الإشاريّ أطراف التّخاطب (المتكلّم والمخاطب والوسيط بينهما)، وما يُنْسَجُ بين المتخاطبين من علاقات، وزمان ومكان التّخاطب. (الزّهري، 2014/أ، ص105)، ونبيّن عناصر طبقة المركز الإشاريّ في ما يلي:

1–1–1– المتكلّم: رغم وجود شخصيات عديدة متكلِّمة داخل النّص وخارجه؛ إلاّ أنّنا آثرنا أن يكون الطّرف المتكلّم هنا هو الرّسول ﷺ بلسانه في ما يرويه عن ربّه الّذي يوحي له المعنى؛ لأنّ كلامه هو الأطول والمهيمن على عملية الحوار، وقد انعكس في البنية السّطحيّة في موقفين:

– الموقف الأوّل خارج نصّ الحديث القدسيّ؛ في السّياق المقاليّ لراوي الحديث من خلال ضمير الغائب المفرد المستتر المحيل إلى ذات الرّسول ﷺ في المقاطع الحواريّة: (قال: «هل...» قال: «فإنّكم...»، قال: «مدحضة...»، إلى غيرها).

– الموقف الثّاني داخل النّص؛ بتوظيف الرّسول ﷺ في خطابه الضّمير المتّصل (ياء المتكلّم) الذي يحيل إلى ذاته ﷺ في قوله: «...فما أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً في الحقِّ...»؛ ويعني بها أنّ مناشدتهم له في الحقّ ليست أشدّ من مناشدة المؤمن لله تعالى عند المرور بالصّراط.

1-1-2- المخاطَب: الطّرف المخاطَب في النّص هو مجموع الصّحابة، ورغم أنّهم هم البادئون في الحوار بالسّؤال، إلاّ أنّهم يصمتون في ما بعد لفسح المجال أمام خطاب رسولهم والاستماع إليه، فناسبهم دور المخاطَب وليس المتكلّم، وقد انعكس في البنية السّطحيّة في موقفين:

– الموقف الأوّل خارج نصّ الحديث القدسيّ؛ في السّياق المقالي لراوي الحديث من خلال ضمير المتكلّم الجماعة المتّصل (نا) المحيل إلى ذواتهم في المقاطع الحوارية (قلنا...).

– الموقف الثّاني داخل النّص؛ من خلال عدّة ضمائر تحيل إلى ذواتهم هي: الضّمير المتّصل (واو الجماعة) في (تُضارّون) وفي (رأيتموها)، ضمير المخاطب الجمع المتّصل (كم) في (فإنّكم، رؤية ربّكم، قد تبيّن لكم)، ضمير المخاطب الجمع المنفصل (أنتم) في (فما أنتم بأشدّ..).

1-1-3- الوسيط: لا يوجد وسيط بين الرّسول ﷺ وصحابته المستمعين له وقتئذ في الخطاب، ولكن من زاوية نظر أخرى يعتبر الرّسول ﷺ هو نفسه وسيطاً في نقل الرّسالة في شكل معنى من المرسل وهو الله ﷻ إلى المرسل إليه وهم عباد الله، كما أنّ المتلقّي الّذي لم يكن حاضراً وقت إلقاء الخطاب مباشرة من الرّسول ﷺ يحتاج إلى وسيطٍ لينقل له هذا الخطاب شفاهةً أو كتابةً، وعلى اعتبار وجود الوساطة هنا يكون المركز الإشاري معقّدا وليس بسيطاً.

1-1-4- زمان ومكان التّكلّم: غابت في هذا النّص محدّدات الزّمان والمكان، ولكنّها بصفة عامّة لا تخرج عن عصر صدر الإسلام في عهد الرّسول ﷺ وفي بيئته المكانية (الحجاز).

1-2- طبقة نمط الخطاب: نتكلّم في نمط الخطاب عن وجهه التّخاطبيّ (ذاتي أو موضوعي)، والغرض منه (أدبيّ، علميّ، دينيّ، قانوني،..) وآلياته التّخاطبية (السّرد أو الوصف أو الحجاج،...). ورغم تعدّد هذه المعايير المحدّدة لنمط الخطاب؛ إلاّ أنّها ستتوسع أكثر في الفصل الأخير من البحث أمام المعايير الكثيرة الّتي انبرى (المتوكّل) في تحديدها في نموذجه النّحوي الثّاني الّذي ابتكره بعد هذا النّموذج.

1-2-1- الوجه التّخاطبي: يُنمّط هذا الخطاب من حيث الوجه في قائمة الخطابات الذاتيّة، تلك الّتي يكون مصدرها المتكلّم بوصفه كائنا حيا يتدخّل في فحوى خطابه فيودعه انفعالاته ومواقفه، فخطابنا ينضح بكثير من العبر والمواعظ ومواقف الدّعوة، ولا يصنّف في مجال الخطابات الموضوعيّة، ورغم أنّ تدّخلات منتج الخطاب وهو الرّسول ﷺ قليلة وأنّ الأنا المتكلّمة لا تظهر بشكل مهيمن في النّص؛ إلاّ أنّها تحمل وجهات نظرها وتنقل مواقفها.

1-2-2- الغرض التّخاطبي: إذا كان الخطاب بصفة عامّة هو: «كلّ ملفوظ/مكتوب يشكّل في حدّ ذاته وحدة تواصليّة قائمة الذّات» (المتوكّل، 2003، ص22)؛ فإنّ الخطاب الدّيني يتفرّع عنه ويتّسم بما يلي: «تقنينه للعبادات والمعاملات موضوعاً، إلهيته من حيث المصدر، حجاجيته من حيث الآلية ترغيبا وترهيبا، انقسامه إلى جمل وآيات وسور من حيث بنيته». (الزّهري 2014/أ، ص100)، وبذلك يُفيَّأ خطاب الحديث القدسيّ ضمن فئة الخطابات الدّينية من حيث الغرض التّواصلي المستهدف، ممّا يشي بتكثيف استخدام القالب الذّاتي الحجاجيّ، فهو يهدف إلى زيادة إيمان المؤمنين برؤية ربّهم حقّاً يوم القيامة، وكذا تعرّفهم على بعض الوقائع الّتي ستكون يوم الحساب في الآخرة فتزيدهم رغبة ورهبة.

1-2-3- الآليات التّخاطبيّة: إنّ الآلية الخطابيّة الأساسيّة في الخطاب الدّيني هي الحجاج، لكنّ هذا لم يمنع من توارد آليتي: السّرد والوصف في الحديث القدسيّ، وأفرز هذا التّلاحم في الآليات صورة سرديّة عارضة لوقائع متحرّكة ممتعة للمخاطب، تمّ تشغيلها كما يلي:

1-2-3-1- آلية السّرد: تحقّق سرد الأحداث المروية في الخطاب بالمحمولات الفعليّة مثل:

أ- السّرد بالأفعال الماضية في عبارات مثل: (قد ذهب النّاس، فارقناهم، وإنّا سمعنا، رأوا أنّهم قد نَجَوا، قد غاب في النّار، قد امتُحِشُوا، قد رأيتموها، بقيت شفاعتي).

ب- السّرد بالأفعال المساعدة المقترنة بالأفعال المضارعة في جُمل مثل: (كنتم تعبدون، كنّا نعبد، كانوا يصلّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، من كان يعبد الله، من كان يسجد).

ج- السّرد بالأفعال المضارعة للوقائع الّتي ستكون يقيناً في المستقبل مثل: (ينادي منادٍ فيَذهبُ أصحاب...حتّى يبقى...، فيتساقطون، فيأتيهم الجبّار، فيقولون، فيسجد، فيعود ظهره فيأتوهم، فيُخرجون من عرفوا ثمّ يعودون، فيشفع النّبيّون، فيقبض قبضته من النّار فيُخرج أقواماً).

وقد تُبنى هذه الأفعال المضارعة للمجهول حتّى يركّز المخاطب على مضمون القول وليس على القائل الّذي غاب وناب عنه ناطق مجهول، مثل: (فيُقال.. ويُقال، ثّم يُؤتى بجهنّم، ثمّ يُؤتى بالجسر فيُجعل بين ظهري جهنّم، يُكشف عن ساقه، فيُلقَون في نهر، فيُجعل في رقابهم الخواتيم).

1-2-3-2- آلية الوصف: تخلّل السّرد في النّص قطع وصفيّة، حيث تحقّق الوصف بالأدوات الآتية:

أ- الوصف بالمحمولات الفعليّة: وأهمّها الأفعال المضارعة مثل: (لا تضّارون... إلاّ كما تُضّارون، وإنّما ننتظر ربّنا)، والأفعال المساعدة المقترنة بالأسماء مثل (كان) في: (كانت صحواً كان أخضر، كان أبيض).

ب- الوصف بالمحمولات غير الفعليّة: وهي الأسماء والمصادر الّتي أُستعملت في الوصف خاصّة عندما وصف الرّسول ﷺ الجسرَ أو الصّراطَ بأنّه مكان داحض غير ثابت تزلّ فيه الأقدام بقوله: (مدحضة مزلّة)، وبأنّ عليه حدائد عظيمة معكوفة تخطف النّاس من الجسر بالعبارة: (عليه خطاطيف وكلاليب)، وبأنّ عليه شوك السّعدان وهو (حسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء) تنبت في نجد، غير أنّه لا يَعلم قَدْرَ عِظمها إلاّ الله، فتَأخذُ النّاس بقدر أعمالهم. وكذلك عند وصف نتائج مرور النّاس على الصّراط حسب درجة الهلاك: (ناجٍ مسلَّم) لا يناله شيءٌ، (ناجٍ مخدوش) يناله شيء منها، (مكدوسٌ في نار جهنّم)؛ أي مدفوعٌ فيها، إلى أن يمرّ (آخرهم يُسحب سحباً).

ج- الوصف بالتّصوير الفنّي: وظهر على البنية السّطحيّة بالصّور الفنّيّة البلاغيّة كالتّشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وغيرها، سنأتي إلى التّفصيل فيها أثناء تناولنا طبقة أسلوب الخطاب.

1-2-3-3- آلية الحجاج: يستبطن النّص أجزاءً حجاجيّة تلائم حالة الرّسول ﷺ وهو يبلّغ النّاس بالحجّة، كما تلائم وضع النّاس يوم الحساب وهم يحتجّون إلى ربهم ويجادلونه عسى أن يرحمهم ويتجاوز عنهم في ما قصّروا في عبادته في الدّنيا، وهو جلّ علاه يردّ عليهم بالحجّة ثمّ بالعقاب أو الجزاء، وتزخر هذه الأجزاء بأفعال إبعاد لتفريغ الذّهن من الاقتناعات القديمة، وبأفعال دفع لملئه بالإثباتات المقصودة، فجاءت في دعاوى (أو دفوع) ابتدائيّة وأخرى إبطاليّة كما يلي:

أ- **الدّعاوى الابتدائيّة:** دافع النّص على عدّة دعاوي ابتدائيّة أهمّها: إثبات رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة؛ إثبات الحشر والقيامة؛ إثبات أنّ من كان يعبد شيئاً فسوف يتبع معبوده يوم القيامة، إثبات أنّ الأنبياء والملائكة والمؤمنين يشفعون؛ إثبات صفة الكلام لله ﷻ بما يليق بكماله وجلاله؛ حيث كلّم أهل الجنّة وخاطبهم؛ إثبات أنّ من آمن وعرف الله ببصيرته في الدّنيا عرفه ببصره في الآخرة؛ ومن نافق وخلا قلبه من معرفة الله في الدّنيا عجز بصره عن معرفته في الآخرة.

ب- الدّعاوى الإبطاليّة: تعدّ أهمّ دعوى فيها هي دعوى إبطال علم كيفيّة الرّؤية؛ حيث إنّ مسألة رؤية الله لعباده المؤمنين يوم القيامة تكلّمت فيها بعض الفرق الدّينيّة الضّالّة.

فقد نَفَتْ فرقٌ كالمعتزلة والجهمية قضية الرّؤية نفياً تاماً، كما أن فرق الكراميّة والسّالميّة وغيرهم جعلوا كيفيّة هذه الرّؤية كرؤية المخلوق للمخلوق. (رمضان، 2010، ص38)، إلاّ أنّ النّص الّذي بين أيدينا فيه الحجج الكافية للردّ بوضوح على هذه الدّعاوى، فهو إلى جانب إثبات

رؤية الله عباده المؤمنين يوم القيامة؛ يدحض ويبطل دعوى العلم بكيفية هذه الرّؤية لأنّه لم يتطرّق إليها –الكيفيّة– بتاتاً، وهذا مذهب أهل السنّة والجماعة في إثبات الصّفات الربّانيّة كما جاءت بلا تأويل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف.

وهذه الرّؤية غير الّتي تقع في الجنّة إكراما للمؤمنين فهذه للامتحان وتلك لزيادة الإكرام (عرفان، 2001، ص34)؛ يعني أنّ رؤية المؤمنين ربّهم في محنة الحشر قبل المرور عبر جسر جهنّم هي للامتحان فقط، أمّا الرّؤية الثّانية الّتي تكون لهم في ما بعد في الجنّة بعد دخولها ونقصد بها النّظر إلى وجهه الكريم ﷻ؛ فهي لزيادتهم إكراماً ونعيماً.

وينبري الحجاج بذلك كآلية لتبديد الخلافات وتقليص شقّة النّزاع تستهدف الإذعان والإمعان فيه؛ لأنّ أنجع حجّة هي تلك الّتي تنجح في تقوية حدّة الإذعان عند من يسمعها وبكيفية تحفّزه على المبادرة إقداماً أو إحجاماً (الزّهري، 2014/أ، ص107)، ولإنجاح تلك الدّعاوى في النّص تمّت الاستعانة بوسائل حجاجيّة كثيرة لا يتّسع المجال هنا لإيرادها كلّها، نوجزها في نوعين: ذاتيّة وموضوعيّة.

وتتعلّق الوسائل الذّاتية بالمركز الإشاري وتحديداً المتكلّم والمخاطب، فالمتلقّي بطبعه يكون على استعداد أكثر للتّصديق بقول الأخيار من النّاس، حيث يرى الفيلسوف (أرسطو) أنّ الخطيب الّذي تتوفّر فيه الفضيلة والفطنة والتلطّف للسّامعين يوحي بالثّقة إلى من يسمعونه. (العمري 2002، ص31)، فما بالك إذا كان المتكلّم هو الرّسول ﷺ، فأخلاقه تجعل أيّ مخاطب يستشعر الثّقة في كلامه، وهذه أقوى عناصر الإقناع، لكنّها تتغيّر بحسب اعتقاد المتلقّي؛ حيث ترتفع درجة الاقتناع لدى المسلمين لأنّه يثير فيهم مشاعر الإيمان ويتلقّونه بمودّة، بعكس الكفار المعادين للإسلام فيتلقّونه بتفاعل سلبي ونفسيّة مغمومة؛ فتقلّ درجة الاقتناع عندهم.

وترتبط الوسائل الموضوعيّة بما يحمله الخطاب في حدّ ذاته؛ مثل: السّمات الوجهيّة المرجعيّة خاصّة التّجريبيّة منها والاستدلاليّة (سنتناولها في موضع أكثر مناسبة في هذا الفصل) وآليات حجاجيّة أخرى مثل: القياس والحوار والإيضاح بعد الإبهام والتّصوير الفنّي والتّقوية وغيرها.

ج– الحجاج بالقياس: القياس هو حجاج عن المعنى ببراهين عقليّة محسوسة تقطع المعاند فيه. ونجد القياس عندما وصف الرّسول ﷺ رؤية المؤمنين ربّهم أنّها ستكون يقينيّة وجليّة؛ ومن أجل تقريب المُراد يقيسُ بالصّور الأقرب إلى حواسهم ومداركهم، وهي الصّور المشاهدة بالعين في الطّبيعة والكون، فيشبّه رؤيتهم ربّهم يوم القيامة من حيث الوضوح وزوال الشّك والمشقّة مثل رؤيتهم الشّمس والقمر اليومَ إذا كانت السّماء صحواً ليس فيها سحاب.

ويُعاد القياس أيضاً في تصوير مشهد الصّراط الّذي عليه الخطاطيف والكلاليب والسّعدان وهي أشياء ماديّة رآها النّاس ويعرفونها، وهكذا يرى المخاطب صورة حيّة ومعرّفة أمامه وليست نكرةً، فقط يكسوها بالعظمة المناسبة لمقام الله ﷻ.

وفي هذا الحديث ردّ على الظاهريّة الّذين نفوا القياس مثل: أبي محمد بن حزم، وداود الظّاهري، والقياسُ ثابتٌ شرعاً كتاباً وسنّةً وعقلاً وفطرةً ولغةً وعرفاً (رمضان، 2010، ص39). ونلمس حجاج القياس بالمحسوسات ضرباً للأمثال أيضاً في آيات الذّكر الحكيم، ومنها: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ*وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ الغاشية17-18، ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ عبس24، ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيْماً تَذْرُوهُ الْرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ الكهف45.

د- الحجاج بالحوار: تمّ الحجاج بالحوار، حيث يحتضن الخطاب قطعاً حواريّة ظهرت في شكل حوارات بين الواحد والجماعة، في السّياق المقامي بين الرّسول ﷺ وصحابته، وفي السّياق المقالي بين الله ﷻ والنّاس، وغُذِّيَ الحوار بآليات كثيرة منها المراجعة، الإلحاح، نتطرّق إليها كما يلي:

- الحجاج بالمراجعة في الحوار: وهي أن يحكي المتكلّم مراجعة في القول ومحاورة في الحديث مع غيره بأوجز عبارة. (المصري، 1963، ص590)، وتكون بالسؤال والجواب، حيث بدأ النّص بأسئلة من المولى ﷻ وهي: (ما كنتم تعبدون؟ فما تريدون؟ ما يحبسكم وقد ذهب النّاس؟ هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟).

قامت هذه الأسئلة على مبدأ بلاغي آخر من المحسّنات البديعيّة المعنويّة يسمّى (تجاهل العارف). وهو سؤال المتكلّم عمّا يعلمه حقيقة تجاهلاً منه به ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذّم أو التّقرير وغير ذلك. (المصري، 1963، ص135)، وجاءت أجوبتها على التّرتيب: (كنّا نعبد عزيراً ابن الله، كنّا نعبد المسيح ابن الله، نريد أن تسقينا، فارقناهم... وإنّما ننتظر ربّنا، السّاق)، فالله ﷻ سأل عباده أسئلة هو أَعلَمُ وأَعرَف بأجوبتها وإنّما غرضه عموماً إقرار المخاطَب وخصوصاً ذمّ الكافرين ومدح المؤمنين.

- الحجاج بالإلحاح في المحاورة: هو من الإوّاليّات المسهمة في الحجاج واقناع المتلقّي من جهة، واسترعاء انتباه المخاطَب من جهة أخرى؛ لذلك سنرجئ الكلام فيه إلى الطبقة الاسترعائيّة من المستوى العلاقي، ولعل هذا التّداخل في عناصر المستويات من بين الأسباب التي جعلت (المتوكّل) يستغني عن المستوى الإبلاغي ويدمج طبقاته في المستوى العلاقي في نموذج نحو الخطاب الوظيفي الذي عقب نموذج نحو الطّبقات القالبي.

هـ- الحجاج بالإيضاح بعد الإبهام: هو أن يذكر المتكلّم كلاما في ظاهره لبس ثم يوضّحه في بقية كلامه (المصري، 1963، ص559)، حيث يتّم إيراد جملة غامضة مبهمة ثمّ إيراد جمل توضّحها عن طريق نشر معناها أو تقسيم محتواها إلى تفريعات.

جاء الإبهام في جملة (ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون)، ثمّ جاء الإيضاح بتفريع محتواها في جمل (فيذهب أصحاب الصّليب مع صليبهم وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم). وجاء اللبس في جملة (كما تنبت الحبّة في حميل السّيل)، ثمّ جاء الإيضاح بنشر معناها في جمل (ما كان منها إلى الشّمس كان أخضر وما كان منها إلى الظّل كان أبيض). وجاء الغموض في جملة (ثمّ يؤتى بالجسر)، ثم جاء توضيح معنى الجسر في جمل (مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد، يقال لها: السّعدان).

و- الحجاج بالتّصوير الفنّي: يُعتبر التّصوير الفنّي استراتيجيّة حجاجيّة من جهة، ومن جهة أخرى سمة أسلوبيّة؛ لذلك سنُؤجّل تناولها إلى طبقة أسلوب الخطاب في المستوى الإبلاغي ذاته.

ز- الحجاج بالتّقوية: تُعدّ التّقوية استراتيجيّة حجاجيّة من جهة، ومن جهة أخرى سمة وجهيّة ذاتيّة معرفيّة؛ لهذا سنُرجئ تناولها إلى الطّبقة الوجهيّة في المستوى العلاقي.

1-3- طبقة أسلوب الخطاب: امتاز أسلوب الخطاب في هذا الحديث القدسيّ بأنّه إنشائي بالدّرجة الأولى بالنّظر إلى هيمنة الصّور الفنيّة البلاغيّة فيه، تميّز بدرجة عالية من التّفاعليّة بين المرسل والمتلقّي، إلاّ أنّ هذا لا يعفيه من وجود الأسلوب التّقريري عند إيراد الحقائق المستقبليّة بطريقة فنّية.

1-3-1- التّقريريّة: تمثّل الأسلوب التّقريري في قلّة ورود الذّات المنتجة للخطاب، وفي الدّقة والصّرامة في الإقرار المؤكّد للحقائق الغيبيّة التي ستحدث في المستقبل، والتي غابت عن علم الإنسان مثل: يوم القيامة، الجنّة، النّار، الحشر، الجسر، رؤية العباد ربّهم، نهر ماء الحياة.

1-3-2- الإنشائيّة: إنّ النصَّ حافل بالإيحاء والتّلميح والتّصوير الفنّي البلاغي، سواء في خطاب منتج الخطاب أم في خطاب الذّات المتحدّث عنها وهي الله ﷻ مع عباده.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الصّور الفنيّة البلاغيّة تعتبر من الأدوات المستخدمة في تعزيز إنشائيّة الأسلوب، كما تفيد منتج الخطاب في استرعاء ولفت انتباه المتلقّي، وأهم هذه الصّور في النّص ما يلي:

1-3-2-1- التّصوير البياني: يشمل هذا النّوع من التّصوير عمليات مثل: التّشبيه الاستعارة، الكناية، المجاز اللغوي المرسل، الانعراج في الخطاب.

1-3-2-1-1- التّشبيه: جاءت تشبيهات النّص مرسلة لمحسوس بمحسوس، مفصّلة أو مجملة كما يلي:

أ- التّشبيه المفصّل: رُصد في الجملة «فإنّكم لا تضارّون في رؤية ربّكم يومئذ إلاّ كما تضارّون في رؤيتهما»، هو تشبيه مرسل ذكرت فيه أداة التّشبيه (الكاف) ومفصّل ذكر فيه وجه الشّبه (لا تضارّون)، وهو تشبيه محسوس بمحسوس، شبّه رؤية الله ﷻ برؤية الشّمس والقمر من حيث وجه الوضوح والتجلّي، فكلتا الرؤيتين محسوسة بالعين إلاّ أنّ المرئي الأول معروف في الدّنيا أمّا المرئي الثّاني فغير معروف في الدّنيا وسيعرف في الآخرة، وهذا لا يهمّنا؛ لأنّ هذا التّشبيه هو لحالة الرّائي وليس للمرئي -تنزّه ﷻ عن الوصف- حيث يتجلّى الله تعالى لهم ظاهراً، وهم يستوون في رؤيته كما يستوون في رؤية الشّمس والقمر عياناً، من غير مضارّة ولا مجادلة ولا مزاحمة كما يُفعل عند رؤية الأهِلّة.

ب- التّشبيه المجمل: وهو كثير، ورُصدَ في الجمل الآتية:

- «المؤمن عليها كالطّرف وكالبرق وكالرّيح وكأجاويد الخيل والرِّكاب»، وهو تشبيه مرسل ذكرت فيه أداة التّشبيه (الكاف) ومجمل حذف فيه وجه الشّبه، وهو تشبيه محسوس بمحسوس، شبّه حركة مرور المؤمن على الصّراط بصور حركة طرف العين والبرق والرّيح وجياد الخيل والإبل وهذا حسب درجة السّرعة التي توافق منازل أعماله في الدّنيا.

- «فينبتون في حافّتيه كما تنبت الحِبَّة في حَمِيلِ السّيل»، وهو تشبيه مرسل ذكرت فيه أداة التّشبيه (كما) ومجمل حذف فيه وجه الشّبه، وهو تشبيه محسوس بمحسوس، فبعدما يُلقى المحترقون بالنّار في نهر ماء الحياة الكائن بأفواه الجنّة ينبتون في حافّتيه مثل ما تنبت بذور البقول والعشب في جوانب السّيول أو في ما يحمله السّيل، ما كان منها إلى الشّمس كان أخضر وما كان منها إلى الظّل كان أبيض، والمراد هنا هو تشبيه إنبات المحترقين بالنّار وعودتهم بأبدانهم إلى الحياة بإنبات الحب في حواف السّيول ونموّه، من حيث صفتين هما: سرعة الإنبات، وكذا نضارة مظهر الإنبات وحسنه؛ يعني أنّ وجه الشّبه متعدِّد.

- «تُعرضُ كأنّها سراب»، وهو تشبيه مرسل ذكرت فيه أداة التّشبيه (كأنّ)، ومجمل حذف فيه وجه الشّبه، وهو تشبيه محسوس (جهنّم) بمحسوس (السّراب) من حيث وجه امتداد اللّهيب.

- «فيخرجون كأنّهم اللؤلؤ»، وهو تشبيه مرسل ذكرت فيه أداة التّشبيه (كأنّ)، ومجمل حذف فيه وجه الشّبه، وهو تشبيه تسوية؛ لأنّ المشبّه متعدّد وهو المحترقون بالنّار بعد نبات أبدانهم بماء الحياة، والمشبّه به مفرد وهو اللّؤلؤ، وهو تشبيه محسوس بمحسوس من حيث وجه الشّبه (الحُسن).

1-3-2-1-2- الاستعارة: هي إطلاق المعنى المنقول (المشبّه به) على المعنى الأصلي (المشبّه) مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

أ- الاستعارة المكنية: في العبارة «فينبتون في حافّتيه»، فأصل الكلام: فينمون في حافّتيه لكنه شبّه المحترقين بعشب ينبت، ثمّ حذف المشبّه به وبقيت صفة من صفاته (فينبتون) على سبيل الاستعارة المكنية.

ب- الاستعارة التّصريحيّة: في العبارة «أصحاب الصّليب»، أصل الكلام: عَبَدَةُ الصّليب حيث شبّه العبدة (المستعار له) بالأصحاب (المستعار به) لوجود علاقة المشابهة وهي الملازمة والحب، ثمّ حذف المشبّه وصُرّح بالمشبّه به، على طريق الاستعارة التّصريحيّة. وأيضاً في العبارة «بأفواه الجنّة»، أصل الكلام: بمداخل الجنّة، حيث شبّه المداخل (المستعار له) بالأفواه (المستعار به) لوجود علاقة المشابهة وهي موضع الدّخول والمرور، ثمّ حذف المشبّه وصُرّح بالمشبّه به على شكل الاستعارة التّصريحية.

1-3-2-1-3- الكناية: تمثّل المعنى الثّاني للعبارة، وانعكست سطحياً في هذه العبارات:

- «فيُخرِج أقواما قد اِمْتُحِشُوا»، تأتي شفاعة الجبّار فيُخرج من النّار بقبضته أقواما قد امتحشوا، وهي كناية عن شدّة ما عانوه من الاحتراق بالنّار حتى وصل السّواد إلى داخل أجسامهم كالفحم والحمم، فتُرك التّصريح بذكر شدّة الاحتراق إلى ذكر ما يلزمه وهو الامتحاش، فينتقل ذهن المخاطَب من المذكور (امتحشوا) إلى المتروك (احترقوا طويلا وبشدّة).

- «فيُقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنّم»، كناية على أنّ الذين كانوا يكفرون بالله في الدّنيا ويريدون السُّقيا في الآخرة فإنّ الماء يحرّم عليهم وشرابهم ذلك اليوم هو النّار وما فيها (كالحميم مثلاً) عقاباً لهم، فتُرك التّصريح بذكر (يُمنع عنكم شرب الماء اليوم) إلى ذكر ما يلزمه وهو التّساقط في النّار حيث لا يوجد ماء، فينتقل ذهن المخاطَب من المذكور (التّساقط في النّار) إلى المتروك (المنع من شرب الماء)، والمعنى الأصلي في (اشربوا) هو تساقط الكفّار في جهنّم -دون النّظر إلى المعنى الحرفي وهو الشّرب الفعلي للماء- والمعنى الكنائي اللازم للمعنى الأصلي وهو عدم شربهم الماء مطلقا؛ لأنّهم في النّار.

1-3-2-1-4- الانعراج في الخطاب: قد يكون الخطاب منعرجاً إذا أنكر ما هو معروف فينعرج ولا يُلقى إلى مخاطب واحد وإنّما يلقى إلى مخاطبين اثنين: مخاطب صريح ومخاطب ضمني. (المتوكّل، 2012، ص82)؛ والمقصود بهذا أنّ آليّة الانعراج في الخطاب تحدث عندما يوجَّه الخطاب إلى المخاطب الأوّل الصّريح ط1، ويكون المقصود به المخاطب الثّاني الضّمني

ط2، ويسمّى قديماً التّعريض، وهو كناية لكن تختلف وسائطها، حيث يُطلق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السّياق. وهو لا يوجد في النّص المفحوص.

1-3-2-1-5- المجاز اللغوي المرسل: المجاز كل كلمة أُريدَ بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثّاني والأوّل (الجرجاني، 1991، 197)، وتكون العلاقة في المجاز المرسل بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قائمة على علاقة لغوية غير المشابهة.

يشهد على ذلك في النّص العبارة: «يحرّم صورهم على النّار»، أصل الكلام: يحرّم وجوههم على النّار؛ لأنّ الوجه محلّ كرامة الإنسان وفيه يظهر أثر السّجود، حيث أُجيز استعمال لفظ صورهم بدل وجوههم لوجود علاقة لغويّة بينهما هي المُسَبَّبيّة، فوجه الإنسان هو المسبّب في وجود صورته، دون وجود مشابهة بين اللفظين.

1-3-2-2- التّصوير البديعي: وظيفته التّأثير في المتلقّي بإمتاعه فنّيا اعتماداً على توشيح الخطاب وتزيينه بالبديع المعنوي الذي حقّق المناسبة المعنويّة بين العبارات والألفاظ من خلال: الالتباس القضوي، المشاكلة، المقابلة، الطّباق، وكذا مناسبة الألفاظ لبعضها ولكيفيات تردُّدِها عن طريق الجناس والسّجع، ورغم أن البلاغة تستحسن قرب المسافة بين مواقع أطراف ثنائيات الطباق أو السجع في النص؛ إلاّ أن نظرية الحال تنظر إلى النص على أنّه وحدة تواصلية تامة فتختصر تلك المسافات، وتعتبر كل ثنائية بديعية مهما بعُدَ طرفاها عن بعضهما في النص؛ فإنّها تترك أثرها الفني وتطري نشاطه ليتأثر بالخطاب.

1-3-2-2-1- الالتباس القضوي: هو التباس يتموضع في طبقة القضية حين تحتمل الجملة أكثر من قضية واحدة. (المتوكّل، 1995، ص138)، وقد يكون سبب ذلك أن تتضمّن العبارة اللغويّة مكوناً معجميا يحتمل أكثر من قراءة؛ فتتعدّد الفحاوى القضوية للجملة، وهو ما يمكن تسميته بالالتباس المعجمي القضوي.

سُمّي هذا الالتباس قديماً التّورية، وهي أن يكون للكلمة معنيان بعيد وقريب ويراد المعنى البعيد (الجرجاني، الإشارات والتّنبيهات في علم البلاغة، ص216)، وهذا يؤدّي إلى ازدواجيّة القراءة، حيث يُذكر لفظ يوهم به المعنى القريب حتى تظهر قرينة تبين أنّ المراد هو المعنى البعيد.

ويشهد على ذلك في النّص المركبّات الإسميّة الآتية: (مثقال دينار/ نصف دينار/ مثقال ذرّة)؛ فهي أوزان مختلفة، لكن لا يراد بها المعنى القريب وهو الوزن حيث ذُكر ما يلائم هذا المعنى القريب المورّى به وهو لفظ مثقال، لكن يراد به المعنى البعيد وهو درجة الإيمان لوجود قرينتين لفظيتين: (في قلبه + من إيمان)؛ أي أخرجوا المؤمنين بحسب درجات إيمانهم إلى غاية أضعفهم

إيماناً، وهنا ذُكر لازم من لوازم المعنى القريب المورّى به على سبيل التّوريّة المرشّحة أو الالتباس المعجمي القضوي بالمفهوم الحديث.

1-3-2-2-2- المشاكلة: هي ذكر الشّيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته إمّا تحقيقا أو تقديرا (القزويني، 1980، ص315)، مثال: «نريد أن تسقينا، فيُقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنّم»، حيث وقع الشّراب في صحبة السّقاء؛ لذلك ذكر المعنى الأوّل باللفظ الثاني.

1-3-2-2-3- المقابلة: هي أن يؤتى بمعان متوافقة ثمّ بما يقابلها على التّرتيب (علوان وعلوان، 1998، ص248)، مثل: (يسجد له كل مؤمن≠ يبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً و(يذهب أصحاب الصّليب... مع آلهتهم≠ يبقى من كان يعبد الله)، وفي المثالين تقابل الجملة الثّانية الأولى وتبدأ بفعل (يبقى) الذي ينفي المعنى المثبت في الجملة الأولى، وهذا ما يحيلنا إلى مفهوم بؤرة المقابلة، الذي سنعود إليه في مباحث المستوى العلاقي من هذا الفصل.

1-3-2-2-4- الطباق: هو أن تجمع بين متضادين (السكاكي، 1983، ص423). وفيه طباق السّلب: (لا تضارون≠ تضارون)، (صورة≠ غير صورته)، فأحد اللفظين مثبّت والآخر منفي، وطباق الإيجاب: (الجنّة≠ النّار)، (برّ≠ فاجر)، (الشّمس≠ الظّل)، (فيخرجون≠ فيدخلون) (فيأتونهم≠ فيعودون)؛ حيث إنّ اللفظين مثبتان.

1-3-2-2-5- الجناس: وهو تشابه كلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى (علوان وعلوان، 1998، ص271)، وهو نوعان:

أ- الجناس التّام المتماثل: هو ما كان لفظاه من نوع واحد (الجرجاني، الإشارات والتّنبيهات في علم البلاغة، ص228)، فلفظ الشّمس في جملة: «هل تُضارّون في رؤية الشّمس..» هي الكوكب المضيء المتجلّي في السّماء يقابله كوكب القمر، هو غير لفظ الشّمس في جملة «فما كان إلى الشّمس منها كان أخضر»؛ أي ما كان عرضة إلى النّور والضّوء ويقابلهما الظّل والظّلام، فاللّفظان من نوع واحد من حيث الحروف والهيئة لكن يختلفان في المعنى السّياقي ويسمّى هذا أيضا في علم البديع بالتّرديد حين يعلّق المتكلّم لفظة من الكلام بمعنى، ثمّ يردّدها بعينها ويغلّفها بمعنى آخر.

ب- الجناس المحرّف: هو تشابه كلمتين مع اختلاف في هيئة الحروف (علوان وعلوان 1998، ص278)، مثل كلمة (فيخرجون) في: «فيُخرجون من عرفوا»، «فيَخرجون كأنّهم اللؤلؤ».

1-3-2-2-6- السّجع: هو تواطؤ الفاصلتين على حرف واحد، وقد يكون مرصّعاً حين تتّفق الألفاظ في الوزن والقافية، أو يكون مطرفاً حين تتّفق الألفاظ في القافية دون الوزن، وقد يكون

متوازناً حين تتّفق الألفاظ في الوزن دون القافية. (القزويني، 1980، ص442)، وكثر السّجع في النّص حتّى غدا كالحليّ الجميلة المرصّعة للكلام والمبهرة للعقول.

أ- السّجع المرصّع: يسمى أيضا المتوازي وشواهده: (السّعدان، الرّحمن، الأوثان) و(الصّخرة، الشّجرة)، (ركاب، كتاب)، (السّيل، الخيل)، (قوم، يوم)، و(خير، نهر)، (ذرّة، مرّة) وهي ألفاظ متطابقة في الوزن والقافية.

ب- السّجع المطرّف: وأمثلته الألفاظ الآتية التي اتفقت في القافية دون الوزن: (الأنبياء عقيفاء، عتقاء، هؤلاء، رياء، ماء)، (النّار، الجبّار، دينار)، (ملائكة، شوكة، حسكة)، (كلاليب صليب)، (أصحاب، سراب)، (المسيح، الرّيح)، (صاحبة، حبة)، (رؤية، آية).

ج- السّجع المتوازن: وشواهده أقل عدداً من سابقيه وهي: (كلاليب، خطاطيف)، (مخدوش مكدوس)، (أخضر، أبيض). وقد توازنت في الوزن دون القافية.

1-3-3- التّفاعلية: عُرِفَ مصطلح التّفاعلية من قبل في اللسانيّات التّطبيقيّة، وخصوصا التّعليميّة منها في العلاقة التّفاعليّة بين المتعلّم والمعلّم، لكن الوظيفيين المحدثين اقترضوا هذا المصطلح ووظفوه في طبقة أسلوب الخطاب من المستوى العلاقي للمكوّن النّحوي، ويقصدون به وجود نوع من الآليات التي تجعل المخاطَب يتفاعل ويتعاون مع مُنشئ الخطاب وينسجم ويتجاوب معه في العمليّة الخطابيّة، والحقيقة أنّ معظم هذه الآليات هي من صميم علم المعاني في البلاغة العربيّة مثل: التّقديم والتّأخير، التّنكير، الإيجاز، الاعتراض، حيث تفاعل الصّحابة المخاطَبين مع الذّات المنتجة للخطاب وهو الرّسول ﷺ بواسطة الآليات الآتية:

1-3-3-1- التّقديم والتّأخير: قد وقع في النّص لغاية يريد تحقيقها المتكلّم مثل:

أ- للعناية والاهتمام: «فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار»، فقدّم الجار والمجرور (في قلبه) المتعلّق بصفة محذوفة تقديرها كائن، للعناية بالقلب؛ لأنّه محل التّقوى والإيمان.

ب- للتّخصيص: «عليه خطاطيف وكلاليب»، خصّصت تلك الأشياء بأن يختصّ بها الجسر فقدّم الجار والمجرور (عليه) المتعلقان بالخبر المحذوف للمبتدأ المؤخّر.

ج- للتّعظيم: «لم يكن لله صاحبة ولا ولد»، الجار والمجرور (لله) متعلقان بخبر (كان) المقدّم والمحذوف، وقُدّم عن اسم (كان) المؤخّر (صاحبة ولا ولد) لتعظيم الله في نفس المخاطَب.

د- للتّشويق: «فيُجعل في رقابهم الخواتيم»؛ لأنّنا نتشوّق بما سيُجعل في الرّقاب إذا قدّم الجار والمجرور (في رقابهم) المتعلّقان بالفعل عن نائب الفاعل (الخواتيم) الذي الأولى به أن يتبع الفعل المبني للمجهول (فيُجعل) مباشرة.

1-3-3-2- التّنكير: مسَّ الأسماء لبواعث عديدة منها: التّكثير في «فيُخرج أقواماً» التّشويق في «ينادي منادٍ»، بيان النّوعية في «من برٍّ وفاجرٍ»، التّعظيم في «كأنها سرابٌ»، التّقليل في «من إيمانٍ».

1-3-3-3- الاعتراض: وظهر ذلك من خلال تدخّل منتج الخطاب بالشّرح والتّعليق في جمل اعتراضيّة، حيث يترك تلك الوقائع المتحدّث عنها، ويعترض عنها بوقائع أخرى لعقد خطابٍ آخر تفاعليّ غرضه تقوية المعنى أو توضيحه للمتلقّي فيتفاعل مع ما أُعترض به، وقد وجدنا الرّسول ﷺ وهو يروي ما سيكون يوم القيامة من رؤية المؤمنين لربّهم، يحدث اعتراضاً عن النّص للغايات الآتية:

أ- الاعتراض للتّقوية: في الجملة «فما أنتم بأشدّ لي مناشدة في الحقّ -قد تبيّن لكم- من المؤمن يومئذ للجبّار»، اعترض هنا بعبارة (قد تبيّن لكم) ليؤكّد للمخاطبين أنّه في هذا الموقف الرّهيب؛ قد اتّضح لهم أنّ حاجة المؤمنين لله ﷻ عند المرور على الصّراط أشدّ من حاجتهم للرّسول ﷺ في الحقّ، فيقوّى المعنى في أذهان المخاطبين ويقتنعون به، ويتفاعلون مع المتكلّم في العمليّة الخطابيّة.

ب- الاعتراض للتّوضيح: في الجملة «فينبتون في حافّتيه كما تنبت الحبّة في حميل السّيل -قد رأيتموها إلى جانب الصّخرة وإلى جانب الشّجرة-...»، اعترض في هذه الجملة ليحيل أذهان المخاطبين إلى تلك الصّورة التي رأوها فعلاً للحبّة في ما مضى وهي إلى جانب الصّخرة أو الشّجرة تنبت في حميل السّيل، ويربطوها بصورة النّابتين في النّهر؛ فيتفاعلون مع تلك الصّورة التي يتشاركون في رؤيتها ومعرفتها يقينا مع المتكلّم، ويندمجون مع الخطاب.

ج- الاعتراض للتّنزيه: في الجملة «فيقول الله تعالى»، اعترض اللفظ (تعالى) هنا بين فاعل القول (الله ﷻ) ومقوله، ويراد بها تنزيه الذّات الإلهيّة وعلوّها وسموّها عن كل شيء.

إنّ اشتغالنا بالقضايا البلاغية القديمة الموجودة في النص لا يعني خروجنا عن التحليل الوظيفي التداولي؛ بل هو في صميم هذا التحليل أيضاً لأنّ المحاور السابقة أدرجتها نظرية الحال في ما يسمى بطبقة أسلوب الخطاب من المستوى الإبلاغي من البنية التحتية للمكون المركزي.

وإذا كان التّقسيم السّائد للخطابات وفق نمط الأسلوب هو إما خطابات تقريريّة علميّة أو خطابات إنشائيّة أدبيّة؛ فإنّ الحديث القدسيّ هاهنا قد جمعَ بين هذين الصّنفين، فهو إنشائي بسبب الذّاتية الحاضرة في نصوصه؛ لأنّ المقام مقام وعظ وإرشاد ودعوة، فكان لابد من حضور الأسلوب المؤثر في المتلقي فيجعله يتفاعل مع فحوى خطابه.

وهو أيضاً تقريري؛ لأنه يقدّم حقائق علميّة تجريديّة صرف كالنّصوص العلميّة، وهي صحيحة تتوافق مع نص القرآن الكريم الذي لم يحرّف كحال بعض الكتب السّماويّة، ومصدوقة حتّى من أعدائه من غير المسلمين حقائق وواقعيّة وخطيرة ومصيريّة في حياة الإنسان من عالم الغيب الذي يتجاوز حدود العلم البشري، بل لا يمكن أن يستوعبها العقل في الدّنيا تماما كما هي في واقع الآخرة، وينبغي أن يتقبّلها ويؤمن بها ويستعد لها.

وقد تحدّث الكثير من الباحثين بإسهاب عن بيان رفعة أسلوب الخطاب النبوي وفرادته، فهذا (الرّافعي) يقول: «قد قلنا في بيان أسلوب كلامه ﷺ، أنّه أسلوب منفرد في هذه اللغة، قد بان من غيره بأسباب طبيعيّة فيه، وأنّ ما أشبهه في بلاغة النّاس في الكلمات القليلة والجمل المقتضبة، لا يشبهه في العبارة المبسوطة... إذا نظرت في ما صحّ نقله من كلام النبي ﷺ على جهة الصناعتين اللغويّة والبيانيّة، رأيته في الأولى مُسدّد اللفظ مُحكم الوضع جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات: فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً؛ ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه؛ ولا كلمة غيرها أتمّ منها أداءً للمعنى وتأتّياً لسرّه في الاستعمال؛ ورأيته في الثانية حسن المعرض بيّن الجملة واضح التفضيل ظاهر الحدود جيّد الرصف متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه بديع الإشارة غريب اللمحة ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها ولا ترى اضطراباً ولا خطلا ولا استعانة من عجز ولا توسعا من ضيق ولا ضعفاً في وجه من الوجوه». (1973، ص ص324-325)، ولا عجب فهو ﷺ القائل عن نفسه «أنا أفصحُ العرب»، وأيضاً: «أوتيتُ جوامع الكلم».

ونختم المستوى الإبلاغي بالقول إنّ النّص موضوع الفحص تضمّن سمات في طبقة أسلوب الخطاب ميّزت لغة خطاب الحديث القدسيّ بأنّها سلسة واضحة مستساغة، جزلة وموجزة، وغنيّة بالتّصوير الفنّي البياني والتّزيين البديعي، وسمات في طبقة نمط الخطاب كشفت عن وجهه التّخاطبيّ الذّاتي، وغرضه التّواصلي الدّينيّ، وتعدد آلياته التّخاطبية وهي السّرد والوصف والحجاج، وسمات في طبقة المركز الإشاري أكّدت تعقّده؛ إذْ يوجد الوسيط مع إمكانية أن يكون المتكلم أيضاً وسيطاً، أما المتخاطبَين فقد يمثلان خارج النص أو داخله، وقد تمّ تمثيل هذا المستوى في البنية السّطحيّة من خلال آليات التسطيح الآنف ذكرها.

2- المستوى العِلاقي: يحتضن هذا المستوى السّمات التي تؤشّر للعلاقات التي تُقام إبّان نقل الصّورة الذّهنية لواقعة أو ذات معيّنة إلى المخاطب (الزّهري، 2014/أ، ص109)، ويُسمّى أيضاً بالمستوى التّداولي؛ وهو بهذين الاسمين (علاقي/تداولي)؛ لأنّه يستبطن السّمات التي تؤشّر

للعلاقتين التّداوليتين الآتيتين: علاقة تُعقد بين المتكلّم والمخاطب في الطّبقة الاسترعائيّة والطبقة الإنجازيّة، وعلاقة تُقام بين المتكلّم وفحوى خطابه في الطّبقة الوجهيّة.

ونستذكر أنّنا في طبقة نمط الخطاب من المستوى الإبلاغي صنّفنا النّص موضوع الدّرس بأنّه يندرج من حيث الوجه في قائمة الخطابات الذّاتية المتميّزة بحضور المتكلّم وتأثيره في المتلقّي إنّ هذا في الوقت نفسه لمؤشرٌ على اتّساع مساحة القيم الاسترعائيّة والإنجازيّة والوجهيّة، وبالتّبعية غنى المستوى العلاقي عن المستوى التّمثيلي.

2-1- الطّبقة الاسترعائيّة: تأوي هذه الطّبقة العبارات المسهمة إلى جانب عبارات أخرى في تدبير التّخاطب، وفي تشكيل استراتيجيّة استدعاء انتباه المخاطب وضمان إرادته في المشاركة في الحدث الخطابي (ديك 1997/ب، ص384)، فهي طبقة العبارات اللافتة لانتباه المخاطب.

ويُبرَّرُ إضافة الطّبقة الاسترعائيّة وجوب التّمثيل داخل بنية الخطاب للعبارات التي تقوم بدور لفت انتباه المخاطب إلى أنّ المتكلّم ينوي إمّا الشّروع في مخاطبته أو الاستمرار في مخاطبته أو إنهائها، هذه العبارات إمّا فواتح أو أحشاء أو خواتم. (المتوكّل، 2003، ص28)، وتُمثّل هذه الطّبقة العلاقة بين منتج الخطاب والمتلقّي يؤشّر لها بوسائل لغوية أو غير لغوية مثل: الحركات الإشاريّة الصّادرة عن منتج الخطاب، التّراكيب الإشاريّة والتّراكيب النّدائيّة، التّكرار، الإلحاح والصّور الفنيّة..الخ، وتسمّى استرعاءً مباشراً، أو بين منتج الخطاب وبين الشّيء المتحدّث عنه بالوصف أو السّرد وتسمّى استرعاءً غير مباشر.

وكَفَلَتْ الطّبقة الاسترعائيّة في النّص موضوع الفحص لفتَ انتباه المتلقّي واستدعاء اهتمامه نحو مضمون الخطاب، وضمان مشاركته فيه، فمثّلت لاسترعاءٍ غير مباشر وقع في علاقة بين الرّسول ﷺ ومضمون رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة، وعلاقةٍ بين الله ﷻ ومضامين الحساب والعقاب والجزاء والرّحمة، وهذه العلاقات دليل آخر على حضور منشئ الخطاب في خطابه وتحقّقت بالآليات التّخاطبيّة الوصف والسّرد التي تحدّثنا عنها في طبقة نمط الخطاب من المستوى الإبلاغي.

ومثّلت كذلك لاسترعاءٍ مباشر وقع في علاقةٍ بين الرّسول ﷺ وصحابته والنّاس عموماً وعلاقةٍ بين الله ﷻ وعباده يوم القيامة، وعلاقةٍ أخرى بين المتحاورين من أهل الجنّة، تم التّدليل له بوسائل لغوية لافتة لانتباه المتلقّي، مثل: التّراكيب الإشاريّة وضريبتها النّدائيّة، عملية التّكرار اللفظي، عملية الإلحاح في المحاورة، وكذلك الصّور الفنيّة التي تحدثنا عنها أيضا في طبقة أسلوب الخطاب من المستوى الإبلاغي.

2-1-1- الاسترعاء بالتّراكيب الإشاريّة: تتنوع التّراكيب الإشاريّة من حيث ألفاظها إلى: الإشارة باللفظ المواكب للمشار إليه، سواء ذي الرّتبة القربى أم البعدى، الإشارة باللفظ المُخَصِّص سواء جاء متقدما على الرّأس أم متأخّراً عنه، الإشارة باللفظ المُحيل سواء إحالة حضور أم إحالة عود.

وقد تمّ تسخير تركيب إشاري واحد في النّص لاستدعاء اهتمام المخاطب وهو: (هؤلاء عتقاء الرّحمن)، حيث اتّخذ الاسترعاء لبوس أداة الإشارة (هؤلاء) التي تشير إلى القوم الذين دخلوا النّار ثمّ أعتقهم الله بشفاعته فأخرجهم منها وأدخلهم الجنّة، بعدما جدّد لهم أبدانهم في نهر ماء الحياة ولأنّ المتكلّمين هنا هم أهل الجنّة وقد رأوا عتقاء الرّحمن أمامهم في المكان نفسه هو الجنّة؛ فقد تمّت الإشارة إليهم باللفظ ذي الرّتبة القربى المواكب للمشار إليه (هؤلاء) دون لفظ الإشارة ذي الرّتبة البُعدى (أولئك)، مما يجعل السّامع ينتبه إلى مدى قرب هؤلاء القوم من المتكلّمين.

ويأخذ لفظ الإشارة (هؤلاء) وضع الضّمير في الإحالة، حيث تمّت الإشارة هنا بلفظ محيل إحالة حضور وليست إحالة عود على الخطاب؛ لأنّ المحال إليه (القوم) قد ورد ذكره وحضوره داخل النّص وليس خارجه، أمّا من حيث الموقع فقد ذُكر لفظ الإشارة مخصِّصاً متأخّراً عن ذكر الرّأس الذي يُمثّل المحال إليه، فهي إشارة قبلية تجعل السّامع يلتفت إلى تلك الصّفات التي سبق ذكرها في النّص والمتعلّقة بالقوم، وهكذا حمل لفظ الإشارة (هؤلاء) ذهن المتلقّي عبر إحالة حضور داخليّة قبليّة قريبة.

2-1-2- الاسترعاء بالتّراكيب النّدائيّة: يتّم الاسترعاء بالتّراكيب النّدائيّة التي يمكن تقسيمها من حيث ألفاظها إلى عدّة أنواع:

- النّداء الحرفي الذي يُراد به النّداء فحسب، والنّداء المستلزم الذي يستلزم أغراضاً أخرى تخرج عن المجال الضيّق للنّداء؛

- النداء البسيط الذي يُتوسّل إليه بأداة نداء واحدة، والنّداء المرّكب الذي يجمع بين أكثر من أداة نداء مثل (يا أيها)؛

- النّداء الموجّه إلى المخاطب والنّداء غير الموجّه إلى المخاطب (النّدبة). (المتوكّل 2008، ص106)؛ ويُضاف إلى هذه الأنواع ما ورد في (هنخفلد وماكنزي (2008))، وهما نوعا النّداء: النّداء الإحالي الذي لا يتعدى الإحالة على الشّخص المنادى، والنّداء الواصف الذي يزاوج بين الإحالة على الشّخص المنادى وبين ذكر أوصافه.

وتمّ تسخير عدّة أنواع ندائيّة في مدونتنا لاسترعاء اهتمام المتلقّي، نبيّنها في قسمين رئيسيين: حرفي ومستلزم، وداخل هذين القسمين نبيّن حالات البساطة أو التّركيب، التّوجيه إلى المخاطب أو إلى غيره، الإحالة أو الوصف.

أ- النّداء الحرفي: نجده خارج النّص؛ أي في السّياق المقامي، يمثّله النّداء المقترن بالاستفهام عند سؤال الصّحابة رسول الله ﷺ عن رؤية ربّهم: «يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟» وفي موضع آخر عن الجسر: «يا رسول الله وما الجسر؟» وقد تمّ التوسّل إليه بأداة النّداء (يا)، وفي الحالتين جاء النّداء بسيطاً وليس مركّبا، كما وُجّه للمخاطب وهو الرّسول ﷺ مذكوراً بلفظه في جملة النّداء، وهو نداء إحالي وليس نداءً واصفاً.

ونجده أيضاً داخل النّص؛ أي في السّياق المقالي، وظهر في البنية السّطحيّة ليس بحروف النّداء ولكن بألفاظ تحمل معنى النّداء في: (يُنادي مُنادٍ)، (وإنّا سمعنا مناديا ينادي). وهذا النّداء بسيط وليس مركّباً، وصادر من مجهول لم يُحدَّد صاحبه في النّص ولم يعرفه المنادَون لقولهم: (سمعنا منادياً)، مما يحفّز المعرفة الخلفيّة لدى المتلقّي لتصوّر ذلك الموقف الرّهيب ويتخيّل من يكون المنادي؛ هل هو الله ﷻ؟ أو أحد الملائكة بأمر الله؟ وله أن يتخيّل حال المنادَى عليهم فيكون المتلقّي حينئذ في حالة من الخشوع والرّغبة والرّهبة، وهذا النّداء في الجملتين ليس موجّهاً لمخاطب بعينه وإنّما إلى جميع النّاس، وكذلك في: (ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون)، وهو نداء بسيط إحالي إلى كلّ النّاس وليس نداءً واصفا.

ب- النّداء المستلزم إلى الدّعاء: انطلاقاً من المبدأ التّداولي القائل: «لا يُسْترعى إلّا الذي يمكن ألاّ يكون منتبها والخالق ﷻ منتبه في سائر الأحوال» (الزّهري، 2014/أ، ص111)؛ فإنّ الاسترعاء هنا يرتفع ويبقى النّداء مجرّداً من المهمّة المنوطة به وهي تنبيه المخاطب، ومستلزماً لمهمّة أخرى هي الدّعاء.

نجد هذا النّوع داخل النّص؛ أي في السّياق المقالي، وشاهِدُه العبارة: «ربّنا إخواننا الذين كانوا يُصلّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا»، وهو تركيب ندائي بدون أداة النّداء، حيث يمكن تقديرها: (يا ربّنا)، فهو نداء بسيطٌ مُوجه إلى الله تعالى واصفٌ لحال إخوانهم العاملين معهم في الدّنيا ثم سقطوا في النّار، تضمّن قوّة إنجازيّة مستلزمة إلى الدّعاء، ونلمس عنصر التّأدّب مع الله تعالى في هذا الدّعاء وذلك بعدم ذكر فعل الطّلب من قبيل: (أعطنا، أخرج إخواننا، فرّج عن إخواننا)، وإنّما اكتفى بذكر الإخوان وصالح أعمالهم في الدّنيا «إخواننا الذين كانوا...»، للتّعريض بمحتوى الطّلب في دعائهم.

وتضمّن جواب الدّعاء اسم الموصول (**مَنْ** وجدتم) الذي يفيد التّعميم؛ يعني أَخرِجوا من النّار –أجارنا الله منها– مَنْ عرفتهم ومَنْ لم تعرفوا، رغم أنّ النّاجين من الصّراط يقصدون في دعائهم من يعرفون من إخوانهم فقط، فإذا ذهبوا لإخراجهم أخرجوا ليس من عرفوه في الدّنيا فحسب؛ ولكن من عرفوا فيه درجة الإيمان المقصودة وهي: (مثقال دينار، مثقال نصف دينار، مثقال ذرّة)، وهذا من سعة الله ورحمته بعباده.

2-1-3- الاسترعاء بالتّكرار اللفظي: التّكرار اللفظي ميزة مطردة في الأحاديث القدسيّة لما لها من فائدة في تقويّة المعنى واسترعاء انتباه المتلقّي، وقد مس التّكرار إمّا لفظا واحدا وإما عبارة كاملة.

أ- **الألفاظ المكرّرة:** كُرّر اللفظان (تضّارون، رؤية) ثلاث مرّات في حوار بين المتكلّم الرّسول ﷺ والمخاطب الفعلي في السّياق المقامي وهو الصّحابة لاسترعاء انتباههم لمضمون رؤية العباد لربّهم. وكُرّر اللفظ (أصحاب) ثلاث مرات أيضاً لوضع المتلقّي في مشهد حركي لهؤلاء الأصحاب، حيث كلّ فريق منهم يمشي في اتّجاه معيّن يتّبع إلهه داخل أرض المحشر.

وكُرّر اللفظان (الجنّة، النّار) بنسبةٍ بينهما توافق كون الثّاني ضعّف الأوّل، فذُكرت الجنّة أربع مرّات في نهاية الخطاب بعد قضاء الله بين العباد؛ أمّا نقيضها فذُكر في بداية الخطاب ضِعفاً؛ أي ثماني مرات؛ بلفظ جهنّم أربع مرّات وبلفظ النّار أربع مرّات، وكأنّ هذا التّكرار يريد وضع انتباه المتلقّي نحو موقف الرّهبة من النّار قبل موقف الرّغبة في الجنّة حتّى يجتهد في عمله في الدّنيا، وذكرت جهنّم أولاً؛ لأنّ مشهد يوم الحشر يبدأ بعرض جهنّم أمام النّاس، ليدخلها عبدة الأوثان ومختلف الآلهة الأخرى، ثمّ يتساقط فيها اليهود والنّصارى ممّن لم يعبدوا الله وكذّبوا بالرّسول ﷺ، ثمّ يوضع الصّراط على طرفيها ليمرّ عليه ما بقي من النّاس.

ب- **العبارات المكرّرة:** تكرّرت العبارة «يُنادي مُنادٍ: ليذهب كلّ قوم إلى ما كانوا يعبدون» مرّتين؛ المرّة الأولى على لسان الرّاوي وهو الرّسول ﷺ، والمرّة الثّانية على لسان القوم الذين بقوا ينتظرون ربّهم وقد ذهب النّاس كلّ إلى إلهه، وفيها تمّ استبدال فعل ليذهب بفعل ليلحق، وحرف الجّر إلى بحرف الجّر الباء، وهذا التّكرار فضلا عن الاسترعاء فهو يحقّق غرض تحقير العابد والشّيء المعبود دون الله. كما تكرّرت العبارة «حتّى يبقى من كان يعبد الله من برّ وفاجر» مرّتين أيضاً؛ المرّة الأولى معهم غبرات من أهل الكتاب، ويُقصد بالمجموع من بقوا بعد ذهاب أصحاب الصّليب والأوثان والآلهة إلى ما كانوا يعبدون، والمرّة الثّانية، ويُقصد بهم من بقوا بعد تساقط غبرات من أهل الكتاب في النّار.

وتكرّرت العبارة «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال... من إيمان فأخرجوه» ثلاث مرّات بحسب وزن المثقال (دينار، نصف دينار، ذرّة)؛ كما تكرّرت العبارة «فيُخرجون من عرفوا ثمّ يعودون» ثلاث مرّات بحسب وزن المثقال أيضاً، وهذا التّكرار فضلا عن الاسترعاء فهو يحقّق غرض التدرّج في حكم الخروج بحسب درجات الإيمان، كما يفيد تعظيم قيمة الإيمان في حدّ ذاته في نفوس المؤمنين، فهو الذي ينجّيهم من النّار بإذن الله.

يُلحظ من عدد تكرارات الألفاظ والعبارات الموزّعة عبر أرباض النص، أن التّكرار الفردي (الثّلاثي) يُهيمن على فواتح وخواتم النّص معاً، حيث ينطلق النّصّ منه وينتهي به، في حين يتخلّل أحشاء النّص التّكرار الزّوجي (ثنائي أو رباعي)، والحقّ أنّنا لا نجد تفسيراً لهذا الانتظام، غير أنّ هذه التّكرارات من حيث العدد أو من حيث معنى اللفظ المكرّر أو العبارة المكرّرة من شأنها تقوية المعنى، واسترعاء انتباه المتلقّي؛ فتجعله في حالة من الرّغبة والرّهبة، ومن الدّهشة أيضاً من تلك المفارقة الواسعة بين حياتين اثنتين له؛ حيث يستحضر معرفته بالحياة الأولى التي يدركها ويكنهها في الزّمن الحالي، ثمّ يتخيّل حياةً ثانيةً مستقبليّةً مجهولةً بالنّسبة إليه، لكنّها نتيجة حتميّة لأعماله في الحياة الأولى.

2-1-4- الاسترعاء بالإلحاح الحواري: هو عبارة عن تكرير للعبارات المحمولة على سبيل الحوار بين طرفين، فتشكّل إلحاحاً من جهة المتكلّم أو من جهة المتلقّي أو من جهتهما معاً كما في الحوارات الآتية:

- تكرّر الحوار بين الله ﷻ والمشركين به مرّتين حول عبادتهم في الدّنيا من خلال تكرير السّؤال: «ما كنتم تعبدون؟» مرّتين، وهو من مصدر مجهول وُجّه لليهود ثم للنّصارى. حيث يجيبون: «كنّا نعبد عزيراً/ المسيح ابن الله». وهما إجابتان متشابهتان في فكرة عبادة نبيّ من أنبياء الله نُسِب عندهم أنه ابن الله.

- تكرّر الحوار بين الله ﷻ والمشركين به حول جزاء شركهم مرّتين في الفعل الخطابي الآتي: «فيُقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا نريد أن تسقينا، فيُقال: اِشربوا فيتساقطون في جهنّم»، حيث أُعيد الحوار نفسه مرّة مع اليهود ومرّة مع النّصارى، وهو من قبيل الإلحاح الحواري المسترعي لانتباه المتلقّي نحو النّموذج الموحّد في المعاملة والمصير من الله ﷻ تجاه اليهود والنّصارى، كما يفيد غرض التّحقير من قيمة العابد وما عبدوه في الدّنيا، إذْ لم يغن عنهم شيئاً في هذا اليوم.

2-2- الطبقة الإنجازيّة: تأوي طبقة الوظائف الإنجازيّة مخصّصات القوى الإنجازيّة الحرفيّة مثل: الإخبار، الأمر، النّهي، الاستفهام، والقوى الإنجازيّة المستلزمة عنها التي كلّما كثرت فإنّها تشير إلى ارتفاع آليات الاستلزام الحواري.

ويُلاحظ على هذه القوى الإنجازيّة الحرفيّة أنّها وردت في البلاغة العربيّة القديمة في ما يسمّى بالخبر والإنشاء في علم المعاني، حيث يختلف الإنشاء عن الخبر بكونه لا يحتمل الصّدق والكذب لذاته، وهو قسمان: إنشاء غير طلبي لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطّلب، وإنشاء طلبي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطّلب، وهو بدوره خمسة أنواع هي: الأمر والنّهي والاستفهام –وهي التي نحن بصدد الحديث عنها– بالإضافة إلى التّمني والنّداء.

ويندرج الحديث القدسيّ ضمن فئة الخطابات ذات الوجه الذّاتي والغرض الدّيني والآليّة السّرديّة والحواريّة؛ لذلك نرتقب أن تستأثر به القوى الإنجازيّة الإخبار والأمر والاستفهام، ولأنّ أسلوبه إنشائي تفاعلي؛ فسيستبطن كمّاً لا بأس به من القوى المستلزمة.

2-2-1- مخصّص القوّة الإنجازيّة الإخبار: يقدّم النّص فحوى خطابي يتضمّن قوّة إنجازيّة هي الإخبار الذي يظهر على مستوى البنية السّطحيّة في شكل تنغيم متنازل، ويمكن تقسميه إلى عدّة أنواع كما يأتي.

يكون الإخبار بالنّظر إلى درجة تقويته إمّا ابتدائياً أو طلبياً أو إنكارياً؛ لذلك سنُرجئ الحديث فيها إلى غاية الوصول إلى السّمة الوجهيّة التّقوية في الطّبقة الوجهيّة.

وقد يكون الإخبار لازم الفائدة؛ أي يحمل فحوى قديم معلوم لدى المخاطَب، مثل: إخبار الرّسول ﷺ عن شكل الحبّة التي تنبت في حميل السّيل خضراء في جزئها المعرّض للشّمس وبيضاء في جزئها الباقي في الظّل. أو إخباراً بفحوى جديد لا يعلمه المخاطَب، وهو كثير في النّص نورده في باقي أنواع الإخبار الآتية، حيث يمكن تقسيم القوى الإنجازيّة للإخبار إلى حرفيّة ومستلزمة كما يلي:

أ- القوّة الإنجازيّة الحرفيّة للإخبار: هو قوّة إنجازيّة تحمل مجرّد الإخبار دون استلزامها وخروجها إلى أغراض أخرى، مثل: «إنّما ننتظر ربّنا».

ب- القوى الإنجازيّة المستلزمة للإخبار: هي قوى إنجازيّة تستلزم عن الإخبار بالخروج إلى أغراض أخرى، مثل: المدح، الفخر والتّعظيم، التّشويق، الوعد، الوعيد، الاسترحام، التّحسّر.

1- الإخبار المستلزم إلى المدح: في العبارات الدّالة على: رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة مرور المؤمنين على الصّراط بسرعات مختلفة، شفاعة النّبيين والملائكة والمؤمنين، خروج النّابتين في نهر ماء الحياة كاللؤلؤ، تسمية أهل الجنّة لهم بعتقاء الرّحمن.

2- الإخبار المستلزم إلى الفخر والتّعظيم: في العبارة: «قوله تعالى: (أنا ربّكم)»، وفي العبارات الدّالة على: سجود المؤمنين له عند رؤية السّاق، شفاعة الله بإخراج أقوام من النّار لم يعملوا خيراً قط.

3- الإخبار المستلزم إلى التّشويق: في العبارة: «فيقول الجبّار: بقيت شفاعتي»، وفي العبارات الدّالة على: حيث يثير هذا الخبر لهفة وشوق اليائس المعذّب بالنّار إلى رحمة الله به.

4- الإخبار المستلزم إلى الوعد: في العبارات الدّالة على: إخراج النّاجين من النّار إخوانهم الذين كانوا يعملون معهم الصّالحات في الدّنيا، وذلك على مراحل بحسب أعمالهم ودرجات إيمانهم، زيادة الله لعتقائه مثل ما رأوا في الجنّة، وهي أخبار فيها جزاء بالخير.

5- الإخبار المستلزم إلى الوعيد: في العبارات الدّالة على: الإتيان بجهنّم، اتّباع بعض النّاس للآلهة التي كانوا يعبدونها حتى تدخل بهم جهنّم، تساقط اليهود والنّصارى في النّار ممّن كانوا يجعلون لله ولداً، وضع الجسر بين طرفي جهنّم وحالة الحدائد والأشواك التي عليه وهي تخطف النّاس، وهي أخبار تهدّد وتتوعّد النّاس جميعاً.

6- الإخبار المستلزم إلى الاسترحام: في العبارات الدّالة على: احتجاج النّاجين من النّار في إخوانهم الّذين سقطوا فيها، ودعائهم لهم اللهَ بأن يرحمهم.

7- الإخبار المستلزم إلى التّحسر: في العبارات الدّالة على: فشل محاولة المرائي في الدّنيا على السّجود عند رؤيته السّاق، عدم إجابة اليهود والنّصارى في طلب السّقيا.

ويبرح منشئ الخطاب الإخبارَ ويتسرّب إلى خطابه عن طريق الأمر والاستفهام والنّهي؛ حين يتوقّف سرد الوقائع في حالات الانتقال من حدث إلى حدث بالوصف أو التّعليق أو الشّرح أو الحجاج،

2-2-2- مخصص القوّة الإنجازيّة الأمر: يتضمّن الفحوى الخطابي في النّص قوّة إنجازيّة أخرى هي الأمر الّذي يظهر على مستوى البنية السّطحيّة في شكل تنغيم متنازل، ويمكن تقسيم هذه القوّة إلى القسمين الآتي ذكرهما.

أ- **الإنجاز الحرفي للأمر:** هو قوة إنجازيّة تحمل مجرّد الأمر دون استلزامها وخروجها إلى أغراض أخرى، وهو غير موجود في النّص.

ب- الإنجاز المستلزم للأمر: هو مجموع القوى الإنجازيّة التي تستلزم عن الأمر؛ أي بخروجه إلى أغراض أخرى، مثل: الدّعاء، التّعجيز، التّيئيس، الإكرام.

1- الأمر المستلزم إلى الدّعاء: في العبارة «ربّنا إخواننا الّذين كانوا يُصلّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا»؛ بتقدير وجود حذف في هذه الجملة يُتمّ بعبارة: (أنقذهم ونجّهم من النّار) على سبيل الدّعاء.

2- الأمر المستلزم إلى التّعجيز: في العبارة «اشربوا» التي تكرّرت مرّة مع اليهود ومرّة مع النّصارى حين طلبوا السّقيا، وهو أمر من المولى ﷻ لهم بأن يشربوا، ولا يمكنهم الشّرب؛ لأنّ مآلهم هو النّار، فمن أين يشربون؟ وهذا هو محلّ التّعجيز.

3- الأمر المستلزم إلى التّيئيس: في العبارة: «ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون» التي تكرّرت مرّتين، حيث يأمر الله عزّ و جلّ النّاس أن يذهب كل قوم إلى إلههم الذي يظهر أمامهم يوم القيامة وقد كانوا يعبدونه في الدّنيا، فيستجيبون لأمر الآمر ويتبعون تلك الآلهة حتّى تدخل بهم جهنّم، وهذا الأمر هو لتيئيس هؤلاء من أنّه لا مجال من انتظار الرّحمة من الله الذي أشركوا به.

4- الأمر المستلزم إلى الإكرام: في العبارة: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال... من إيمان فأخرجوه»، وتكرّرت ثلاث مرّات بحسب المثقال (دينار، نصف دينار، ذرّة)، وهذا الأمر بالذّهاب والإخراج هو لإكرام المأمورين وهم المؤمنون النّاجون من النّار بعد مرورهم بالصّراط، والحكمة في تكرار الأمر ثلاث مرات هو بيان الحكمة من التّدرّج في القضاء والأحكام المرتبطة بحسب الأعمال ودرجات إيمان النّاس بالله.

2-2-3- مخصّص القوّة الإنجازيّة النّهي: هذا المخصّص غير موجود في النّص.

2-2-4- مخصّص القوّة الإنجازيّة الاستفهام: يتضمّن الفحوى الخطابي في النّص قوّة إنجازيّة أخرى هي الاستفهام الذي يظهر على مستوى البنية السّطحيّة في شكل وسائل صرفيّة (أدوات الاستفهام) بمصاحبة تنغيم متصاعد، ويمكن تقسيم هذه القوّة إلى القسمين الآتي ذكرهما.

أ- الاستفهام المجرى على أصله: هو قوّة إنجازيّة تحمل مجرّد الاستفهام الحرفي لطلب المعلومة فحسب دون استلزامها وخروجها إلى أغراض أخرى، وظهر خارج النّص في سؤالين من الصّحابة للنّبيّ ﷺ هما: «هل نرى ربّنا يوم القيامة؟»، «وما الجسر؟».

وقد تمّ التوسّل إلى هذا الاستفهام بالتنغيم المتصاعد المصاحب لأداة الاستفهام (ما) التي انصبّت على الحدّ: الجسر، ولأداة الاستفهام (هل) التي انصبّت على الفعل الخطابي بكامله.

ب- الاستفهام المجرى على غير أصله: هو القوى الإنجازيّة التي تستلزم عن الاستفهام بالخروج إلى أغراض أخرى، مثل: التّقرير، التّحقير، التّعظيم.

1- الاستفهام المستلزم إلى التّقرير: في العبارة: «هل تُضارّون في رؤية الشّمس والقمر إذا كانت صحواً؟»، وهو سؤالٌ من الرّسول ﷺ للصّحابة ردّا عن استفهامهم الحرفي السّابق، ليقرّوا

بأنّهم لا يُضارّون في رؤية الشّمس والقمر إذا كانت السّماء صحواً، فيكون هذا الإقرار بمثابة المتّكأ في مقاربة إقرار رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة.

وتعني عبارة (هل تُضارّون؟) عند تشديد الرّاء: هل تَضرّون غيركم في حالة الرّؤية بزحمة أو مخالفة في الرّؤية كما تفعلون أوّل ليلة من الشّهر؟ وعند تخفيف الرّاء: هل يلحقكم في رؤيته ضير (ضرر)؟ (متولي، 2013، ص682)، والاستفهام من أساليب النّبيّ ﷺ في الخطاب لاسترعاء انتباه المخاطبين، وإقامة ممهّدات إقناعهم أيضاً، وقد يكون بعبارات أخرى مثل: هل رأيتم؟ هل تعرفون؟ هل تُمارون؟ (هل تُجادلون؟)، هل تُضامُون؟...الخ.

ويعني لفظ (تُضامُون) بالتّخفيف: الضّيم وهو الظّلم، أمّا تُضامُّون بالتّشديد فمن الضمّ وهو المزاحمة. (ابن منظور، لسان العرب، ج29، ص2629)؛ أي لا يظلم بعضكم بعضا بالمنازعة ولا تزاحمون بالمضامّة.

ونجد من هذا الاستفهام أيضاً العبارة: «ما يحبسكم وقد ذهب النّاس؟»، وهو سؤال من الله ﷻ إلى المنتظرين حول سبب بقائهم يريد منهم الجواب –وهو أعلم بجوابهم– حتى يقرّوا بحقيقة أنفسهم أنّهم عباد الله الذين لم يشركوا به ولم يتّخذوا في الدّنيا إلهاً غيره، وهذا الاستفهام مستلزم إلى التّقرير كما أنّه مستلزم للتّعجّب، فالله ﷻ يعجب من حال العبد وهو ينتظره ويخشاه أو يعبده خائفاً منه راغباً في ما عنده، وقد يباهي به الملائكة في بعض المواقف.

2- الاستفهام المستلزم إلى التّحقير: «ما كنتم تعبدون؟»، وتكرّرت مرّة مع اليهود ومرّة مع النّصارى لتحقير العابد وما كان يعبد فلا يغني أحدهم عن الآخر في هذا اليوم العصيب.

3- الاستفهام المستلزم إلى التّيئيس: «فما تريدون؟»، وتكرّرت مرّة مع اليهود ومرّة مع النّصارى لتيئيسهم من إمكانيّة مساعدتهم أو تحقيق مرادهم؛ حيث إنهّم يطلبون السّقيا، فلا يتمكّنون منها ويسقطون في جهنّم.

4- الاستفهام المستلزم إلى التّعظيم: «هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟»؛ وهو سؤال من الله عزّو جلّ لعباده المؤمنين وهو أعلم بجوابهم غرضه تعظيم تلك الآية، وهي (السّاق).

ويجدر بنا في نهاية هذا المبحث حول الطّبقة الإنجازيّة أن لا نمرّ إلى مبحث آخر قبل أن نَدْفَعَ بهذه النّتيجة: إنّ الوجه الخطابي الذّاتي للحديث القدسيّ وآليته الخطابيّة السّرديّة قد رفعا من منسوب القوّة الإنجازيّة الإخبار، وإنّ غرضه الخطابي الديني وآليته الخطابية الحوارية قد فرضا هيمنة القوتين الإنجازيتين الأمر والاستفهام دون النّهي، ومع ذلك اختزن الكثير من القوى الإنجازيّة المستلزمة فارتفعت آليات الاستلزام الحواري، ونظراً لوجود القوى الإنجازيّة الحرفيّة جنباً إلى جنب

مع القوى الإنجازيّة المستلزمة لها، وبشكل كثيف فإنّ هذا يزجّي إلى القول بأنّ الحديث القدسيّ موجّهٌ توجيهاً إنجازياً وتداولياً عميقاً.

وقد ظهرت هذه الطبقة الإنجازيّة إلى المستوى البنوي للحديث القدسيّ بواسطة الإوّاليّات الصّرفيّة–تركيبيّة التي عرضناها، وبوسائل تطريزيّة خصوصاً التّنغيم، فلمسنا التّنغيم المتصاعد في القوّة الإنجازيّة الاستفهام، والتّنغيم المتنازل في القوّة الإنجازيّة الخبر والأمر، والتّنغيم المركّب (متصاعد–متنازل) في الجملة الحاملة لقوّتين إنجازيتين حرفيّة ومستلزمة.

2–3– الطبقة الوجهيّة: وتسمّى طبقة الوجوه القضويّة؛ حيث إنّ الوجه القضوي يحيل إلى: «موقف يتّخذه المتكلّم من فحوى القضيّة» (الزّهري، 2014/ب، ص201)، وتضمّ قسمين من السّمات؛ وجهيّة ذاتيّة وأخرى وجهيّة مرجعيّة، وقد كان (المتوكّل) يسمّيها سابقا بالطّبقة التّركيبيّة ثمّ تخلّى عن هذا الاسم واستبدله باسم الطّبقة الوجهيّة. وتركّزت هذه الطّبقة في الحديث القدسيّ بوضوح، ولأنّه خطاب ذاتي ديني؛ فإنّنا ننتظر غلبة السّمات الذّاتيّة على المرجعيّة.

2–3–1– السّمات الوجهيّة الذّاتيّة: تنقسم السّمات الوجهيّة الذّاتيّة إلى سمات معرفيّة مثل: التّقويّة والنّفي والشّك والتّرجيح، وسمات إراديّة مثل: التّرجي، التّمني، الدّعاء، وسمات انفعاليّة مثل: التّعجّب، النّدبة، الاستغاثة.

2–3–1–1– السّمات الوجهيّة الذّاتيّة المعرفيّة: تجلّت فيها سمتا التّقوية والنّفي فقط، ولأنّ الحديث القدسيّ خطاب غرضه ديني آليته حجاجيّة؛ فقد اختصّ بالوجه الذّاتي المعرفي: (التّقوية) باعتبارها استراتيجيّة خطابيّة حجاجيّة، وكانت حاضرة حضوراً مكثّفاً، بانعكاساتها الصّورية الصّرفيّة–التّركيبيّة.

أ– التّقوية: هي استراتيجيّة خطابيّة يجنح إليها المتكلّم لصكّ مخاطَبه، وتقوم على دفوع ملقاة إلى منكر أو متماد في إنكاره (الزّهري، 2014/أ، ص117)، وهي سمة وجهيّة ذاتيّة معرفيّة لتأكيد القضايا والأخبار، يلتجئ إليها المتكلم لإقناع المخاطب بدفوع ملقاة، فيدفع بها شكّه وتردّده أو إنكاره أو تمادي إنكاره.

ويتمّ التّوسّل إلى التّقوية بتسخير أدوات صوريّة تنعكس على المستوى البنوي وهي: معجميّة (تكرار اللفظ)، وصرفيّة (قد، لا شكّ، نوني التّوكيد الخفيفة والثّقيلة، صيغ التّكثير والمبالغة) وتركيبيّة (القسم، إنّ، اللاّم)، وللتّقوية أحياز ودرجات نوضّحها في ما يلي:

وتعتبر أحياز التقوية المجالات التي تنصّب فيها التّقوية؛ حيث لا تقتصر على مكون بعينه وإنّما قد تتحيّز التّقوية في المحمول أو في الحدّ أو تتمركز في الجملة أو تتعدّى المكوّنات إلى طبقة من طبقات الخطاب (الزّهري، 2014/أ، ص117)، وفي النّص تواردت التّقوية على الجملة

برمّتها فأكّدت مضمونها باللبوس الصّرفي ممثلا في الأداة (إن) التي انصبّت على الفعل الخطابي ككل، والشّاهد هو: «فإنّكم لا تُضارّون في رؤية ربّكم».

وتسلّطت أيضاً على المحمول الفعلي، حيث تمّ تأديتها بالأداة الصّرفية (قد)، ومن شواهدها: «قد تبيّن لكم»، كما تحيّزت في الحدّ واتّخاذ لبوسٍ معجميٍ بتكرار لفظه (التّوكيد اللفظي) في الطّبقة الاسترعائيّة كما سبق وأن ذكرنا، وبصيغة المبالغة (فعّال) في الحدّ (الجبّار) اسم الله تعالى المكرّر في النّص ثلاث مرّات، وهي صيغة مبالغة لتقوية معنى التّجبّر الذي يختصّ الله تعالى به وحده دون سواه، وقد جاءت مناسبة لهذا المقام المهيب والعصيب من مشاهد يوم القيامة.

إنّ درجات التّقوية تنخفض وترتفع بحسب ردّ فعل المخاطب تجاه الدّفوع، فتنخفض عند شك المخاطب وتردّده، حيث يستعمل المتكلّم الدّفوع الابتدائيّة، والدّفوع الإبطاليّة مع وسيلة لغويّة واحدة مثل: (إنّ، قد، اللاّم، لا شكّ، القسم، صيغة المبالغة، التّوكيد اللفظي). وترتفع درجة التّقوية عند التّمادي في إنكار المخاطب، حيث يستعمل المتكلّم الدّفوع الإبطاليّة إلى درجة اكتساح القطع الحجاجيّة والتّعليقيّة برمّتها، كما يلجأ إلى التّنغيم المركّب وإلى تضافر وسيلتين لغويتين فأكثر مثل: (إنّ + اللاّم، اللاّم + قد، إنّ + توكيد لفظي، قد + إنّ + اللاّم، القسم + إنّ + اللاّم، اللاّم + قد + صيغة مبالغة).

وتوجد داخل سلّميّة التّقوية درجات كما تصنّفها (الزّهري) (2014/أ، ص118) بقولها: «...إنّ القطع الملقاة إلى مخاطب شاك أو متردّد تحتلّ الدّرجة الأولى داخل سلّميّة التّقوية، وترتفع هذه الدّرجة إلى الدّرجة التي تعلوها إذا ألقيت إلى مخاطب منكر، أمّا إذا تمادى في إنكاره فإنّ التّقوية تبلغ منتهاها». اعتماداً على هذا التّصنيف نجد الحديث القدسيّ يشمل الدّرجات الآتية:

1- الدّرجة الصّفر: تتعلّق بالمخاطب غير المتردّد في قبول الدّفوع الابتدائيّة، حيث أحيلت التّقوية إلى الدّرجة الصّفر وانعدمت من المؤكّدات في الإخبار الابتدائي، ومن شواهده في النّص العبارة: «فيذهب أصحاب الصّليب مع صليبهم».

2- الدّرجة الأولى: تختصّ بالمخاطب الشّاك أو المتردّد تجاه الدّفوع الإبطاليّة، وسجّلنا ذلك في حالة الإخبار الطّلبي حيث تمّ تقوية القوّة الإنجازيّة الإخبار بمؤكّد واحد؛ لأنّ المخاطَب تردّد في قبوله، وشواهدها ما يلي:

- توظيف المؤكّد (إنّ): «فإنّكم لا تُضارّون في رؤية ربّكم»، «إنّا سمعنا منادياً ينادي».

- توظيف المؤكّد (قد): «قد تبيّن لكم»، «قد غاب في النّار»، «قد امتحشوا»، «قد رأيتموها».

3- الدّرجة الأعلى: تكون للمخاطب المنكر، ونستجلي هذا الأمر في النّص حين تمّ تقوية القوّة الإنجازيّة الإخبار بمؤكّدين في جملة: «وإذا رأوا أنّهم قد نجوا في إخوانهم؛ يقولون...»، وهي حالة إخبار إنكاري صادر عن المؤمنين النّاجين من النّار بعد تجاوزهم الصّراط، وكأنّهم تعجبّوا ولم يصدّقوا أنّهم نجوا فعلاً عن بقية إخوانهم الذين سقطوا في النّار، فاحتاجت القضيّة لأحياز صوريّة صرفيّة تركيبيّة تشمل أكثر من مؤكّد فسُخّرت لتأديتها وسيلتان لغويتان هما: (أنّ + قد)، وهي منتهى ما حقّقته هذه السّمة في النّص.

4- الدّرجة العليا: تكون للمتمادي في الإنكار، وتحتاج إلى أكثر من وسيلتين لغويتين، وهي منعدمة في النّص.

اعتمد الحديث القدسيّ على استراتيجيّة التّقوية، التي انصبّت على المحمولات وعلى الحدود وعلى الجمل، وتعدّت هذه المكوّنات فمسّت جميع طبقات المستوى العلاقي (الاسترعائيّة والإنجازيّة والوجهيّة)، لم نجد التّقوية في الإخبار الابتدائي؛ لأنّ المخاطَب خالي الذّهن منه لا يتردّد في قبوله، وإنّما تسلّطت على الإخبار الطّلبي والإخبار الإنكاري، فجاءت متدرّجةً انخفاضاً وارتفاعاً في زمرة من الدّفوع الإبطاليّة تبعاً لحجم إصرار المخاطَب على إنكاره، وهكذا أسهم ردّ فعل المخاطب إسهاماً فعّالاً في تنظيم البناء السّطحي للحديث القدسيّ.

ب- النّفي: هو سمة وجهيّة ذاتيّة معرفيّة يؤدّى صرفياً بالأدوات: (لا، لم)، وهو نوعان نفي وصفي لبؤرة جديد التي تُسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يملكها المتكلّم ويجهلها المخاطب ونفي حجاجي لبؤرة مقابلة التي تُسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يتنازع المتكلّم والمخاطب في ورودها (الزّهري، 2014/أ، ص69)، وفي النّص وجدنا النّفي الحجاجي فقط الذي يقصد الدّفاع عن نزاعات واقتناعات، وقد اقترن ببؤرة مقابلة في الأجزاء الحواريّة الحجاجيّة في الدّفوع الإبطاليّة، ووجدنا أنّ هذا النّفي اقترن بالحصر محقّقاً بذلك بؤرة مقابلة من نوع بؤرة الحصر سيكون الحديث عنه لاحقا في مكانه المناسب، كما لم يقترن بالحصر محقّقاً بذلك بؤرة إبطال وبؤرة تعويض على النّحو الآتي:

- «قلنا: لا»، في جواب الصّحابة عن سؤال الرّسول ﷺ لهم عن إمكانيّة مضرّتهم في رؤية الشّمس والقمر إذا كانت السّماء صحواً، حيث توسّل إلى ذلك بأداة النّفي (لا) مع تقدير المنفي (لا نُضَارُّ...)، والنّفي ومدخوله يشكّل بؤرة مقابلة تضمّ بؤرة إبطال فقط.

- «كذبتم؛ لم يكن لله صاحبة ولا ولد»، وتكرّرت مرّتين، مرّة مع اليهود ومرة مع النّصارى وهي بؤرة مقابلة بدأت ببؤرة تعويض (كذبتم)، ثم أُكملت ببؤرة إبطال (لم يكن لله صاحبة ولا ولد) أين توسّل الإبطال بأداتي النّفي (لم) و (لا).

2-3-1-2- السّمات الوجهيّة الذاتيّة الإراديّة: التّرجي والتّمني والدّعاء سماتٌ وجهيّة ذاتيّة إراديّة، تُؤدّى الأولى صرفياً بالأداتين المخصوصتين: (لعلّ، عسى)، وتُؤدى الثّانية صرفياً بالأداة: (ليت)، وتُؤدّى الثّالثة بالنّداء المفرغ من مهمة الاسترعاء والمثبت بالنّداء المستلزم، الموجّه إلى ما هو أعلى وأرفع من المخلوق وهو الله ﷻ؛ حيث إنّ سمتي التّرجي والتّمني غير موجودتين في النّص، أمّا سمة الدّعاء فقد تمّ التّفصيل فيها في الطّبقة الاسترعائيّة.

2-3-1-3- السّمات الوجهيّة الذاتيّة الانفعاليّة: يوجد في المستوى العلاقي لهذا الخطاب سمات التّعجّب والاستغاثة فقط، أمّا سمة النّدبة فهي غير موجودة، وتُؤَدّى بالنّداء الذي لا يكون موجّها لمنادى بعينه.

أ- **التّعجّب:** لا نودّ تجاوز هذا المطلب دون الإشارة إلى الجهد الكبير الذي قدّمته (نعيمة الزّهري) في هذا الموضوع من خلال كتابها (التّعجّب في اللغة العربيّة من الفكر اللغوي العربي القديم إلى النحّو الوظيفي)، حيث انبرت فيه لمقاربة التّعجّب من منظور نظريّة النّحو الوظيفي مستهديةً بما جاء في الفكر اللغوي العربي القديم، لذا سيستوقفنا هذا الكتاب للاقتداح منه في بيان بعض المسائل المهمّة.

إنّ التعّجّبَ سمةٌ وجهيّة ذاتيّة انفعاليّة، قد يكون من حيث القيمة محايدا أو مادحا أو قادحا (الزّهري، 2014/ب، ص204)، ولا يشترط أن ينتهي بنقطة تعجّب التي قد تكون أيضاً في التّراكيب الدّالة على الأمر أو التّمني أو التّحضيض وغيرها، وإنّما يتوسّل إليه بانعكاسات صوريّة صرفيّة وتركيبيّة، منها ما يلي:

1- صيغ التّعجّب: المخصوصة وهي: ما أَفْعَلَ (ما أَحْسَنَ)، أَفْعِلْ بِ (أَحْسِنْ بِهِ)، أَفْعَلَ (أَحْسَنَ)، لَفَعُلَ (لَحَسُنَ)، والملحقة وهي: فَعُلَ (حَسُنَ)، نعم، بئس، حبّذا، لا حبّذا، ساءَ، واهاً (بمعنى أعجب) (الزّهري، 2014/ب، ص50 و69 و71 و83)، وهذه الصّيغ تضطلع بصياغة محمول الجملة.

2- أدوات التّعجّب: وهي: كم الخبريّة، كأيّن (وفيها خمس لغات: كاءٍ، كيء، كأي، كإٍ)، أنّى، أيّ، أيّما، شدّما، عزّما، يالَ (يا لَكَ! يا لَبُرْثُنَ! يا لَلْعَجَبِ! يا لَلْفُلَيْقَةَ! يا لَلْمَاءِ! يا لَلدَّوَاهِي!..) (الزّهري، 2014/ب، ص46 و83)، وهي صرفات تحقّق المخصّصات القضوية التّعجبيّة.

3- عبارات التّعجّب: منها التّعابير المسكوكة مثل: لله درّه (أي لله عمله)، لا درّ درّه، لله أنت، حسبك به، ويحه رجلاً، رُبّه رجلاً، ومنها العبارات القائمة الذّات مثل: سبحان الله من هو وما هو، العظمة لله من ربّ، لله لا يؤخر الأجل، كالليلة قمراً، ما رأيت كاليوم رجلاً، ما رأيت مثله رجلاً، ما في النّاس مثله فارساً، لي مثله عبدا، ما أنت رجلاً، لا كزيدٍ رجلاً، اعجبوا لزيد رجلاً

وإنّك من رجل، حقّاً إنك رجل، تالله رجلاً، تالله لأفعلنّ. (الزّهري، 2014/ب، ص87-89 و100)، وهي تراكيب تعجبيّة في حدّ ذاتها.

وباستثناء هذه التّراكيب الأخيرة؛ فإن التّعجّب ليس بقوّة إنجازيّة ولا يندرج في قائمة الأنماط الجمليّة كالخبر والاستفهام والأمر (الزّهري، 2014/ب، ص184-185)، وإنّما قد تخرج هذه الأنماط لإفادة التّعجّب، مثل: جملة الخبر (ما أكرمه!) أو الاستفهام (أليس رائعاً!) أو الأمر (انظر إلى من هو قادم!).

وبالنّسبة لأحياز التّعجّب؛ فالتّعجّب ينصبّ على المحمول (نعمّ أجر المحسنين!)، وعلى الحدّ (حضرت أمسية شعريّة رائعة!)، وعلى القضيّة (كم عانت زينب من أجل الحفاظ على بيتها!) وعلى النّص، وقد يعبّر عن التّعجّب بالرّتبة فيحتلّ المحمول المتّعجّب منه صدارة الجملة كما في قولنا: (ممتعة هذه المسرحيّة!). (الزّهري، 2014/ب، ص211-214 وص222)، وبغضّ النّظر عما أسلفنا ذكره من وسائل التّعجّب؛ فإنّه يمكن الاستئناس ببعض الوسائل الأخرى لمقاربة متننا والاهتداء إلى معاني التّعجّب فيه، حيث تم تسطيحه بما يلي:

- بواسطة الإشارة: «هؤلاء عتقاء الرّحمن أدخلهم الجنّة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه!» استغراب وتعجّب مادح تحقّق بوسيلة صوريّة هي اسم الإشارة (هؤلاء).

- بواسطة اللبوس المعجمي: تعجّب مادح بلفظ (اللؤلؤ) في جملة «فيخرجون كأنّهم اللؤلؤ!».

- بواسطة اللبوس التّطريزي: يتحقّق التّطريز بتضافر النّبر الذي يسند إلى مكوّن ذي بروز خاص في الجملة (محور جديد، بؤرة جديد، بؤرة مقابلة،...) مع التّنغيم الذي يسند إلى العبارة ككل (الزّهري، 2014/ب، ص222)، ولا شكّ أنّ المتلقّي وهو يتلقّى متن الدّراسة يشعر بالانفعال والدّهشة والحيرة والذّهول والتّعجّب لبعض الوقائع الخفيّة والخارقة للعادة في مشاهد يوم القيامة، وقد تمّ تسطيح تلك السّمة الوجهيّة بتفاعل البنية التّطريزيّة مع الصّرف والتّركيب في كامل النّص.

- بواسطة التّركيب الاستفهامي، مثل: «ما يحبسكم وقد ذهب النّاس؟»، فهذا ليس استفهاماً حرفيا إنّما استفهام ذو استلزام متعدّد، فرغم علم السائل هنا بدواعي حبس عباد الله عن الذّهاب، إلاّ أنّه يريد تقريرهم والتّعجّب المادح من حالهم، فانتقل وجه الاستفهام المستلزم للتّقرير من الطّبقة الإنجازيّة إلى وجه التّعجّب في الطّبقة الوجهيّة.

- بواسطة التّركيب الإخباري، مثل: «وإذا رأوا أنّهم قد نجوا في إخوانهم؛ يقولون...»، في هذه الجملة إخبار مؤكّد عن نجاة المؤمنين من الصّراط والوقوع في النّار، وأيضاً تعجّبهم المادح من كيفيّة نجاتهم التي تمّت بإذن الله، فانتقل وجه الإخبار من الطّبقة الإنجازيّة إلى وجه التّقوية

ووجه التّعجّب في الطبقة الوجهيّة. وهذا تبعاً لمبدأ الانتقال الوجهي؛ حيث يمكن الانتقال من وجه طبقة إلى وجه طبقة أخرى، أو من وجه إلى وجه داخل الطّبقة الواحدة.

يُلحظ من هذا التّحليل تحقّق مبدأ الانعكاس الذي ينّص على أنّه: «كلّما كان الفحوى الدّلالي/التّداولي لعبارة لغويّة ما غنيا كلّما كنّا في حاجة أكثر إلى أدوات تسخّرها اللغة للتّعبير عنه» (الزّهري، 2014/ب، ص206)، وهذا يقابل المبدأ القديم للّغة العربية: (الزّيادة في المبنى زيادة في المعنى)، حيث وجدنا أنّ الوسائل الصّوريّة التي أسعفت في تقويّة التّركيب الإخباري عكست أيضاً تقوية الوجه التّعجّبي، خصوصاً التّعجّب المادح.

ب- الاستغاثة: هي سمة وجهيّة ذاتيّة انفعاليّة تؤدَّى بالّنداء بالأداة (وا)، لطلب الغوث والمساعدة، وفي النّص لا توجد الاستغاثة الحرفيّة، ولكن تلك المستلزمة عن عبارات مثل «نريد أن تسقينا»؛ أي يريدون الغوث بالشّراب لشدّة عطشهم؛ بسبب الحرّ والقيظ يوم الحساب، «ونحن أحوج منّا إليه اليوم»؛ يقصدون أنّهم اليوم هم في أمسّ الحاجة لربّهم ليغيثهم وينقذهم من هول الموقف.

وتمّ تسطيح السّمات الوجهيّة الذّاتيّة سواء المعرفيّة (التّقوية) أم الإراديّة (الدّعاء) أم الانفعاليّة (التّعجّب، الاستغاثة) بالإوّاليّات الصّرفيّة-التّركيبيّة والمعجميّة السّالفة الذّكر، بالإضافة إلى وسائل تطريزيّة وعلى رأسها التّنغيم.

2-3-2- السّمات الوجهيّة المرجعيّة: حيث تحدّد هذه السّمات المرجع الذي يستند إليه المتكلّم في اتّخاذ موقفه من صدق القضيّة؛ قد يكون هذا المرجع مرتبطا بتجربته الشّخصيّة، أو نابعا من حجج معيّنة، أو مستقى من آراء غيره عن صدق القضيّة (الزّهري، 2014/ب ص181)؛ لذلك تسمّى بالسّمات العلميّة؛ لأنّها تستند على أسانيد علميّة سواءً تجريبيّة أم سماعيّة أم استدلاليّة.

ونحن نستبعد أن يستعين الرّسول ﷺ بآراء غيره لصدق قضيّته؛ لأنّ كلامه وحي يوحى، وإذا كان اللفظ في الحديث القدسيّ من عنده فإنّ المعنى من عند الله ﷻ؛ لذلك نجد تدخّله في النص بما يرتبط بتجربته الشّخصيّة، وبما يتناصّ مع وحي القرآن الكريم، فتكون السّمات العلميّة كما يلي:

2-3-2-1- السّمات الوجهيّة المرجعيّة التّجريبيّة: يُدخِل الرّسول ﷺ تجربته الشّخصيّة في معرفة شكل الحبّة وهي تنبت في حميل السّيل؛ حيث تكون في جوانب الصّخور، فالجزء الذي يظهر منها إلى الشّمس يصير لونه أخضر، أمّا الذي يكون في ظلّ الصّخرة فيبقى لونه أبيض لعدم تعرّضه إلى حرارة الشّمس وضوئها فلا يكتمل نسغها، وهذا الأمر طبعاً يعود إلى تجربة الرّسول ﷺ مع أحوال الطّبيعة، وهو الذي كان يرعى الغنم في جبال وأودية البوادي، ويختلي بنفسه فيها فيتأمّل في الطّبيعة ويتدبّر في خالقها.

2-3-2-2- السّمات الوجهيّة المرجعيّة الاستدلاليّة: تتجلّى هذه السّمات في ظاهرة التّناص؛ وهذا المصطلح هو من مفرزات نظريّة التّلقّي في نقد ما بعد الحداثة؛ ويعني وجود قرابة بين النّص المقروء ونصوص أخرى سبقته لكنّها حاضرة فيه كبؤر؛ لأنّه أعاد استخدامها تلقائياً وهذا ما يجعل أي نص أدبي بحاجة إلى تفكيك، وقاعدته أنّ أيَّ نصٍّ لا يمكن فهمه دون الرّجوع إلى عشرات النّصوص التي سبقته؛ إذْ ليس للنّص أصل واحد بل مجموعة من الأصول، وقد قال الإمام علي كرّم الله وجهه حول ذلك "لولا أنّ الكلام يعاد لنفد".

يتناصّ المتن الذي بين أيدينا مع بعض الآيات القرآنيّة، من خلال البؤر الآتية:

– البؤرة1: يُنادَى النّاس يوم القيامة إلى اتّباع ما كانوا يعبدون في الدّنيا، فيذهب الكفرة مجموعاتٍ بحسب إلههم المعبود الذي يدخل النّار فيدخلون معه، ثم يُسْأل أهل الكتاب عمّا كانوا يعبدون، فيجيبون: عزير ابن الله عند اليهود، والمسيح ابن الله عند النّصارى، فيُجابون بأن كذبوا لم يكن لله صاحبة ولا ولد، وهذا يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾ الجنّ3؛ أي تنزّه جلاله وعظمته عمّا نسب إليه من اتّخاذ زوجة أو ولد، ثمّ يطلبون السّقيا فيسقطهم الله في جهنّم.

– البؤرة2: الأحداث السّابقة الذّكر تؤكّد أنّ الكفار مهما كانت ملّتهم يدخلون النّار دون أن يروا ربّهم؛ فجزاء عدم عبادتهم الله وحده في الدّنيا أن يُحجبوا عن رؤيته في الآخرة، وهذا يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿كَلَّا إنّهم عَنْ رَبِّهم يَوْمئذٍ لَمَحْجُوبون﴾ المطفّفين15.

– البؤرة3: يبقى عُبَّاد الله الذين يعرفونه بآية هي السّاق، حيث يكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً يحاول أن يسجد فيرجع ظهره طبقاً واحداً، وهذا يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشفُ عَنْ سَاقٍ ويُدْعَونَ إلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ القلم42.

ونتساءل في المقابل؛ متى كان بين الله ﷻ وبين عباده آية يعرفونه بها وهي السّاق؟ قد يُحيلنا هذا السّؤال إلى مضمون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف172، وكأنّ دليل السّاق يرتبط بموقف إخراج ذريّة آدم من صلبه حين كان في الجنّة وإشهادهم على أنفسهم بأنّ الله هو ربّهم، فعرفوا واعتقدوا بصفات ربّهم الذي ليس كمثله شيء وبعدما نسوا ذلك في الدّنيا؛ ذكّرهم بها في موقف الكشف عن السّاق في الآخرة.

– البؤرة4: يأمر الجبّار النّاجين من الصّراط أن يُخرجوا من النّار من وجدوا في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم مثقال نصف دينار من إيمان، ثم مثقال ذرّة من إيمان، وقد استخدم النّص هذه

الأوزان قياساً بالمحسوس؛ من أجل إدراك ما يقابلها من المفهوم، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ النساء40.

يعني أنّ العبد يُخْرَجُ من النّار بالإيمان القائم في قلبه، وهو يزداد وينقص بقدر ذكر الله وعبادته؛ لذلك نقرأ في القرآن عبارات زيادة الإيمان في غير موضع، مثل: الآية 173 من سورة آل عمران، والآية 02 من سورة الأنفال، والآية 124 من سورة التّوبة، والآية 22 من سورة الأحزاب والآية 04 من سورة الفتح، والآية 31 من سورة المدثّر.

تَحدَّد لنا –في نهاية تحليل الطبقة الوجهيّة– أنّ الحديث القدسيّ من الخطابات الذّاتيّة الدّينيّة؛ لذلك تَأَتَّى معه غلبة السّمات الذّاتيّة فيه على السّمات المرجعيّة، وحضور التّقوية والتّعجّب حضوراً زاخراً استحوذ على المجال الوجهي للخطاب برمّته، باعتبارهما من الاستراتيجيّات الخطابيّة الحجاجيّة الهامّة، وتمّ تسطيحها بتضافر صرفي–تركيبي ومعجمي ولبوس تطريزي تمثّل في التّنغيم المتصاعد والتّنغيم المتنازل.

2-4- طبقة الوظائف التّداوليّة: يراد بها الوظائف التي يرتبط إسنادها بكمّ ونوعيّة المعلومات التي يعتقد المتكلّم أنّها متوافرة في مخزون المخاطب إبّان عمليّة التّخاطب. (الزّهري 2014/أ، ص49)؛ أي تجسّد هذه الوظائف علاقة التّخابر القائمة بين المتكلّم والمخاطب، وتنقسم إلى داخليّة وخارجيّة.

2-4-1- الوظائف التّداوليّة الدّاخليّة: تتشكّل الوظائف التّداوليّة الدّاخليّة من المحور والبؤرة، وتخضع المكوّنات التي تحملها إلى مبدأ الإبراز التّداولي.

ويعني مبدأ الإبراز التّداولي أنّ المكوّنات الحاملة لوظائف تداوليّة (محور جديد، محور معطى، بؤرة جديد، بؤرة مقابلة) تنزع إلى أن تحتلّ مواقع خاصّة، من بينها على الأقلّ الموقع الصّدر في الجملة (الزّهري، 2014/ب، 230)، ونوضح وظيفتي المحور والبؤرة وفروعهما على النّحو الآتي بيانه:

2-4-1-1- المحور: المحور هو الذّات التي تشكّل موضوع حمولة خطاب ما. (الزّهري 2014/أ، ص122)، ويتنوّع بحسب أهميّة ودرجة تردّده في النّص إلى أنواع: (رئيسي، ثانوي جديد، معطى، معاد، مستمّر، منقطع، عابر).

وقفنا في النّص على محاور متعدّدة، تشكّلت في سلسلات محوريّة أساسها محور جديد يصبح محوراً معطى يُرجع إليه بمحور معاد أو فرعي أو بهما معاً، وانتظمت بينها علاقة سلّميّة بالنّظر إلى درجة مركزيّتها بالنّسبة للنّص، كما يلي:

أ- **المحور الرّئيسي:** المحور الرّئيسي هو المحور المعطى الذي يستقطب أطول سلسلة محوريّة في خطاب ما (المتوكّل، 2001، ص116)، وينطبق هذا الوصف على المحور: الخالق ﷻ، حيث عُدّ محوراً رئيسياً ومركزياً؛ لأنّ مدار الحديث كله حول رؤية ذات الله ﷻ، والمعلومات المفرزة بالنّسبة إليه في النّص تشكّل الغالبيّة.

وقد أُعتبر في البداية محوراً جديداً لمّا أُدرج لأول مرّة في الخطاب، حيث تحقّق بواسطة لاصقة التّنكير مقرونة بالنّبر: «فإنّكم لا تُضارُّون في رؤية ربّكم»، ثمّ انتقل إلى وضع محور معطى حين مكث محطا لمعلومات الخطاب تحقق لاصقة التعريف وانعدام النبر، ثم استمر وروده عبر جزء كبير من النّص إلى النّهاية فنسمّيه عندئذ محوراً معطى مستمرّاً، حيث عُقدت حوله أطول سلسلة محوريّة، شكّلت حلقاتها مختلف الإحالات المتكرّرة إليه، وينعت المحور حسب نوع الرّجوع إليه كما يلي:

- محور معاد: بواسطة الإحالات التّامّة مثل: «يعبد الله»، «فيأتيهم الجبّار»، «هؤلاء عتقاء الرّحمن».

- محور فرعي: بواسطة الإحالات الجزئيّة كالضّمائر والأوصاف والمتعلّقات والتّوابع التي تشير إليه مثل: «ننتظر ربّنا»، «أنا ربّكم»، «لا يكلّمه إلاّ الأنبياء»، «هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟»، «فيُكشف عن ساقه»، «فيسجد له»، «فيقبض قبضته».

ب- المحاور الثّانويّة: المحاور الثّانويّة استأثرت بكمّ ضئيل من معلومات الخطاب مقارنة بالمحور الرّئيسي، وهي كثيرة في النّص يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1- المحاور المعطاة المستمرّة: حيث استمرّت عبر جزء كبير من النّص، فغطّت معظم أجزائه بسلسلة محوريّة تحيل حلقاتها إليها بإحالات تامّة وجزئيّة، وهي: (عُبّاد الله من برّ أو فاجر النّار، الأنبياء).

2- المحاور المعطاة المنقطعة: هي التي تكرّر ورودها والإحالة إليها في جزء من النّص لكن انقطعت سلسلتها المحوريّة، مثل: (اليهود والنّصارى، الجسر، العِباد الممتحشون، الجنّة).

3- المحاور الجديدة العابرة: هي محاور غير معطاة تظهر في موقف واحد وتغادر، فلا تمكث طويلاً في النّص، مثل (العباد الكفرة) ظهروا كمحور ثانوي جديد عابر في العبارة «فيذهب أصحاب الصّليب...مع آلهتهم»، (الملائكة) في العبارة: «فيشفع النبيّون والملائكة»، (ماء الحياة) في العبارة: «نهر بأفواه الجنّة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافّتيه».

نلاحظ أنّه تمّ تسطيح المحاور الجديدة بواسطة النّبر والتّنكير وأحيانا بالتّعريف، والمحاور المعطاة بواسطة التّعريف وانعدام النّبر.

2-4-1-2- البؤرة: البؤرة هي وظيفة تداوليّة «تُسند إلى المكوّن الذي يحمل المعلومة الأهمّ والأبرز في موقف تواصلي معيّن، والتي يعتقد المتكلّم أنّها أحرى بأن تدرج في مخزون معلومات المخاطب» (ديك 1997/أ، ص326)، ويتّم تسطيح البؤرة بنوياً بواسطة وسائل صرفيّة ووسيلة تركيبيّة هي الرّتبة وتعني احتلال الموقع الصّدر في الجملة، وبواسطة وسيلة تطريزية هي النّبر.

وتتفرع البؤرة بحسب أهميّة ودرجة تداولها للمعلومة بين المتخاطبين في النّص إلى بؤرة جديد وبؤرة مقابلة. (المتوكّل، 2003، ص115)، حيث جاءت في النّص، كما يلي:

أ- بؤرة جديد: تُسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يمتلكها المتكلّم ويجهلها المخاطب وهي نوعان: بؤرة طلب بؤرة تتميم. (المتوكّل، 2010، ص ص126-127)، وقد ظهرت البؤرة جديد في معظم النّص وتركّزت في الدّفوع الابتدائيّة من الأجزاء الوصفيّة والسّرديّة.

وظهرت البؤرة جديد في الحمول الآتية: «ينادي مناد: ليذهب كلّ قوم إلى ما كانوا يعبدون» «ثمّ يؤتى بجهنّم تعرض كأنّها سراب»، «فيتساقطون في جهنّم»، «فيأتيهم الجبّار في صورة غير صورته»، «فيسجد له كل مؤمن»، «ثمّ يؤتى بالجسر»، «فيخرجون من عرفوا ثمّ يعودون» «فيشفع النّبيّون والملائكة والمؤمنون»، «فيقبض قبضته من النّار»، «فيخرجون كأنّهم اللؤلؤ»، وتمّ تسطيحها بواسطة النّبر الضّعيف.

ب- بؤرة المقابلة: تُسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يختلف فيها المتكلّم مع المخاطب ويتنازعان في ورودها، وهي خمسة أنواع: بؤرة الإبطال، بؤرة التّعويض، بؤرة الحصر بؤرة التّوسيع، بؤرة الانتقاء (المتوكّل، 2010، ص ص126-127)، وتحتلّ المكوّنات المُبأرة تبئير المقابلة المواقع الصّدور إلاّ إذا زاد عددها عن الطّاقة الإيوائيّة للحيّز الصّدر؛ فيُزحلق آنذاك بعضها إلى الحيّز العجز.

وقد توسّع حيّز بؤرة المقابلة على حساب بؤرة الجديد في خطاب الحديث القدسيّ؛ لأنّه خطاب حجاجي بالدّرجة الأولى، وتركّزت في الأجزاء الحجاجيّة منه، في الدّفوع الابتدائيّة والدّفوع الإبطاليّة، وتمّ تسطيحها بالنّبر القويّ وأدوات النّفي والحصر للدّفاع عن اقتناعات، كما في الشّواهد الآتية:

- «قلنا: لا»، حيث أجاب الصّحابة في هذه الجملة اختصاراً لينفوا إمكانيّة مضرّتهم في رؤية الشّمس والقمر إذا كانت السّماء صحواً، فتوسّل إلى ذلك بأداة النّفي (لا) ومدخولها محذوف وهذا يشكّل بؤرة مقابلة تضمّ بؤرة إبطال فقط.

– «كذبتم؛ لم يكن لله صاحبة ولا ولد»، يرد الله ﷻ على افتراءات اليهود والنّصارى، وينفي ما نسبوه إليه من الولد، وهي بؤرة مقابلة بدأت ببؤرة تعويض (كذبتم)، ثم أُكملت ببؤرة إبطال (لم يكن لله صاحبة ولا ولد)، حيث توسّل الإبطال بأداتي النّفي (لم) و(لا).

– «فلا يكلّمه إلاّ الأنبياء»، وهي بؤرة مقابلة تضمّ بؤرة حصر فقط، حيث تأتي بؤرة الحصر في السّياق الذي يكون فيه مخزون المخاطب متضمّنا لمعلومة واردة في ذهنه ومعلومة يعدّها المتكلّم غير واردة أو تبدو أنّها جزء من المعلومة الأولى، وفي مثالنا يجد المخاطَب في ذهنه أنّ الله ﷻ في موقف الصّراط لا يكلّمه النّاس، لكن لا يردّ في ذهنه أنّ الأنبياء وحدهم يكلّمون الله ههنا، وقد تمّ تسطيحها بأسلوب الحصر الذي بدأ بالنّفي بالأداة (لا) وتخلّله الاستثناء بالأداة (إلّا).

– «يسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً»، «يذهب أصحاب الصّليب... مع آلهتهم ويبقى من كان يعبد الله»، يتضمّن كلّ مثال بؤرة مقابلة بدأت ببؤرة تعويض (يسجد، يذهب) ثم أكملت ببؤرة إبطال التي تحقّقت سطحيا بالفعل (يبقى).

يمكننا الآن أن ندفع بالنّتيجة الآتية: إذا كان الأصل أنّ موقع بؤرة الجديد في الدّفوع الابتدائيّة، ومكان بؤرة المقابلة في الدّفوع الإبطاليّة؛ فإن بؤرة المقابلة في الحديث القدسيّ توطّنت في الدّفوع كلّها ابتدائيّة وإبطاليّة، ويُفسّر ذلك بمبدأ الإبراز التّداولي الذي يحكم ترتيب المكوّنات في اللغات الطبيعيّة. وإذا كان منطق الحجاج يقتضي إبطال الدّعوى المنافسة أولاً ثم تعويضها ببناء دعوى مدافعة في المرحلة الثّانية؛ فإن شواهدنا فاجأتنا بالانزياح عن هذا التّرتيب السّائد، حيث بدأت فيها بؤرة المقابلة ببؤرة تعويض ثمّ أردفتها ببؤرة إبطال، وتمّ تسطيح هذه البؤر بوسيلة النّبر وقد جاء النّبر المرافق لبؤرة مقابلة أقوى من النّبر الملازم لبؤرة جديد.

2-4-2- الوظائف التّداوليّة الخارجيّة: تتشكّل الوظائف التّداوليّة الخارجيّة من المبتدأ والمنادى والذّيل، لكن يستعصي علينا تناولها؛ لأنّ هذه الوظائف ترتبط عادة بالجملة، أمّا نحن الآن فبصدد تحليل نص في ضوء نحو الطّبقات القالبي.

وقد تبيّن في نهاية هذا المستوى أنّ الحديث القدسيّ حافل بغنى علاقي في ثلاث طبقات متعاقبة (استرعائيّة، إنجازيّة، وجهيّة)، ورائز ذلك هو طبيعة مستواه الإبلاغي الذي استبطن سمات خطابيّة مكثّفة، في أسلوب الخطاب ونمطه؛ لأنّه خطاب ذاتي ديني متعدّد الآليّة الخطابيّة (سردي، وصفي، حجاجي).

3- المستوى التّمثيلي: يَأوي هذا المستوى الوجه الموضوعي (أو الحملي) الذي يرتبط بالواقعة ذاتها، ويعدُّ سمة وجهيّة تطبع جميع الوسائل اللغويّة التي يقوِّمُ المتكلّم بواسطتها الواقعة من حيث حظوظ تحقّقها. (الزّهري، 2014/أ، ص71)، وسُمّي هذا المستوى أيضاً بالمستوى

الدّلالي، حيث يتضمّن الأدوات التي يستعملها المتكلّم لتقويم تحقّق الواقعة من عدّة جوانب مثل: الإمكانيّة، الاحتمال، الوجوب، المنع، التيّقن والتّأكّد، وغيرها.

ويتناول نحو الطّبقات القالبي في مستواه التّمثيلي الدلّالي الوقائع والذّوات المحال إليها في ثلاث طبقات: تأطيريّة وتسويريّة ووصفيّة (المتوكّل، 2003، ص232)؛ حيث تأوي الطبقة التّأطيريّة تحديد الإطار الزّماني والمكاني لها، وتؤشّر الطّبقة التّسويريّة لكمّ وحجم وعدد الوقائع والذّوات، وتكفل الطبقة الوصفيّة وصف كيفيات تحقيقها. وسنُشارف هنا المستوى التّمثيلي في الحديث القدسيّ من خلال طبقاته الأربع: التّأطيريّة، التّسويريّة، الوصفيّة، المحموليّة، وانعكاسه سطحيا في البنية المكوّنيّة.

3-1- الطّبقة التّأطيريّة: الطّبقة التّأطيريّة تابعة للمركز الإشاري، وتكفل تحديد الإطار الزّماني والمكاني الذي تتحقّق فيه الوقائع المسرودة والذّوات المحال عليها. (الزّهري، 2014/أ ص128)، وأُطِّرَ الحديث القدسيّ وفق هذه الطبقة كما يلي:

3-1-1- الإطار الزّماني: يجعل (المتوكّل) هذا الإطار الزّماني بين الماضي والحاضر فقط، دون الأمر الذي يراه ليس من الزّمان بل هو من الأفعال الإنجازيّة، ويتحدّد هذا الإطار بمقارنة زمن الوقائع مع زمن التّخاطب، والوقائع المذكورة في النّص كلّها ستكون في المستقبل حيث يحدّثنا الرّسول ﷺ عمّا سيقع يقينا عند قيامة السّاعة التي ينحصر علم تاريخها عند ربّي ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الزّخرف85، وكانت القيم الزّمنيّة لمحمولات النّص كما يلي:

3-1-1-1- زمن المضيّ: احتفظ (المتوكّل) بمصطلح (المُضيّ) للدّلالة على المخصّص الزّمني، وحرّر مصطلح (الماضي) للصّيغة الصّرفيّة التي تُقابل المضارع، فيكون لديه ثلاث مقولات دلاليّة زمنيّة: (مُضي، حال، استقبال)، وصيغتان صرفيتان: (ماضي، مضارع)، مع عدم ضرورة التّطابق بين الصيغتين والمقولات الثّلاث (2012، ص48)، ويمكن التّفصيل في زمن المضيّ في الأنواع الآتية: الحقيقي (القريب، البعيد)، المضيّ الذي يراد به الاستقبال، المُضيّ الذي يراد به اللاّزمن.

أ- **المضيّ الحقيقي:** هو زمن المضيّ الفعليّ الذي ليس له دلالة مستقبليّة أو تأويل اللاّزمن، ويكون إمّا في المضيّ القريب أو المضيّ البعيد.

1- المضيّ الحقيقي القريب: هو المضيّ الذي يحصرنا فقط في إطار ذلك اليوم الموعود يوم القيامة؛ أي يحيلنا إلى وقائع حدثت في زمن قريب من زمن تكلّم ذواتها في مشاهد الآخرة، وقد تركّز في القطع الحجاجيّة الحواريّة، مثل:

– «كذبتم»؛ يكذّب الله ﷻ في الآخرة افتراء اليهود والنّصارى بوجود ولد لله، حيث جاء هذا المحمول تباعاً لجوابهم عن سؤاله لهم ماذا كانوا يعبدون، في قطعة حواريّة يظهر فيها أنّ كلا من السّؤال والجواب والتّعقيب في وقت متقارب.

– «فارقناهم...وإنّا سمعْنا منادياً»، يدلّ المحمول الأوّل على واقعة مفارقة عُبّاد الله ﷻ للكفرة الذين دخلوا النّار منذ قليل؛ بسبب عدم عبادتهم الله وحده، والثّاني يدلّ على واقعة سماعهم نداء منادٍ منذ قليل بأن يلحقوا بما كانوا يعبدون، فجاء زمن المحمولين في هذا الحوار في المضيّ القريب.

ووُجدت أيضاً القيمة الزّمنية للمُضيّ القريب في القطع الوصفيّة مثل:

– «فيأتيهم الجبّار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أوّل مرّة»؛ أي أنّ الجبّار يأتي عُبّاده الذين ينتظرونه في صورة ثانية لا تشبه الصّورة الأولى التي رأوه فيها منذ وقت قريب، طبعاً في المجال الزمني الذي يخص الآخرة، ونستفيد من هذه الجملة أنّهم رأوه في صورة سابقة فأنكروها ولم يتّبعوه، حتى ظهر لهم في صورة تليق بصفات الله ﷻ التي لا تنبغي لغيره، فحينئذ يتّبعونه.

– «هؤلاء عتقاء الرّحمن أدخلهم الجنّة»، هم الّذين أخرجهم الله ﷻ من النّار بعدما امتحشوا ثم أدخلهم الجنّة برحمته، وبمجرّد دخولهم الجنّة يشير إليهم أهل الجنّة ويصفونهم بأنّهم عتقاء الرّحمن، فدلّ المحمول فعلي (أدخلهم) على الزّمن المضيّ القريب.

2– المضيّ الحقيقي البعيد: هو المضيّ الذي يحيلنا إلى وقائع حدثت في الدّنيا وليس في الآخرة؛ أي في زمن بعيد من زمن تكلّم ذواتها بها في الآخرة، وقد تركّز في القطع السّرديّة التي تروي قصة عبادة النّاس في الدّنيا، ومحمولاتها اقترنت كلّها بالفعل المساعد (كان) مثل: «...كلّ قوم إلى ما كانوا يعبدون»، «مَن كان يعبد الله»، «ما كنتم تعبدون؟»، «كنّا نعبد»، «من كان يسجد»، «كانوا يُصلّون معنا»، «بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه».

ب– المُضِيُّ المُرَادُ به المستقبل: ونجد فيه بنية المحمولات في صيغة الماضي لكن للدّلالة على المستقبل، وهي قليلة في النّص مثل: «إذا رأوا أنّهم قد نجوا»، «فمن وجدتم في قلبه» «فيُخرجون من عرفوا»، حيث يمكننا تقدير أصل المحمولات الموظفة في هذه القطعة الحجاجيّة الحواريّة كما يلي: (هؤلاء المؤمنين إنْ يروا –في المستقبل– نجاتهم، يطلبون الشّفاعة لإخوانهم فيأذن لهم الله ﷻ بإخراج من سَيَجِدون –في المستقبل– في قلبه إيماناً، فيُخرجون منهم مَن سيعرفوهم –في المستقبل– بصفة الإيمان المذكورة التي سيظهرها الله ﷻ لهم في ثلاثة أوزان)، كما نجد في العبارة: «بقيت شفاعتي»؛ بنية المحمول الفعلي في صيغة الماضي لكن قيمته الزّمنيّة تمتدّ إلى المستقبل؛ لأنّ هذه الشّفاعة العظيمة ستكون بعد القضاء في الآخرة بإذن الرّحمن.

ج- المُضِيُّ المُرَادُ به اللاّزمن: هو الماضي في صيغته لكن لا يدّل في قيمته لا على المضي ولا على الحاضر ولا على الاستقبال، بل يدل على حقائق ثابتة لا تتغيّر مهما كان الزّمن وتَركّز في القطع الوصفيّة، مثل حقيقة لون الحبّة النّابتة في حميل السّيل في جملة: «فما كان إلى الشّمس منها كان أخضر وما كان منها إلى الظّل كان أبيض»، وحقيقة انعدام الصّاحبة والولد لله الواحد الأحد الفرد الصّمد في جملة: «لم يكن لله صاحبة ولا ولد»، وإن بدا أنّ الفعل في المضارع إلاّ أنّ اقترانه بالنّافية (لم) جعل بنية المحمول في المُضيّ، مثل حالة اقترانه بالفعل المساعد (كان) في الجملة: «كان يعبد».

3-1-1-2- زمن الاستقبال: وقد سيطر زمن الاستقبال على النّص، من خلال توظيف المحمولات التي تروي الأحداث وتسرد الوقائع التي ستحدث في المستقبل بصيغة المضارع المبني للمعلوم مثل: (لا تُضارّون، ينادي، فيذهب، حتّى يبقى، نريد أن تسقينا، فيتساقطون، وإنّما ننتظر فيأتيهم، فلا يكلّمه، تعرفونه، فيسجد، فيعود، حتى يمرّ، فيقول، فيَشفع، فيَقبض، فيُخرِج، فيَنبتون فيَدخلون)، كما تحقّق بمحمولات صيغتها مضارعة مبنية للمجهول مثل: (يُؤتى، تُعرض، يُقال يُكشف، يُسحبُ، يُلقَون، يُجعل).

3-1-1-3- الزّمن الرّجعي: تخلّل النّص الزّمن الرّجعي، وهو حالة توقّف زمن السّرد ليرجع إلى الخلف؛ من أجل وصف أو تعليق مثل: (قد رأيتموها، قد امتحشوا، قد غاب، قد نجوا في إخوانهم، وقد ذهب النّاس)، وتُوُسِّل إليه بالأداة (قد)، حيث نلحظ أنّ السّلسلة السّردية الحدثيّة تتوقف لتعود بالزّمن إلى الوراء في الزّمن الماضي؛ من أجل وصف ذوات معيّنة.

ويُرَدُّ هذا التوزّع في أزمنة الطّبقة التّأطيريّة إلى حالات الانتقال الكثيرة من حدث إلى آخر وتعدّد الآليّات الخطابيّة للحديث القدسيّ كالسّرد والوصف والحجاج والحوار والتّعليق.

3-1-2- الإطار المكاني: هو مجموع الأماكن التي تتحقّق فيها الوقائع والذّوات المحال إليها، والمخصّصات الدّالة على الإطار المكاني في النّص تتعلّق بالآخرة وما فيها من أماكن غيبيّة لا ندرك كنهها إلاّ بما وصفها لنا القرآن والحديث، مثل: (النّار، الجنّة، الجسر، نهر ماء الحياة).

ويعني لفظ (النّار) المكان الذي خلقه الله ﷻ عقاباً للنّاس الذين كفروا به وأشركوا به وعصوه وتسمّى أيضاً جهنّم، أمّا (الجنّة) فهي مكان خلقه الله ﷻ رحمة بعباده المؤمنين الطّائعين له و(الجسر) هو طريقٌ بين طرفي جهنّم يمرّ عليه النّاس، عليه حدائد وأشواك تخطف النّاس بحسب أعمالهم، أمّا (نهر ماء الحياة) فهو نهرٌ يقع بأفواه الجنّة، يُلقي الله تعالى فيه المحترقين بالنّار فتنمو أبدانهم من جديد.

تميّزت الطّبقة التّأطيريّة في الحديث القدسيّ بغلبة الزّمان المستقبلي في الخطاب على حساب الأزمنة الأخرى، وتضمّنه أمكنة فوق العادة، ليست من معهود الإنسان في دنياه وتتجاوز قدرة تصوّره المحدودة.

3-2- الطّبقة التّسويريّة: تستبطن السّمات الجهيّة الكميّة التي تُناط بمهمّة تكميم الواقعة باعتبارها كُلّاً غير مجزّء من قبيل: اعتيادي، مسترسل، آني، مستغرق، سريع، متكرّر... وتلك التي تتولّى تحديد حجم أو عدد الذّوات المحال عليها كالأسوار والأعداد. (الزّهري، 2014/أ، ص53) وتقوم بذلك الطّبقة التّسويريّة بتكميم الواقعة والذّوات المحال إليها بإعطائها كمًّا معيناً؛ لذلك تستأثر بمخصّصات تؤشّر لسمات تتعلق بجهة الواقعة وذواتها من ناحية كميّة، فتقسّم هذه السّمات إلى قسمين: السّمات التّسويريّة الكميّة الجهيّة، والسّمات التّسويريّة الكميّة للذّوات.

3-2-1- السّمات التّسويريّة الكميّة الجهيّة: هي الخصائص التي تكمّم جهة الواقعة باعتبارها كلاًّ غير مجزّأ، فتجعل لها مؤشّراً كمّيا أو حجميا أو عدديا،..الخ، وهي من قبيل القيم التّكميميّة الآتية: الغالبيّة أو النّدرة، الكثرة أو القلّة، السّرعة أو البطء، الطّول أو القصر، الانقطاع أو الاستمرار، التّكرار، الآنيّة، الاعتياد، الدّيمومة، الثّبات،...الخ

أ- قيمة الكثرة: ونرصد هذه القيمة في العبارات الآتية:

- «فيتساقطون في جهنّم»، تمّ تأدية هذه القيمة بالمحمول (يتساقطون) الذي على وزن (تَفَاعَلَ)، فكانت فيه قيمة الكثرة وشدّة التّدافع والسّقوط أكثر من لو أنّه وُظِّف المحمول (يسقطون).

- «كانوا يُصلّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا»، المحمولات: (كانوا يُصلّون يصومون، يعملون) جاءت مقترنة بواو جماعة الغائبين و(نا) لجماعة المتكلّمين في (معنا) للدّلالة على قيمة كثرة أعمالهم في الدّنيا، لكنّها لم تجدهم لقلّة صدقها في الحقيقة؛ يعني أنّ مجرد إتيان الفرائض كالصّلاة والصّوم والحجّ غير كاف للنّجاة من الصّراط، وإنّما ينبغي اجتناب معصية الله ﷻ والاستغفار من الذّنوب.

- «فيُخرجون من عرفوا»، هنا قيمة كثرة واقعة الإخراج لتدرّجها عبر ثلاث مراحل بحسب المثاقيل الثّلاثة، ولسهولة توفّر شرط الإخراج فيمن عرفوا، وهو وجود أقل درجات الإيمان الذي يوافق مثقال الذرّة.

- «فيشفع النبيّون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبّار: بقيت شفاعتي»، كثرة واقعة الشّفاعة لكثرة الذّوات المرتبطة بها (النبيّون، الملائكة، المؤمنون)، ورغم ذلك تبقى أعظم شفاعة هي شفاعة الرّحمن الذي وسعت رحمته كلّ شيء واختصّ بها وحده، وأنزل جزءاً منها إلى الدّنيا وترك تسعة وتسعين (99) جزءاً منها إلى هذا اليوم.

ب- قيمة القلّة: في العبارة: «لا يكلّمه إلاّ الأنبياء»، بالحصر تمّ تأدية سمة القلّة لواقعة الكلام مع الله ﷻ في موقف الصّراط كنتيجة لقلّة الذّوات المرتبطة بها وهي الأنبياء فقط.

ج- قيمة السّرعة: نرصدها في العبارتين الآتيتين:

- «المؤمن عليها كالطّرف وكالبرق وكالرّيح وكأجاويد الخيل والرّكاب»، تمّ تأدية القيمة سريع لواقعة مرور المؤمنين على الصّراط، بوسيلة تركيبيّة بلاغيّة هي التّشبيه، فلكل مؤمن سرعته الخاصّة التي قد تتوافق مع سرعة حركة طرف العين أو البرق أو الرّيح أو جري جياد الخيل والإبل، أو حتّى الحبو والسّحب، وهذا بحسب أعماله في الدّنيا طبعاً، وتمّ التّعبير عن جماعة المؤمنين بلفظ المفرد (المؤمن).

- «فينبتون في حافّتيه كما تنبت الحِبّة في حَميل السّيل»، تمّ تأدية السّمة سريع لواقعة تجدّد أبدان المحترقين بالنّار، بصغة المضارع ووسيلة تركيبيّة بلاغيّة هي تشبيهها بإنبات الحبّة في ما يحمله السّيل، من حيث السّرعة والنّضارة.

د- قيمة الاستمرار: وجدناها في العبارتين الآتيتين:

- «وإنّما ننتظر ربّنا»، تمّ تأدية القيمة مستمر لواقعة انتظار عُبّاد الله ﷻ حتّى يظهر لهم ربّهم، رغم أنّ أغلب النّاس قد مضوا باتّباع كلٍّ منهم إلهه، وبعدما يجيئهم الجبّار في الصّورة التي يعرفونه بها، ينقطع استمرار واقعة الانتظار وتبدأ وقائع أخرى، الوسيلة هنا هي المحمول (ننتظر) بصيغة المضارع.

- «حتّى يمر آخرهم»، تمّ تأدية السّمة مستمر لواقعة المرور على الصّراط بصيغة المضارع وبالحدّ (آخرهم)؛ يعني ليس هناك أحدٌ من النّاس لا يمرّ على الصّراط، بل يستمرّ مرورهم حتّى آخر واحد منهم.

هـ- قيمة الآنيّة: يُقصد بها توالي عدّة أحداث في آن واحد، مثل الشّرط وجوابه، الأمر والتّنفيذ بسرعة في وقت واحد، وكثرت هذه القيمة في القطع السّرديّة والقطع الحواريّة، حيث لعبت الأداة (الفاء) التي تفيد السببيّة والعطف مع الفوريّة دوراً مهما في تحقيق هذه القيمة، وهي في الجمل الآتية:

- «لِيَذهبْ... فيذهبُ»: الوسيلة صيغة المضارع مشفوعا بالفاء بعد فعل الأمر (ليذهبْ) لتحقيق القيمة آني لواقعة ذهاب النّاس بمجرد أمرهم بالذّهاب؛ من أجل التّنفيذ بسرعة وفي الزّمن نفسه.

– «وإذا رأوا أنّهم قد نجوا في إخوانهم يقولون: ربّنا إخواننا..»، تمّ اتّباع وسيلة صيغة الماضي مقترنا بالشّرط لتحقيق السّمة آني لواقعة احتجاجهم لفائدة إخوانهم بدعاء الله ﷻ لهم بمجرّد أن تأكدّوا من نجاتهم.

– «فيقول»، يُلحظ في الأجزاء الحواريّة وجود القيمة آني لواقعة القول التي توسّل إليها بالفعل المضارع (يقول) مع الفاء.

– «فيتساقطون... فيأتيهم الجبّار»، «فيُكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن»، «فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا»، «فيُجعل بين ظهري جهنّم»، «فيأتونهم.. فيُخرجون من عرفوا»، «فيشفع... فيقبض...فيُخرج...فيُلقونَ»، «فيَنبتون...فيَخرجون...فيَدخلون الجنّة»، ويُنتبه هنا أنّ معظم أجزاء النّص كانت سرديّةً وتميّزت وقائعها المسرودة بالسّمة الآنيّة، حيث جاءت محمولات الجمل السّابقة في صيغة المضارع المشفوع بالفاء لتأديّة القيمة آني.

و– قيمة الاعتياد: قيمة الاعتياد تركّزت في النّص على واقعة عبادة النّاس في الدّنيا من حيث حقيقتها وكيفيتها، حيث اختلف النّاس في اعتيادهم على إخلاص عبادتهم وطبيعة معبودهم الوسيلة في ذلك هي المحمولات الفعليّة بصيغة المضارع الدّالة على العبادة ولوازمها كالسّجود والصّلاة والصّيام، في الجمل: «ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فيذهبُ...حتّى يبقى من كان يعبد الله»، «ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد...»، «ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة»، «كانوا يُصلّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا».

3–2–2– السّمات التّسويريّة الكميّة للذّوات: وهي الخصائص التّسويريّة المكمّمة للذّوات المحال إليها، وتتكفّل بتحديد كم وقدر وحجم وعدد الذّوات في النّص، كالأسوار والأعداد، وقد انعكست في البنية السّطحيّة من خلال صرفات بعينها منها:

أ– الأسوار الكليّة: تمّ توظيف صرفات بلفظ الكليّة وما يساوقها للدّلالة على كليّة الذّوات المحال إليها مثل: (كلّ) في «ليذهب كلّ قوم»، «وأصحاب كلّ آلهة مع آلهتهم»، «فيسجد له كلّ مؤمن»، وصرفات دالّة صراحة على الجماعة من الذّوات مثل: (قوم، أصحاب، أهل الكتاب النّاس، إخوان، الأنبياء، النبيّون، الملائكة، المؤمنون، خطاطيف وكلاليب، أجاويد الخيل والرّكاب أقوام، أهل الجنّة، عتقاء الرّحمن).

ب– الأسوار البعضيّة: هي الأسوار التي تؤدّي سمة التّسوير البعضي في الذّوات المحال إليها في النّص، وهي كالآتي:

– «غبّرات من أهل الكتاب»، تمّ تأدية البعضيّة بالحدّ (غبّرات) لمجموعة الذّوات المتبقيّة من أهل الكتاب من اليهود والنّصارى مع من كان يعبد الله من برّ وفاجر.

– «فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النّار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه»، تمّ تأدية البعضيّة بالحدّ السّوري (بعض) لجزء من الذّوات التي غابت في النّار، وبالحدّين (قدمه) و(أنصاف ساقيه) لبيان الجزء الذي تصله النّار فتحرقه من أجسادهم.

ج– الأعداد: وهي قليلة في النّص مقارنة بالنّص محل الدّراسة في الفصل الموالي، وُظّفت لزيادة إقناع المخاطب حسابياً سواء بالأعداد أم بالمقادير، وهي:

– العدد واحد: «أوّل مرّة»، «طبقا واحدا»، استخدم لبيان المعاني الآتية على التّوالي: الصّورة الأولى للمولى ﷻ، تحجر ظهر المرائي فلا يستطيع السّجود.

– مقادير الأوزان: «مثقال دينار»، «مثقال نصف دينار»، «مثقال ذرّة»، وظّفت لبيان فائدة الإيمان وقيمة درجاته التي يعتمد عليها النّاجون من الصّراط لإخراج إخوانهم المكدوسين في النّار وكذلك لبيان الحكمة من التّدرج في كل شيء، وأنّ الإيمان يزيد وينقص، وأنّ الله ﷻ لا يظلم أحداً مثقال ذرّة.

3–3– الطّبقة الوصفيّة: هي موطن السّمات الجّهيّة الكيفيّة التي تتولّى وصف الواقعة من داخلها بالنّظر إلى جزئيّات تحقيقها. (الزّهري، 2014/أ، ص129)، وتبرز بمحمولات النّص في نوعين: تامّة وغير تامّة.

3–3–1– السّمات الجّهيّة الكيفيّة التامّة: سميّت هذه السّمات بالتّامة؛ لأنّها مُحقَّقة بمحمولات رواية وقائع السّلسلة السّردية والحَدَثيّة ذاتها، وتركّزت في القطع السّرديّة من النّص.

وتعتبر السّمات الجّهيّة التّامة السّمات المهيمنة في النّص لغلبة السّرد فيه، وقد تُوسِّل لهذه السّمات بالمحمولات الفعليّة السّرديّة في الزّمان الماضي الحقيقي، أو زمان الاستقبال، الماضي الدّال على الاستقبال، باعتبار أنّ جلّ الأحداث المسرودة ستكون في مستقبل الزّمان حين تقوم القيامة؛ ومنها: (ينادي، فيذهب، يبقى، فيتساقطون، فيأتيهم، فيُخرِجون، يعودون، فيَنبتون فيَدخلون)، وقد تحدثنا عنها في الطبقة التّأطيريّة.

وارتبطت جهة وقائع السّلسلة الحدثيّة بذوات عديدة منها: ربُّنا الله ﷻ، اليهود والنّصارى الجنّة، النّار، الجسر، نهر ماء الحياة، النّاجون من الصّراط، عتقاء الرّحمن، أهل الجنّة، الملائكة الأنبياء، المؤمنون، المرائي، عبدة الآلهة غير الله ﷻ.

3–3–2– السّمات الجّهيّة الكيفيّة غير التّامّة: تستبطن المقولة (غير تام) السّمات التي من قبيل: شروع، مقاربة، دخول في واقعة، إنهاء، تدرّج. (الزّهري، 2014/أ، ص129)، وقد أخذت هذه المقولة المحمولات التي تُشكّل خلفيّة السّلسلة السّرديّة فقط وليس السّلسلة السّرديّة في حدّ ذاتها؛ لذلك تُوصف هذه السّمات بأنّها (غير تامّة)، وبذلك وُجدت في النّص في القطع

الحجاجيّة النّازعة إلى الإقناع لحل النّزاعات، كما وُجدت في القطع الوصفيّة النّازعة إلى وصف الذّوات والوقائع، ومن السّمات غير التّامّة التي تميّز النّص ما يلي:

أ- الشّروع: وُصِف الشّروع في الوقائع في القطع الآتية:

- «ينادي منادٍ: ليذهب كلّ قوم إلى ما كانوا يعبدون»، تمّ وصف بداية نداء النّاس لاتّباع ما كانوا يعبدون في الدّنيا، وتُوُسِّل إلى ذلك بمحمولات فعليّة: (ينادي + ليذهبْ + يعبدون).

- «ثمّ يُؤتى بالجسر فيُجعل بين ظهري جهنّم»، وصف شروع عمليّة مرور النّاس على الجسر، بواقعة الإتيان به ووضعه بين طرفي جهنّم، وتُوُسِّل إلى ذلك بمحمولات فعليّة بصيغة المضارع المبني للمجهول: (يُؤتى، يُوضع).

- «فيقول الجبّار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضته..»، وصف الشّروع في واقعة شفاعة المولى ﷻ، وتُوُسِّل إلى ذلك بمحمولات فعليّة: (بقيت، يقبض).

ب- التدرج: هناك ثلاث وقائع بارزة فيها سمة التدرج الجهي، وهي سمة غير تامة لازمت القطع الوصفية التي تشكل خلفية السلسلة السردية في النص، نوضّحها على النحو الآتي:

- تدرّج واقعة دخول النّاس النّار، حيث يدخلها في المرحلة الأولى عبدة الصّليب والأوثان والآلهة، دون أن يروا الله ﷻ ودون أن تُعطى لهم فرصة الحوار معه، وفي المرحلة الثّانية بقايا من أهل الكتاب، وهم اليهود الذين عبدوا النّبيّ عزير عليه السلام، والنّصارى الذين عبدوا النّبيّ عيسى عليه السلام وهذا دون أن يروا الله ﷻ مع وجود فرصة الحوار معه، حيث يقيمون الحجّة على أنفسهم، وفي المرحلة الثّالثة عُبّاد الله الذين يروا الله تعالى ويحاورهم، ثمّ يمرّون على الصّراط فلا تكفيهم أعمالهم للنّجاة منه فيقعون في النّار؛

- تدرّج واقعة مرور النّاس على الجسر، حيث تتدرّج سرعة مرورهم من الأشدّ سرعة إلى الأسرع إلى السّريع إلى الأقلّ سرعة إلى البطيء، وهكذا ضرب مثلاً بقوله «المؤمن عليها كالطّرف وكالبرق وكالرّيح وكأجاويد الخيل والرّكاب...حتّى يمرّ آخرهم يسحب سحباً»، وهكذا كلٌّ بحسب إيمانه؛

- تدرّج واقعة ذهاب النّاجين من الصّراط إلى النّار بأمر الله ﷻ لإخراج من وجودوا في قلبه إيماناً، حيث تدرّجت في ثلاث مراحل، كلّ مرحلة بحسب المثقال الذي أَذِنَ به الرّحمن: مثقال دينار، ثمّ مثقال نصف دينار، ثمّ مثقال ذرّة، في العبارات التي بدأت بالمحمولات الثّلاثة الآتية: (فيُخرجون1...فيُخرجون2...فيُخرجون3...)، على التّوالي، وقد كان بإمكان الله ﷻ أن يخرجهم جميعاً مرّة واحدة، ولكنّها حكمة الله ﷻ التي أراد بها أن يعلمنا التّدرّج في أعمالنا وأحكامنا، فهو الذي شاء أن يخلق السّماوات في ستّة أيّام وكان قادراً أن يقول لها كن فتكون في لحظة واحدة

وليعلمنا أنّه العادل الذي لا يظلم أحداً فيسبق إلى الخروج من كان إيمانه أكبر، ويتأخّر من كان إيمانه أقل.

ج- الإنهاء: تجلّت سمة إنهاء السّلسلة الحدثيّة في هذا الجزء: «فيخرجون كأنّهم اللؤلؤ فيُجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنّة»، وهي تصف واقعة دخول الجنّة من طرف المتأخّرين عنها، حيث يعذّبون بالنّار حتّى يشتدّ احتراقهم، ثمّ تأتيهم رحمة الرّحمن فيخرجهم منها ويلقيهم في نهر ماء الحياة فتنمو أبدانهم من جديد حتى يشبهوا اللؤلؤ في حسنهم، وتوضع الخواتيم في رقابهم كعلامة تميّزهم بأنّهم عتقاء الرّحمن فيدخلون الجنّة.

وهكذا، وجدنا أنّ الحديث القدسيّ في الطّبقة الوصفيّة التي تضطلع بوصف الوقائع وذواتها قد زاوج بين السّمات الجّهيّة الكيفيّة بمقولتيها: تام وغير تام، في توزيع تكاملي بينهما، مع تغليب الأولى على الثّانية لتركيز النّص على الأحداث التي تشكّل السّلسلة السّرديّة أكثر من الأحداث التي تشكّل خلفيّة تلك السّلسلة، كما جمع بين وصف الذّوات وسرد الوقائع انسجاما مع الطّبيعة الذّاتية للنّص متعدّد الآليّات الخطابيّة.

وتقاطَع الإطار الزّماني في الطّبقة التّأطيريّة مع التّقابل الجّهي تام/ غير تام في الطّبقة الوصفيّة في مسألة اتّخاذ اللبوس الصّرفي نفسه؛ وهو صيغتي الماضي والمضارع (أو زمان الاستقبال)، وكثير من التّقاطعات التي تحدث بين مختلف سمات الطّبقات والمستويات في مجال الانعكاس البنوي تحكمه ظاهرة الضّم.

ويُقصد بظاهرة الضّم؛ أن تشترك سمات مخصّصات طبقات تحتيّة مختلفة في لفظ واحد وتُفيّأ اللغة العربيّة ضمن اللغات الضّامة في مقابل اللغات الفاصلة كاللغة البرتغاليّة مثلا، تلك التي تفرد لكلّ سمة تحتيّة بلاغيّة أو علاقيّة أو دلاليّة مخصّصا سطحيا تأطيريا أو تسويريا أو وصفيا أية صرفة تخصّها أو موقعاً يخصّها. (الزّهري، 2014/أ، ص130)؛ أي اشتراك أكثر من سمة تحتيّة في اللفظ نفسه سواء في الصّرف أم في التّركيب، حيث يمكن أن تشترك مخصّصات مختلفة (زمنيّة، جهيّة) في الصّيغة المحموليّة نفسها (الماضي أو المضارع).

3-4- طبقة الوظائف الدّلاليّة: نتكلّم في هذه الطّبقة أساساً على المحمولات، حيث تأوي أصناف الوقائع، من حيث حركيّتها (أعمال وأحداث) أو عدم حركيّتها (حالات وأوضاع)، كما يلي:

3-4-1- المحمولات الدّالة على الوقائع الحركيّة: تشمل الوقائع الحركيّة: الأعمال والأحداث، لحركيّة الذّوات المرتبطة بها، وقد كثرت محمولاتها في القطع السّرديّة، كما يلي:

أ-الأعمال: معظم محمولات الأعمال بصيغة المضارع، وتعتبر سابقة للأحداث أو ممهّدة لها، ومنها: «فيأتيهم الجبّار في صورة...»، «فيُكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن»، «فيخرجون

كأنّهم اللؤلؤ فيُجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنّة»، وهي قطع سرديّة توسّل للأعمال التي فيها بمحمولات فعليّة بصيغة المضارع المبني للمعلوم (فيأتيهم، فيسجد، فيخرجون، فيدخلون) والمضارع المبني للمجهول (فيُكشف، فيُجعل)، وبحدود لواحق وموضوعات (في صورة، عن ساقه كأنّهم اللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم).

ب-الأحداث: تدلّ محمولاتها على إنجاز أحداث تغيّر في الذّوات والوقائع بشكل يستحيل أن تُعاد كما كانت في الأوّل، وقد جاءت بصيغة المضارع المبني للمعلوم أو المبني للمجهول مثل: «فيذهب أصحاب...»، «ثم يُؤتى بجهنّم..ثمّ يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنّم» «فيتساقطون في جهنّم»، كما جاءت بصيغة اسم الفاعل واسم المفعول مثل: «فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنّم»، وهي كلّها في قطع سرديّة.

3-4-2- المحمولات الدّالة على الوقائع غير الحركيّة: الوقائع غير الحركيّة هي: الحالات والأوضاع، تمثّلها المحمولات الدّالة على السّكون والدّيمومة وأحادية الموضوع، وترتبط بالقطع الوصفيّة والحجاجيّة في النّص، وهي كما هو آتٍ:

أ-الحالات: وهي تقريبا حالات شعوريّة نفسيّة مثل الفرح والحزن الضّحك والبكاء القلق والطّمأنينة الحب والكره الرّغبة والنّفور والاسترحام والشّفقة والرّحمة، ومنها:

- العبارة: «نريد أن تسقينا»؛ وهي حالة رغبة العباد في شرب الماء سطحيا والرّغبة في رحمة الله ﷻ وشفاعته باطنيا.

- العبارة: «ربّنا إخواننا الذين كانوا يُصلّون معنا...»؛ وهي حالة استرحام النّاجين من الصّراط الله ﷻ.

وهذه القطع من النّص هي قطع حجاجيّة وردت في الحوار بين الله ﷻ وعباده، وتوسّل لهذه الحالات بمحمول فعلي بصيغة المضارع (نريد)، وبالحدّ الموضوع (ربنا) مع تقدير محموله الفعلي لغرض الدّعاء (ارحم).

ب-الأوضاع: ورُصدت الأوضاع في العبارات التّالية:

- «إنّما ننتظر ربّنا»؛ هي وضعيّة احتباس عبّاد الله ﷻ وعدم اتّباعهم بقيّة النّاس الذين ذهبوا إلى آلهتهم ودخلوا النّار، فبقوا ينتظرون ربّهم، توسّل إلى وصف هذه الوضعيّة بمحمول فعلي بصيغة المضارع (ننتظر)، في قطعة وصفيّة.

- «فيعود ظهره طبقا واحدا»؛ هي وضعيّة السّكون عن تأدية حركة السّجود لله رغم المحاولة، ويختصّ بها من كان يعبد الله رياءً وسمعة، وقد تُوسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي (فيعود) ومحمول غير فعلي بصيغة الاسم (طبقا) في قطعة وصفية.

– «يحرم الله صورهم على النار»؛ وضيعة سكون النار عن تقدمها لحرق أثر السجود بأمر الله ﷻ، وقد تُوُسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي بصيغة المضارع (يحرم) في قطعة وصفيّة.

وهكذا؛ اتّضح أنّ الطبقة المحموليّة في الحديث القدسيّ أوَتْ وقائع حركيّة بشقّيها الأعمال والأحداث، دلّت عليها محمولات القطع السّرديّة وهي الغالبة مما يدّل على حركيّة الذّوات المرتبطة بها؛ حيث يستشعر المتلقّي حركيّة الخطاب ككلّ، كما مزجتها بصورة أقلّ بوقائع غير حركيّة بشقّيها الحالات والأوضاع، تحمّلتها محمولات القطع الوصفيّة والحجاجيّة لوصف الذّوات المرتبطة بالوقائع وصكّ المخاطب بالحجّة، وجعله في حالات من الإمتاع والإقناع.

خلاصة: إنّ المقاربة الوظيفيّة للحديث القدسيّ وفق نموذج نحو الطّبقات القالبي قد بيّنت أنّه خطاب تأتّى معه غنىً في المستويين الإبلاغي والعلاقي، وفي المقابل قصورٌ في المستوى التّمثيلي، ويقبع خلف إغناء المستوى الأوّل التّرصيع المكثّف بالصّور البيانيّة والمحسّنات البديعيّة والأثر القويّ الذي تركه المتكلّم في النّص وفي متلقّيه، حتّى وإن قلّ حضور الأنا المتكلّمة.

ومن تجليات إغناء المستوى الثّاني تعدّد القوى الإنجازيّة الحرفيّة (الإخبار، الأمر، الاستفهام) وارتفاع آليات الاستلزام الحواري باختزان الكثير من القوى الإنجازيّة المستلزمة، وإرسال الخطاب على الوجوه الذّاتيّة المعرفيّة (التّقوية) والإراديّة (الدّعاء) والانفعاليّة (التّعجّب، الاستغاثة) بصورة أكبر من الوجوه المرجعيّة.

ويثوي وراء قصور المستوى الثّالث أنّ القالب الدّلالي لا يشتغل إلاّ إذا برح القالب التّداولي المكان؛ أي في الحالة التي تسرد الوقائع نفسها ويظلّ المتكلّم حياديا لا يتدخل في الخطاب بأية صفة كانت إنْ بالشّرح أو التّحليل أو التّعليق، وهذا ما لم يتوافق مع الخطاب المدروس. ورائز هذه التّشكيلة أنّ الحديث القدسيّ خطاب ذاتي ديني متعدّد الآليات الخطابيّة (سردي وصفي حجاجي) موجّهٌ توجيهاً إنجازياً وتداولياً عميقاً، بخلاف الخطابات السردية الحديثة.

وأسهمت سمات المستوى الإبلاغي للمتن بشكل أساسي في تحديد سمات المستويين الآخرين العلاقي والتّمثيلي، خاصّة سمات نمط الخطاب وأسلوبه، كما أنّ لهذه المستويات الثّلاثة انعكاسات صوريّة في المستوى البنوي، حيث تمّ التّدليل على سماتها التّحتيّة وتسطيح طبقاتها بأدوات سطحيّة تمثّلت في مجموعة من الإوّاليّات الصّرفيّة–تركيبيّة والمعجميّة، وبوسائل تطريزيّة خصوصاً التّنغيم المتصاعد والتّنغيم المتنازل والنّبر القوي والنّبر الضّعيف.

وتبيّن لنا بعد أن وضعنا نموذج نحو الطّبقات القالبي على محك انطباقيته على نصّ فعلي وطبيعي؛ أنّه أثبت قدرته على إحراز الكفاية الإجرائيّة، حيث تمكنّا من تطبيق أنظومة مساطره النّظريّة على الحديث القدسيّ بوصفه وتفسيره وتحليله، وتبدّى لنا أنّ النّموذج المذكور مناسب جدا لتحليل هذا النّوع من الخطابات الدّينيّة، وأنّ مقاربتنا الوظيفيّة أتاحت من التّحليل ما أتاحته الفروع الحديثة لعلوم اللغة، كما لامست ما جادت به فروعها القديمة كالنّحو والصّرف والبلاغة لاستجلاء مكنونات الحديث القدسيّ، ممّا يؤكّد امتداد المنحى اللساني الوظيفي العربي في الفكر اللساني العربي التّراثي.

الفصل الرّابع
الحديث القدسيّ في ضوء نحو الخطاب الوظيفي

مدخل: نواصل العمليّة المراسيّة في هذا الفصل لكشف مدى انطباقيّة الخطاطة النظريّة لنحو الخطاب الوظيفي على متن الدّراسة ودرجة إحرازها الكفايتين اللّغوية والإجرائيّة، عن طريق مشارفة مستويات البنية التحتيّة في الحديث القدسيّ وانعكاسها سطحيّا في البنية المكوّنيّة.

ونتعرّف في المباحث القادمة على المدوّنة المنتقاة للفحص ومعناها العام، ثم نتطرّق إلى كيفيّة اشتغال نحو الخطاب الوظيفي على مدوّنة الفحص، طبعاً بالتّركيز على المكوّن المركزي وهو المكوّن النّحوي وتحديداً في بنيته التّحتيّة التي تنبني على مستويين: المستوى التّداولي ويضمّ طبقة المحادثة وطبقة النّقلة وطبقة الفعل الخطابي وطبقة الفحوى الخطابي، ثمّ المستوى الدّلالي ويضمّ طبقة القضيّة وطبقة الواقعة. ومع كلّ مستوى نؤشر إلى كيفيّة انعكاس سماته على مستوى البنية السّطحية.

أولا: المدوّنة المعيّنة للمعالجة ومعناها العام: نضع بين أيدينا حديث (فتنة الدّجّال) لإظهار السّمات والوظائف المتعلقة بهذا النّموذج إجرائيّا؛ وهذا الحديث القدسيّ مليء بالوقائع، يضمّ مجاله مجموعة من القطع السرديّة والقطع الوصفيّة والقطع الحجاجيّة؛ وهو هكذا يكون مناسباً جدّاً لمقاربة السّمات التّحتيّة لطبقات المستويّين التّداولي والدّلالي وانعكاسهما البنوي.

قال الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ: عن النّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: "ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال ذات غداة فخفَّض فيه ورفَّع حتى ظننّاه في طائفة النّخل فقال: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وأنا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُم، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ واللهُ خَلِيفَتِي على كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ والعراقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا»، قُلْنَا: يا رسولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ في الأرضِ؟ قال: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ يَوْمٌ كَسَنَةٍ ويَوْمٌ كشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»، قلنا: يا رسول الله فذلك اليومُ الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لاَ، اُقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغَيْثِ اِسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي على القَوْمِ فَيَدْعُوهُم فَيُؤمِنُونَ بِهِ ويسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتَنْبُتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ ما كانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثم يَأْتي القَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عليه قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عنهم فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ ليس بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالخَرْبَةِ فيقول لها: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثم يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ

جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثم يَدْعُوهُ فُيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنمَا هُوَ كذلك إذْ بَعَثَ اللهُ المسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عندَ المنارَةِ البَيْضاءِ شَرْقَيْ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ على أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ منهُ جُمَانٌ كاللُّؤلُؤ، فلا يَحِلُّ لِكافرٍ يَجِدُ ريحَ نَفَسِهِ إلاَّ مَاتَ ونَفَسُهُ يَنْتَهِى حيثُ ينْتَهِى طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حتَّى يُدْرِكُهُ بِبابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثم يَأْتي عيسَى ابْنَ مريمَ قومٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ منهُ فَيَمْسَحُ عنْ وُجُوهِهُمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ في الجنَّةِ، فبينمَا هو كذلِكَ إذْ أَوْحَى اللهُ إلى عيسَى إنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عبادًا لي لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبادي إلى الطُّورِ، ويَبْعَثُ اللهُ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ على بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فيها، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فيقولون: لَقَدْ كان بهذهِ مَرَّةً ماءٌ، ويُحْصَرُ نبيُّ اللهِ عيسَى وَأَصْحَابُهُ حتىَّ يكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خيرًا مِنْ مَائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُم اليَوْمَ، فَيَرْغَبُ نبيُّ الله عيسَى وَأَصْحَابُهَ إلى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نبيُّ اللهِ عيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الأرضِ فلا يَجِدُونَ في الأرضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُمْ؛ فَيَرْغَبُ نبيُّ اللهِ عيسَى وَأَصْحابُهُ إلى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثم يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأرضَ حتى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثم يُقالُ للأرضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيومَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وُيُبَارَكُ في الرِّسْلِ، حتى إنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخْذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَينَمَا هُمْ كذلكَ، إذْ بعثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلّ مُؤْمِنٍ وَكُلّ مُسْلِمٍ، وَيبقى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فيها تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»". (العدوي، 1989، ص287). [حديث صحيح أخرجه مسلم (2137) والترمذي (2240) وأبو داود (4321) مختصراً وابن ماجة (4075)].

اعتماداً على كتب شروح السنّة المعتمدة في البحث؛ وخصوصاً شروح الأحاديث القدسيّة (متولي، 2013، ص591)، (العدوي، 1989، ص288)؛ صُغنا المعنى العام للنّص كما يلي:

ذكر رسول الله ﷺ الدّجّال ذات صباح فخفّض فيه ورفّع، ومعناه: أنّه خفّض من صوته ليستريح بعد طول الكلام، ثم رفّع ليبلغ صوته كل أحد، أو أنّه حقّر الدّجّال ثمّ عظّمه، فمن تحقيره وهوانه على الله تعالى عوره، وأنّه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرّجل ثم يعجز عنه، وأنّه يضمحلّ أمره ويُقتل بعد ذلك هو وأتباعه، ومن تفخيمه وتعظيم فتنته والمحنة به هذه الأمور الخارقة للعادة، وأنّه ما من نبيّ إلاّ وقد أنذر قومه منه. ثم أخبر ﷺ النّاس بأن خوف غير الدّجّال أخوف خوفه عليهم، وأشدّ موجبات مخوّفاته عليهم، فإذا خرجَ الدّجّال والرّسول ﷺ موجود معهم فسيتصدّى له دون معونة النّاس له، وإذا خرج والرّسول ﷺ قد تُوُفّي؛ فكلّ امرئ يردّ على نفسه ما

استطاع من فتنته، والله يخلف الرّسول ﷺ في المسلمين جميعاً فيتولاّهم، ولنّعمّ المولى والنّصير. ثمّ يصف الرّسول ﷺ لهم الدّجّال بأنّه شابّ شديد جعودة الشّعر غير المحبوبة، أعور، يخرج من طريقٍ بين الشّام والعراق، يعيث في الأرض فساداً، ويدعو الرّسول ﷺ النّاس أن يثبتوا وأن تُقرأ عليه فواتح سورة الكهف ممّن أدركه منهم. ويلبث الدّجّال في الأرض أربعين يوماً، لكنّها ليست أيّاما متشابهة؛ فيوم كسنة، ويوم كشهر ويوم كأسبوع، والباقي أيّامٌ عادية، سرعته في الأرض كالغيث تدفعه الرّيح، يأتي إلى القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويأمر السّماء فتمطر والأرض فتنبت فترجع إليهم ماشيتهم في آخر النّهار كثيرة اللّبن ممتلئة من الشّبع، أمّا القوم الذين يردّون عليه دعوته فينصرف عنهم، فيصبحون وقد أصابهم الجدب والقحط والفقر، ويمرّ بموضع الخراب فيأمره بإخراج كنوزه، فتتبعه كنوزه كالنّحل، ثم يدعو رجلا شابّا فيضربه بالسّيف فيقطّعه قطعتين بينهما مقدار رميته، ثم يدعوه فيُقبل ضاحكا. وهو في تلك الحال يبعث الله النبيّ عيسى عليه السلام، فينزل عند (المنارة البيضاء) شرقيّ دمشق يلبس ثوبين مصبوغين، واضعا كفّيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطَر وإذا رفع تحدّر منه ماء صافٍ كاللّؤلؤ، نفسه يمتد مدّ بصره، وما من كافر يجد ريح نفسه إلا مات، حيث يطلب الدّجّال فيجده في بلدة (باب لدّ) قريبة من بيت المقدس، فيقتله، ثم يأتي قوماً عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ليكشف عمّا هم فيه من شدّة، ويخبرهم بدرجاتهم في الجنّة. وهو على تلك الحالة يوحي الله إليه بأن يَضُمَّ عباد الله إلى جبل (الطّور) ليحفظهم من قوم يأجوج ومأجوج الذين بعثهم الله، وهم عبادٌ أشرار لا يقوى أحد على قتالهم، يخرجون مسرعين من كل جانب، ولكثرة عددهم يشرب أوائلهم بحيرة (طَبَريّة) حتّى إذا وصل إليها آخرهم لا يجد فيها ماءً، فإذا اشتدّ الجوع والحصار على عيسى وأصحابه في الجبل دعوا الله، فيرسل الله الدّود في رقاب يأجوج ومأجوج فيموتون معاً. ثم ينزل عيسى وأصحابه من الجبل فيجدون الأرض قد مُلئت بدسمهم ونتنهم، فيدعون الله ثانيةً، فيرسل الله طيوراً طويلةً كأعناق الإبل، فتحملهم وترميهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا تمنعها البيوت المصنوعة من الوبر أو الطين الصّلب، فتغسل الأرض حتى تتركها صافية نظيفة كالمرآة، ثم يأمر الله الأرض أن تُنبت ثمارها وأن ترُدّ بركتها. فيومئذ تأكل الجماعة من النّاس من الرّمّانة الواحدة ويستظلّون بقشرها، ويُبارك في اللّبن، حتّى إن ولد الإبل ليكفي الجماعة الكثيرة من النّاس، وولد البقر ليكفي القبيلة من النّاس، وولد الغنم ليكفي عشيرة الاقارب، وهم كذلك يبعث الله ريحاً طيّبةً فتقبض أرواح المؤمنين والمسلمين، وتترك شرار النّاس يجامعون النّساء أمام الملأ غير مكترثين كما يفعل الحمير، وعليهم تقوم السّاعة، نسأل الله العافية.

ثانيا: إعمال نحو الخطاب الوظيفي على مدوّنة الفحص: ظهر نموذج نحو الخطاب الوظيفي على يد العالمين (هنخفلد) و(ماكنيزي) سنة 2008، ثم تبنّى هذا النموذج رائد الوظيفيّة العربية (أحمد المتوكل) من خلال كتابيه: (مسائل النّحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي) سنة 2008، و(الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط) سنة 2010 لذلك ستكون هذه المؤلّفات نبراساً لنا نستضيء بها في التّعرف على هذا النّموذج ومحاولة وضعه في محكّ التّجربة المراسيّة في خطاب الحديث القدسيّ.

ذهب (المتوكّل) إلى اقتراح نموذج نحو الخطاب الوظيفيّ المنسوب للعالمين السابقين بديلا لنحو الطبقات القالبي، غير أنه لم يتناوله بالتّوضيح والتّبسيط بذلك القدر الذي تناول فيه المقاربة القالبيّة. تأسيساً على مبدأ عدم التّناقض العلمي للنّظرية الوظيفيّة؛ فإنّه لا مندوحة من أن يأخذ النّموذج الجديد من المعطى النّظري في النّموذج القديم، مع شيء من التّعديل والتّطوير، كما أنّ النّص موضوع الفحص في هذا الفصل يشترك مع النّص المفحوص في الفصل السّابق في نمط الخطاب وآليته، فكلاهما نصّ ذاتيّ دينيّ متعدّد الآلية الخطابيّة (سردي، وصفي، حجاجي)، لذلك نحاول التّجاوز أو التّلميح فقط لما نتوقّعه أنّ يكون من قبيل التّكرار، تَوْقاً للإفصاح عن الآليات الجديدة التي أضافها هذا النّموذج في التّحليل.

يعتقد (المتوكّل) أن بنية الخطاب الثّابتة تكون في مستويات أربعة، مستوى علاقي ومستوى تمثيلي ومستوى صرفي–تركيبي ومستوى فونولوجي، يتضمّن كلّ منها طبقات يعلو ويحكم بعضها بعضاً. (2010، ص32)، وإذا كُنّا قد عرفنا في الفصل النظريّ أنّ نحو الخطاب الوظيفيّ يقوم على أربعة مكونات أركان هي: المكوّن المفهومي والمكوّن النّحوي والمكوّن السّياقي والمكوّن الإنطاقي (الإصاتي)؛ فإن كلام (المتوكّل) السّابق يعني أن بنية الخطاب الثّابتة تتركّز في المكوّن النّحوي باعتباره مكوّنا مركزيّا يحوي الطّاقات اللّغوية، أمّا المكوّنات الأخرى فهي مساعدة فقط وتتضمّن الطّاقات غير اللّغوية، لذلك سيركّز البحث في ما يأتي على هذا المكوّن.

ولعلّ هذا هو السّبب الذي جعل المؤلّفين (هنخفلد) و(ماكنزي) يصرّحان أنّهما لن يُقدّما أيّة تفاصيل عن البنية الداخليّة للمكوّنين المفهومي والسّياقي، واكتفيا بالمكوّنين الآخرين النّحوي والإنطاقي. (2008، ص10)، وفي الواقع ركّزا على المكوّن النّحوي تركيزاً مهيمنا في بحثهما.

ويشمل المكوّن النّحوي بنيتين: تحتيّة وسطحيّة، تضمّ البنية التّحتيّة مستويين: المستوى التّداولي بطبقاته الثّلاثة (طبقة المحادثة، طبقة النّقلة، طبقة الفعل الخطابي)، المستوى الدّلالي بطبقتيه (طبقة القضيّة وطبقة الواقعة). أما البنية السّطحية فهي معدّة لإيواء وحدات البنية التّحتيّة بشقّيها، وتأوي خزينة مواد بنائها مستويين: المستوى الصّرفي–التّركيبي (صرفات حرّة كالأدوات أو

مربوطة كاللّواصق، التّصريفات، التّراكيب)، المستوى الفونولوجي (المقطعي، التّطريزي، التّنغيمي النّبري). سنتطرّق إلى هذه البنية دائماً في خضّم حديثنا عن البنية التّحتيّة تلافيا للتّكرار.

ويكون تمثيل المستوى الأوّل (التّداولي) في المستويات الثّلاثة الأخرى؛ لذلك تسمّى المستويات التّابعة، كما يكون تمثيل المستوى الثّاني (الدّلالي) في المستويين الثّالث والرّابع، وتُحَدِّدُ قيمة مخصّص الطّبقة العليا قيم مخصّصات الطّبقة التي تسفلها.

1- المستوى التّداولي: يستغني نموذج نحو الخطاب الوظيفي عن المستوى البلاغي الذي عرفناه في نحو الطّبقات القالبي، غير أنّه يستفيد من بعض سمات ومخصّصات طبقاته فيضمّها إلى المستوى العلاقي، باعتبار المستويين يتكاملان في مستوى تداولي واحد.

يقترح (هنخفلد) و(ماكنزي) أن يشمل المستوى التّداولي طبقتين كبريين: (النّقلة والفعل الخطابي) باعتبار الفعل الخطابي الوحدة الدّنيا للخطاب، ويتكوّن الفعل الخطابي من قوّة إنجازيّة (خبر، استفهام، أمر، ...) ومؤشريّ المتكلّم والمخاطب وفحوى خطابي. ويتضمّن الفحوى الخطابي أفعالاً إحاليّة وأفعالاً حمليّة. (المتوكّل، 2010، ص32)، حيث يتصدّر كلاًّ من طبقة النّقلة وطبقة الفعل الخطابي وطبقة الفحوى الخطابي مخصّص، في حين تسند إلى الأفعال الإحاليّة والأفعال الحمليّة وظائف تداوليّة (محور، بؤرة).

واقترح (المتوكّل) بعد ذلك أن تكون طبقة عليا في المستوى العلاقي تعلو طبقة (النّقلة) سمّاها طبقة (الحديث) في حالة الخطاب الذي لا حوار فعليّاً فيه، أو طبقة (المحادثة) حين يتقاسم المشاركان في الخطاب دوري المتكلّم والمخاطب بالتّناوب. (المتوكّل، 2010، ص34)، ثمّ لم يلبث أن اعتبر في ما بعد الفحوى الخطابي طبقةً أيضاً تسفل طبقة الفعل الخطابي، وبهذه الإضافة تصبح بنية المستوى العلاقي كما يلي:

(Π حديث/ محادثة1: [النّقلة1 [(Π فعل خطابي1: [القوّة إنجازيّة (ك) (ط) (Π فحوى1: [(حمل1) Ω (إحالة1) Ω] (فحوى خطابي))]] (فعل خطابي1))] (نقلة1))] (حديث/ محادثة1))

حيث تُفسّر رموز هذه العلاقة كما يلي: Π = مخصّص، / = أو، Ω = وظيفة تداوليّة (ك)= متكلّم، (ط)= مخاطَب، [ ]= مجال الطّبقة.

وتُعرّف النّقلة بأنّها: «الفعل الخطابي أو الأفعال الخطابيّة التي تشكّل مداخلة أحد المشاركين في الحوار». (المتوكل، 2010، ص34)، فالنّقلة إذن هي مداخلة أحد المشاركين، وقد تتضمّن فعلا خطابيّا واحدا خصوصا في المحادثة أو مجموعة أفعال خطابيّة خصوصا في الحديث الذي يرافقه صمت المتلقّي.

ويُمثّل للعلاقة بين المكوّنات في شكل أربع وظائف: وظائف تركيبيّة (فاعل، مفعول) تُسند فى المستوى الصّرفى–التّركيبى؛ ووظائف دلاليّة (المنفّذ، المتقبّل...) تسند في المستوى التّمثيلى ووظائف بلاغيّة (أو خطابيّة) تسند في المستوى العلاقي إلى أفعال خطابيّة كاملة كوظيفة التّعليل التي تسند إلى الفعل الخطابي التّابع؛ ووظائف تداوليّة (محور، بؤرة) تسند في المستوى العلاقي إلى عناصر الفحوى الخطابي (إحالات أو حمولاً). (المتوكّل، 2010، ص34)، وباعتبار الحديث القدسيّ خطابا دينيّا ذا توجّه ذاتيّ؛ فيُرتقب غناه بسمات المستوى التّداولي التي تظهر في الطّبقات الأربع (المحادثة، النّقلة، الفعل الخطابي، الفحوى الخطابي).

1-1- طبقة المحادثة: انطلق خطاب المدوّنة بحديث قصير من الرّسول ﷺ إلى النّاس يسرد فيه أخبار الدّجّال في المستقبل، ثم تخللته ثلاثة أسئلة تفضّل بها الصّحابة في حضرة النّبي ﷺ حول موضوع الحديث وهو يجيبهم. وهي: «قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟»، «قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟»، «قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟».

وهذا ما جعل الحديث يتحوّل إلى محادثة (محاورة)، ثم لا تلبث أن تستقّر تلك المحادثة في شكل حديث طويل يواصل فيه الرّسول ﷺ إلقاء موضوعه للنّاس وهم ينصتون. وفي المحصّلة فإن النّص يصنّف محادثة وليس حديثاً لوجود مشاركة المخاطب وتدخّلاته، وفي طبقة المحادثة أمكننا التعليق عن المخصّصات الآتية: نمط المحادثة، وأسلوب المحادثة.

1-1-1- مخصّص نمط المحادثة: يشمل مخصّص نمط المحادثة: الوجه التخاطبي والغرض التخاطبي، والآليات التخاطبيّة.

تُفيَّأ هذه المحادثة من حيث الوجه التخاطبي ضمن فئة الخطابات الذّاتية وليست الموضوعيّة؛ بسبب ظهور الأنا المتكلّمة لمُصدِره في الخطاب؛ وهي ذات الرّسول ﷺ خاصة في الشّق الأوّل من المحادثة، حيث أودع في فحوى خطابه انفعالاته مثل: «غير الدّجّال أخوفني عليكم»، ونقل مواقفه مثل: «فأنا حجيجه دونكم»، وقدّم نصائحه مثل: «من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح الكهف»، «يا عباد الله فاثبتوا»، «لا اقدروا له قدره». فضلاً عن كثير العبر التي يأخذها المتلقّي تلقائياً في الشّق الثّاني من الخطاب دون بروز الأنا المتكلّمة.

وتُنمّط هذه المحادثة من حيث الغرض التخاطبي في لائحة الخطابات الدينيّة، ممّا يشير إلى استخدام القالب الذّاتي الحجاجي بكثرة، فهو يهدف إلى معرفة أمارات قروب السّاعة، والحضّ على الاستعداد لها، وإرشاد الأمّة على ما يعصمها من فتنة الدّجّال.

وتعدّدت الآليّة الخطابيّة للمحادثة، فهي تتضمّن قطعاً سرديّةً، وقطعاً وصفيّةً، وقطعاً حجاجيّةً، حيث أُنجزت آلية السّرد في الخطاب بالمحمولات الفعليّة بصيغ (ماضي/مضارع) وكلّها تدلّ على زمان الاستقبال؛ لأنّ الأحداث المرويّة ستتحقّق في المستقبل عند قيام السّاعة، وتحقّقت آليّة الوصف بالأدوات الآتية: المحمولات الفعليّة (ماضي/مضارع/أفعال مساعدة)، المحمولات غير الفعليّة (أسماء/مصادر) في وصف ذوات متعدّدة منها: (الدّجّال، القوم المدعوّين، الرّجل المقتول عيسى عليه السلام، قوم يأجوج ومأجوج، الطّير المرسلة، الأرض)، كما وَظَّفت آليّة الحجّاج وآليات الحوار والقياس والتّقوية.

1-1-2- مخصّص أسلوب المحادثة: يبرز في معظم الأحاديث القدسيّة التّقرير بشكل جليّ؛ لأنّ من صفاتها الأساسيّة –التي على أساسها تصنّف بأنها قدسيّة– هو تضمّنها إقرار الرّب جلّ وعلا بأمور الغيب التي لا يعلمها النّاس حول ذوات ووقائع ستكون في نهاية الحياة الدّنيا وبعدها، ونجد منها في هذا النّص: خروج الدّجّال، فتنته وتصرّفاته الخارقة للعادة، نزول المسيح ابن مريم، بعث قوم يأجوج ومأجوج، النّغف، الطّير المرسلة، الرّيح الطّيبة، السّاعة، الجنّة. وتمّ تقرير تلك الحقائق بأسلوب إنشائيّ تفاعليّ.

أ- السّمات الإنشائية: جاء غنيّاً بسمات الإيحاء والتّلميح والتّصوير الفنيّ؛ لأنّ النّص دينيّ ذاتي، وهي كما يأتي:

حفل النّص بالتّشبيهات التي جاءت كلها محسوس بمحسوس، ومرسلة ذكرت فيها أداة التّشبيه (الكاف)، بدأت بتشبيه مفصّل «كأني أشبّهه بعبد العزّى بن قطن»، ذكر فيه وجه الشبه وهو: العَوَر وجعودة الشّعر، ثم تلتها تشبيهات مجملة لم يُذكر فيها وجه الشّبه مع إمكانيّة يمكن تقديره، ومثالها: «يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيّامه كأيّامكم»، وجه الشّبه: الطّول. «كالغيث استدبرته الرّيح»، وجه الشّبه: السّرعة. «فتتبعه كنوزها كيعاسيب النّحل»، وجه الشّبه: الكثرة. «جمان كاللؤلؤ»، الصّفاء والحُسن. «طيراً كأعناق البخت»، وجه الشّبه: الطّول. «فرسى كموت نفس واحدة»، وجه الشّبه: الآنية.

ويمكن عدّ هذه التّشبيهات من آليات الوصف، كما يمكن النّظر إليها من زاوية الحجّاج بالقياس (محسوس بمحسوس)، بالإضافة إلى إمكانيّة توظيفها من حيث أوجه الشّبه في القيم والسّمات الكميّة الجهيّة (كثير، سريع، طويل، آني).

وانعكست الكناية أيضاً في النّص من خلال العبارات الآتية: «لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ» ويقصد بـ (يَدَان) مثنّى اليد، وليس المعنى هنا هو عدم وجود الأيادي في أعضاء أجسامهم ولكن هي كناية على عدم مقدرة أيّ أحد بقتالهم. «ويُحْصَرُ نبيُّ اللهِ عيسَى وَأَصْحَابُهُ حتىَّ يكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ

خيرًا مِنْ مَائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُم اليَوْمَ»؛ ليس المقصود هنا أن يكون ثمن رأس الثور أغلى من مئة دينار في زمان الصحابة، ولكن هي كناية على ندرة الطعام وجوعهم من شدّة الحصار وطوله في الزمان القادم. أمّا ما بخصوص الصّور البيانيّة الاستعاريّة والمجازيّة فقد ندرت في النّص.

وتوشّح النّص بتحسين بديعي معنوي؛ أبرزه طباق الإيجاب: (خفّض≠ رفع)، (فيأتي≠ فينصرف)، (السماء≠ الأرض)، (كافر≠ مؤمن). والمقابلة: (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم≠ إن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه)، (فيدعوهم فيؤمنون به≠ فيدعوهم فيردون عليه قوله) (فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم≠ يبقى شرار النّاس)، حيث تقابل الجملة الثانية دائما الأولى بنقيض القضيّة ونفيها، وسنعود إلى توظيفها مرة أخرى عند حديثنا عن عملية التّبئير (بؤرة المقابلة).

وتزيّن النّص أيضاً بتصوير بديعي لفظي؛ كالسّجع المرصّع (المتوازي) الذي تتّفق فيه الألفاظ من جهة الوزن والقافية مثل: (طور، ثور)، (قوم، يوم)، (شهر، طير)، (مطر، مدر، وبر بقر)، (كهف، سيف)، (نخل، نحل)، (غنم، زهم). والسّجع المطرف الذي تتّفق فيه الألفاظ قافيةً دون الوزن مثل: (بيضاء، سماء، ماء)، (عيسى، فرسى)، (دجال، قتال، شمال)، (شام، فئام) (عراق، أعناق)، (المسيح، الرّيح)، (قحف، طرف، نغف)، (أرض، غرض)، (الرّسل، الإبل) (العصابة، الخربة)، (مَوت، بُخت)، (نفَس، رأس)، (ثَمَر، حُمْر).

ب- السّمات التفاعليّة: يتعاون المخاطَب مع المتكلّم ويتفاعل معه في العمليّة الخطابيّة حيث تفاعل المستمعون لخطاب الرّسول ﷺ آنذاك كما نتفاعل اليومَ معه ونحن نقرأه، بفضل الآليات الآتية: التنكير، الالتفات، التقديم والتأخير.

فقد وجدنا التنكير يمسّ الأسماء لهدف تفاعل المتلقيّ مع الخطاب بمعاني عديدة منها التكثير: «فعاث يميناً وعاث شمالاً»، التّعظيم: «على أجنحة مَلَكين»، التّعميم والإطلاق: «فامرؤٌ.... فلا يحلّ لكافرٍ».

ونَدُرَ الالتفات في النّص، إلاّ أنّه يمكن الاستئناس بقوله ﷺ: «إن يخرج وأنا فيكم... والله خليفتي على كل مسلم»، فهو يُحدّث النّاس أمامه بصفتهم حضوراً، ثم يعدل عن ذلك ليخاطبهم بوصفهم غياباً، وهذا عدول اضطراري وليس اختياري اضطرّه احتمال وقوع وفاة الرّسول ﷺ.

ولو قال: «والله خليفتي عليكم»، فإن المتلقيّ يتوهم أن هذه الخلافة تشمل مسلمي ذلك الزمان فقط فكان لا بد من توظيف الغائب ليُفهم استمرار الحجّة في يد الله متى خرج الدّجّال حتّى وإن غاب الرّسول ﷺ، ووقع الالتفات هنا بالتّعبير عن شخوص المسلمين بموقع إشاري مخاطَب

ثم الانتقال بها إلى موقع إشاري غائب، لغاية تفاعل المتلقيّ مع أهمية اعتقاد الإسلام الذي ينجّيه من فتن الدّنيا في كلّ زمان بإذن الله.

وكثر التّقديم والتّأخير في النّص، ممّا يجعل المتلقيّ يتفاعل معه حين يشعر بالمعاني الآتية:

1- التّخصيص: «فتروح عليهم سارحتهم»، أصلها: (فتروح سارحتهم عليهم)، قُدّم الجار والمجرور (عليهم) المتعلّق بالفعل عن الفاعل، لتخصيص القوم المفتونين الذين أطاعوا الدّجّال فإليهم خصوصاً ترجع مواشيهم السّارحة أفضل ممّا كانت عليه.

2- التّعميم: «فلا يجدون في الأرض موضع شبر»، أصلها: (فلا يجدون موضع شبر في الأرض)، تقدّم الجار والمجرور (في الأرض) المتعلّقان بالفعل عن المفعول به، لتعميم شمول جثث يأجوج ومأجوج كلّ الأرض.

3- التّعظيم: «فيردّون عليه قوله»، أصلها: (فيردّون قوله عليه)، تم تقديم الجار والمجرور المتعلّقان بالفعل عن المفعول به، لتعظيم الرّد بأن قوله الفاتن قد أُعيد إليه دون خوف.

4- الحصر: «فعليهم تقوم السّاعة»، أصلها: (فتقوم السّاعة عليهم)، حيث قدّم الجار والمجرور (عليهم) عن الفعل والفاعل، لغرض حصر فعل قيام السّاعة على شرار النّاس الذين بقوا يتهارجون في الأرض، وليس على الذين قضوا قبلهم من المؤمنين والمسلمين.

1-2- طبقة النَّقلة: أَلْمَحْنا في ما سبق إلى أنّ طبقة المحادثة جاءت بين حديثين للرّسول ﷺ تخلّلتهما أسئلة الصّحابة، ممّا جعلنا نصنّف الخطاب إلى محادثة وليس حديث، لكنّنا هنا نستغّل هذا التّفصيل لبناء عدد النّقلات وأنواعها. بما أنّ النّقلة هي مداخلة أحد المشاركين في الخطاب فإنّنا نحرز سبع (07) نقلات في النّص، يؤشّر لها الطّرف المتكلّم وهو الرّسول ﷺ والطّرف المخاطَب وهم جماعة الصّحابة المشاركين في الخطاب، ونرتّب النّقلات كما يلي:

النّقلة الأولى: قوله ﷺ: «غيرُ الدّجّال أخوفني عليكم...يا عباد الله فاثبتوا»؛

النّقلة الثانية: سؤال الصّحابة: «يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟»؛

النّقلة الثّالثة: قوله ﷺ: قال: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا... وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»؛

النّقلة الرّابعة: سؤال الصّحابة: «يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟»

النّقلة الخامسة: قوله ﷺ: «لاَ، اُقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»؛

النقلة السّادسة: سؤال الصحابة: «يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟»؛

النّقلة السّابعة: قوله ﷺ: «كالغَيثِ استدْبَرتهُ الرّيحُ... فعَليْهم تقومُ السّاعةُ».

وأمكننا تقسيم مجموع هذه النقلات إلى زمرتين: زمرة النقلات الأصل وزمرة النقلات الفرع على النّحو الآتي.

1-2-1- زمرة النقلات الفرع: وفيها النقلات ذات التّرتيب الزّوجي (الثّانية والرّابعة والسّادسة)، ووصفناها بالفرع؛ لأنها قصيرة متعلّقة بالنّقلات الطّويلة، ولم تتضمّن سوى تدخلات الصّحابة بأسئلتهم الثّلاثة، لم تتضمّن أيّة دعوى سواء ابتدائيّة أم إبطاليّة، بل شملت كل نقلة منها قوّة إنجازيّة واحدة هي الاستفهام.

1-2-2- زمرة النّقلات الأصل: وفيها النّقلات ذات التّرتيب الفردي (الأولى والثّالثة والخامسة والسّابعة)، سُمّيت بالأصل؛ لأنّها هي الأطول وتضمّنت كلام الحبيب المصطفى ﷺ وشكّلت أساس متن الحديث القدسيّ، وتضمّنت مجموعة أفعال خطابيّة وعدّة قوى إنجازيّة.

واستبطنت هذه الزّمرة قطعاً حجاجيّة يهدف بها الرّسول ﷺ إقناع النّاس ليعملوا ويستعدّوا للفتن القادمة، كما وظّفت هذه القطع لدى الذّوات المتحدّث عنها خاصة الدّجّال الذي يرمي إلى فتنة النّاس ليؤمنوا به إلهاً والعياذ بالله، ونهجت استراتيجيّة إبطال ما في ذهن المخاطب من قناعات، ثم تعويضها بما يكون بديلا عنها، فجاءت في دفوع (أو دعاوى) ابتدائيّة وأخرى إبطاليّة كما يلي:

أ- الدّفوع الابتدائيّة: دافع النّص على عدّة دعاوي ابتدائيّة أهمّها:

- إثبات خوف الرّسول ﷺ على أمّته ورحمته بهم؛ وتحذيره لهم من شرّ فتنة الدّجّال، وأنّ عيسى عليه السلام ينزل آخر الزّمان فيقتل الدّجّال؛

- إثبات أنّ الدّجّال كافر بالله، تقع على يديه خوارق العادات، وأن قوم يأجوج ومأجوج هم عباد من أشرّ خلق الله تعالى؛

- إثبات ضرورة حرص المسلم على الدّعاء والتّرغيب إلى الله، والاستعاذة من الدّجّال، وحفظ فواتح سورة الكهف، وهي عشر آيات؛ فعن أبي الدّرداء أن النبيّ ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدّجّال»؛

- إثبات ضرورة الحفاظ على الصّلاة وتقدير قدر توقيتها في كلّ الظّروف والفتن؛

- إثبات أن السّاعة تقوم على شرار النّاس، وأنّ من علاماتها ظهور الدّجّال، وبعث المسيح وخروج يأجوج ومأجوج.

ب- الدّفوع الإبطاليّة: في زمرة النّقلات الأصل من المحادثة عدّة دعاوى إبطاليّة أهمّها:

- إبطال أن تكفي صلاة يومٍ عادٍ اليومَ الذي كسنة من مدّة لبث الدّجّال في الأرض؛

- إبطال فكرة بقاء الكافر حيّا إذا وجد ريح نفس عيسى عليه السلام حين ينزل إلى الأرض؛

– إبطال فكرة ربوبيّة الدّجّال ومقدرته على الخوارق، فهو أهون على الله من ذلك إذ ينزل له عيسى عليه السلام فيقتله؛

– إبطال أن يقوى أحد على قتال يأجوج ومأجوج، ثمّ إبطال فكرة سيطرتهم على الأرض، إذ يرسل الله النّغف في رقابهم فتقتلهم، والطّير تحملهم وترميهم حيث شاء.

1-3- طبقة الفعل الخطابي: الفعل الخطابي هو وحدة دنيا في الخطاب موضوع التّحليل اللّغوي، يتكوّن من قوّة إنجازيّة (خبر، استفهام، أمر،...)، ومؤشّري المتكلّم والمخاطب وفحوى خطابي ومخصّص. (مليطان، 2014، ص108)، ونتطرّق في هذه الطّبقة أولاً إلى أنواع الأفعال الخطابيّة ومخصّصاتها، والوظائف البلاغيّة، ثمّ نمرّ إلى القوى الإنجازيّة ومؤشّري التّخاطب.

1-3-1- أنواع الأفعال الخطابيّة: العلاقة التي تقوم بين الأفعال الخطابيّة التي تكوّن النّقلة تكون إمّا علاقة تكافؤ أو علاقة تبعيّة. في حالة التّكافؤ تكون كل الأفعال الخطابيّة أفعالا نوويّة. أمّا في الحالة الأخرى فيميّز بين الفعل الخطابي النّووي والأفعال التّابعة. (المتوكّل 2010، ص34)؛ حيث إنّ الفعل الخطابي النّووي (المستقل) هو فعل خطابي غير مربوط بفعل خطابي آخر، أمّا الفعل الخطابي التّابع هو فعل خطابي يحمل وظيفة بلاغيّة (تعيين، تعديل تخصيص، تعليل،...) بالنّظر إلى الفعل الخطابي النّووي.

1-3-2- مخصّصات الأفعال الخطابيّة: الاقتراح الجديد للمتوكّل للأفعال الخطابيّة هو: النّداء، التعجّب باعتباره تابعا للمخصّص العام وهو المبالغة، الاستغاثة، النّدبة، السّخرية، الحجّة (سنتركها إلى عنصر الوظائف البلاغيّة)، التّنبيه، الاستفتاح.

أ- **النّداء:** النّداء هو فعل خطابي في نحو الخطاب الوظيفي بعدما كان في الطّبقة الاسترعائيّة في المستوى العلاقي من نحو الطّبقات القالبي، فهو الآن في نصّنا مخصّص فعل خطابي نووي غير مربوط بفعل خطابي آخر، ولكن يحمل عقبه قوّتين إنجازيتين هي الأمر والاستفهام، ويتمثّل دوره دائما في استرعاء انتباه المخاطب.

يتوفّر لدينا في زمرة النّقلات الأصل نداء واحد مقترن بقوّة الأمر، جاء في العبارة: «يا عِبادَ اللهِ اُتْبُتُوا»، موجّه من الرّسول ﷺ إلى المخاطب الجماعة وهم عباد الله، تم التوسّل إليه بأداة نداء واحدة هي الأداة (يا)، ولم يجمع بين أكثر من أداة، فهو نداء بسيط وليس مركبّا، حرفي يُراد به النّداء فحسب، ولم يستلزم أغراضاً أخرى تخرج عن النّداء؛ كما أنّه نداء إحالي لم يتعدّ الإحالة على جميع المسلمين، وليس واصفاً؛ لأنه لم يزاوج بين الإحالة على الشّخص المنادى وبين ذكر أوصافه.

وقد غطّى مخصّص النّداء جميع زمرة النّقلات الفرع، واقترن بقوّة الاستفهام عند سؤال الصّحابة رسول الله ﷺ عن موضوع الدّجّال في الأسئلة الآتية: (يا رسولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ في الأرضِ؟ يا رسول الله فذلك اليومُ الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاة يوم؟ يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟) وهذا النّداء بسيط حرفي إحالي، فقد وُجّه به الخطاب إلى الرّسول ﷺ مذكوراً بلفظه، فأحال إليه ولم يصفه، يُراد به حرفيّة النّداء فحسب دون الاستلزام، وتمّ التوسّل إليه بأداة النّداء (يا).

ب- التعجّب: أُعتبر التّعجّب في النّموذج القالبي سمة وجهيّة ذاتيّة انفعاليّة، لكنّه أصبح في نحو الخطاب الوظيفي فعلاً خطابياً، وهو في نصّنا مخصّص فعل خطابي نووي، تم تسطيحه بتفاعل البنية التطريزيّة (النّبر والتّنغيم) مع الصّرف والتّركيب.

وتنعدم المحادثة من الصّيغ المخصوصة أو الملّحقة للتّعجب التي تضطلع بصياغة محمول الجملة، وتخلو من أدوات وصرفات التّعجّب والتّراكيب التّعجبيّة كالتّعابير المسكوكة والعبارات القائمة الذّات، إلاّ أنّنا نجد فيها بعض الانعكاسات الصّورية صرفيّة وتركيبيّة، والأنماط الجمليّة التي تحمل قوى إنجازيّة كالخبر والاستفهام، تخرج لإفادة التّعجب، كما يلي:

- بواسطة اللبوس المعجمي: تعجب مادح بلفظ (اللؤلؤ) في: «تحدّر منه جمان كاللؤلؤ!»؛

- بواسطة الإشارة والتّركيب الاستفهامي: «فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟» حيث تعجّب المسلمون تعجّبا قادحا من ذلك اليوم الطّويل الذي يدوم سنة، واحتاروا في كيفيّة الصّلاة فيه، بصلاة واحدة أم بعدّة صلوات! حيث انصبّ التّعجب على محمول (الصّلاة) وحدّ (اليوم)، وتحقّق بوسيلة صوريّة هي اسم الإشارة (فذلك) وتركيب استفهامي، فكلّما كثرت الأدوات المسخّرة للتّعجب كان الفعل الخطابي التّداولي غنيا؛

- بواسطة التّراكيب الإخباريّة، مثل: «فيومئذ تأكل العصابة من الرّمانة ويستظلّون بقحفها ويُبارك في الرّسل، حتىّ إنّ اللّقحة من الإبل لتكفي الفئام من النّاس...»، في هذه الجملة إخبار مؤكّد عن ردّ بركة الأرض إلى درجة عجيبة، وغريبة عن واقعنا، وهي أن الثّمار تكون عظيمة إلى درجة أن الرّمانة الواحدة تكفي الجماعة من النّاس، ويستظلّون بقشورها، ويُبارك في لبن الحيوانات ولحومها إلى درجة أن ولد الإبل حديث العهد بالولادة يكفي الجماعة الكثيرة من النّاس، كذلك ولد البقر والغنم، حيث انتقل وجه الإخبار من القوى الإنجازيّة إلى وجه التّعجّب كأحد مخصّصات الأفعال الخطابيّة، وفقاً لمبدأ الانتقال الوجهيّ داخل الطّبقة الواحدة (طبقة الفعل الخطابي).

وعموما، فقد انصبّ التّعجب على حيز النّص ككل، فالموضوع الأساس للمحادثة وهو قيام السّاعة وأمارات قروبها وحده قَمينٌ أن يُثير التّعجب في نفس المتلقّي، ومراحل هذا التّعجّب تتعلّق بالقطع السّرديّة التي تروي سلوك الدّجّال مع النّاس وفتنته لهم، وكيفيّة نزول المسيح عليه السلام

وتصرّفات يأجوج ومأجوج، وكيف يموتون جميعا موتة واحدة بظهور النّغف في رقابهم، وكيف تحملهم الطير وترميهم، وكيف تأخذ الرّيح الطّيبة المؤمنين وتترك شرار النّاس، ولا شكّ أنّ هذه الأحداث الخفيّة والوقائع الخارقة للعادة تُشعر المتلقّي بالدّهشة والذّهول والتّعجّب.

يُلحظ أنّ الفعلين الخطابيّين (النّداء والتّعجّب) وُجدا في كامل المحادثة سواء زمرة النّقلات الأصل أم زمرة النّقلات الفرع، أمّا الأفعال الخطابيّة الأخرى من قبيل الاستغاثة والنّدبة والسخريّة والتّنبيه والاستفتاح؛ فهي غير موجودة في المحادثة.

1-3-3- الوظائف البلاغيّة: تأسّست الدّفوع الابتدائية أو الإبطاليّة الواردة في طبقة النّقلة على وظائف بلاغيّة موجودة في طبقة الفعل الخطابي من المحادثة، هذه الوظائف تعلّقت بالدّعوى من حيث تعليلها وإيضاحها وبيانها بوسائل حجاجيّة كثيرة حفّزت المتلقّي؛ من أجل الإذعان والإمعان والمبادرة لها، وهي وسائل ذاتيّة تتعلّق بأخلاق كلّ من المتكلّم والمخاطب كما بيّناها في الفصل الثّالث، ووسائل موضوعيّة تخصّ الخطاب ذاته منها: الحوار والقياس والاستدلال والإيضاح والتّقوية.

أ- الحوار: تمّ الحجاج بالحوار، حيث يحتضن الخطاب قطعاً حواريّة ظهرت في أسئلة الصّحابة وأجوبة الرّسول ﷺ عنها، لخدمة طبقة كاملة من الأفعال الخطابيّة حول مبرّر خوف الرّسول ﷺ على أمّته من فتنة الدّجّال، وجنوحه إلى تعريفهم به وتثبيتهم وكيفية التّصدي له، وسرد الأحداث التي تعقب ظهوره.

ورغم ما يبدو من سطحيّة الأسئلة المتدّخلة (حول سرعة الدّجّال ومدّة لبثه في الأرض) إلاّ أنّها جاءت من قبيل الإلحاح في المحاورة من جهة المخاطب الذي يسترعي انتباه المتكلّم بدليل إحالتها إلى ذات واحدة هي الدّجّال وتكرار عبارات من قبيل (يا رسول الله، الأرض)، كما أنّها سيقت بشكل يسمح بتوجيه المحادثة إلى غايتها؛ لأن الرّسول ﷺ كان يجيب عن السّؤال ثمّ يسترسل مباشرة في سرد السلسلة الحدثيّة ووصف ذواتها ووقائعها، ليُوفّر عليهم السّؤال، وحتّى لا تتحوّل المحادثة إلى مجرّد مراجعة في الحوار التي تقوم على السّؤال والجواب بأوجز عبارة بين المتكلّم والمخاطب.

ب- القياس: نجد القياس عندما وصف الرّسول ﷺ الدّجّال بأنّه يكاد يشبّهه بعبد العزى بن قطن، وهو رجل من خزاعة هَلَكَ في الجاهليّة (عرفات، 2001، ص363)، فيقيسُ بصورة الرّجل المعروف في مداركهم من أجل تقريب شكله لهم، كذلك عند وصف سرعته بالغيث استدبرته الرّيح فمن أجل إقناعهم بدرجة سرعته يقرّبها لهم بقياسها بسرعة الغيث حينما تدفعه الرّياح من خلفه، وهي صورة يشاهدوها بأعينهم في الطّبيعة، وقريبة إلى حواسهم، كذلك عن وصف الكنوز تتبع

الدّجّال كيعاسيب النّحل، فهي قياسٌ بصورة يعاسيب النّحل التي يرونها بحواسهم في الطّبيعة لإدراك مدى نفاذ أوامر الدّجّال في كنوز الأرض الخربة.

ج- الاستدلال: يعتبر الحجاج بالاستدلال إحدى الحجج المرجعيّة التي يستند إليها المتكلّم لإثبات صدق القضيّة واتخاذ موقفه منها، إلى جانب الحجاج بالتّجريب الذي يرتبط بالتّجربة الشّخصية للمتكلّم، والحجاج بالسّماع الذي يستقيه المتكلّم من آراء غيره، وهذه الأنواع الثّلاثة من الحجاج كانت في النّموذج القالبي تسمّى بالسّمات الوجهيّة العلميّة.

يُسْتَبْعَدُ في المدوّنة أن يستعين الرّسول ﷺ بالحجاج السّماعي؛ لأنّ كلامه وحي يوحى ليس في حاجة إلى آراء غيره لصدق قضيّته، كما لم نعثر على تدخّل يرتبط بتجربته الشّخصية، في حين يتجلّى لنا دائما وبقوّة حجاجه الاستدلالي القائم على تناص كلامه مع القرآن الكريم، فعند تفكيك المحادثة من أجل فهمها تصادفنا فيها قَرابةٌ تجمعها مع آيات قرآنية، من خلال استحضار عدّة بؤرٍ منها وإعادة توظيفها تلقائيّاً، وهي:

- البؤرة1: قوله ﷺ: «والله خليفَتي على كلّ مُسلمٍ»؛ أي إذا توفّي الرّسول ﷺ قبل وقت خروج الدّجّال، فإنّ الله ﷻ يخلفه على المسلمين في الدّفاع عنهم والتّصدي للدّجّال، هذا يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عنِ الّذينَ آمَنُوا...﴾ الحج38؛

- البؤرة2: قوله ﷺ: «فبينما هو كذلك إذْ بعثَ الله المسيحَ بن مريم»، فالمسيح بن مريم لم يُقتل كما يدّعي النّصارى، ولكن شُبّه لهم ورفعه الله إليه، حيث سيبعثه الله ليقتل الدّجّال، وهذا إحدى علامات قروب السّاعة، مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً... وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الزخرف57-61؛

- البؤرة3: قوله ﷺ: «ويبعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ»، يبعث الله قوم يأجوج ومأجوج، بعد أن ينفتح عنهم سدّ ذي القرنين، فيخرجون مسرعين من كل جانب، يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ الأنبياء96؛

- البؤرة4: قوله ﷺ: «وَيبقى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فيها تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» يبعث الله ريحاً طيّبةً فتقبض روح كل مسلم، وتترك شرار النّاس في حالة من المسافدة والتّهارج وتقوم السّاعة عليهم، يتناصّ مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ الحج55.

د- الإيضاح: تعدّ قاعدة الوضوح التي تستوجب خلوّ الخطاب من أي تشويش أو إيهام من بين قواعد الحوار التي وضعها (بول ڤرايس P.Grice) في التّداوليّات الحديثة، ونحن في هذه المحادثة نحاول أن نبيّن أحد وجوه الإيضاح التي لجأ إليها المتكلّم، حيث أورد الرّسول ﷺ في هذه

المحادثة جملا في ظاهرها غامضة مبهمة ثم تلاها بجمل توضّحها عن طريق نشر معناها أو تقسيم محتواها إلى تفريعات، فيذعن السّامع ويبادر إلى التّصديق.

وقد وقع الغموض في جملة «غير الدّجّال أخوفني عليكم» ثمّ جاء توضيح لفظ الدّجّال في جمل «إنّه شابّ قطط، عينه طافئة كأنّي أشبّهه بعبد العزّى بن قطن»، والتصق اللّبس بجملة «أربعون يوماً»، ثم أتى الإيضاح بنشر معناها في الجمل: «يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيّامه كأيّامكم»، وحدث الإبهام في جملة «ويُبارك في الرّسل»، ثم جاء البيان بتفريع محتواها في الجمل: «حتى إن اللّقحة من الإبل لتكفي الفئام من النّاس، واللّقحة من البقر لتكفي القبيلة من النّاس، واللّقحة من الغنم لتكفي الفخذ من النّاس».

هـ- التّقوية: بعدما كانت التّقوية سمة وجهيّة ذاتيّة معرفيّة في الطبقة الوجهيّة من المستوى العلاقي في النّموذج القالبي؛ انتقلت إلى سمة تُرصد داخل إحدى طبقات المستوى التّداولي أو أحد مكوّناتها، وحتّى يكون تناولها أشمل لتلك المكوّنات؛ رأينا برصدها في وسائل الحجاج في الوظائف البلاغيّة. والتّقوية هي استراتيجيّة حجاجيّة يعمد إليها المتكلّم لتأكيد فحاوى قضاياه وإقناع مخاطَبه بالدّفوع الملقاة له، فيدفع بها شكّه أو إنكاره أو تمادي إنكاره.

وانصبّت التّقوية على كلّ من الحدود والمحمولات والجمل في الدّفوع الإبطاليّة التي تضمّنت القوّة الإنجازيّة إخباراً طلبياً أو إنكارياً، حيث انخفضت درجتها في القطع التي أحسّ فيها المتكلّم أن المخاطب يشكُّ فيها أو يتردّد في قبولها، وارتفعت في القطع التي أحسّ فيها المتكلّم أنّ المخاطب يُنكر أو يتمادى في إنكاره، ولم تُوظِّف المحادثةُ التّقويةَ إطلاقاً في الدّفوع الابتدائيّة منها لأنّ المخاطَب لا يتردّد في قبولها.

وحسبَ سلّمية التّقوية عند (الزّهري) (2014/أ، ص118)، فقد تدرّجت سلّمية التّقوية في الأفعال الخطابيّة للمحادثة بحسب رد فعل المخاطب كما يلي:

1- الدّرجة الصّفر: انعدمت المؤكّدات في الإخبار الابتدائي في النّص، وشواهده كثيرة؛ لأنّ النّص يميل إلى السّرد أكثر من الحجاج، ومنها الجمل: «فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له»، فالمخاطب هنا لا يتردّد في قبول الدّفوع الابتدائيّة.

2- الدّرجة الأولى: تم تقوية القوّة الإنجازيّة الإخبار بتسخير مؤكّد واحد؛ لأن المخاطَب تردّد في قبول الدّفوع الإبطاليّة، وشواهده في الإخبار الطّلبي وهي:

- ✓ توظيف الأداة التركيبيّة (إنّ): تسلّطت على الفعل الإحالي ممثلا في الحد (الدّجّال) في الجملتين: «إنّه شاب قطط»، «إنّه خارج خلّة بين الشّام والعراق»، لتقوية معاني وصف حدّ الدّجّال في حقارة شكله ومكان خروجه؛
- ✓ توظيف الأداة الصرفيّة (قد): تحيّزت في الفعل الحمليّ: «قد عصمهم الله منه» لتقوية معنى حفظ الله للمؤمنين من شرّ الدّجّال؛
- ✓ توظيف الأداة الصرفيّة (صيغة المبالغة): انصبّت على الفعل الإحاليّ (الدّجّال) باتّخاذ الوزن (فعّال)، لتقوية معنى كثرة الدّجل والكذب والتّلبيس والتّمويه؛
- ✓ توظيف الأداة الصّرفيّة (صيغة التّكثير): تحيّزت في الفعل الإحاليّ (السّارحة) باتّخاذ الوزن (أفعله) في: (أطوله، أسبغه، أمدّه)، لتقوية معنى حالة السّارحة وهي ترجع من مراعيها في أعظم صورة تصل إليها من حالة الشّبع.

3- الدّرجة الأعلى: رصدت مؤكّدين مع التّنغيم المركّب لتقوية القوّة الإنجازيّة الإخبار؛ لأنّ المخاطب ينكر القضيّة، وشواهدها هي:

- ✓ توظيف الوسيلتين اللّغويتين: [التّركيبيّة (إنّ) + الصّرفيّة (قد)]: تسلّطتا على حيّز الفعل الخطابي ككل في الجملة: «إنّي قد أخرجت عبادا لي لا يَدَان لأحد بقتالهم»، لتقوية معنى قوّة إنجازيّة هي إخبار الله ﷻ نبيّه عيسى بإخراج يأجوج ومأجوج، وأنّ لا طاقة لأحد بقتالهم؛
- ✓ توظيف الأداتين: [التّركيبيّة (اللام) + الصّرفيّة (قد)]: انصبّتا على حيّز الفعل الحملي في الجملة: «لقد كان بهذه مرة ماء»، لتقوية معنى كون الماء في البحيرة قبل وقت قدومهم إليها، وورود من قبل من سبق المتأخرين من صفوف قوم يأجوج ومأجوج.

4- الدّرجة العليا: خصّصت أكثر من وسيلتين لغويتين مع التّنغيم المركّب؛ لأنّ المتكلّم يشعر أنّ المخاطب قد يتمادى إنكار فحوى القضيّة خاصة إذا تعلق الأمر بأمور الغيب وقدرة الله ﷻ، ونستجلي هذا الأمر في النّص في شاهد واحد: «حتى إنّ اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من النّاس، واللّقحة من البقر لتكفي القبيلة من النّاس، واللّقحة من الغنم لتكفي الفخْذ من النّاس»، حيث تمّ فيه توظيف الأداتين التركيبيتين (إنّ، اللام) بالإضافة إلى الأداة المعجمية (تكرار الألفاظ: اللّقحة، تكفي، النّاس)، وتحيّزت كلّها في الفعل الخطابي ككل لتقوية معنى رد بركة الأرض لفائدة النّاس، وهذه الدّرجة هي أقصى ما حققته التّقوية في النّص.

وقلّت في هذا النّص أدوات التّقوية، كما لم تصادفنا أدواتها الصّورية الأخرى مثل: الصّرفيّة (لا شكّ، نوني التّوكيد الخفيفة والثّقيلة)، والتّركيبيّة (القسم)، وهذا مقارنة بالنّص السّابق الذي استحوذت عليه التّقوية؛ لأنه كان حجاجياً بالدّرجة الأولى، أمّا هذا النّص فيغلب عليه السّرد والوصف أكثر من الحجاج.

وتمثّلت الوظائف البلاغيّة الموجودة في طبقة الفعل الخطابي من المحادثة في تعليل الدّعاوى الابتدائيّة أو الإبطاليّة الواردة في طبقة النّقلة وإيضاحها وبيانها، واستعانت بآليات حجاجيّة وُجدت في زمرة النّقلات الأصل كالحوار والقياس والإيضاح، وبآليات السّمات الوجهيّة ممثّلة في الاستدلال والتّقوية، وتمّ تسطيحها بتضافر صرفي–تركيبي والتّنغيم المتصاعد أو المتنازل. غير أنّ التّقوية لم تكن بالمستوى الذي عهدناه في النّص السّابق، ذلك أنّ هذا الأخير كان حجاجياً بامتياز أمّا هذا النّص موضوع الفحص رغم أنّه من الخطابات الذّاتيّة الدّينيّة أيضاً التي نرتقب فيها غلبة الحجاج؛ إلاّ أنّه يميل بقوّة إلى السّرد والوصف أكثر من الحجاج.

1-3-4- القوى الإنجازيّة: تؤشّر القوّة الإنجازيّة لفعل خطابي ما إلى الخصائص المعجميّة والصّوريّة لذلك الفعل الخطابي التي تحدّد استعماله علاقيا لتحقيق قصد تواصلي ما. (مليطان، 2014، ص117)، ونجد في الفعل الخطابي لزمرة النّقلات الفرع القوّة الإنجازيّة الاستفهام فقط حرفيّاً غير مستلزم، أمّا في الفعل الخطابي لزمرة النّقلات الأصل فنجد القوتين الإنجازيتين: الإخبار والأمر، بالصّورة الحرفيّة والصّورة المستلزمة، والدّعاء بالصّورة الأصل؛ لأنّ الحديث القدسيّ يندرج ضمن فئة الخطابات الذّاتيّة الدّينيّة وهو ذو آليات سرديّة ووصفيّة وحجاجية، ويُبرّر وجود القوى الإنجازيّة المستلزمة بكون أسلوبه تقريري إنشائي تفاعلي يتوفّر على آليات الاستلزام الحواري.

1-3-4-1- القوة الإنجازيّة الإخبار: تجلّت القوّة الإنجازيّة الإخبار على مستوى البنية السّطحية في شكل تنغيم متنازل، ولم يكن فحواها قديما لازمة الفائدة بل إخبارٌ بفحوى جديد لا يعلمه المخاطَب، وهو كثير كما يلي:

أ- الإخبار المجرى على أصله: هو قوّة إنجازيّة تحمل مجرّد الإخبار دون استلزماها وخروجها إلى أغراض أخرى، مثل الإخبار عن شكل الدّجّال ومكان خروجه ومدّة مكوثه في الأرض وسرعته وأفعاله وتصرّفاته الفاتنة لدين النّاس، وكذلك الإخبار عن مكان نزول المسيح بن مريم، وعن مكان خروج يأجوج ومأجوج وفسادهم في الأرض.

ب- الإخبار المجرى على غير أصله: هو عبارة عن قوى إنجازيّة تستلزم عن الإخبار بالخروج إلى أغراض أخرى، مثل: المدح، التّعظيم، الوعد، الوعيد، الاسترحام.

1- الإخبار المجرى على المدح: وقع في الإخبار عن دفاع الرّسول ﷺ عن المسلمين ضدّ الدّجّال إن عاش إلى زمانه وإلاّ فإنّ الله يخلفه فيهم، والإخبار عن نزول المسيح بن مريم بين مهرودتين واضعا كفّيه على أجنحة ملكين، وأنه يمسح على وجوه المعصومين من الدّجّال ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنّة، والإخبار بأنّه الأرض في نهايتها تردّ بركتها فيأكل النّاس جميعاً من خيراتها الطيّبة.

2- الإخبار المجرى على التّعظيم: حدث في الإخبار أن الله العليّ العظيم يحمي المسلمين من شرّ الدّجّال حيث يرسل له عيسى بن مريم فيقتله، وأنّه ينجيهم من شرّ يأجوج ومأجوج فيرسل النّغف في رقابهم فتقتلهم ثم يرسل عليهم طيرا تحملهم وترميهم حيث شاء.

3- الإخبار المجرى على الوعد: كان في الإخبار عن الرّيح الطيّبة التي تأخذ أرواح المؤمنين والمسلمين فقط وتترك شرار النّاس.

4- الإخبار المجرى على الوعيد: وقع في الإخبار عن الخطر الذي ينتظر النّاس القادم من فتنة الدّجّال وشرّ يأجوج ومأجوج، ثمّ الإخبار بأنّ هؤلاء أهون على الله من ذلك فسيكون هلاكهم بيد الله، والإخبار عن قيام السّاعة على شرار النّاس وهم يتهارجون في الأرض تهارج الحمر، وهي أخبار تهدّد وتتوعّد النّاس جميعاً.

5- الإخبار المجرى على الاسترحام: حدث في الإخبار عن حال عيسى عليه السلام وأصحابه وهم يدعون الله في المرّة الأولى أن يفكّ حصارهم وينجّيهم من شرّ يأجوج ومأجوج، وفي الثّانية أن يرفع عنهم أذى جثث هؤلاء القوم التي ملأ زهمها ونتنها كلّ الأرض.

وانتقل المتكلّم إلى قطع تعليقيّة وشارحة في خطابه فتوقف عن السّرد والإخبار ولجأ إلى قوّة إنجازيّة أخرى هي الأمر.

1-3-4-2- القوّة الإنجازيّة الأمر: ظهرت القوة الإنجازيّة الأمر على مستوى البنية السّطحية للنّص في شكل تنغيم متصاعد ومتنازل، ويمكن تقسيمها إلى القسمين الآتيين:

أ- **الأمر المجرى على أصله:** هو قوّة إنجازيّة تحمل مجرد الأمر ولا تستلزم أو تخرج إلى أغراض أخرى، ومثاله في النّص: «أخرجي كنوزك»، وهو أمر موجه من الدّجّال إلى الأرض الخربة لتخرج كنوزها فتنة للعباد. ومن الأمر الحرفي أيضاً الأمر الصّادر من الرّسول ﷺ إلى النّاس ليقدروا قدر اليوم الذي كسنة في قوله: «لا اقدروا له قدره».

وهذا حكم مخصوص بذلك اليوم (الذي كسنة)، شرّعه لنا صاحب الشّرع، قالوا ولولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا؛ لاقتصرنا فيه على الصّلوات الخمس، وأمّا الثّاني الذي كشهر والثّالث الذي كجمعة، فالقياس أن يقدّر لهما كاليوم الأوّل. (متولي، 2013، ص592)؛ يعني أنّ هذا اليوم

الذي كسنة من أيام مكث الدّجّال في الأرض، تكون الصّلاة فيه بتقدير الوقت العادي ما بين الصّلاة والأخرى بزمن أيّامنا، فإذا انقضت الصّلوات الخمس تُصلّى الصّلوات الخمس الموالية وهكذا حتى ينتهي ذلك اليوم الذي كسنة، ويُستفاد من هذا ضرورة الحفاظ على مواقيت الصّلاة في كل الظّروف.

ب- الأمر المجرى على غير أصله: هو القوى الإنجازيّة التي تستلزم عن الأمر بالخروج إلى أغراض أخرى، مثل: الإرشاد، التّحذير، الإكرام.

1- الأمر المستلزم إلى الإرشاد: «فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»؛ وهو أمرٌ لإرشاد العبد إلى حفظ أوائل سورة الكهف فإنها درءٌ للدّجّال، «يا عباد الله فاثبتوا»؛ وهو أمرٌ لإرشاد الأمّة ودعوتهم إلى الثّبات على دينهم وعدم الافتتان بالدّجّال.

2- الأمر المستلزم إلى التّحذير: «فحرّز عبادي إلى الطّور»؛ وهو وحي الله لنبيه عيسى عليه السلام ليحرّز عباد الله إلى جبل الطّور تحذيراً له من خطر يأجوج ومأجوج.

3- الأمر المستلزم إلى الإكرام: الأمر صادر عن المولى ﷻ إلى الأرض الزّلفة الصّافية لتعيد رزقها: «أنبتي ثمرتك وردّي بركتك»، وهذا الأمر بإنبات الثّمر ورد البركة هو إكرام ورحمة للمؤمنين الناجين من شرّ الدّجّال وشر يأجوج ومأجوج.

ويُلحظ في المحادثة انعدام القوّة الإنجازيّة النّهي، في حين استقلت زمرة النّقلات الفرع بالقوّة الإنجازيّة الاستفهام وحدها.

1-3-4-3- القوّة الإنجازيّة الاستفهام: تضمن الفحوى الخطابي للزّمرة الفرع قوّة إنجازيّة واحدة هي الاستفهام جرى على أصله، فحمل مجرد الاستفهام الحرفي لطلب المعلومة فحسب دون استلزامها وخروجها إلى أغراض أخرى، وظهر في أسئلة الصّحابة الثّلاثة، وقد تم التوّسل إليه بالتّنغيم المتصاعد المصاحب لأداة الاستفهام (ما) التي انصبّت على المحمولين: (مدة لبث الدّجّال وإسراعه في الأرض)، ولأداة الاستفهام (الهمزة) التي انصبّت على الفعل الخطابي بكامله (كفاية الصّلاة في ذلك اليوم).

لقد توجّه الفعل الخطابي للحديث القدسي إلى الوجهة الإنجازيّة التداوليّة، لكن ليس بدرجة الحديث المفحوص في الفصل السّابق، هنا تجلّت قوى الإخبار والأمر أصليّة ومستلزمة، وقوّة الاستفهام أصليّة فقط، وتم تسطيح القوى الإنجازيّة بواسطة الإواليات الصرفيّة-تركيبيّة والتّنغيم فلمسنا الّتنغيم المتنازل في القوّة الإنجازيّة الخبر والأمر والتّنغيم المتصاعد في القوّة الإنجازيّة الاستفهام، والتّنغيم المركّب (متصاعد-متنازل) في الجملة الحاملة لقوتين إنجازيتين حرفيّة ومستلزمة.

1-3-4-4- القوة الإنجازيّة الدّعاء: الدّعاء كان سمة وجهيّة ذاتيّة إراديّة، في النموذج القالبي، لكنّ (المتوكّل) نقله إلى القوى الإنجازيّة الأصول، وهو عادةً يؤدى بالنّداء المفرغ من مهمة الاسترعاء والمثبت بالنّداء المستلزم، يوجّه إلى من هو أعلى وأرفع من المخلوق وهو الله ﷻ، لكن في النّص لم يتم التوسّل إليه بالنّداء المفرغ؛ وإنّما بواسطة المحمول الفعليّ (يرغب) المقصود به (يدعو)، في الجملة: «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله»، وتكررت في النّص مرتين، مرة طلباً للنّجاة من قوم يأجوج ومأجوج، ومرة طلباً لتطهير الأرض من جثث هؤلاء القوم.

1-3-5- مؤشّري المتكلّم والمخاطب: نتناول هنا إلى جانب مؤشّري المتكلّم والمخاطب العنصرَ الوسيطَ بينهما مع خاصية الاسترعاء.

أ- المتكلّم: المتكلّم هنا هو الرّسول ﷺ بلسانه في ما يرويه عن ربّه، فاللّفظ من عنده والمعنى من عند الله؛ وقد انعكس في البنية السّطحيّة في جانبين:

- الجانب الأول: في كلام راوي الحديث الذي وظّف ضمير الغائب المفرد المستتر المحيل إلى ذات الرسول ﷺ في المقاطع الحوارية: (قال: «غير الدجال...»، قال: «أربعون يوما...»، قال: «لا...»، قال: «كالغيث...»)؛

- الجانب الثاني: بظهور الأنا المتكلّمة للرّسول ﷺ في النّقلة الأولى تحديداً: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وأنا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُم، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ واللهُ خَلِيفَتِي على كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بْنِ قَطَنٍ...».

ب- المخاطَب: الطّرف المخاطَب في النّص هو مجموع الصّحابة الذين -باستثناء أسئلتهم الثّلاثة- بقوا صامتين منصتين لكلام رسول الله، وقد انعكس في البنية السطحيّة في جانبين:

- الجانب الأول: كلام راوي الحديث الذي استعان بضمير المتكلّم الجماعة المتصل (نا) للإحالة إلى ذواتهم في تدخلاتهم الاستفهاميّة التي تكرّرت ثلاث مرات: «قلنا: يا رسول الله...؟»؛

- الجانب الثاني: كلام الرّسول ﷺ من خلال الضّمائر المتّصلة للجمع المخاطب التي تحيل إلى ذواتهم هي: (الواو)، (كم) كما يلي: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وأنا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُم، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ... فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ... فَاثْبُتُوا»، «...وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» «لاَ، أُقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ».

ج- الوسيط: لا وجود لوسيط بين الرّسول ﷺ وصحابته في الخطاب، ولكن المتكلّم الرّسول ﷺ هو نفسه وسيط في نقل الرّسالة بين الله ﷻ والعباد، وناقل الحديث إلى المتلقّي المتباعد أيضاً وسيط، فالمركّز الإشاري بهذا المنظور معقّد وليس بسيطاً؛ لأنّ الخطاب تمّ بوساطة، وسنتناول مسألة الوساطة هذه بأكثر تفصيل في الفصل الأخير من هذا العمل.

د- الاسترعاء: إن الطبقة الاسترعائية المعروفة في المستوى العلاقي من النّموذج القالبي لم يُشِر إليها أصحاب نموذج نحو الخطاب الوظيفي، إلا أننا هنا في حديثنا عن مؤشري المتكلّم والمخاطب لا يمكننا تجاوزهما دون التطرّق إلى هذه المسألة، حيث ظهر الاسترعاء في المحادثة بنوعيه المباشر وغير المباشر، لضمان رغبة المخاطَب في المشاركة في الحدث الخطابي كما يلي:

1- الاسترعاء غير المباشر في النّص وقع في علاقة بين الرّسول ﷺ ومضمون خطر الدّجّال وقوم يأجوج ومأجوج، لاستدعاء اهتمام المتلقّي نحو مضمون الخطاب، وضمان مشاركته فيه، وتحقّق بآليتي الوصف والسّرد (تحدّثنا عنهما في أسلوب الخطاب من طبقة المحادثة).

2- الاسترعاء المباشر وقع في علاقةٍ بين منتج الخطاب الرّسول ﷺ والمتلقّي وهم الصّحابة والنّاس كافّة، وعلاقةٍ بين المتخاطِبين داخل متن المدوّنة، حيث جمع بين الله ﷻ وعيسى عليه السلام وبين الدّجّال والقوم الذين يدعوهم للإيمان به، وبين الدّجّال والأرض الخربة، تمّ التّأشير له بوسائل لغويّة لافتة لانتباه المتلقّي، مثل: الصّور الفنيّة (تحدثنا عنها في طبقة المحادثة)، التّراكيب الندائيّة (طرحناها في مخصّصات الأفعال الخطابيّة)، وضريبتها التّراكيب الإشاريّة (نتطرق إليها في الأفعال الإحاليّة)، وكذلك التّكرار اللفظي الذي مسّ العبارات الآتية:

- تكرّرت العبارة: «يأتي على القوم فيدعوهم» مرّتين؛ المرة الأولى مع الذين يؤمنون به ويستجيبون له، والمرة الثّانية مع الذين يردّون عليه قوله، للفت انتباه المتلقّي إلى حيث الدّجّال يمينا وشمالا وكثرة دعوته للنّاس، وأنّهم صنفان: مؤمنون به، وكفّار به.

- تكرّرت العبارة: «نبيّ الله عيسى وأصحابه» أربع مرّات في الأفعال الخطابيّة التي تضمّنت البؤر التالية: عندما حُصِروا، عند دعائهم اللهَ أن ينجيهم من شرّ يأجوج ومأجوج، عند هبوطهم من جبل الطّور إلى الأرض، عند دعائهم اللهَ ثانيةً أن يطهّر لهم الأرض من جثث يأجوج ومأجوج فمنذ أن أتى القوم النّاجون من شر الدّجّال إلى عيسى عليه السلام فمسح على وجوههم وحدّثهم بدرجاتهم في الجنّة، وهم ملازمون له في باقي السلسلة الحدثية.

- تكررت العبارة: «يرسل الله» ثلاث مرات متعلقة بقوم يأجوج ومأجوج: المرة الأولى لإرسال النّغف في رقابهم فيقتلهم، المرة الثّانية لإرسال الطّير تحملهم وتطرحهم حيث شاء الله، المرة الثّالثة لإرسال المطر لتغسل الأرض من آثار جثثهم، والحكمة من هذا التدرّج أن يلجأ النبي عيسى وأصحابه إلى الله بالدّعاء والإلحاح فيه، فيفيد تعظيم قيمة الدّعاء في نفس المتلقّي فالدّعاء أقوى سلاح في يد المؤمن، كما يفيد معرفة الله، فمن قدرته أن الأشياء التي نراها عظيمة في الدّنيا يرسل لها أضعف مخلوقاته لتقهرها كالدّود والطّير.

وقد عملت هذه التّكرارات على تقوية المعنى، واسترعاء انتباه المتلقّي، وهي خاصيّة اتّصفت بها الأحاديث القدسيّة باعتبارها خطابات ذاتيّة الوجه وغنية المستوى التداولي.

1-4- طبقة الفحوى الخطابي: هي إحدى طبقات المستوى العلاقي المتضمنة للحمل والإحالة (مليطان، 2014، ص107)؛ أي تتضمّن هذه الطبقة الأفعال الإحاليّة والأفعال الحمليّة.

1-4-1- الأفعال الإحاليّة: الإحالة فعل تداولي يقصد به وسم ذات ما في الخارج أو داخل الخطاب نفسه على العود أو الاستباق من حيث: معرفيّتها أو تنكيرها، عمومها أو خصوصها إطلاقها أو تقييدها. وتتخذ أحد أوضاع ثلاثة: فتكون فعلاً إحاليّاً، أو مخصّصاً ينصّب على فعل إحالى بعينه أو طبقة برمّتها، كما تكون فعلاً خطابياً قائم الذّات مستقلاً استقلال التّابع أو استقلال المتكافئ. (المتوكّل، 2010، ص ص120-121)، ولم يتطرّق نحو الطّبقات القالبي إلى قضية الإحالة في مستويات مكونه النّحوي، لكنّها حاضرة في نحو الخطاب الوظيفي في مخّصص الأفعال الإحاليّة.

وتعتبر الإحالة في هذا النّموذج فعلاً تداولياً، وعلاقة تقوم بين الخطاب وما يحيل عليه فى الواقع أو في المتخيّل أو في خطاب سابق أو في خطاب لاحق، وترتبط بالمعلومات التي يفترض المتكلّم وجودها لدى المخاطب عن المحال عليه أثناء التّواصل، ويمكن أن تتحقّق الإحالة بمخصّصات أو أفعال إحاليّة أو أفعال خطابيّة، كما قد يكون المحال عليه ذاتاً أو واقعة أو قضيّة أو فعلاً خطابيّاً أو نصاً كاملاً.

1-4-1-1- السّمات الإحاليّة للطبقة: وهي تُشكل مخصّصا إحالياً يأخذ في حيّزه طبقة كاملة من طبقات المستوى العلاقي، منها: ثنائيتا العام/ الخاص والمطلق/ المقيد. (المتوكّل 2010، ص118)، فالسّمة الإحاليّة هي علامة تحكم خصائص الخطاب المعجميّة كما تسهم في تحديد خصائصه الصّرفيّة-التّركيبيّة، ويمكن أن نقول هي مخصّصات إحاليّة لطبقة الفحوى الخطابي أو طبقة الفعل الخطابي أو طبقة النّقلة أو طبقة الحديث.

وتتحقق سمة العموم في العبارات اللّواحق من قبيل (عموما) و(بوجه عام)، وفي ضمائر الاستفهام مثل (مَن) و(ماذا) و(أين) و(متى)، وفي النّفي المنصبّ على نكرة مثل: (لن أقرأ كتاباً) وتتحقق سمة الإطلاق في العبارات التي من قبيل (إطلاقاً) و(بدون استثناء)، وتتحقق سمة التقييد مثلا في (النّكرة المخصوصة) و(النّكرة المقصودة) التي تحدد إعراب المنادى. (المتوكّل، 2010 ص119-120)، ويمكن أن نضيف بناءً على هذه المسطرة أن سمة الخصوص تتحقّق في عبارات لواحق مثل: (خصوصاً)، (بصفة خاصة).

ونشير إلى أنّه لم تتحقّق في نصّنا المفحوص السّمات الإحاليّة للطّبقة بتلك الخصائص المعجميّة والصّرفيّة والتّركيبيّة، إلاّ ما نجده في التّركيب المحكوم بسمة العموم والمشكَّل من النّفي المنصبّ على نكرة في طبقة الفعل الخطابي في الشّاهدين: «لا يدان لأحد بقتالهم»، «ليس بأيديهم شيء من أموالهم»، كما تحققت سمة الإطلاق في طبقة الفعل الخطابي التي تضمّنت القوّة الإنجازية الأمر مثل: «يا عباد الله أُثبتوا»، «فحرّز عبادي إلى الطّور».

1-4-1-2- السّمات الإحاليّة لمخصص الفعل الإحالي: المقولات التي يمكن أن تشكّل فعلاً إحالياً في اللّغة العربيّة، هي: الاسم المشترك والاسم العلم واسم الإشارة والضّمير والموصول. (المتوكّل، 2010، ص90)، ونبيّن السّمات الإحاليّة للفعل الإحالي في النّص على النّحو الآتي:

أ- الاسم المشترك: يحيل على مجموعة من الذوات تتقاسم صفات معيّنة وتحتمل العموم أو الخصوص وكذا الإطلاق أو التّقييد، مثل: (شاعر) يحيل على كل من يقرض الشّعر، ويؤشّر له في طبقة الفحوى الخطابي باعتباره فعلاً إحالياً فارغاً حاملاً لسمات إحاليّة يحددها مخصّصه، وهو يحمل فحوى يؤهّله لأن يدمج كوحدة معجميّة في المستوى التّمثيلي باعتباره حداً من حدود طبقة الواقعة. (المتوكّل، 2010، ص102-103).

يحمل الاسم المشترك إمّا السّمة الإحاليّة (تنكير) فتلحقه الصّرفة اللاحقة النون (بسبب التّنوين) مثل: (استمعت إلى أغنيةٍ)، وإمّا السّمة الإحاليّة (تعريف) فتلحقه الصّرفة السّابقة الألف واللام مثل: (أطربتني الأغنية). (المتوكل، 2010، ص92)، حيث يتحدّد التّعريف/ التّنكير بحسب معرفة/ عدم معرفة المخاطَب للمحال عليه، إما مقاليّاً (عود أو استباق) أو مقاميّاً (حضور)، ومن شواهد الاسم المشترك في المحادثة ما يلي:

- «والله خليفتي على كل مسلمٍ»، (مسلمٍ) اسم مشترك يحيل على مجموعة من الذّوات تتقاسم صفة الإسلام والوجود في ذلك الزمان القادم، وهذا الاسم هو في ذاته فعلٌ إحاليٌ يحمل السّمة الإحاليّة (تنكير) لحقته الصّرفة النّون، فيراد بذلك العموم (كلّ مسلم)، فالإحالة هنا مقاميّة والمحال عليه عام للمسلمين جميعاً ومقيّد بزمان معيّن.

- «فحرّز عبادي إلى الطّور»، (عبادي) هو اسم مشترك يحيل إلى جماعة من العباد أو النّاس أو القوم، فهو فعل إحالي سمته الإحالية هي (التّعريف)، حيث لم تلحقه الصّرفة السّابقة الألف واللام كما جاء في المسطرة المتوكّليّة، ولكن لحقه المضاف إليه (الياء العائدة على الله ﷻ)، وتحدّدت بمعرفة المخاطب له مقاليّاً بإحالة عود، حيث يرجع المتلقّي إلى السّياق المقالي في المحادثة فيستثني الجماعات البشريّة الآتية: (عباد الله الذين أمرهم الرّسول ﷺ بالثّبات في بداية المحادثة، القوم الذين أتاهم الدّجّال فآمنوا به، القوم الذين أتاهم الدّجّال فردّوه، العباد الذين لا يَدان

لأحد بقتالهم وهم قوم يأجوج ومأجوج)، ثم يُبقي على جماعة واحدة هي: (القوم الذين عصمهم الله من الدّجّال فأتوا إلى عيسى ابن مريم فمسح على وجوههم)، فالمحال عليه في هذا المقال خاص ومقيّد.

وتشمل السّمة الإحاليّة الفعل الإحالي كله رأساً وفضلةً، فيتطابقان من حيث مخصّصات الإعراب والإحالة والتّعريف أو التّنكير مثل: (التقيت بالزّميل المصري)، ويجوز خرق هذه القاعدة إذا كانت الفضلة صفة منقطعة مثل: (التقيت بزميلٍ، المهديَّ/المهديُّ)، أو جملة موصوليّة غير مقيّدة مثل: (التقيت بزميلٍ، الذي يصادقني). (المتوكّل، 2010، ص93)؛ حيث إنّ كل من الصفة المنقطعة والجملة الموصوليّة غير المقيّدة تشكل فعلا إحالياً مستقلاً من حيث مخصّصه، وينتمي إلى فعل خطابي مستقل عن الفعل الخطابي المتضمّن للرّأس.

ب- اسم العلم: يدمج الاسم العلم بدءاً في موقع الفعل الإحالي ثم يؤشّر له في طبقة الواقعة في المستوى التّمثيلي باعتباره حدا فارغا؛ لأنه لا فحوى دلالياً راهناً له وإن كان له معنى في الأصل، ولا تدخل عليه أداة التّعريف إلاّ في ثلاث حالات هي: لازمة تقترن به وجوباً كما في (اللاّت) و(العزى) و(السموأل)، واختياريّة يسوغ حذفها كما في أسماء الأعلام المنقولة عن صفات (سعيد/السّعيد) أو عن مصادر (أفضل/الفضل)، وناقلة تُخرج الاسم من الاشتراك إلى العلمية مثل: اسم (الكتاب) حين يحيل على مؤلّف سيبويه. (المتوكّل، 2010، ص ص102-104)؛ فهذه الحالات الثّلاث هي حالات خاصة لا تفيد فيها التّعريف؛ حيث إنّ اسم العلم معرّف وجوباً في ذاته، ولا يُنوّن تنوين تنكير، وتلزمه باقي السّمات الإحاليّة لزوم ضرورة، ويحيل على ذات بعينها تُسمّى المحال عليه الذي يكون مقيّداً وخاصّاً بالضّرورة.

ووظّفت المحادثة أسماء الأعلام في نوعين: أسماء البشر وأسماء الأماكن، كما يلي:

1- الدّجّال: هو شابٌّ من ابن آدم يدّعي الألوهية في نهاية الزمان، أحمرٌ، قصيرٌ، قطَطٌ أعورٌ، سُمّي بالمسيح؛ لأن عينه الواحدة ممسوحة، مكتوب بين عينيه (ك ف ر) يقرأها المسلم وإن كان أميا ولا يقرأها الكافر وإن كان متعلّماً. (الضّوّي، 1999، ص439-440)، وهذا اللفظ في الأصل صفة لكل من يكثر الدّجل، لكنه ارتبط بشكل ملازم بالمسيح الدّجّال فأصبح اسماً له، وهو في المتن يحيل مقاميّاً إليه.

2- عبد العزى بن قطن: هو اسم رجل من خزاعة هلك في الجاهليّة (عرفات، 2001 ص364)، وكان يشبه المسيح الدّجّال في شكله، والإحالة هنا مقاميّة.

3- عيسى بن مريم عليه السلام: يحيل مقامياً إلى اسم النّبي المرسل إلى بني إسرائيل قبل إرسال محمد ﷺ للنّاس كافة، وكذلك اسم أمّه السيّدة مريم ابنة عمران الصِّدّيقة.

4- يأجوج ومأجوج: هو اسم القوم الذين ردمهم ذو القرنين عندما بنى عليهم السّد، وهم من ذريّة آدم يخرجون في آخر الزّمان فينشرون الرّعب في النّاس، ويعيثون في الأرض فساداً. لا قِبل لأحد بقتالهم، لكثرة عددهم وقوة أبدانهم وجلدهم في الحروب، ومن أوصافهم أنّهم صغار العيون عراض الوجوه (الضّوّي، 1999، ص446)، وقد أحيل إليهم مقامياً.

5- المنارة البيضاء شرقي دمشق: هي المكان الذي ينزل عنده عيسى عليه السلام، ليُخلّص النّاس من الدّجّال، وهي لا تزال موجودة إلى اليوم، والإحالة هنا مقاميّة.

6- الشّام والعراق: هما بلدان يقعان في المشرق العربي، حيث يخرج الدّجّال من طريقٍ بينهما، وتمت الإحالة إليهما في السّياق المقامي.

7- باب لُدٍّ: هي بلدة تقع شمال فلسطين إلى جهة البحر، قريبة من بيت المقدس (أبو الدّهب، 2002، ص121)، يدرك فيها النبي عيسى عليه السلام الدّجّالَ فيقتله، وتمت الإحالة إليه مقامياً.

8- بحيرة طبرّيةَ: هي بحيرة تقع في مدينة طبرية بفلسطين يخترقها نهر الأردن. (أبو الدّهب، 2002، ص378)، يشرب ماءها أوائل صفوف قوم يأجوج ومأجوج.

9- الطّور: هو الجبل، وهو اسم جبل بالشّام وقيل بِمَدين (ابن منظور، ج31، ص2718) وقيل يقع في شبه جزيرة سيناء، كلّم الله تعالى موسى عليه السلام عنده (أبو الدّهب، 2002، ص385) وفي المتن يحيل مقامياً إلى المكان الذي أوحى الله لعيسى عليه السلام أن يحرّز إليه عباده الصّالحين حفظاً لهم من شرّ يأجوج ومأجوج.

يُلحظ أن كل أسماء العلم هي مخصّصات تحيل إحالة مقاميّة خارجة عن النّص، وتتعلّق بالعلامات الكبرى لقروب السّاعة، وهي مجموع وقائع فتنة الدّجّال ونزول النّبي عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج، وجلّها في المستقبل وفي بيئة جغرافيّة واحدة هي الشّام.

ج- اسم الإشارة: اسم الإشارة لفظ مبهم يستعمله المتكلّم للدّلالة على المشار إليه، وهو لا يدلّ على شيء معيّن مفصّل مستقل إلاّ بأمر خارج عن لفظه، ولذلك يكثر بعده مجيء النّعت أو البدل أو عطف البيان. (عباس حسن، 1980، ص310)، ويرى (الزمخشري) أن الإشارة تفيد أكمل تمييزٍ وتعيينٍ؛ إذْ لا يبقى اشتباه أصلا بعدها فهي بمنزلة وضع اليد، ويظهر القصد بها على مستوى العقل والحس معاً. (1998، ج2، ص719)، ويخالف اسمُ الإشارة هنا اسمَ العلَمِ والمضمر اللذين يمتاز المقصود بهما عند العقل وحده، ومن أسماء الإشارة: هذا، هذه، هذان هاتان، ذا، ذاك، ذلك، ذانك، تانك، تلك، تيك، هنا، هناك، هنالك، هؤلاء، أولئك، أولاء.

ويعتقد (الشّاوش) أنّ إذا كانت الأسماء ملازمة لمسمّياتها وتحيل إليها لكونها غير مبهة؛ فإن أسماء الإشارة لا تحيل على مسمى، لكون دلالتها مبهمة وإنما تحيل على مشار إليه، والمشار إليه

يقوم على العموم أما المسمّى فيقوم على الخصوص؛ لذلك لا تتحقّق الإشارة إلا متى توفّر ما يُعَيِّن المشار إليه. (2001، ج2، ص1065)؛ يفادُ من هذا أن اسم الإشارة مبهم من حيث الوضع؛ أي فارغ من المعنى المقصود به، يدل على مجرد الإشارة إلى المتكلّم أو المخاطب أو الغائب، وإلى الجنس والعدد والمحل الإعرابي، معرفة من حيث الاستعمال؛ لأن استعماله يقتضي أن يتوفر معه مُعين (كالصفة والبدل وعطف البيان) يرفع عنه ذلك الإبهام ويجعله من المعارف وقادراً على الإحالة على الخارج، وتحصيل المعنى لشيء مخصوص بعينه.

ويعدّ لفظ الإشارة مركّباً اسمياً قائم الذّات مشيراً إلى ذات أو مكان، حيث يتكون من اسم الإشارة نفسه (ذا، أولى، هنا...)، قد يسبقه حرف تنبيه (هذا، هؤلاء، هاهنا...) للرّتبة القربى، وقد يتلوه كاف خطاب (ذاك، هاذاك، هناك...) للرّتبة الوسطى، وقد تتوسط اللاّم بينه وبين كاف الخطاب (ذالك، هنالك...) للرّتبة البعدى. واعتبر النحاة العرب ألفاظ الإشارة أسماءً، لكنها في النّظرية الوظيفيّة قد تكون أسماء، أو مخصّصات، أو أفعال إحاليّة، أو أفعال خطابيّة.

وقد يقوم اسم الإشارة مخصّصا إحالياً يُشكّل مع الاسم مركباً اسمياً يحقق فعلاً إحالياً مثل: (عاتبت هذا الرّجل). وقد يُحقّق في ذاته فعلاً إحالياً قائم الذّات فيأخذ بذلك وضع الضّمير الإشاري، مثل: (قابلت هذا)، وقد يشكل ضميراً إشارياً يحقق فعلاً إحالياً في حد ذاته، مثل: (عاتبت هذا، الرّجل)، في حين يقوم الاسم الذي يليه مقام فعل خطابي قائم الذّات مستقل عن الفعل الخطابي الذي يتضمّن الضّمير الإشاري، استقلال تكافؤ أو استقلال تبعيّة يحمل وظيفة بلاغيّة كالتّبيين أو التّعديل أو التّعيين. (المتوكّل، 2010، ص106-112)، وقد تُنوول اسم الإشارة في النّموذج القالبي في الطّبقة الاسترعائيّة من المستوى العلاقي، لكن في نموذج نحو الخطاب الوظيفي نقلها (المتوكل) إلى مخصص الأفعال الإحاليّة من طبقة الفحوى الخطابي، وتم تسخير تركيبين إشاريين في النّص لتحقيق أفعال إحاليّة هما:

- «فذلك اليوم الذي كسنة»، قام لفظ الإشارة (ذلك) مخصّصا إحالياً وشكّل مع الاسم (اليوم) مركباً اسمياً فحقّقا معاً فعلاً إحالياً، أشار إلى اليوم الذي يساوي السنة من أيام مكوث الدّجّال في الأرض، ولأن المتكلمين ليسوا في زمان خروج الدّجّال ويستغربون حاله، فقد أشاروا إلى اليوم باللفظ ذي الرتبة البعدى المواكب للمشار إليه (اليوم) من حيث الإفراد والتذكير، وهي إحالة عود (قبلية) من حيث الموقع؛ لأنّ المحال إليه (اليوم) قد سبق وروده داخل المحادثة وليس خارجها وهذا ما يجعل المتلقّي يلتفت إلى تلك صفات اليوم التي سبق ذكرها في النّص، عبر إحالة عود داخلية (مقالية).

- «لقد كان بهذه مرة ماء»، حقّق لفظ الإشارة (هذه) وحده فعلاً إحالياً قائم الذات، فأخذ وضع الضّمير الإشاري وأحال مقامياً إلى بحيرة (طبريّة) التي كانت ممتلئة بالماء قبل مرور المتقدمين من يأجوج ومأجوج، ولأن المتأخرين الذين لم يجدوا ماءً بها؛ هم من ذات القوم، والبحيرة أمامهم؛ فقد تكلموا بلفظ الإشارة ذي الرّتبة القربى المواكب للمشار إليه (البحيرة) من حيث الإفراد والتأنيث، وهي وهذا ما يجعل المتلقي يُسترعى انتباهه إلى المحال عليه الموجود في المقام.

د- الضّمير: تُقسّم الضّمائر حسب البروز إلى: ضمائر ظاهرة (منفصلة ومتصلة)، وضمائر ضمنية (مستترة)، فالضّمائر المنفصلة فيها: ضمائر الرفع: (هو، هي، هما، هم، هنّ، أنتَ، أنتِ أنتما، أنتم، أنتن، أنا، نحن)، وضمائر النصب: (إياه، إياها، إياهما، إياهم، إياهن، إياكَ، إياكِ إياكما، إياكم، إياكن، إياي، إيانا)، أما الضمائر المتصلة ففيها: (تاء الفاعل، ألف الاثنين، واو الجماعة، نون النسوة، ياء المخاطبة، ياء المتكلّم، كاف الخطاب، هاء الغيبة، نا الفاعلين أو المفعولين)، أما الضمائر المستترة فتقدر بـ: (هو، هي، أنا، نحن). (سيبويه، 1999، ج2، ص ص350-351)، والضمائر تجمع بين التّعريف والإبهام، فهي مبهمة تفتقر إلى مفسر إذا كانت منعزلة لم تدخل التركيب، فإذا اُستعملت أصبحت من أشدّ الأسماء تعييناً، وأخذت قيمة الاسم الذي عوضته بها.

ويشترط الرّبط الإحالي بالضّمير البارز أن يكون له مرجع يعود ويحيل إليه، ويكون ملفوظا به سابقا ومطابقا له أو متضمنا له. (السيوطي، 2005، ج1، ص597)؛ أي أن الإحالة تخضع لوجوب تطابق المحيل مع المحال إليه من حيث العدد والجنس والخصائص الدلاليّة.

وتعتبر الضّمائر من أدوات الإحالة إلى مراجع موجودة داخل النّص أو خارجه، ومثلها في الإحالة أسماء الإشارة وأسماء الموصول لذلك يطلق بعض اللغويّين صفة الضميريّة على هذه الأسماء المبنيّة. (تمام حسان، 2005، ص91)، وأبرز هؤلاء اللغويين: الوظيفيون الذين يجعلون الضّمير قسمين: شخصي وإشاري.

إنّ الضّمير في نحو الخطاب الوظيفي فعلٌ إحاليٌّ، وهو نوعان: ضمير شخص وضمير إشارة. وتُصنّف ضمائر الشّخص صنفين: الضمائر التي تحيل على المتخاطبين (المتكلّم والمخاطب) وهي بدائل تقوم مقام أسماء الأعلام، والضّمائر التي تحيل إحالة عود أو إحالة استباق على غير المتخاطبين. (هنخفلد وماكنزى، 2008، ص ص118-121))، وفكرة تقسيم الضمائر بحسب المحال عليهم المتخاطبين وغير المتخاطبين ليست بالجديدة عند الوظيفيين؛ بل سبقهم إليها روّاد لسانيات النّص.

وتُقسَّم الضّمائر عند بعضهم إلى ضمائر وجوديّة مثل: أنا، أنت، هو، هو، هم ...إلخ، وإلى ضمائر ملكية مثل المتصلة بكلمة (كتاب) في ما يلي: كتابي، كتابك، كتابهم، كتابه، كتابنا...إلخ وإذا نظرنا من زاوية الاتساق؛ أمكن التمييز بين ضمائر محيلة خارج النّص بشكل نمطي وهي الدالة على المتكلم والمخاطب، وضمائر اتساقية محيلة داخل النّص وهي ضمائر الغائب. (خطابي، 2006، ص18)، وقد أُقيم هذا الحكم على أن المرجوع إليه في الغائب هو مُفَسِّرٌ ذِكْرِيٌّ وليس حُضوريٌّ، أما المرجوع إليه في المتكلّم والمخاطب فهو مُفَسِّرٌ حضوري تشهد عليه حال التّخاطب.

سبقَ أنْ عرضنا لضمائر الإشارة في المبحث السّالف، أمّا الضّمائر الشّخصيّة فهي كثيرة في النّص المفحوص، نورد أهمّها في ما يلي:

1- الضّمائر المحيلة إلى المتخاطبَين: تُشكّل أفعالا إحاليّة تحيل إلى طرفي التخاطب: المتكلّم مثل: ياء المتكلّم في: «أخوفني»، الضّمير منفصل (أنا) في: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه»، والمخاطب مثل: واو الجماعة في: (أُثبتوا، أُقدروا)، كاف الخطاب للجماعة في: (عليكم فيكم، دونكم، منكم، لأحدكم)، وهي كلّها ضمائر متّصلة أو منفصلة تحيل إحالات مقاميّة خارجة عن نص المحادثة.

2- الضّمائر المحيلة إلى غير المتخاطبَين: تُشكّل أفعالا إحاليّة تحيل إلى ذوات معيّنة في المحادثة وهي كثيرة منها: الدّجّال بالهاء المتّصلة في: (عينه، أشبهه...)، القوم بواو الجماعة في: (يؤمنون، يستجيبون...)، وبالضّمير المتّصل (هم) في: (يدعوهم، عليهم سارحتهم...). الخربة بالهاء المتّصلة المؤنّثة في: (لها، كنوزها...)، الرّجل الممتلئ بالهاء المتّصلة في: (فيضربه فيقطعه...)، المسيح بالهاء المتّصلة في: (كفيه، رفعه...)، يأجوج ومأجوج بواو الجماعة في: (ينسلون، يشربون...)، وبالضّمير (هم) المنفصل في: (وَهُمْ) والمتّصل في: (أوائلهم، رقابهم...). وهي كلّها ضمائر غائب وأغلبها متّصلة أو مستترة، تحيل إحالة عود داخل المحادثة.

هـ- اسم الموصول: الموصولات نوعان اسميّة وحرفيّة، فالموصول الاسمي هو ما افتقر إلى الوصل بجملة خبريّة معهودة أو بظرف أو جار ومجرور تامّين بوصف صريح وإلى عائد، وأمّا الموصول الحرفي فهو ما أُوِّل مع صلته بالمصدر، ولم يحتج إلى عائد. (الفاكهي، 1993، ص ص118-120)، فتكون الجملة الموصولة حسب النحاة جملتين: جملة موصولها حرف (أنْ، أنّ كي، ما، لو)، وجملة موصولها اسم (الذي، أي، مَن).

نهتم بالموصول الاسمي دون الحرفي؛ لأنه هو الذي يحقّق الفعل الإحالي، والموصول الاسمي هو «اسمٌ غامض مُبهمٌ يحتاج دائما لتعيين مدلوله وإيضاح المراد منه إلى أحد شيئين إمّا

جملة أو شبهها». (عبّاس حسن، 1980، ج1، ص341)، ويُشترط أن يكون في جملة الصّلة ضمير يعود على اسم الموصول ويطابقه، لذلك يسمّى العائد أو الرّابط.

يفصل النّحو العربي بين الموصول وصلته، باعتبار أن كل واحد منهما مكون قائم الذّات ويقصر الموصول على التّركيب الذي لا يكون فيه تابعاً لاسمٍ رأسٍ يتقدَّمه، مثل: (جاء الذي قام أبوه).

وتجعل اللسانيات الوظيفيّة من الموصول وصلته مكونا واحداً يُسمّى المركب الموصولي أو الجملة الموصوليّة، ودليل ذلك التّلاحم عدم إمكان ورود الضّمير دون جملة صلة من جهة مثل لحن هذا التّركيب: (منحت الفتاة التي)، وإمكان غيابه فى سياق التّنكير من جهة ثانية، مثال: (مُنحت فتاة فازت مكافأةً). (المتوكّل، 2008، ص ص59-60)، ويُلحظ أنّ اسم الموصول عند (المتوكّل) هو ضمير كباقي الضّمائر، ويجعله زمرتين: زمرة (الذي) التي فيها: (الذي، اللذان الذين، التي، اللتان، اللواتي)، وهي مختصة تدل على نوع معيّن، وزمرة (مَن) التي فيها: (مَن أيٌّ)، وهي مشتركة تصلح لجميع الأنواع لا تتغير صيغها، ونرى أنّ الأَحقّ أن تُضاف لهذه الزّمرة (ما) التي جعلها موصولا حرفاً فهي أيضاً من الموصولات المشتركة.

ويُفرَّق بين نوعين من الجملة الموصوليّة: (حرّة ومرؤوسة). (المتوكّل، 2010، ص ص116-117)، كما يلي:

1- الجملة الموصوليّة الحرّة: ترد دون رأس سابق، مثل: (قدم الذي/ من كنا ننتظره)، تقبل الضّمير الموصول من الزّمرتين (الذي/من)، تحيل على ذات في الخارج.

2- الجملة الموصوليّة المرؤوسة: ترد برأس سابق، مثل: قدم الضّيف الذي كنّا ننتظره تقصي ضمائر زمرة (من)، تحيل إحالة عود على الاسم رأسها، يطابق الضّمير الموصول الاسم الرّأس من حيث سمات الإعراب (بالإضافة إلى سمات الجنس والعدد).

كما يصنّف (المتوكّل) الجملة الموصوليّة من حيث ارتباطها بالاسم الرأس إلى صنفين أيضاً: (مقيّدة وغير مقيّدة)، كما يلي:

أ- الجملة الموصوليّة غير المقيّدة: يفصلها وقفٌ عن الجملة التي قبلها، فتستقّل عنها من حيث القوّة الإنجازيّة التي قد تُماثلها أو تُغايرها، ومن حيث الوحدة التّنغيميّة، لا تقوم بأي تقييد إحالي، بل تُضيف معلومة جديدة كالتّعليل مثلا، تشكل فعلاً خطابياً قائم الذّات مستقلاً عمّا قبله. (المتوكّل، 2008، ص ص63-65)؛ أي هي جمل ملحقة فقط بالجمل التي قبلها وليست مدمجة فيها، وتستقّل عن الفعل الخطابي السّابق لها المتضمّن الاسم الرّأس استقلال تبعيّة (بدلاً) أو استقلال تكافؤ.

ويتصدّر هذه الجملة ضمير من إحدى الزّمرتين (من/الذي)، مثل: (قدم الضّيف، من/ الذي كنا ننتظره). ويسوغ ألاّ يطابق الضّمير الموصول للاسم الرّأس من حيث إعرابه، مثل: (صافحت الفتاتين، اللّتان نجحتا)، ويجوز توارد الضّمير مع اسم رأس منكر مثل: (قابلت فتاة، التي كانت تدرس معي). (المتوكّل، 2010، ص ص117–118)؛ أي أن مخصّص المرّكب الاسمي قبل الوقف (الفاصلة) لا يحكم الموصول في التّعريف والتّنكير بعد الوقف.

ب– الجملة الموصوليّة المقيّدة/ المدمجة: تسري عليها خصائص الجملة المتضمّنة لها من حيث القوّة الإنجازيّة، والكتلة التّنغيميّة المواكبة لها، تقوم بالتّقييد الإحالي للمركّب الاسمي الذي يتضمنها، فتحصر المجموعة التي يحيل عليها، تقع مع ما قبلها في فعل خطابي واحد، فتقوم مقام حد من حدود الفحوى القصوي للفعل الخطابي نفسه. (المتوكّل، 2008، ص ص63–65)؛ أي هي جمل مدمجة في الجمل التي قبلها وليست ملحقة بها، وهي جزءٌ من الفعل الخطابي الذي يتضمّن الاسم الرّأس.

إنّ الجملة الموصوليّة المقيّدة لا يسوغ تصدّرها إلاّ بضّمير من زمرة (الذي) مثل: (قدم الضّيف الذي كنّا ننتظره). ويتحتّم مطابقة الضّمير الموصول للاسم الرّأس من حيث الإعراب ويشترط توارد الضّمير مع اسم رأس معرّف، مثل: (قابلت الفتاة التي كانت تدرس معي). (المتوكّل، 2010، ص ص117–118)، ويتوفر لدينا في المدونة الشّاهدين المذكورين فقط عن الفعل الإحالي في الجملة الموصوليّة، وينطبقان تماما مع أنواع الجمل الموصوليّة التي سبق التّفصيل فيها كما يلي:

– «فمنْ أدركَهُ منكم فيقرأْ عليه فواتح سورة الكهف»، اسم الموصول هو (من)، رغم أنّه يفيد الشّرط وواقع في جملة شرطيّة، إلاّ أنّه جاء في الجملة الموصوليّة: (من أدركه)، وهذه الجملة حرّة وليست مرؤوسة؛ لأنها وردت دون رأس سابق، وأحالت على ذات في الخارج، عبر مراحل متدرّجة كالآتي: أحالت أولاً إحالة داخليّة بعديّة (استباقيّة) إلى أيّ واحد من جماعة المخاطبين الممثّلة في ضّمير المخاطب الجماعة اللاّصق في (منكم)، الذي أحال بدوره في المرّة الثّانية إحالة خارجيّة إلى المقام الذي يجمع الصّحابة المستمعين، وتمتدّ الإحالة إلينا نحن بصفتنا متلقين لهذا الخطاب من بعدهم عموماً، ومسلمين من أمّته خصوصاً.

وهذه الجملة غير مقيّدة، تشكل فعلاً خطابياً قائم الذّات مستقلاّ عن الفعل الخطابي السّابق له بتكافؤ وليس بتبعيّة، وبالتّالي لم تقم بأي تقييد إحالي. ويفصلها وقفٌ عن الجملة التي قبلها، حيث قوّتها الإنجازيّة (الأمر) تُخالف القوّة الإنجازيّة للجملة السّابقة لها وهي الإخبار، كما غايرتها

من حيث التّنغيم، وأضافت وظيفة جديدة هي التّبيين: تبيين الفعل الواجب فعله لحظة إدراك المسلم الدّجّال، هذا الأخير الذي تم وصفه له في الجملة السّابقة.

- «يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟»، الضّمير الموصول هو (الذي)، صلته شبه جملة (كسنة)، جملته الموصوليّة هي (الذي كسنة)، وهذه الجملة مرؤوسة لأنها وردت برأس سابق، وطابق الضّمير الموصول الاسم الرّأس المعرّف (اليوم) من حيث سمات الإعراب والجنس والعدد، وأحال إليه إحالة داخليّة قبليّة (إحالة عود).

وهذه الجملة مقيّدة، لها الفعل الخطابي والقوّة الإنجازيّة والكتلة التّنغيميّة نفسها مع الجملة التي قبلها (فذلك اليوم)، وقامت بتقييد إحالة مركبّها الاسمي فحصرت المجموعة التي يحيل إليها، وهي الأيّام الأربعون التي يمكثها الدّجّال في الأرض إلى مجموعة أقل وهي مجموعة اليوم الذي تساوي مدّته السنة.

1-4-2- الأفعال الحمليّة: الفعل الحملي هو محمول العبارة، وهو في نظريّة النّحو الوظيفي إمّا دالّ على عمل أو حدث أو وضع أو حالة، ويكون في هذه الحالات الأربع إما فعلا أو صفة. (مليطان، 2014، ص108)، فالأفعال الحمليّة نوعان: الدّالة على الوقائع الحركيّة وهي الأعمال والأحداث، والدّالة على الوقائع غير الحركيّة وهي الأوضاع والحالات، وإذا كانت أصناف الوقائع هذه مُدرجةً الآن في المستوى التداولي من نحو الخطاب الوظيفي؛ فإنّها تُنوولت في نحو الطّبقات القالبي في المستوى الدّلالي/ التّمثيلي.

1-4-2-1- الأفعال الحمليّة الدّالة على الوقائع الحركيّة: هي المحمولات الدّالة على الأعمال والأحداث، ولأن هذا النّص يميل إلى السّرد بقوّة كما قُلنا سابقاً؛ فإن هذا النّوع من المحمولات كثير فيه، لما يضفيه من حركيّة تناسب الذّوات والأحداث المسرودة، مثال:

أ-الأعمال: كانت معظم محمولات الأعمال بصيغة المضارع، وتعتبر سابقة للأحداث أو ممهدة لها، ومنها: إن يخرج، من أدركه منكم فليقرأ، فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السّماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، فيردّون عليه قوله، فينصرف عنهم، ويمر بالخربة فيقول لها، ثم يدعو رجلا، ثم يدعوه فيقبل، فيمسح عن وجوههم ويحدّثهم، فيمرّ أوائلهم فيشربون، فيقولون، ثم يهبط نبي الله، فلا يجدون في الأرض، ثم يرسل الله مطراً، فيغسل الأرض تأكل العصابة، ويستظلّون، إذ بعث الله ريحا.

ب-الأحداث: محمولاتها أيضا بصيغة المضارع لكن في دلالتها تحوي إنجاز أحداث تغيّر في الذّوات والوقائع بشكل يستحيل أن تُعاد كما كانت في الأوّل، مثال: فعاث وعاث، فيصبحون ممحلين، فتتبعه كنوزها، فيضربه بالسّيف فيقطعه، فيطلبه حتّى يدركه فيقتله، ويُحصر نبي الله

فيرسل الله النّغف فيصبحون فرسى، فتحملهم فتطرحهم، فتأخذهم تحت أباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، يبقى شرار النّاس يتهارجون فيها، عليهم تقوم السّاعة.

1-4-2-2- الأفعال الحمليّة الدّالة على الوقائع غير الحركيّة: هي المحمولات الدّالة على الحالات والأوضاع؛ حيث تتّسم الوقائع بالسّكون والدّيمومة وبأحاديّة الموضوع، وترتبط مع وجود القطع الوصفيّة والحجاجيّة في النّص، مثال:

أ-الحالات: رُصدت محمولاتها في الحمول الآتية:

- «غير الدّجّال أخوفني عليكم»؛ الخوف هو حالة شعوريّة حلّت بذات المتكلّم وهو الرّسول ﷺ تجاه أمّته من واقعة نزول الدّجّال، لما يحمله هذا المخلوق معه من خوارق للعادة وفتن يضلّ بها عباد الله، ولوصف هذه الحالة توسّل بمحمول غير فعلي من صيغة اسم التّفضيل (أخوف).

- «ويتهلّل وجهه يضحك»؛ هذا الشّعور بالرّاحة والضّحك ينتاب الرّجل الممتلئ شباباً، بعد أن قطَعه الدّجّال بالسّيف إلى قطعتين وجعل بين القطعتين مقدار رميته وهو ما يسمى رمية الغرض، ثم دعاه فعاد إلى الحياة، وهي قطعة حجاجيّة تهدف إلى إقناع المخاطبين بقدرة الدّجّال من أجل اتّباع دعوته إلى الباطل.

- «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله»؛ هي حالة ضعف عند النبي عيسى بعد أن كان في وضع قوّة، وقد توسّل إلى وصف هذه الحالة بمحمول فعلي بصيغة المضارع (يرغب)؛ أي يدعو النّبي وأصحابه ربّهم، وقد تكرّر منهم الدّعاء مرّتين؛ الأولى لفكّ الحصار عنهم وهم في الجبل محرّزين من يأجوج ومأجوج، والثّانية ليخلّصهم من زهم ونتن جثث يأجوج ومأجوج التي ملأت الأرض بعد أن أماتهم الله بإرسال النّغف (الدود) في رقابهم، والدّعاء في الحقيقة هو حالة شعوريّة قبل أن يكون عملاً، فالداعي يخشع ويبكي ويتضرّع في دعائه إلى الله.

ب-الأوضاع: ضُبطت الأفعال الحمليّة الدّالة على الأوضاع في ما يلي:

- «إنه خارج خلّة»؛ هي وضعية خروج الدّجّال، توسّل إلى وصف هذه الوضعيّة بمحمول غير فعليّ بصيغة اسم الفاعل (خارج).

- «فينزل...بين مهرودتين، واضعا كفّيه على أجنحة مَلَكين»؛ هي وضعيّة نزول النّبي عيسى عليه السلام، وهو بين شقّي ملاءة، ويضع كفّيه على أجنحة ملكين يرافقانه، وهي قطعة حجاجيّة مدعّمة بصورة فنّية عجيبة للنّبي عيسى عليه السلام توحي بالقوّة والتّمكن، وتهدف إلى إقناع المخاطبين بقوّة النّبي وإذهال عدوّه الدّجّال وإرعابه للقضاء عليه، وقد تُوُسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي (فينزل) ومحمول غير فعلي بصيغة اسم الفاعل (واضعا).

1-4-2-3- علاقة المحمول بموضوعاته: تحكم علاقة المحمول بموضوعاته مجموعة من المبادئ أهمها مبدأ الضّم الذي عرضنا له في الفصل السّابق، ومبدأ قيود التّوارد.

إنّ هذه القيود هي سمات يفرضها رأس المجال (المحمول) على عملية توارد توابعه والمتمثّلة في موضوعاته، طبيعتها لغويّة/ معرفيّة، مهمتها ضمان التّناسب اللّغوي/ المعرفي بين العناصر المتواردة في وحدة خطابيّة معيّنة، وخرقها يؤدي إلى اللّحن أو التّشخيص. (المتوكّل، 2001، ص ص134-136)، ومبدأ قيود التّوارد ليس مصطلحاً صنيعَ النّحو الوظيفي، بل معروف في حقل اللسانيات عامة باسم قيود الانتقاء؛ حيث إنّ خرقه يؤدي إلى اللحن والتّشخيص كما يلي:

أ- اللحن: ومن أمثلته ما يلي.

1- الطّالب موجودون في الحجرة؛ جملة فيها خرق للسّمات اللغوية؛ أي لقيد النّحوي وهو موافقة الخبر المبتدأ من حيث العدد.

2- تزوّج الرّاهب أمسَ؛ جملة فيها خرق للسّمات المعرفية؛ أي لقيد معرفي؛ لأنها متناقضة مع معارفنا عن العالم الخارجي.

وفي النّص لم نسجل أي أثر لهذه الظّاهرة السّلبية (اللحن)، فهو خطاب أفصح العرب وإن هو إلاّ وحي يوحى، فمن أين يأتيه اللحن اللغوي أو المعرفي؟!

ب- التشخيص: هو غياب التّناسب بين العناصر المتواردة لغاية فنيّة للوصف الأدبي بمعيّة الصّور البلاغيّة. (الزّهري، 2014/أ، ص55)، وتحدّث عن طريق خرق مقصود للقيود التي يفرضها المحمول على الموضوعات المساوقة له، كخرق الصّفات الانتقائية من قبيل: [+حي] [+إنسان]، [+ذكر]، وهي من سمات القطع الوصفيّة، فالتّشخيص ببساطة هو أن يجعل المتكلّم في خطابه الأشياءَ الماديّةَ التي لا حياة فيها مثل الشخوص أو الأشخاص التي تتميز بصفة: الحياة أو البشريّة، أو النوعيّة في صفات الكائن الحي كالذّكورة أو الأنوثة.

نحاول ابتداءً تحديد هذه الظّاهرة في النّص من خلال الشّاهدين الآتيين:

- «ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك؛ فتتبعه كنوزها»، حيث مسّ الخرق سمة [+حي] التي تُعدّ من السّمات التي يشترطها المحمول (تتبع) في موضوعه (المنفذ)؛ وهي أن يكون كائناً حيا يتحرّك وليس جماداً (كالكنوز)، فتحقّق التّشخيص هنا بنسبة المحمول (تتبع) إلى غير الحي وهو الكنوز.

- «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم»، حيث مسَّ الخرق سمة [+مَلَك] التي تُعدّ من السّمات التي يشترطها المحمول (تقبض) في موضوعه (المنفذ)؛ وهي أن يكون ملك الموت حسب المعرفة الخلفيّة والسّابقة لدى

المخاطب وليس جماداً (كالرّيح الطيّبة)، فتحقّق التّشخيص هنا بنسبة المحمول (تقبض) إلى غير المَلك وهي الرّيح الطيّبة.

وصف هذا النّص هذه الرّيح بصراحة؛ أنها ليست الرّيح العاصفة الهالكة أو المعاقبة لعباد الله، بل هي طيّبة تأتي لقبض أرواح كل مؤمن وكل مسلم، ورغم معرفتنا السّابقة بأن مهمّة قبض الأرواح موكّلة إلى ملك الموت، إلاّ أنّه لم يأت على ذكره في النّص ولو تشبيها أو تلميحا، يعني لا وجود للتّشخيص هنا، مما يرجّح فرضيّة قبض الرّوح من قبل الرّيح الطيّبة فحسب. وهي من المعجزات والخوارق التي يمنحها الله لمن يشاء لحكمة يعلمها هو، مثل ما مرّ بنا في خوارق الدّجّال إذْ يقتل الرّجل ثم يحييه.

ونقول تعقيباً على هذا التّحليل الوظيفي السّطحي لظاهرة التّشخيص، أن الخطاب النّبوي أو النّص القرآني لا يأتي بهذه الخوارق لنَعُدّها من قبيل التّشخيص إنّما هي حقائق ربّانية سترد كما ذُكرت في النّص التّشريعي النّبوي أو القرآني، بما تضمّنته من خوارق للعادة ومخالفات عجيبة لطبيعة البشر ومعهودهم؛ يعني ما في النّص من خرق للصّفات الانتقائيّة ليس من قبيل الوصف الأدبي الفني، ولا وجود هنا لقيود توارد الموضوع على المحمول.

1-4-3- الوظائف التداوليّة: وضع (المتوكّل) في كتابه الشّهير الوظائف التداوليّة في اللغة العربية (1985) أسس هذه الوظائف؛ وقسّمها إلى وظائف تداوليّة داخليّة (المحور، البؤرة) ووظائف خارجيّة (المبتدأ، المنادى، الذّيل). ثم اعتنى بظاهرة التّبئير في بحوثه اللاّحقة ((1988) (1989)، (1996)، (2005)، (2006))، حيث أسهم في اقتراح تنميطات وتفريعات جديدة لها فأصبحت البؤرة قسمين: بؤرة جديد (فيها بؤرة طلب وبؤرة تتميم)، وبؤرة مقابلة (فيها بؤرة التّعويض وبؤرة الحصر وبؤرة التّوسيع وبؤرة الإبطال وبؤرة الانتقاء).

وأعاد النّظر فيها مرّة أخرى بعد أن استلهم من نموذج نحو الخطاب الوظيفي (هنخفلد وماكنزى (2008))، الرؤية الحديثة للوظائف التّداوليّة، فاقترح تنميطاً جديداً لها، اكتفى ببيانه في التّشجيرة الموالية التي نسميها الوظائف التداوليّة الأحاديّة والمزدوجة:

الشكل رقم 11: الوظائف التداوليّة الأحاديّة والمزدوجة

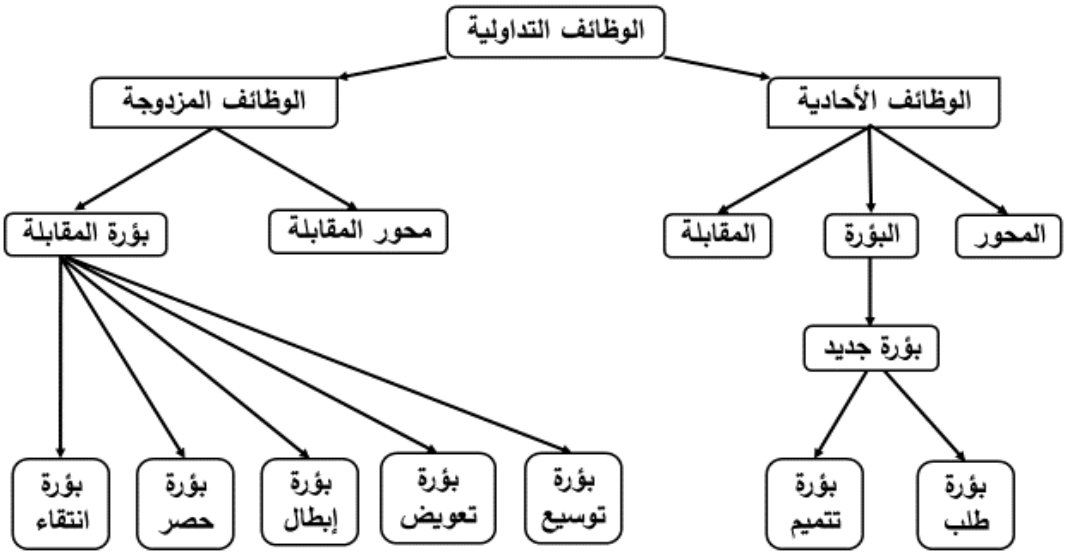

المصدر: (المتوكّل، 2010، ص131)

وتجسّد الوظائف التّداوليّة علاقة التّخابر القائمة بين المتكلّم والمخاطب، من حيث كمّ ونوعيّة المعلومات المتوافرة في مخزونهما، بناءً على التّشجيرة الأخيرة فإن الوظائف التّداوليّة تتفرّع إلى فرعين أحاديّة ومزدوجة كما يلي:

1-4-3-1- الوظائف الأحاديّة: تشمل الوظائف الأحاديّة: المحور، المقابلة، البؤرة (بؤرة جديد (بؤرة طلب، بؤرة تتميم)).

أ- الوظيفة المحور: تُسند إلى فعل إحالي/ فعل حملي للتّأشير إلى كيفية تعالق الفحوى الخطابي المتدرّج بالمكوّن السّياقي. (المتوكّل، 2010، ص129)، والمحاور كثيرة في المحادثة المفحوصة أهمّها: (الدّجّال، الأرض، القوم، المسيح عليه السلام، السّارحة، الخربة، السّماء، الكنوز الرّجل الممتلئ، النّغف، الطّير، العصابة، الرّمانة، اللّقحة، الرّيح الطيّبة)، وهي ذوات تشكل مكونات سياقيّة وموضوع حمولة الخطاب، تعالق بها الفحوى الخطابي بطريقة تدريجيّة جعلتها تتنوع بحسب الأهميّة ودرجة التردّد في النّص كما يلي: (رئيسي، ثانوي، جديد، معطى، معاد مستمر، منقطع، عابر)، وقد تمّ التّطرق إلى مثل هذه الأنواع في النّموذج القالبي لذلك لا نود الخوض فيها؛ من أجل تلافي التّكرار، والمرور إلى المستجد في نحو الخطاب الوظيفي.

ب- الوظيفة المقابلة: تؤشر إلى رغبة المتكلّم في إبراز التباين الإخباري، بين فحويين خطابيين أو أكثر، أو بين فحوى خطابي والمعلومات المتوافرة في المكون السّياقي. (المتوكّل 2010، ص129)، وهذه الوظيفة كثيرة في المحادثة، ومن شواهدها:

- «إنْ يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه»؛ طرح الرّسول ﷺ الفحوى الخطابي الأول؛ وهو دفاعه عن النّاس إذا عاش إلى خروج الدّجّال، ثم أبرز التّباين بينه وبين الفحوى الخطابي الثّاني الذي يتضمّن أن كلّ واحد يردّ عن نفسه في حالة وفاة المتكلّم قبل خروج الدّجّال، ووجه التّباين واضح بين الفحويين.

- «ويُحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتّى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم»؛ يتضمّن الفحوى الخطابي الأول الحصار النّازل بنبي الله عيسى وأصحابه، حيث يبرز الرّسول ﷺ الّتباين بين هذا الفحوى والمعلومات المتوافرة في المكون السّياقي؛ حين يقارن الرّسول ﷺ بين شدّة حاجتهم وحال أصحابه في الواقع، فيُمثّل لذلك بأن رأس الثور –وهو زهيد– لواحد من أصحاب عيسى خيرٌ من مائة دينار لواحد من أصحاب محمد ﷺ وهو كثير مال.

ج- الوظيفة البؤرة جديد: البؤرة بصفة عامة تؤشر إلى استراتيجيّة انتقاء المعلومة الجديدة قصد ملء فراغ في مخزون المخاطب أو تصحيح معلومة من معلومات مخزونه (المتوكّل 2010، ص129)، وتتّخذ البؤرة مجالاً لها طبقة الفحوى الخطابي في المستوى العلاقي بكاملها أو أحد مكونيها وهما الفعل الإحالي والفعل الحملي.

ويتم تسطيح البؤرة بنوياً بواسطة وسائل صرفيّة ووسيلة تركيبيّة منها الأدوات والرّتبة (وتعني احتلال الموقع الصّدر في الجملة)، وبواسطة وسيلة تطريزيّة هي النّبر. (المتوكّل، 2012 ص40)، وتتفرّع البؤرة بحسب أهميّة تداولها للمعلومة بين المتخاطبين في النّص ودرجتها إلى بؤرة جديد وبؤرة مقابلة.

إنّ الوظيفة البؤرة جديد تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يملكها المتكلّم ويجهلها المخاطب، وهي نوعان: بؤرة طلب وبؤرة تتميم. (المتوكّل، 2010، ص126)، وقد ظهرت البؤرة جديد في معظم النّص وتركّزت في الدّفوع الابتدائيّة من الأجزاء الوصفيّة والسرديّة، وتم تسطيحها بالنّبر الضّعيف وأدوات صرفيّة–تركيبيّة، كما يلي:

1- بؤرة الطّلب: تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يطلب المتكلم إضافتها إلى مخزونه، مثالها في زمرة النّقلات الفرع حيث تسلّطت على القوى الإنجازيّة الاستفهام وتُوسّل إليها بأداتي الاستفهام (ما)، (الهمزة):

- "...ما لبثه في الأرض؟ «أربعون يوماً...»"، انصبّت على الفعل الحملي (اللبثُ).

- "...ما إسراعه في الأرض؟ «كالغيث استدبرته الرّيح...»"، انصبّت على الفعل الحملي (الإسراعُ).

- "...أتكفينا فيه صلاة يوم؟ «لا، اُقدروا له قدره»"، انصبّت على مجال فحوى الخطاب.

2- بؤرة التّتميم: تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة المضافة، وهي كثيرة في النّص وتحقّقت بالتّنغيم المتنازل، ومن شواهدها الأجوبة عن الأسئلة السّابقة في الجمل: «أربعون يوماً...» انصبّت على الفعل الحملي (اللبثُ)، «كالغيث استدبرته الرّيح...»، انصبّت على الفعل الحملي (الإسراعُ).

وأتت هذه الأجوبة بمثابة تتميم، وذلك بإضافة معلومات يبحث عنها السّائل. ونجد أيضاً البؤرة جديد التّتميمية التي لحقها النّفي فيُعتقد أنّها من قبيل الإبطال؛ إلاّ أنّ النّفي وصفي لمعلومات جديدة تتميمية، ومن شواهدها:

- «إِذْ أَوْحَى اللهُ إلى عيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عبادًا لي لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ»، تضمّنت بؤرة جديد تتميمية، انصبّت على الفحوى الخطابي، هنا المخاطَب عيسى عليه السلام الذي قضى على الدجّال، يجهل بالمعلومة التي أضافها الله ﷻ (المتكلّم) إليه وحياً، وهي أنّ قوم يأجوج ومأجوج لا يقوى على قتالهم أحد، وقد تخلّلها النّفي الوصفي بالأداة (لا). «ثم يصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم»، تضمّنت بؤرة جديد تتميمية، انصبّت على الفعل الحملي (يصبحون)، مع النّفي الوصفي بالأداة (ليس).

- «ثم يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأرضَ حتى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ» تضمّنت بؤرة جديد تتميمية، انصبّت على الفحوى الخطابي، المخاطَب هنا هو الصّحابة، لكن يمتدّ إلى كل المسلمين المتلقّين للحديث القدسيّ، كلّهم يجهلون طبيعة عظمة هذه المطر التي يرسلها الله فلا يمنعها شيءٌ حتى تغسل الأرض من جثث يأجوج ومأجوج وتتركها صافية، وعلمُ ذلك عند الله تعالى عالم الغيب والشّهادة (المتكلّم). وقد تضمّنت هذه البؤرة أيضاً النّفي الوصفي بالأداة (لا).

1-4-3-2- الوظائف المزدوجة: وهي: محور المقابلة، بؤرة المقابلة (بؤرة إبطال، بؤرة تعويض، بؤرة حصر، بؤرة توسيع، بؤرة انتقاء).

أ- الوظيفة محور المقابلة: هي وظيفة جديدة في هذا النّموذج، لم يتطرق إليها (المتوكّل) بالشّرح، لكن من البيّن أنّها تضافر الوظيفة المحور مع الوظيفة المقابلة، فتنصبّ على الأفعال الإحاليّة المتباينة؛ أي المحاور التي تحيل إلى الذوات نفسها، لكن متقابلة الفحوى الخطابي، ونأخذ لذلك الشّواهد الآتية:

- (القوم)؛ محورٌ ظهر في البداية مرتين مع قومين أتاهم المسيح الدّجّال يدعوهم فالقوم الأوائل يؤمنون به والقوم الأواخر يردّونه، ثم أُعيد مع القوم الذين هم أتوا المسيح عليه السلام، وهم قوم عصمهم الله من الدّجّال، إذن محور واحد تكرر ثلاث مرّات بشكل اسم مشترك لكن بفحاوى خطابيّة متباينة.

– (الأرض)؛ هي محور ظهر في البداية في القوة الإنجازيّة الاستفهام «...ما لبثه في الأرض؟ ...ما إسراعه في الأرض؟»، ويُقصد بها الأرض التي نمشي عليها بصفة عامّة. ثم أُعيد ذكرها عندما يأمرها الدّجّال فتنبت وإنما نبات فتنة وليس رحمة. ثم تكرر ذكرها «فلا يجدون في الأرض»؛ أي الأرض التي ينزل إليها عيسى وأصحابه من جبل الطّور، فلا يجدون فيها موضع شبر ليمشوا فيها لكثرة جثث يأجوج ومأجوج. وفي النّهاية وردت في فحوى غسلها بالمطر وتلقيها الأمر من الله تعالى بإنبات ثمرها فتُنبت ثانيةً، لكن نبات بركة ورحمة وليس فتنة كما سبق مع الدّجّال. ومن السّهل ملاحظة ذلك التّباين في الفحاوى الخطابيّة من مرحلة لأخرى للمحور نفسه وهو الأرض.

ب– الوظيفة بؤرة المقابلة: تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يختلف المتكلّم والمخاطب في ورودها. (المتوكّل، 2010، ص126)، ويستخدم المتكلم استراتيجيّة تبئير المقابلة حين يستهدف تغييرا ما في المعلومات المتوافرة في مخزون المخاطب بالتوسيع أو التعويض أو الإبطال أو الحصر أو الانتقاء؛ حيث احتلت المكونات المبأرة تبئير المقابلة المواقع الصدور في الجمل، ومن شواهدها ما يلي:

1– بؤرة الحصر: تأتي بؤرة الحصر في السّياق الذي يكون فيه مخزون المخاطب متضمنا لمعلومة واردة في ذهنه؛ ومعلومة يعدّها المتكلّم غير واردة أو تبدو أنها جزء من المعلومة الأولى وفيها من النّص الشّواهد الآتية:

– «لا يحلّ لكافر يجد ريح نفسه إلاّ مات» + «لا يجدون موضع شبرٍ إلاّ ملأه زهمهم ونتنهم»؛ ونجد في كل من الشّاهدين بؤرة مقابلة تضمّ بؤرة حصر فقط أُستعمل فيهما الأداتان (لا...إلاّ)، وانصبّت بؤرة الحصر على الفحوى الخطابي؛ لأن المخاطب قد يشكّ في هذه الوقائع الغريبة وقد يتوقّع ما يكون قريباً لعقله وحسّه فقط، فيتدخّل المتكلّم ليعدّل بحصر هذه المعلومات التي قد ترد إلى ذهن المتلقّي حول مسألة مدى أثر ريح نفس المسيح عليه السلام القاتلة للكفار، وكذا مسألة شمول مساحة الكرة الأرضية التي شغلتها آثار جثث يأجوج ومأجوج من زهم ونتن.

– «فعليهم تقوم السّاعة»؛ هي بؤرة مقابلة تضمّ بؤرة حصر فقط، لكن ليس بأدوات الحصر الصرفيّة، وإنما بعملية تركيبيّة هي التّقديم، انصبّت على الفعل الإحالي (شرار النّاس)، لغرض حصر فعل قيام السّاعة عليهم دون سواهم، وأصل التّركيب: (فتقوم السّاعة عليهم).

2– بؤرة الإبطال وبؤرة التّعويض: وُجدت في الشّاهد: «لاَ، أُقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»، تضمّنت بؤرة مقابلة تنازعَ المتكلّم والمخاطب في معلوماتها، انصبّت على فحوى خطابي، حيث تُفكّك هذه البؤرة إلى بؤرة إبطال وبؤرة تعويض، فقد نفى الرّسول ﷺ المعلومة التي افترضها الصّحابة بقولهم «يا

رسول الله فذلك اليومُ الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاة يوم؟»، فالنّفي الحجاجي ومدخوله يشكّل بؤرة مقابلة تضمّ بؤرة إبطال: (لا)، تعقبها بؤرة تعويض: «أُقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»؛ وهذا من أجل دفاع الرّسول ﷺ عن نزاع واقتناع معيّن في دفع إبطالي من مقطع حواري حجاجي.

3- بؤرة التّوسيع وبؤرة الانتقاء: وهما ليستا موجودتين في المحادثة. وتلتبس بؤرة المقابلة التّوسيعيّة مع بؤرة جديد التّتميمية، وبالعودة إلى تعريف البؤرة جديد بأنها تُسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يمتلكها المتكلّم ويجهلها المخاطب، فإن كل المعلومات التي يسردها الرّسول ﷺ في النّقلات الأصل من المحادثة والخارجة عن حواره مع الصّحابة يجهلها المخاطب تماماً فهي من قبيل البؤر جديد التّتميمية؛ لأن بؤر المقابلة تتطلّب تقاسم واشتراك في المعلومات بين المتكلّم والمخاطب فيختلفان ويتنازعان في ورودها؛ وهذه تكون لصيقة بالحوار. لذلك فما يُمكن أن نعتقد أنّه من قبيل بؤر التّوسيع في المعلومات يجب أن يُردّ إلى البؤرة جديد التّتميمية.

يُستَنتجُ أنّ هذه المحادثة (الحديث القدسي) اعتمدت استراتيجيّة تبئير الجديد أكثر من تبئير المقابلة؛ لأنها تضمّنت القطع الوصفيّة السرديّة أكثر من الحجاجيّة، وأورد بؤر المقابلة هي الإبطال والتّعويض والحصر، حيث جاء النّبر في بؤرة مقابلة أقوى من النّبر في بؤرة جديد.

وانصبّ التبئير على الفحاوى الخطابيّة وعلى الأفعال الإحاليّة وعلى الأفعال الحمليّة، وتسلّط على البؤر النفيُ الذي كان في النّموذج القالبي سمة وجهيّة ذاتيّة معرفيّة يؤدّى صرفياً بالأدوات: (لا، لم)، وقد استعملت المحادثة أداة النّفي (لا) و(ليس) دون الأداة (لم)، وظهر النّفي فيها بنوعيه: الوصفي للبؤر جديد والحجاجي للبؤر مقابلة.

ومجمل القول؛ إن المستوى التّداولي (العلاقي) انتظم في سلّمية أعلاها طبقة المحادثة وأدناها طبقة الفعل الخطابي القائم على قصد إنجازي وفحوى خطابي وأفعال إحاليّة وأفعال حمليّة حيث اتّضح أنّ المتن خطاب ذاتي ديني متعدد الآلية الخطابيّة، حافل بغنى تداولي في طبقاته الثّلاث (المحادثة، النّقلة، الفعل الخطابي). وقد سُخّرت وسائل معجميّة وصرفيّة–تركيبيّة لتحقيق الوظائف والسّمات العلاقيّة، ورُصدت لإيوائها مواقع الحيّز الصّدر، أو أفردت لها حيزاً خطابياً مستقلاً بوصفها أفعالا خطابيّة قائمة الذّات. وقد انصب التّبئير على طبقة فحوى الخطاب رمتها كما ولجت هذه الطّبقة فانصب على الفعل الإحالي أو الفعل الحملي، ولم تجمع في ذلك بين أكثر من عنصر في هذه العناصر.

2- المستوى الدّلالي: يتناول نحو الخطاب الوظيفي في مستواه الدّلالي طبقتين: طبقة القضية وطبقة الواقعة؛ حيث تأوي طبقة القضية السّمات الوجهيّة بنوعيها المرجعيّة والذّاتيّة وتؤشّر

طبقة الواقعة للسّمات الجهيّة بنوعيها الكميّة والكيفيّة، وكذا السّمات الكميّة للذّوات، حيث تتقاطع هاتان الطّبقتان مع طبقات المستوى التّمثيلي في نحو الطّبقات القالبي في سمات ووظائف تمثيليّة.

2-1- طبقة القضية: نتحدث في طبقة القضية عن السّمات الوَجهيّة التمثيليّة؛ أي الخصائص التي تُؤشر لموقف المتكلّم من فحوى الخطاب، مثل: اليقين، الشّك، الاحتمال،...الخ.

إنّ الأحاديث القدسيّة من وحي الله تعالى، والرّسول ﷺ يرويها بلفظه هو، فجاء كل كلامه في النّص نابعاً من موقف يقيني مؤكّد من فحوى الخطاب لا يتسرب إليه الشّك، سواء في الدّفوع الابتدائيّة التي لا يتردّد المخاطب في قبولها، أم في الدّفوع الإبطاليّة المدعّمة بالكثير من الحجج التي عرضنا لها في الوظائف البلاغيّة، والقادرة على إقناع المخاطب بسهولة. ونستثني هنا ما قد يحتمله الرّسول ﷺ بسبب قصر علمه فيها، أو هي من العلم الإلهي الغيبي مثل: موعد السّاعة نزول الغيث، ما في الأرحام، الأرزاق، الأجل.

ونجد موقف احتمال المتكلّم في ذلك الزّمان بين واقعتين بتوسّل البنيات التّركيبيّة الآتية: «إن يخرج وأنا فيكم.... وإن يخرج ولست فيكم»؛ لأن ساعة وموعد خروجه من العلم الغيبي اللّدنّي وليست من علم الرُّسل وسائر المخلوقات، نقول هذا مبدئياً فهو الأصل في علم النّبي إلاّ إذا علّمه خالقه مالم يعلم بوحيه، ومن سمات خطاب الرّسول ﷺ أنّه يُخاطب النّاس بما ينفعهم في دنياهم وأُخراهم، فقد لا يُخبرهم بأشياء يعلمها، ويهدف بذلك تربيتهم وإعدادهم بالطّاعات ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

ويحدث هذا الموقف بالخصوص، إذا أدرك أنّه لا ينبغي للنّاس أن يعرفوا أمراً ما بسهولة حتى لا يتّكلوا فيقصروا في الطّاعات والعبادات، ومن ذلك علمه باسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به استجاب، فلمّح وأشار إلى مواضعه الكثيرة ولم يقل به صراحةً للمسلمين ولا للصّحابة ولا حتى لزوجته عائشة التي أصرت على معرفته فقال لها: «إنه لا ينبغي أن يُسأل به شيء من الدّنيا....»، والقصد أن يُفتح باب الاجتهاد والحرص عند المسلمين.

ويوظف متلقي النّص –في المقابل– اليومَ المعرفة الخلفيّة بالمسافة الاجتماعيّة بين منتج الخطاب والذّوات المشاركة في الموقف الخطابي، لينقل سمة الاحتمال إلى سمة اليقين؛ حيث إنّ احتمال الواقعة الأولى قد زال الآن؛ لأن الرّسول ﷺ انتقل إلى رحمة ربه، ويصير احتمال الواقعة الثّانية وارداً بل مؤّكداً؛ وهو خروج الدّجّال والرّسول ﷺ ليس فينا؛ وعلى كلّ فرد أن يكون حُجّةً لنفسه.

إنّ الرّسول ﷺ إذْ يخبرنا عن كيفية نزول عيسى عليه السلام ومطاردته للدّجّال ثم قتله، في سلسلة سرديّة طويلة؛ يشعرنا كمتلقّين أنه كان يعلم –بإذن الله ووحيه– ورود الاحتمال الثّاني، وهنا نستفيد

أنّه إنّما ذكر الاحتمال الأوّل ليبين للنّاس أن رسولهم محمد ﷺ ينتصر لأمّته في كل حال ولا يتركها، لذلك قال: «والله خليفتي على كل مسلم»، وليبين أيضاً للنّاس أن هذا المخلوق رغم دجله وخوارقه وخطره حقير أمام الله ضعيف أمام الأنبياء والرّسل والعباد الصّالحين، ولا يتمكّن إلا من الكفار وضعفاء الإيمان، لذلك دعا النّاس للثّبات وعدم الافتتان به فقال: «يا عباد الله فاثبتوا».

يُذكر في هذا الصّدد أن بعض الصّوفيّة يدّعون أن النّبي ﷺ يرى بعد موته في اليقظة، وأنه يبقى حَيّاً يقابل أولياء الصّوفيّة. (رمضان، 2010، ص284)، لكن بتوظيف هذه السّمة الاحتماليّة يكون الردّ على كذب هؤلاء؛ لأن الرّسول ﷺ أخبر عن نفسه أنه يكون ميتا حين يخرج النّبي عيسى عليه السلام ليقتل الدّجّال.

وتحمل بعض التّشبيهات في النّص سمة الاحتمال، مثل التّركيب: «كأنّي أشبّهه بعبد العُزَّى بنِ قَطَنٍ»، فهو بعيدٌ عن تركيب مثل: الدّجّال يشبه عبد العزّى؛ لأن هذا النّوع من التّشبيه عام يجعل هذا الشّخص فعلاً شبيها بالدّجّال عند كل النّاس الذين يرونه، ولكن شفقةً منه ﷺ على النّاس أضعفَ التّشبيه بتكراره؛ أي تشبيه فوق تشبيه: (كأنّي أشبّهه)، فجاء بمعنى احتمال شبهه بفلان. ويبدو أن هذا الشّخص هو الوحيد في ذلك الزّمان ممن يُحتمل أن يحمل الكثير من شَبَهِ الدّجّال، لذلك أحال إليه النّبي ﷺ أذهان المخاطبين، والغرض التّواصلي المتحكم في هذه البنية اللغوية التي دُعِيت إلى توظيف هذا التّشبيه في المستوى التّمثيلي هو حرص الرّسول ﷺ على وصف الدّجّال لأمّته وصفاً دقيقاً، رحمةً بها وخوفاً عليها منه.

وتتوافق سمة الاحتمال مع معنى التّقليل الذي يتأتّى بإحدى الطّرق الأربع التّالية: أولا؛ نسبة فحوى الخطاب إلى غيره مثل: (يقال أنّه سيفعل/ كما يقال)، وثانيا؛ تنسيبه (في مقابل إطلاقه) مثل: (سيفعل في رأيي/ حسب توقعاتي)، وثالثاً؛ إلقاؤه ملقى مجرد الإمكان والاحتمال مثل: (ربما/ قد يفعل)، ورابعاً؛ استبعاد تحقّقه (يستبعد أن يفعل/ لا أظن). (المتوكّل، 2010، ص136). وتدعم هنا سمة الاحتمال استراتيجيّة التّقليل في مقابل استراتيجيّة التّقوية، حيث يستخدمها المتكلّم في تنظيم الخطاب حين يكون قصده رفع مسؤوليّة فحوى خطابه عن نفسه أو التّخفيف منها على الأقل.

2-2- طبقة الواقعة: هي موطن التّمثيل للوقائع (أعمال وأحداث، حالات وأوضاع) وللذّوات المشاركة فيها (المشاركة بأنواعها: ضرورة، اختيار، وجوب، جواز)، تستأثر بمخصّصات تؤشّر للسّمات الجّهيّة والزّمنيّة؛ أي سمات تتعلق بجهة وزمان الواقعة والذّوات المحال إليها سواء من ناحية كميّة أم كيفيّة.

2-2-1- السّمات الجِهِيَّة الكميّة: هي الخصائص المتعلقة بتكميم جهة الواقعة باعتبارها كلاًّ غير مجزأ؛ أي التي تجعل للواقعة كمًّا فتؤشّر لكميتها أو حجمها أو قَدْرها أو عددها، وهي من مثل القيم الآتية: الغالبيّة أو الندرة، الكثرة أو القلّة، السّرعة أو البطء، الطّول أو القصر، الانقطاع أو الاستمرار، التّكرار، الآنية، الاعتياد، الدّيمومة، الثّبات، وغيرها.

أ- قيمة الكثرة: ظهرت في العبارات الآتية:

- «أخوفني عليكم»؛ تم تأدية هذه القيمة بمحمول بصيغة اسم التّفضيل المهموز: أخوف؛ أي أخوف مخوفاتي عليكم، أو أخوف ما أخاف عليكم؛ بمعنى أكثر الأشياء التي أخافها عليكم الدّجّال.

واعتادت العربية إضافة ياء المتكلّم ونون الوقاية إلى الفعل المتعدّي واسم الفاعل من غير الثّلاثي منه مثل: (زارني، مُوافيني)، إلاّ أنّه قد يلحق ذلك اسم التّفضيل لشَبَهِ أسماء التّفضيل بالأفعال فتسمّى أيضا أفعال التّفضيل. (متولي، 2013، ص590)، وقد دعت الحاجة الوظيفيّة إلى إلحاق اللاّحقة (ني) لاسم التّفضيل (أخوف)؛ من أجل تبليغ قيمة الكثرة لواقعة الخوف عند المتكلّم نحو المخاطب.

- «أطول ما كانت ذراً، أسبغه ضروعا، أمدّه خواصر»؛ تم تأدية هذه القيمة أيضاً بمحمول من اسم التّفضيل المهموز: أطول، أسبغ، أمدّ؛ لبيان واقعة كثرة الرّزق عند من يؤمنون بالدّجّال فتنة لهم، حيث ترجع الماشية آخر النّهار عالية السّنام كثيرة اللبن ممتلئةً من الشّبع.

- «لا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم»؛ تم تأدية القيمة كثير بوسيلة تركيبيّة تتضمن الحصر؛ أي لكثرة واقعة قتل قوم يأجوج ومأجوج، حيث تملأ جثثهم النّتنة الأرض حتى لا يبقى للنّبي عيسى عليه السلام وأصحابه موضعاً للمشي عليها.

- «لا يكنُّ منه بيت مدر ولا وبر»؛ تُوسلت القيمة كثير لواقعة نزول المطر بوسيلة تركيبيّة فالمطر لكثرته هنا لا يمنعه أو يستره لا بيت من طين صلب ولا من وبر وصوف الإبل؛ أي أمطار غزيرة تشمل المدن والبوادي.

- «فتتبعه كنوزها كيعاسيب النّحل»؛ توسّل إلى القيمة كثير لواقعة اتّباع الكنوز الخربة للدّجّال، بتركيب يتضمّن التّشبيه، لكثرة أفراد جماعة النّحل.

- «لقد كان مرّة بهذه ماء»؛ القيمة كثير تُوسل إليها بوسيلة تركيبيّة، والمعنى هو كثرة تعداد قوم يأجوج ومأجوج وطول صفوفهم؛ حيث يمرّ أوائلهم على بحيرة ماء فيشربون كلّ ما فيها، ثمّ يمرّ عليها أواخرهم فيعرفون أنّه قد كان بها ماء من زمن بعيد والدّليل هو الصّرفة: (مرّة).

ب- قيمة القلّة: في العبارة: «يصبحون مُمْحِلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم»؛ المَحْلُ أو الإمحال هو القحط والجدب بسبب قلّة المطر، ويبس الأرض من الكلأ. تم تأدية سمة القلّة لواقعة حالة القوم الذين لا يستجيبون للدّجّال وهي قلّة المال والرزق فتنةً لهم. الوسيلة المتّخذة صيغة اسم الفاعل: ممحِل، وتركيب حملي منفي بـ (ليس).

ج- قيمة السرعة: في العبارة: «كالغيث استدبرته الرّيح»؛ هذا الكلام جاء جواباً لسؤال المخاطبين: وما إسراعه في الأرض؟ تم تأدية هذه القيمة سريع لواقعة حركة الدّجّال بوسيلة تركيبيّة هي تشبيه سرعة الدّجّال بسرعة الغيث تدفعه الرّياح.

د- قيمة الكثرة مع السّرعة: في العبارتين:

- «فعاث يمينا وعاث شمالاً»؛ تم تأدية قيمة الكثرة والسّرعة لواقعة العيث بمحمول فعلي بصيغة الماضي: عاث، والعيث وهو شدّة الفساد والإسراع فيه.

- «وهم من كل حدب ينسلون»؛ تم تأدية القيمة كثير لواقعة خروج يأجوج ومأجوج بتركيب: (من كل حدب)؛ أي لكثرتهم يخرجون من كل مكان، والقيمة سريع لواقعة خروجهم بمحمول فعلي بصيغة المضارع: (ينسلون)؛ أي يخرجون مسرعين من كل مكان مرتفع في الأرض.

هـ- قيمة الطول: في العبارة: «يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيّامه كأيّامكم» القيمة طويل مسّت واقعة لبث ومكث الدّجّال في الأرض، وقد توّسل إليها بتركيب يتضمّن التّشبيه.

و- قيمة الاستمرار: في العبارتين:

- «فلا يحلّ لكافر يجد ريح نفسه إلّا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه»؛ تم تأدية القيمة مستمر لواقعة موت الكافر الذي يجد ريح نفس عيسى عليه السلام، حيث يستمر الموت ما استمر نفس النّبي عيسى الذي يمتدّ امتداد بصره. الوسيلة هنا هي تركيب يتضمن الحصر.

- «فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ فيقتله»؛ تم تأدية القيمة مستمر لواقعة الطّلب والبحث النّبي عيسى عن الدّجّال حتى يجده فيقتله، الوسيلة هي الحمل: (فيطلبه).

ز- قيمة الآنية: نقصد بها توالي عدة أحداث في آن واحد، مثل الشّرط وجوابه، الأمر والتّنفيذ بسرعة في وقت واحد، وتكثر هذه القيمة في القطع السّردية، وتلعب الأداء (الفاء) التي تفيد السّببية والعطف مع الفوريّة دوراً مهما في تحقيق هذه القيمة.

يشهد على القيمة (آني) الجمل: «فيدعوهم فيؤمنون به»، «فيأمر السّماء فتمطر والأرض فتنبت»، «أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها»، «ثم يدعوه فيقبل»، «فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله». وأُستعمل في كل هذه الجمل الوسيلة نفسها وهي صيغة المضارع مشفوعا بالفاء؛ من أجل تأدية القيمة آني لوقائعها الآتية على التّرتيب: واقعة ايمان النّاس بالدّجّال بمجرد دعوته لهم، واقعة

إمطار السّماء وإنبات الأرض بمجرّد أن يأمرها الدّجّال، واقعة إتّباع كنوز الأرض للدّجّال بمجرّد أمرها بالخروج، واقعة إقبال الشّاب الميّت للدّجّال بمجرّد دعوته له، واقعة حمل جثث يأجوج ومأجوج وطرحها من طرف طير يرسلها الله، وهي طيور طويلة تشبه أعناق الإبل. ووُظّفت الوسيلة صيغة الماضي مقترنا بالشّرط استعملت لتأدية السّمة آني لقطر رأس المسيح عيسى عليه السلام بمجرد طأطأة رأسه في الجملة: «إذا طأطأ رأسه قطر».

ك- قيمة التّكرار: وردت في: «أنبتي ثمرتك وردّي بركتك»: قيمة التّكرار لواقعة رد بركة الأرض مرة ثانية بعد أن غُسلت بماء المطر، وقد كانت من قبل ذات بركة من الله، الوسيلة صيغة الأمر للمحمول الفعلي: ردّي.

ل- قيمة الاعتياد: رُصدت في: «والله خليفتي على كل مسلم»: قيمة الاعتياد لواقعة حفظُ الله المسلمَ، الوسيلة محمول غير فعلي (خليفتي) وهو اسم فاعل على وزن فعيل، فبعدما يموت الرّسول ﷺ، يخلفه الله في صون المسلمين من خطر الدّجّال، وهو الأمر الاعتيادي في صفات الله تعالى من نصرة المسلمين والرّسول فيهم أو ليس فيهم.

2-2-2- السّمات الجِهِيَّة الكيفيّة: هي السّمات الواصفة للواقعة من داخلها بالنّظر إلى جزئيات تحقيقها، وتحققّها محمولات الخطاب في قسمين:

2-2-2-1- السّمات الجهيّة الكيفيّة التّامة: هذه السّمات تُطبع بالصّفة (تام)؛ لأن محمولاتها تُشكّل السّلسلة السّردية ذاتها، وتنزع إلى رواية وقائع السّلسلة الحَدَثيّة، وتتركّز في القطع السّردية من النّص.

وتعدّ السّمات الجهيّة التّامة السّمات المهيمنة في النّص لغلبة السّرد فيه، ومنها: (فعاث يمينا وعاث شمالا، فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السّماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، فيردّون عليه قوله، فينصرف، فيصبحون، ويمرّ بالخربة فيقول لها، فتتبعه كنوزها ثم يدعو رجلا، فيضربه بالسّيف فيقطعه، ثم يدعوه فيقبل، ويتهلّل وجهه يضحك، فينزل عند المنارة البيضاء، فيطلبه حتى يدركه فيقتله، فيمسح عن وجوههم ويحدّثهم، فيمرّ أوائلهم، فيشربون فيقولون، ويُحصر نبي الله، فيرسل الله النّغف، فيصبحون فرسى، ثم يهبط نبي الله، فلا يجدون في الأرض، فيرغب نبي الله، فتحملهم فتطرحهم، ثم يرسل الله مطراً، فيغسل الأرض، تأكل العصابة ويستظلّون، إذ بعث الله ريحا، فتأخذهم تحت أباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، يبقى شرار النّاس يتهارجون فيها).

وقد تُؤسِّل لهذه السّمات بصيغة المضارع؛ لأن الأحداث المسرودة كلها ستكون في مستقبل الزّمان حين يخرج الدّجّال، وأحيانا تكون بصيغة الماضي الدّال على المضارع؛ أي الذي يفيد وقوع

الواقعة في المستقبل مثل: (فعاث يمينا وعاث شمالا، إلاّ مات، إذ أوحى، إذ بعث)؛ حيث إنّ وقائع السّلسلة الحدثيّة ترتبط بذوات عديدة منها: (الدّجّال، النّبي عيسى عليه السلام وأصحابه، يأجوج ومأجوج الطّير، المطر، الرّيح الطيّبة، شرار النّاس).

2-2-2-2- السّمات الجّهيّة الكيفيّة غير التّامة: تُطبع هذه السّمات بالصّفة (غير تام) لأن محمولاتها تُشكّل خلفية السّلسلة السّردية فقط؛ وليس السّلسلة السّردية في حد ذاتها، وبذلك فهي تكون في القطع الوصفيّة التي تنزع إلى وصف الذّوات والوقائع، كما توجد في القطع الحجاجيّة التي تنزع إلى الإقناع لحل الخلافات وتقريب وجهات النّظر. ومن السّمات غير التامة التي تميز النّص ما يلي:

أ- الشروع: وُصِف الشّروع والبداية في الفعل من خلال المقاطع الآتية:

- «إنه خارج خَلَّةً بين الشّام والعراق»: تم وصف بداية خروج الدّجّال ومكان خروجه، وتُوسِّل إلى ذلك بمحمول غير فعلي بصيغة اسم الفاعل (خارج + شبه جملة).

- «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»؛ وصف شروع نزول النّبي عيسى عليه السلام ومكان نزوله، وتُوسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي بصيغة المضارع (فينزل + شبه جملة).

- «وهم من كل حدب ينسلون»؛ وصف شروع خروج يأجوج ومأجوج، ومكان خروجهم وتُوسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي بصيغة اسم المضارع (ينسلون + شبه جملة).

ب- الدّخول في واقعة: نجد الدّخول في واقعة في الشّاهدين:

- «فيأتي على القوم فيدعوهم»؛ أي وصف دخول الدّجّال في واقعة الدّعوة إلى اتّباعه وتُوسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي بصيغة المضارع (فيأتي، فيدعو).

- «فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ فيقتله»؛ وصف دخول النّبي عيسى في واقعة قتل الدّجّال وتُوسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي بصيغة المضارع (فيطلب، فيقتل).

ج- التدرّج: وفيه نجد تدرّج وقائع الدّجّال: «ثم يدعو رجلا ممتلئاً شبابا، فيضربه بالسّيف فيقطّعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه؛ فيقبل، ويتهلّل وجهه يضحك»، يدعو الدّجّال هنا شابّاً قويّا فيضربه بالسّيف فيقطعه نصفين ثم يدعوه مرة ثانية فيقوم الشّاب وهو يضحك، وهذا ليُقنع النّاس بقدراته حتى يتّبعوه، فنصّنا وهو يسرد أحداثه المتوالية يُدمج هنا سمات جهيّة غير تامة في وصف وقائع الدّجّال والذّات التي ضربها بالسّيف، وهي أحداث تشكّل خلفيّة السّلسلة السّردية وتأتي في الوقت نفسه في سياق قطعة حجاجيّة لإقناع المخاطب بخوارق هذا المخلوق.

د- الإنهاء: وشاهدها: «ويبقى شرار النّاس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم السّاعة»؛ هنا سمة إنهاء السّلسلة الحدثيّة بوصف حالة النّهاية وهي قيام السّاعة على شرار النّاس

وحالهم هي أن يجامع الرّجال النّساء علانية على مرأى النّاس كالحمر، وتُوُسِّل إلى ذلك بمحمول فعلي بصيغة المضارع (يبقى، تقوم).

وجدنا أن الوسائل البارزة سطحياً في المستوى الصّرفي–التّركيبي والمستوى الفونولوجي الموظّفة لتمثيل السّمات الجهيّة التّامة وغير التّامة تتقاطع في الغالب في صيغ صرفيّة بعينها وهي صيغة المضارع، مما يعني أن التّقابل الجهّي تام/ غير تام يمكن أن يتّخذ الصّيغة المحموليّة نفسها لبوساً صرفياً (الماضي أو المضارع)؛ وهذا ما تُعورف على تسميته في النّحو الوظيفي بظاهرة (الضّم).

2-2-3- السّمات الكميّة للذّوات: هي الخصائص التّسويرية المتعلقة بكم وقدر وحجم الذّوات المحال إليها في النّص، كالأسوار والأعداد، وقد انعكست في البنية السّطحية من خلال صرفات بعينها منها:

أ- الأسوار الكليّة: حُقّقت بتوظيف صرفات بلفظ الكليّة وما يساوقها للدّلالة على كلية الذّوات المحال إليها مثل: (كلّ مسلم، كلّ مؤمن، من كلّ حدب، سائر أيّامه)، وصرفات دالة صراحة على الجماعة مثل: (قوم، عباد، أصحاب، العصابة، القبيلة، الفئام من النّاس وهي الجماعة الكثيرة، الفخْذ وهم جماعة من الأقارب)، وصرفات دالة كناية على الجماعة مثل: (يعاسيب النّحل) وهي كناية عن جماعة النّحل بأميرها اليعسوب الذّكر؛ لأنه متى طار تبعته جماعته.

وقد تُحذف الصرفة الدّالة على كليّة الذّوات المحال إليها، لكن يُترك في مكانها ما يُعوِّضها لتحقيق السّمة الكميّة مثل التّنكير مع التّنوين، في قوله: «فامرؤٌ حجيج نفسه»، والتّقدير فكلُّ امرئٍ حجيج نفسه.

ب- الأسوار البعضيّة: مثل: «فواتح سورة الكهف»؛ وقيل هي الآيات العشر الأولى فقط التي تستفتح بها السّورة. «أوائلهم»؛ أوائل يأجوج ومأجوج هم بعضٌ من القوم. «شرار النّاس» الأشرار يشكلون بعض النّاس وليس كلّهم.

ج- الأعداد: وهي كثيرة في النّص استغلت بطريقة مؤثرة في المخاطب تجعله يفترض عقد مقارنات بين الذّوات المحال إليها، وهي:

- العدد واحد: (أحد، واحدة، مرة، شبر)، استخدم لبيان المعاني الآتية على التّوالي: انعدام النّد، وحدة الحدث وآنيته، بُعد الحدث في الزّمن، ضيق المكان.

– العدد اثنان: وُظِّف لوصف ذات الدّجّال «فيقطعه جزلتين»؛ أي قطعتين، مقابل تردد العدد نفسه لوصف ذات المسيح عيسى عليه السلام (شرقي دمشق، مهرودتين وهما ثوبان مصبوغان، كفّيه مَلَكين).

– العدد مئة: «مائة دينار»؛ وُظّف لوصف بخس هذا المال –الذي يكون كثيراً في ذلك الزمان– مقابل قيمة رأس ثور، وهو أقل ما يرغب في لحم البقر؛ بسبب الحصار الذي فُرض على عيسى عليه السلام وأصحابه في الجبل من خطر يأجوج ومأجوج.

– أعداد المدد الزّمنية (أربعون يوما، سنة، شهر، يوم): وُظِّفت لدفع المخاطب لإعمال فكره وإجراء عملية رياضية لجمع تلك المدد لتحديد مدة مكث ذات المسيح الدّجّال في الأرض؛ وهي مدّة يمتدّ مجالها تقريباً من أربع مئة وتسعة وثلاثين إلى أربع مئة وأربعين [439–440] يوماً كأيّامنا.

2–2–4– السّمات الزّمنيّة: وهي الخصائص التي تكفل تحديد الإطار الزّماني الذي تتحقّق فيه الوقائع والذّوات المحال إليها، وهي تابعة في الحقيقة إلى المركز الإشاري، وتتحدّد هذه السّمات بمقارنة زمن الوقائع بالنّظر إلى زمن التّخاطب.

أ– زمن المضيّ: في القطع السّردية نجد القيمة الزّمنية للمحمولات جاءت أغلبها في الزّمن المضارع، لسرد الأحداث التي ستقع في المستقبل، أما الماضي فهو قليل ويراد به أيضا المستقبل لأنّه لا يوجد أيّ حدث من هذه الأحداث الواردة في النّص قد وقع في الماضي حقيقة، وقد تحققت هذه السّمة الزّمنيّة في المحمولات الفعليّة الآتية:

– «فمن أدركه منكم»؛ يُلاحَظ أن بنية الفعل (أدركه) تطابق صيغة الماضي، لكن لاقترانه باسم الموصول (مَنْ) الذي أفاد معنى الشّرط فقد وُظِّف لتداول واقعة إدراك الدّجّال في المستقبل ويُنتبَهُ إلى لفظ (منكم) فالمخاطب هنا لا يقتصر على المخاطبين في ذلك الزمن؛ لأنّهم قد قضوا جميعاً، ولكن المخاطب يمتدّ إلى زماننا هذا فإنّنا معنيون به أيضاً، ومن يضمن لنا أن الدّجّال لا يخرج الآن في هذه اللحظة أو غداً.

– «فعاث يميناً وعاث شمالاً»؛ متى عاث الدّجّال وهو لم يخرج بعد؟ الجواب أنّ الفعل (عاث) من فئة البنيات ذات صيغة الماضي الموظّفة لتداول وقائع المستقبل.

– «إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ»؛ هذه تراكيب شرطيّة تكون أبلغ بصيغة الماضي منها بصيغة المضارع، ومعناها إذا خفّض عيسى عليه السلام رأسه قطر من الماء وإذا رفعه تصبّب منه ماء صافٍ مثل اللؤلؤ.

– «فلا يحلّ لكافر يجد ريح نفسه إلاّ مات»؛ والأصل ألا يكون قد مات؛ لأنّ الواقعة في الاستقبال، لكنّها بصيغة الماضي جاءت أبلغ وأكثر تأثيرا في المخاطب، وإقناعا له بدرجة فاعليّة نفس عيسى عليه السلام وكأن الكافر قد مات قبل أن تصله نفس نبي الله من شدة إهلاكها. أمّا صيغة المضارع (يموت) فإنها تحمل المخاطب على توقع أن الكافر يتلقى نَفَسَ عيسى عليه السلام فيقاوم تأثّره بها ويحتضر ثم يموت.

– «فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم»؛ هنا أسلوب قصر يراد منه كثرة جثث قوم يأجوج ومأجوج على الأرض، وقد وظّفت صيغة الماضي (ملأه)؛ لأنها الأنسب بعد أداء الاستثناء إلّا.

ب– زمن الحال: هو زمن حاضر التّخاطب؛ أي حين يكون زمن الفعل اللغوي هو زمن فعل النّطق أو الكتابة عند واقع المتكلّم، وهو زمن يجمع المتكلّم والمتلقّي أثناء إنجاز فعل القول.

وقد وُظّف زمن الحال في محمول جملة واحدة في النّص تشكّل مقطعاً تعليقياً، نجده في المثال الآتي: «كأنّي أشبهه بعد العزّى بن قطن»؛ يعني أن الرّسول ﷺ يشبّه الدّجّال في تلك اللحظة من زمن حاضر تخاطبه مع الناس بشخص يُدعى (عبد العزّى بن قطن) يعرفه المخاطبون في ذلك الزّمان، أمّا المخاطبون في هذا الزّمان فيفتقدون قيمة هذا التّشبيه؛ لأنه لا يجمعهم زمن حاضر التّخاطب مع المتكلّم.

ج– زمن الاستقبال: وهو الزّمن المهيمن في النّص، وقد وُظّف أساساً لسرد وقائع ستحدث في المستقبل؛ حيث إنّ محمولات الجمل التي تروي الأحداث وتسرد الوقائع في تسلسلها المستمر أخذت صيغة المضارع السّردي بزمن الاستقبال، وأمثلتها كثيرة في النّص، منها: «يأتي على القوم فيدعوهم»، «ويمرّ بالخربة فيقول لها»، «ثم يدعو رجلا»، «فيطلبه حتّى يدركه»، «فيشربون ما فيها ويمرّ آخرهم فيقولون»، «فتحملهم فتطرحهم»، إلى آخر النّص.

يُضاف إلى هذا استعمال بعض الأفعال المساعدة (الناقصة) بصيغة المضارع في بعض المقاطع الوصفيّة مثل: (كان، ليس، أصبح)، نجدها في:

– «ويُحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليومَ»؛ وهو مقطع وصفي استعمل فيه محمول فعلي مساعد (يكون) بصيغة المضارع ليصف حالة عيسى وأصحابه في الحصار.

– «فيصبحون ممحلّين ليس بأيديهم شيء من أموالهم»؛ وهو مقطع وصفي استعمل فيه محمول فعلي مساعد بصيغة المضارع مشفوعا بالنّفي (يصبحون + ليس) ليصف حالة الذين لا يتّبعون الدّجّال، حيث ينصرف عنهم وقد أصابهم الجدب والقحط والفقر.

وتوجد أجزاء وصفيّة لم يتم التّعبير عنها بصيغة المضارع؛ ولكن بمحمولات غير فعليّة كالصّفة واسم الفاعل واسم التّفضيل، منها:

– «إنه شابٌّ قَطَطٌ...إنّه خارج خَلَّةً»؛ تم التوسّل للوصف بالصّفة (قطط)، وبصيغة اسم الفاعل (خارجٌ).

– «فتروح عنهم سارحتهم أطول ما كانت ذُراً وأسبغه أضرعا وأمدّه خواصر»؛ تم التوسّل للوصف بصيغة اسم التّفضيل: (أطول)، (أسبغ)، (أمدّ).

د– الزّمن الرّجعي: وقد تخلّل النّص حالات انقطاع من أجل سرد رجعي، أو من أجل وصف أو تعليق. وتُوسّل إليه بصيغ في الماضي مقترنة بأدوات تقوية مثل: (قد، فبينما هو... إذْ...)، مثل: «إنّي قد أخرجت»، «لقد كان بهذه مرّة ماء»، «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم»، «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى»، «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيّبةً» «قد عصمهم الله منه»، ويتّضح في الشّاهد الأخير مثلاً أن النّبي عيسى ابن مريم يأتي قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم، وهي حدث مجتزّأ من قطعة سرديّة تتواصل محمولاتها الفعليّة للسّلسلة الحدثيّة في الزّمن المضارع، فيحدث لها الآن وقف لتعود وترجع بالزّمن إلى الوراء في الزّمن الماضي؛ من أجل وصف طبيعة ذوات هؤلاء القوم بأن عصمهم الله.

وتجاوز (المتوكل) التأشير للسمات المكانية في نحو الخطاب الوظيفي، رغم ورودها في نحو الطّبقات القالبي في الطبقة التّأطيريّة؛ ولكن قد نجد بعضاً منها في اسم العلم من الأفعال الإحاليّة ونحن نرى بعدم إغفال قيمة السّمات المكانيّة في العملية التّواصليّة للخطاب؛ خصوصاً وأنّها تتضافر مع السّمات الزّمنيّة لتحقيق المركز الإشاري في النّص، وتكفل تحديد الإطار المكاني الذي تتحقّق فيه الوقائع والذّوات المحال إليها.

والمحصّلة هنا أن هذا الحديث القدسي حفل بغنى دلالي أيضاً، وقد ترتّبت وحدات المستوى الدّلالي في طبقتين؛ طبقة القضيّة وطبقة الواقعة؛ حيث إنّ الطّبقة الثّانية استأثرت بمخصّصات تؤشّر للسّمات الجّهيّة والزّمنيّة للواقعة والذّوات المحال إليها كمّاً وكيفاً، ومن السّمات الجّهيّة الكميّة: (الكثرة، القلّة، السّرعة، الطّول، الاستمرار، الآنية، التّكرار، الاعتياد)، وانقسمت السّمات الجّهيّة الكيفيّة إلى تامّة وغير تامّة، تتضمّن السّمات غير التّامة: (الشّروع، الدّخول في واقعة التّدرّج، الإنهاء). أمّا السّمات الكميّة للذّوات فاشتملت على (الأسوار الكليّة، الأسوار البعضيّة الأعداد)، وَأوَت السّمات الزّمنيّة (المضي، الحال، الاستقبال، الزمن الرّجعي).

خلاصة: كشف تطبيق نموذج نحو الخطاب الوظيفي على متن الحديث القدسي أن الأخير خطاب ذاتي ديني متعدّد الآلية الخطابيّة، امتاز بثراء تداولي في طبقاته الثّلاث (المحادثة، النّقلة الفعل الخطابي) ودلالي في طبقتيه (القضيّة والواقعة)، إلّا أنّنا سجّلنا حالات كثيرة من الانتقال لعناصر وإواليات الوصف التّفسير بين (نحو الطّبقات القالبي) و(نحو الخطاب الوظيفي)؛ وهذا ما يجعل الدّارس يجد صعوبة إذا انطلق يدرس النّموذج الثّاني قبل أن يخوض في النّموذج الأوّل.

لقد انتقل عنصر الإلحاح في المحاورة من الطبقة الاسترعائيّة من المستوى البلاغي في النّموذج القالبي إلى حجة في الوظائف البلاغيّة من الفحوى الخطابي في نموذج نحو الخطاب الوظيفي. وانتقل عنصر النّداء من الطبقة الاسترعائية من المستوى البلاغي في النّموذج القالبي إلى مخصصات الأفعال الخطابية في نموذج نحو الخطاب الوظيفي.

وتحوّل كل من النّفي والتّقوية من سمة وجهيّة ذاتيّة معرفيّة في الطبقة الوجهيّة من المستوى العلاقي في النّموذج القالبي إلى حجّة في الوظائف البلاغيّة (التّقليل والتّكثير) من الفحوى الخطابي في نموذج نحو الخطاب الوظيفي. كما انتقل التّعجب من سمة وجهيّة ذاتيّة انفعاليّة من النّموذج الأوّل إلى فعل خطابي في النّموذج الثّاني.

إنّ سمات السّماع والتّجريب والاستدلال التي كانت سماتٍ وجهيّة مرجعيّة (أو علميّة) في النّموذج القالبي، قد أصبحت في نحو الخطاب الوظيفي حججاً تعيّن على إثبات الدّعوى. ويعتبر الحجاج بالاستدلال إحدى الحجج المرجعيّة التي يستند إليها المتكلّم لإثبات صدق القضيّة واتخاذ موقفه منها، إلى جانب الحجاج بالتّجريب الذي يرتبط بالتّجربة الشّخصية للمتكلّم، والحجاج بالسّماع الذي يستقيه المتكلّم من آراء غيره، وهذه الأنواع الثّلاثة من الحجاج كانت في النّموذج القالبي تسمى بالسّمات الوجهيّة العلميّة.

وإنّ أصناف الوقائع المُدرجة الآن في المستوى التّداولي من نحو الخطاب الوظيفي؛ قد تمّ تناولها في نحو الطّبقات القالبي في المستوى الدّلالي/ التّمثيلي، وتدلّ عليها الأفعال الحمليّة بنوعيها: الدّالة على الوقائع الحركيّة وهي الأعمال والأحداث، والدّالة على الوقائع غير الحركيّة وهي الأوضاع والحالات.

الفصل الخامس

الحديث القدسيّ في ضوء نحو الخطاب الوظيفي الموسّع

مدخل: نبتغي في هذا الفصل إثبات الكفاءة الوصفيّة والإجرائيّة لنموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع، حيث نواصل العملية المراسيّة على حديث قدسيّ آخر لكشف مدى صلاحيّة النّموذج لوصف متن الدّراسة.

نتعرّف أولا على المتن ومعناه العام، ثم نمرّ إلى كيفية اشتغال المكوّنات في نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع وخاصة المكوّنات غير اللغوية (السّياقي، المفهومي، الإنطاقي) التي تتضافر مع المكوّن النّحوي في إنشاء العملية التّواصليّة، وهي التي لم يكن لها حظّ من الدّراسة في الفصول التّطبيقيّة السّابقة.

والحقيقة أن كلّ ما سيأتي من عناصر في هذا الفصل تقريباً يعتبر جديداً عمّا عرفناه في الفصول السّابقة وغير مكرّر، وكأنّي بالمتوكّل يريد بنا أن نستطلع مباحث أخرى لم تكن لتُطرح من قبل في نموذجه الأوّل: نحو الطّبقات القالبي ولا في نموذج (هخنفلد) و(ماكنزي): نحو الخطاب الوظيفي؛ أي أراد فعلاً توسعة الجهاز الواصف الذي انتهى إليه الوظيفيّون في آخر مرحلة من التّنظير، دونما استغناء عن النّموذج السّابق طبعاً.

وتتناول المباحث الموالية: المكوّن السّياقي، المكوّن المفهومي، المكوّن الإنطاقي، أرباض النّص، استراتيجيّة الوظيفيّة التّواصليّة في النّص (بين التّواصل والتّخاطب، نسق التّواصل، نمط التّواصل)، التّنميط الوظيفي البنوي الموسّع للنّص وفق معايير عديدة أهمّها (المجال، القصد الآلية، الوسائط، الكيفيّة).

أولاً: المتن المنتقى للدّراسة ومعناه العام: حتى يتسنّى لنا إظهار تلك السّمات والوظائف إجرائيا؛ نضع بين أيدينا حديثاً قدسياً مناسباً لمعطيات النّموذج، هو حديث (قصّة موسى مع الخضر عليهما السلام).

قال الإمام البخاري رحمه الله: "حدّثنا علي بن عبد الله: حدّثنا سفيان حدّثنا عمرو بن دينار قال أخبرني سعيد بن جبير قال: قُلتُ لابن عباس: إنَّ نَوفاً البِكَالي يَزْعَمُ أنَّ مُوسى صاحِبُ الخَضِر ليسَ هُو مُوسى بَني إسْرائِيل إنَّما هُو مُوسى آخَر، فقال: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حدّثنا أُبيُّ بنُ كَعب عن النّبي ﷺ: «أنَّ مُوسَى قامَ خَطيبًا في بَني إسرائيلَ فَسُئِلَ أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقالَ: أنا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إذْ لَمْ يَرُدّ العِلْمَ إليهِ فقالَ لَهُ: بَلى لي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قالَ: أيْ رَبِّ وَمَنْ لي بِهِ؟ –وربّما قال سفيان أيْ رَبّ وَكَيفَ لي بِهِ– قالَ: تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلهُ في مِكْتَلٍ حَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ

فَهُوَ ثَمَّ –وَرُبّما قَال فَهُو ثَمَّهْ– وَأَخذَ حُوتاً فَجعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمّ انْطَلَقَ هُو وَفَتَاهُ يُوشَعُ بنُ نُون حَتّى إذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُما، فَرَقَدَ مُوسى واضْطَرَبَ الحُوتُ فَخَرَجَ فَسَقَطَ في البَحْرِ، فاتّخَذَ سَبيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ –فَقَالَ هَكَذَا مِثْلَ الطَّاقِ–، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَومَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَال لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، وَلَمْ يَجِدْ مُوسى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ، قَال لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلاّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَباً، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً وَلَهُمَا عَجَباً، قَال لَهُ مُوسى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً –رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا–، حَتّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسى، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَقَالَ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ، قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَالَ: نَعَمْ أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً، قَالَ: يَا مُوسى إِنّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً –إلى قوله أمراً– [قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً] فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُم، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوَلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَال لَهُ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحر، إِذْ أَخَذَ الفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحاً، قَالَ: فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسى إِلاّ وَقَدْ قَلَعَ لَوْحاً بِالقَدُّومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَا صَنَعْتَ؟ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوَلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِم فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً، قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً؟ قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا، فَكَانَت الأُولَى مِنْ مُوسى نِسْيَانًا، فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ البَحر مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ هَكَذَا، –وَأَوْمَأَ سُفْيَانُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئاً– فَقَالَ لَهُ مُوسى: أَقَتَلْتَ نَفْساً زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً، قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً؟ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوا أَنْ يَضَيِّفُوهُما فَوَجَدَا فيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ [فَأَقَامَهُ] مَائِلاً –أَوْمَأَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ سُفْيَانُ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئاً إِلَى فَوْق، فَلَمْ أَسْمَعْ سُفْيانَ يَذْكُرُ مَائِلاً إِلَّا مَرَّةً– قَالَ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً، قَالَ النَّبِيُّﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسى كَانَ صَبَرَ، فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»، قَالَ سُفْيانُ قَالَ النَّبِيُّﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسى لَوْ كَانَ صَبَرَ، يَقُصُّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»، وَقَرَأَ ابنُ عَبَّاس: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ

صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِراً وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ثُمَّ قَالَ لِي سُفْيَانُ سَمِعْتُ مِنْهُ مَرَّتَيْنِ وَحَفِظْتُهُ مِنْهُ، قِيلَ لِسُفْيَانَ حَفِظْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَسْمَعَهُ مِنْ عَمْرُو أَوْ تَحْفَظْهُ مِنْ إِنْسَانٍ! فَقَالَ مِمَّنْ أَتَحَفَّظُهُ، وَرَواهُ أَحَدٌ عَنْ عَمْرُو غَيْرِي؟ سَمِعْتُهُ مِنْهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً وَحَفِظْتُهُ مِنْهُ". [أخرجه البخاري (3401) ومسلم (2380) والترمذي (3149)]. (العدوي، 1989، 204).

ويُقصد بالرّاوي سفيان هنا هو سفيان بن عُيينة (عياض، 1998، ج7، ص364)، وقبل الولوج في مُساءلة هذا النّص وظيفياً، توّجب علينا تلخيص معناه العام على النّحو الذي يأتي:

قام النّبي موسى عليه السلام ذات يوم يخطب في بني إسرائيل، فسأله أحدهم: أيّ النّاس أعلم؟ فقال له موسى: أنا، فعاتبه الله ﷻ؛ لأنّه لم يردّ العلم إلى الله ونسبه إلى نفسه، فكلّم الله كليمه موسى بأنّ له عبداً بمجمع البحرين هو أعلم من موسى، فرغب موسى في لقياه ليتعلّم منه، فدلّه الله تعالى إلى السّبيل إلى ذلك، وهو أن يضع حوتاً في قفة وحيثما فقد الحوت فهو هناك. ففعل وانطلق مع فتاه يوشع بن نون حتّى وصلا إلى صخرة ناما عندها، فخرج الحوت وسقط في البحر، فثبّت الله آثار جريه نحو البحر كالقوس، ثمّ واصلا سيرهما بقيّة ليلتهما ويومهما حتّى وجدا التّعب، فطلب موسى من فتاه غداءهما، لكنّ الفتى أخبره أنّه قد رأى الحوت يتسرّب إلى البحر ونسي أن يُخبره، عندئذ عادا إلى مكان فقده أين وجدا الخضر نائماً ومغطّى بثوبٍ.

سلّم عليه موسى وعرّفه بنفسه ثمّ طلب منه أن يرافقه ليتعلّم منه، فأجابه الخضر بأنّ الله علّمه علماً لا يعلمه موسى، وأنّ موسى علّمه الله علماً لا يعلمه الخضر، وبأنّ موسى لا يستطيع أن يصبر معه، لكنّ موسى أصرّ على طلبه ووعده بأن يطيعه ويصبر معه. فانطلقا يمشيان على الشّاطئ حتّى مرّت بهما سفينة فطلبوا من أصحابها أن يحملوهم فحملوهم بغير أجرة؛ لأنّهم عرفوا الخضر، وهما عليها نزل عصفور على حافّتها ونقر في البحر نقرة أو نقرتين، فأخبر الخضر موسى بأنّ مقدار علمه وعلم موسى إلى جنب علم الله بمثل نسبة تلك النّقطة التي أخذها العصفور من البحر. وفجأةً أخذ الخضر الفأس فنزع لوحاً من السّفينة، فأنكر عليه موسى ذلك بشدّة؛ لأنّه بخرقه السّفينة سيغرق القوم الذين قدّموا لهما معروفاً، فذكّره الخضر بقوله أنّه لن يستطيع الصّبر معه، فاعتذر موسى بالنّسيان، ولمّا خرجا من البحر مرّا بغلام يلعب مع أقرانه فقتله الخضر فأنكر عليه موسى ذلك مرّة أخرى، فذكّره الخضر بعدم استطاعته الصّبر معه، فاستحيا موسى منه وأعطى له التزاماً إن سأله الثّالثة فله حقّ المفارقة. ثمّ انطلقا حتى وصلا إلى قريةٍ سألا أهلها فرفضوا ضيافتهما، فوجد الخضر فيها جداراً مائلاً يكاد يسقط فسوّاه بيده، فأنكر موسى هذا التّصرف بحجّة أنّ الخضر كان بإمكانه طلب الأجر مقابل البناء عند هؤلاء القوم الذين منعوهم من الطّعام، فردّ عليه الخضر بأنّ هذا آخر موقفٍ يجمع بينهما، وسيُقدِّم له تأويل تلك الأفعال

التي قام بها ولم يستطع النّبي موسى لها صبراً. ثمّ بيّنَ رسول الله ﷺ رغبته في أنْ لو صبرَ موسى حتّى يُعلِمنا الله من خبرهما.

ثانياً: إجراء نحو الخطاب الوظيفي الموسّع على المتن المحدّد للمعالجة: أَنجزَ كلٌّ من النّحو المعيار ونحو الطّبقات القالبي نقلةً إجرائيّةً في وصف الظّواهر اللغوية وفي نقل النّظرية إلى القطاعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة كتحليل النّصوص والتّرجمة والاضطرابات اللغوية. ونتيجة لتلك النّقلات والتّطورات رست اليوم نظرية النّحو الوظيفي على آخر ما أحدثته من نماذج في عالَم اللسانيات الوظيفيّة، وهو نحو الخطاب الوظيفي الموسّع.

ويعتبر هذا النّموذج الابتكار العربي الثّاني لـ(أحمد المتوكّل) في نظرية النّحو الوظيفي، وقد طرحه في كتابه الخطاب الموسّط (2011)، حيث اصطنع لهذا النّموذج النّظري الجهاز الصّوري لمستعمل اللغة، وهدف من خلاله إلى ولوج مجال الخطاب الموسّط، لرصد ووصف وتفسير واقعه اللغوي والخطابي، وطمح فيه أن ينال قابليّة حوسبته.

يقول (المتوكّل) (2011، ص78): «سننتقي نموذج مستعمل اللغة كما صيغ في نحو الخطاب الوظيفي على أساس إعداده ليصبح قادراً على رصد مختلف العمليات التي تتم أثناء التّواصل سواء أكان تواصلا مباشرا أم تواصلا موسّطا، سواء أتوسّل اللغة أم توسّل قناة غيرها» ويعني هذا الكلام أمرين:

1- إن صياغة نحو الخطاب الوظيفي الموسّع قامت على المكوّنات الأركان نفسها التي عرفناها في نحو الخطاب الوظيفي المعيار، وهي: المكوّن النّحوي الذي يرصد الطّاقات اللغويّة للخطاب، والمكوّن المفهومي الذي يشكّل القوّة الدّافعة في إنتاج الخطاب أو فهمه، والمكوّن السّياقي الذي يرصد السّياق العام والسّياق المقامي والسّياق المقالي، والمكوّن الإنطاقي/ الإصاتي الذي ينقل المستوى الفونولوجي المجرّد إلى تحقّق فعلي في الصّوت أو الإشارة أو الخط المكتوب حيث تشتغل المكوّنات في نحو الخطاب الوظيفي الموسّع بالكيفيّة التي تشتغل عليها في نحو الخطاب الوظيفي المعيار؛ وإنّما التّوسيع جاء ليشمل أنماط متعدّدة من الخطابات.

2- إنّ إعداد جهاز مستعمل اللغة لنحو الخطاب الوظيفي الموسّع تمّ بكيفية تجعله قادرا على رصد ما يقع أثناء التّواصل من عمليات، إنْ في الخطاب اللغوي أو غير اللغوي (الصّورة الإشارة)، أو في الخطاب المباشر (البعيد عن الوساطة) أو الخطاب الموسّط الذي يخضع لواسطة بين خطابٍ أصل وخطابٍ هدف، مثل التّرجمة، الشّرح، التّفسير، التّلقين، تعليم اللغات.

لقد سعى (المتوكّل) ليكون هذا النّموذج تحققا لغويا لنموذج التّواصل العام المحرز للكفاية التّواصليّة، فجاء جهازه الواصف عامّا ومتكاملاً يختلف فحوى مكوّناته وطريقة تشغيلها بحسب أنساق وأنماط التّواصل.

ويضيف الجهاز المقترح إلى آلية الإنتاج مجموعة من آليات التّوليد والتّحليل والتّحويل (مُحَوّل) تنقل البنية التّحتيّة للخطاب المصدّر إلى البنية التّحتيّة للخطاب الهدف، وتكفّل رصد عمليتي إنتاج الخطاب المباشر وفهمه وتحليله، كما يرصد مختلف العمليات التي يستلزمها الخطاب الموسّط (الملقّن، المنقول، المترجم)، فهو مُكيَّف ليحتوي كلّ الإنجازات الممكنة من مستعمل اللغة مثل: النّقل المحض، تعليم لغة ثانية، ترجمة بنوعيها: نسقية تتم بين لغتين(بينيّة) أو داخل اللغة نفسها (عينيّة)، أو أنساقيّة تتم بين أنساق التّواصل ومختلف أنماطه وقنواته.

وقد تناول موضوعَ التّرجمة بطريقة تختلف تماما عمّا أُعتيد عليه في التخصّصات اللغوية والعلميّة الأخرى، إذْ تعامل معها في إطارها العام وهو التّواصل، باعتبارها أحد أنماطه، تتآسر فيه مع مجالات أخرى مثل تعليم اللغات والاضطراب اللغوي وتحليل النّصوص، وتتعالق فيه مع عمليات أخرى كالشّرح والتّفسير والتّأويل، ومع خطابات لغويّة أو غير لغويّة كالإشارة والرّسم والموسيقى. سنتبيّن كل ذلك في المباحث الموالية.

وركّز أبرز أعلام نماذج النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة (ديك، هنخفلد، ماكنزي، المتوكّل) في أبحاثهم على المكوّن النّحوي بالدّرجة الأولى باعتباره مكوّنا مركزيا ومحوريا، في حين لم تحض المكوّنات المساعدة الأخرى في العملية التّواصليّة إلاّ ببعض الإشارات والافتراضات العامة.

ولئن اشتغلنا بدورنا في الفصلين التّطبيقيين السّابقين على المكوّن النّحوي في كلّ من نحو الطّبقات القالبي ونحو الخطاب الوظيفي المعيار، فإننا نحاول في هذا الفصل تناول بقيّة المكوّنات الثّانوية (السّياقي، المفهومي، الإنطاقي) التي ترصد الطّاقات غير اللغوية للعملية التواصليّة في نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع.

وهذا يتوجب علينا أن نضع الحديث القدسيّ السّالف ذكره أمام ترسيمة جهاز مستعمل اللغة لهذا النّموذج النّحوي، ومن خلال ذلك ندرس التّحقق اللغوي والخطابي المتن، بتحديد الأطراف الفاعلة في الخطاب وبُناه ومكوّناته، وآليات التّوليد والتّحليل والتّحويل، وطبيعة التّواصل فيه من حيث النّمط والنّسق والكفاية، باعتبار أنّ الجهاز شامل وقوالبه غير محدّدة الفحوى، وصالح لأنْ يُشغل ويرصد عمليات الإنتاج والفهم والنّقل أيّاً كانت طبيعة الخطاب وقناة التّواصل المستخدمة.

1- المكوّن السّياقي: إنّ السّمات والمخصّصات الموجودة في البنية السّطحيّة للخطاب لا تكفي وحدها لفهم الخصائص التّداوليّة المتضمّنة في بنيته التّحتيّة الوظيفيّة؛ إنّما يقتضي ذلك ربطها بمقام التّواصل.

بيّن (هنخفلد) و(ماكنزي) في نموذجهما المقترح أن المكوّن النّحوي يتفاعل مع المكوّن السّياقي أخذاً وعطاءً، إذْ يتضمّن الأخير المعلومات الواسعة وهي المتعلّقة بالفروق الاجتماعيّة القائمة بين مستعملي اللغة وبآثارها في صياغة ملفوظاتهم، والمعلومات الضيّقة وهي المتعلّقة بسياق الملفوظ الوارد في سياق تواصلي معيّن؛ لأنّ المقاصد التّواصليّة للمتكلّم تتشكّل في سياقات تواصليّة متعدّدة الأوجه. (2008، ص ص9-10)، فإذا كان المكوّن النّحوي يمثّل شقّ الصّياغة في المستويين العلاقي والتّمثيلي وشقّ التّعبير في المستويين الصّرفي-التّركيبي والصّوتي؛ فإنّه يرتبط مع المكوّن السّياقي في علاقة تفاعليّة، حيث يتضمّن السّياق معلومات عامّة حول المقام الذي يجري فيه الحدث الكلامي والعلاقة الاجتماعيّة القائمة بين المشاركين فيه، ومعلومات خاصّة واردة في الخطاب بأكمله تصف بنيته ومضمونه السّابقين أو اللاّحقين للحدث الكلامي الجاري وكل هذه العناصر السّياقيّة تؤثّر في شقيّ الصياغة والتّعبير من المكوّن النّحوي.

ويضطلع المكوّن السّياقي بمهمّة رصد المعلومات المستقاة من السّياق بشقّيه المقالي والمقامي وتخزينها، وإمداد المكوّنات الأخرى بها عند الحاجة، وهذه المعلومات فئتان: معلومة تُؤخذ من الموقف التّواصلي نفسه مباشرة عن طريق الإدراك الحسّي، ومعلومات تُفاد من خطاب سابق يُشار إليها عادة بالعود الإحالي، كما يقوم هذا المكوّن بدور الرّبط بين المكوّنات الثّلاثة الأخرى. (هنخفلد وماكنزي، 2008، ص ص11-14)؛ ويقصد المؤلّفان بالمكوّنات الثّلاثة الأخرى: المكوّن النّحوي، المكوّن المفهومي، المكوّن الإصاتي؛ حيث إنّ تفاعلها مع المكوّن السّياقي ضروري لتحقيق عملية التّواصل، وإن كان هذا التّفاعل يأخذ أشكالاً مختلفة، بحسب نوع التّواصل ونمط الخطاب وحجمه.

لقد تجاوز (المتوكّل) حدود هذا الوصف، واقترح تسمية اسم المقام التّواصلي (سياقا)، وميّز داخله بين ثلاثة أنواع: سياق مقامي، يحدّد عناصر موقف تواصلي معيّن، وسياق مقالي يضع الخطاب في إطار ما يسبقه وما يتلوه، وسياق عام يرصد محدّدات المحيط الاجتماعي والثّقافي الذي يشكّل خلفيّة لإنتاج الخطاب وفهمه. (2011، ص44)، ويجعل هذا الاقتراح من المكوّن السّياقي ثلاثة أُطر: عام ومقامي ومقالي، تجمعها علاقة احتوائيّة سلميّة تضيق كلما اقتربنا من العبارة اللغويّة، ويُحدَّد دورُه في تغذية المكوّن المفهومي لمستعمل اللغة الطبيعيّة بالمعلومات الضّرورية لعمليّة التّخاطب، ويغذّي بصورة خاصّة آليّة تأويل الخطاب لديه.

وانطلاقاً من هذا المنظور، تبرز أهميّة الحديث عن دور المكوّن السّياقي داخل نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع في تحقيق عملية التّواصل وفهم خطاب الحديث القدسيّ المفحوص حيث تتّضح فيه السّياقات الثّلاثة المذكورة كما يلي:

1-1- السّياق العام: يتعلق السّياق العام بالخلفيّة الاجتماعيّة والثّقافيّة لإنتاج الخطاب أو فهمه، فبالنّسبة لفهم الخطاب يمكن أن يُعمِل المتلقّي خلفيته الثّقافيّة المتعلقة بسابق قراءته لسورة الكهف واطّلاعه على تفسيرها، أو اطّلاعه على الرّوايات الإسرائيليّة وأخبار اليهود حول قصص النّبي موسى عليه السلام، فتكون تلك العمليّات التي قام بها المتلقّي بمثابة سياق عام لفهم الخطاب. وبالنّسبة لسياق إنتاج الخطاب، فذلك أمرٌ يرتبط بالأحداث والوقائع المتزامنة مع وقت بثّ الرّسول ﷺ لهذا الحديث، وقد تكون سبباً أو دافعاً إليه، وبحثنا حول هذه الدّوافع لم يكشف لنا إلاّ الحديث المروي عن (ابن عبّاس) حول سبب نزول سورة الكهف كاملة باعتبارها تتقاطع مع حديثنا في تسع عشرة (19) آية من بين مئة وعشر (110) آيات من هذه السّورة.

يُشار إلى أن (حديث ابن عبّاس) ضعيف، لكن ذكره المفسّرون كابن كثير والبقاعي والرّازي والطّبري وابن اسحاق في تفاسيرهم (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص ص71-72) (البقاعي، 1984، ج12، ص ص09-12)، (الرّازي، 1981، ج21، ص83)، ونحن نورده من باب الاستئناس بما يُحتمل أن يكون سياقاً عامّاً لهذا الحديث القدسيّ الذي جاء بعد نزول سورة الكهف لغرض تفسير جزء منها، ونصّه كما يلي:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بعثت قريش النّضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمّد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنّكم أهل التّوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال، فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهنّ، فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل، فالرّجل متقول، فروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل ما كان من أمرهم فإنّهم قد كان لهم شأن عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرّوح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فهو نبيّ فاتّبعوه، وإن لم يخبركم فإنّه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النّضر وعقبة حتّى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا عمّا سألتم عنه» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث

الله له في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكّة وقالوا: وعدنا محمّد غدا واليوم خمس عشرة ليلة، وقد أصبحنا فيها ولا يخبرنا بشيء عمّا سألناه، وحتّى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكّة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيّاه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرّجل الطّوّاف وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الكهف83 إلى آخر الآيات".

يعود السّياق العام للحديث القدسيّ المفحوص حسب هذا الحديث النّبوي الأخير إلى ظروف اشتداد الأزمة بين النّبيّ ﷺ وكفار قريش حين بدأ ينتشر الاسلام في مكّة، حيث أرسلوا إلى يهود المدينة باعتبارهم أهل كتاب ليدّلوهم عن كيفيّة معرفة مدى صدق دعوته، فوجّهوهم أن يسألوه عن ثلاث؛ عن فتيةٍ في غابر الدّهر، وعن ملكٍ طاف الأرض، وعن الرّوح، فإن أجاب عنها كان نبياً وإلاّ فهو مجرد مُدّعٍ. ولمّا فعلوا؛ أخبرهم النّبي ﷺ أنّه سوف يجيبهم في الغد، ونسي أن يقول إن شاء الله، فانقطع الوحي عنه مدّةً يسيرة حتّى شقّ ذلك عليه، ثمّ نزلت عليه سورة الكهف التي تضمّنت الإجابة عن السؤالين الأولين بذكر قصة الفتية أصحاب الكهف، وقصة الملك العادل ذي القرنين، والآية 85 من سورة الإسراء التي تبيّن أنّ الرّوح هي من أمر الله تعالى وعلمه، ونزلت قريبة من زمن نزول سورة الكهف.

وقد نزلت سورة الكهف وفي مضمونها أشمل ممّا سأل عنه الكفار، حيث أضافت قصّة صاحب الجنّتين، وقصّة موسى والخضر عليهما السلام التي جاء هذا الحديث القدسيّ لتفسيرها.

1-2- السّياق المقالي: وضع السّياق المقالي خطاب الحديث القدسيّ بين ما سبقه وما تلاه من خطاب ملفوظ/ مكتوب في إطار العملية التّواصليّة، ففي الحديث؛ كلُّ القصة التي تروي سلسلة الأحداث التي جرت بين محورين رئيسيين في الحديث وهما موسى والخضر عليهما السلام ترتبط ببؤرة الخطاب الأولى وهي ادّعاء موسى عليه السلام العِلمَ في الرّبض الأوّل للنّص وهو: «أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئِل: أيّ النّاس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذْ لم يردّ العلم إليه» يعني أنّ كلَّ الأحداث التي بعدها ترتبط بالسّياق المقالي لهذا الرّبض، وتُشكّل عتاباً لموسى عليه السلام من الله تعالى؛ لأنّه لم ينسب العلم إلى الله كما فعلت الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة32.

إنّ تسلسل تلك الأحداث تكشف أن النّبيّ موسى عليه السلام بعدما أخبره الله تعالى بوجود عبدٍ له هو أعلم منه (من موسى)؛ حاول الوصول إلى ثلاثة أهداف هي: التعرّف على هذا العبد، مرافقته التعلّم على يديه ممّا عُلّم رُشداً، لكن بعد مشقّة الرّحلة، وصل إلى هدفين فقط هما التّعرف على هذا العبد الصالح ومرافقته، لكن لم يأخذ العلم عنه لعجلته وعدم صبره عند رؤية الأفعال التي كان

يقوم بها الخضر واشتد نكيره لها، وهي حقّاً أفعال منكرة في ظاهرها (خرق السّفينة، قتل الغلام بناء الجدار لقوم رفضوا إطعامهما)، لكن في حقيقتها أوامرٌ إلهيةٌ للخضر كي يُنفّذها، وفي باطنها حكمٌ ربّانية لا يعلمها إلاّ الله ثم عبده الخضر.

لقد أُعذر النبيّ موسى عليه السلام من طرف الخضر مرّتين، وفي الثّالثة أُقصي من رحلة التعلّم بعدما قرّر الخضر الفراق، إذن لم يتمّ هدف التّعليم؛ إذْ بقي حاله أنّه لا يمكنه أن يَعْلَمَ أو يتوقّع ما عَلِمَهُ الخضر من الله، ولكن تحقّقت غاية التأدّب، التي تقتضي الوقوف عند حدّ العالم وعدم مقاطعته بالسّؤال أو الاعتراض عليه، والتّواضع مع النّاس في أخذ العلم أو منحه، ونسبة كلّ العلم إلى الله، وهي الفكرة التي تحيلنا إلى السّياق المقالي الذي يتضّمن بؤرة الخطاب الأولى.

1-3- السّياق المقامي: السّياق المقامي أشار إلى مجموعة من العناصر التي كانت موجودة في الموقف التّواصلي أثناء عملية التّخاطب، وهي ذات تأثير في هذه العملية إنتاجا أو فهماً. وإذا جاز لنا توسيع تصوّرنا حول عملية التّخاطب بتعدّيها إلى مرحلة نقل الخطاب وتداوله بين روّاة الحديث القدسيّ مع المتلقّي المتباعد، وعدم قصرها على مرحلة إرسال الخطاب من الرّسول ﷺ إلى المتلقّي المتزامن؛ أمكننا القول أنّه ليس في حوزتنا ما يُؤشّر على السّياق المقامي لمنتج الخطاب وهو الرّسول ﷺ، ولكن يوجد لدى الرّاويين (ابن عباس) و(سعيد بن جبير) ما يدلّ على أنّ هذا الحديث القدسيّ تمّ إعادة تناقله؛ بسبب وجود سياق معيّن في المقام.

ويتعلق هذا السّياق بموقف تواصلي مقامي بين (سعيد بن جبير) و(نوفا البكالي). والأخير هو نوف بن فضالة من قبيلة بني بكال من حمير، وكان عالماً قاضياً، وإماماً لأهل دمشق. (عياض، 1998، ص364)؛ وهو الذي تحدّث عن شخصية موسى المذكورة في سورة الكهف بأنّه ليس موسى بني إسرائيل بل موسى آخر.

ويبدو أن قرينة هذا الادّعاء هي عدم ورود ذكر بني إسرائيل تماماً في قصّة النّبي موسى الواردة في سورة الكهف، حيث نقل (سعيد بن جبير) هذه المعلومة المقاميّة، احترازاً، إلى (ابن عباس) الذي فنّدها تماماً بتبئير بداية الكلام ببؤرة إبطال في الحمل: «كذب عدوّ الله»، ثمّ إيراد حجّته المقاميّة بسماعه حديثٍ عن رسول الله في هذا الصّدد. وليس المقصود من عبارة «كذب عدوّ الله» أن (نوفا) عدوٌ لله حقيقةً، ولكن هو أسلوب على طريق الإغلاظ والضّجر على من قال: لا يصحّ، والصّحيح: (إنّ صاحب الخضر هو موسى نبيّ بني إسرائيل).

2- المكوّن المفهومي: المكوّن المفهومي أو كما يُسمّى أيضاً بالمكوّن التصوري يُشكّل القوّة الدّافعة للمكوّن النّحوي، ويكون أشد ارتباطه مع المكوّن السّياقي ثم المكوّن النّحوي.

يُعدّ المكوّن المفهومي محلّ تمثيل المادّة الفكريّة المتفاعلة التي يستلزمها الخطاب المراد إنتاجه في مقام تواصلي معيّن، ويُمثّل في هذا المكوّن لجوانب المعرفة التي لها تأثير في القصد التواصلي الجاري تشكيله، ولا يُمثّل فيه لكل مظاهر المعرفة المحتمل ورودها في أي خطاب وينقسم إلى مكوّن خاصّ ومكوّن متفاعل يوازيهما في بنية النّحو المستوى العلاقي والمستوى التّمثيلي. (هنخفلد، ماكنزي، 2008، ص ص7–8)؛ وهنا يأخذ المكوّن المفهومي على عاتقه مسؤوليّة تطوير المقاصد التواصليّة الواردة في الحدث الكلامي الجاري بوحداته المختلفة كالأفعال الخطابيّة والنقلات الحواريّة، وكذا التّصورات المتعلقة بالأحداث غير اللغوية؛ وبذلك يتضمّن المعلومات المؤثّرة في تلك المقاصد لحظة وقوع الحدث الكلامي، ولا يتضمّن كلّ المعلومات المحتمل ورودها في بنيته النّحوية.

وتتشكّل في المكوّن المفهومي القرارات التّواصليّة للمتكلّم، وتتحدّد مقاصده التّواصليّة واستراتيجيّته المتّخذة لبلوغها، أمّا المكوّن النّحوي فلا يُمَثِّل إلاّ للمقاصد التّواصليّة التي يمكن تشفيرها في الخطاب بوسيلة من الوسائل اللغوية. وهناك ترابط بين مضامين المكوّن المفهومي التي تتحرر من أي قيود تفرضها اللغة، وبين مضامين المكوّن النّحوي التي تخضع لقيود اللغة (في المستويين العلاقي والتّمثيلي)، وتقيّد تبعاً لذلك عدد الاختيارات التّعبيريّة المتاحة أمام المتكلّم. (هنخفلد، ماكنزي، 2008، ص ص47–48)، وإذا قطعنا النّظر عن عملية نقل خطاب الحديث القدسيّ من طرف الرّواة وتدخّلاتهم فيه، ووجّهنا عنايتنا نحو المتكلّم منتج الخطاب وهو رسولنا الكريم ﷺ؛ أمكننا تحديد المكوّن المفهومي له كما يلي:

– يحوي هذا المكوّن في الحديث القدسيّ القرارات والمقاصد التّواصليّة التي يريد الرّسول ﷺ أن يبلّغها للكفّار من جهة؛ وهي إثبات صدق دعوته ونبوّته، بدليل ما أتاه الله ﷻ من أخبار الأنبياء قبله والأمم السّابقة؛

– يستبطن هذا المكوّن في المدوّنة القرارات والمقاصد التّواصليّة التي يريد الرّسول ﷺ تبليغها للمسلمين من جهة ثانية؛ كي يُعَلّمهم من قصّة سيّدنا موسى مع الخضر عليه السلام الكثير من الحكم والعبر منها: خضوع العبد لخالقه، ونسبةُ ما أوتي من نعمة العِلم إلى الله ﷻ والشّكر عليها وكذلك باقي النّعم، والصّبر والرّضى بقضائه وقدره في كل ما أعطى وما أخذ، وغير ذلك.

وهذه المقاصد محرّرة من قيود اللغة؛ لأنها مادة فكرية معرفية غير واردة في الخطاب ويمكن للمتلقّي تأويلها انطلاقا من المقام التّواصلي والسّياق العام، وبتعبير أدق هي معلومات غير مشفّرة في المكوّن النّحوي بالوسائل اللغوية (التّركيبيّة، الصّرفيّة، التّنغيميّة،...)، وغير متضمّنة في بنيته

الوظيفيّة بمستوييها التّداولي (العلاقي) والدّلالي (التّمثيلي) الخاضعة لقيود اللغة، والتي يمكن أن تكشف لنا طبعاً عن مقاصد تواصليّة أخرى غير الذي ذكرنا.

3- المكوّن الإنطاقي: يُسمى هذا المكوّن أيضاً بالمكوّن الإصاتي أو الخَرَجُ، وهو «يُوَلِّدُ التّعبيرات السّمعيّة أو الكتابيّة أو الإشاريّة استناداً إلى المعلومات الواردة في المكوّن النّحوي» (البوشيخي، 2012، ص128)؛ فهذا المكوّن هو المسؤول عن إخراج حصيلة المعلومات الممثلة في المكوّن النّحوي إخراجاً إنطاقياً، عن طريق التّعبير عنها بواسطة النّطق (اللفظ) أو الكتابة أو الإشارة.

ويجمع المتن الذي بين أيدينا بين مختلف وسائل الإنطاق تلك، بل أكثر منها، ولا نبالغ إن قلنا لا نجدها إلاّ في مدوّنة أحاديث النّبيّ ﷺ، ففيها ما لا نجده مجتمعاً في أي عمل فنّي آخر وما ذاك إلا لتميُّز الأحاديث النبويّة بميزة الجمع بين الوحي من الله تعالى وكلام الرّسول ﷺ ثمّ إنطاقه من طرف رواة الحديث بوسائل مختلفة، فالمتأمّل الحصيف يجد أن المكوّن الإنطاقي لهذا الخطاب يتفرّع إلى أقسام متنوعة وفق المراحل الآتية:

1- مرحلة الوحي: للوحي أشكال عديدة (الرّؤيا الصّادقة في المنام، صلصلة الجرس، كلام جبريل عليه السلام في هيئته الحقيقيّة أو في هيئة رجل، النّفث في الرّوع، التّكليم من وراء حجاب)، وفي هذه الأشكال ما لا يتحمّله إلاّ الأنبياء، سيأتي التّفصيل فيها حينما نصل إلى مبحثي الخطاب المباشر والخطاب الموسّط. ونكتفي هنا بالقول أنّ الخطاب هنا هو في صورة معنىً فقط كما ذكر العلماء؛ لأنهم يُعرّفون الحديث القدسيّ بأنه المعنى من الله واللفظ من الرّسول ﷺ، لذلك لا يمكننا الحكم على طبيعة المكوّن الإنطاقي هنا، كما أنّه لا يُعرف في أي شكل من أشكال الوحي ورد الحديث القدسيّ موضوع الفحص.

2- مرحلة الخطاب النّبوي للمتلقّي المتزامن: تمّ إنطاق المعنى في صورة لفظيّة نطقيّة من طرف الرّسول إلى كل متلقٍ متزامن مع الحدث الكلامي. وعادة ما يُرفق الرّسول ص ملفوظه بالحركات الإشاريّة، إلاّ أن هذا الحديث يخلو من إشارات النّبيّ ﷺ.

3- مرحلة تداول الحديث بين الرّواة: جمع المكوّن الإنطاقي هنا بين اللفظ والإشارة، حيث أُنجزت هذه العمليّة عن طريق التواتر الشّفهي بين الرّواة من الصّحابة والتّابعين، فكان نقل هذا الحديث القدسيّ من المتكلّم إلى المخاطب وإنطاقه باللفظ والإشارة معاً إلى أن بدأت مرحلة تدوين الحديث النّبوي الشّريف في بداية القرن الثّاني للهجرة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.

4- مرحلة تدوين الحديث: استعاض المكوّن الإنطاقي هنا بالشّكل المكتوب على الشّكل الملفوظ، وبقي الشّكل الإشاري الذي يمثل إشارات الرّواة النّاقلين مُجسّداً أيضاً في صورة مكتوبة

فالمتلقّي الآن، أصبح يتعامل مع خطاب الحديث القدسيّ في صورته المكتوبة ويُعمل طاقاته الإدراكيّة والتّأويليّة والتّخييليّة لفهم الخطاب وإشاراته وسياقاته المختلفة.

والخلاصة؛ إن المكوّنات الثّلاثة (السّياقي، المفهومي، الإنطاقي) هي مكونات ثانوية مساعدة للمكوّن المركزي وهو المكوّن النّحوي في إنجاح عملية التّواصل بين مستعملي خطاب الحديث القدسيّ، حيث شكّل المكوّن المفهومي (المعرفي) مُحرّك الحدث الكلامي، وقام المكوّن النّحوي بعمليتي الصّياغة والتّعبير للمقاصد التّواصليّة بالتّفاعل مع المكوّن السّياقي، ليقوم في النّهاية المكوّن الإنطاقي بإخراج المعلومات المترجمة في المكوّن النّحوي إلى الصّورة الاستعماليّة المحسوسة، نطقاً أو كتابةً أو إشارةً؛ بحسب موضع وإرادة مستعمل اللغة.

4- أرباض النّص: النّص هو الخطاب المتضمّن لمجموعة من الجمل شريطة أن تُشكّل هذه المجموعة من الجمل وحدة خطابيّة تامّة (المتوكّل، 2008، ص114)، أمّا الخطاب فهو أعمّ من ذلك؛ لأنّه قد يرد نصّاً، أو جملة واحدة، أو مركبا اسميّاً، أو مفردة واحدة.

بالنّظر إلى مبدأ افتراض التّماثل البنوي بين مختلف أقسام الخطاب (المتوكّل، (2001) (2003))؛ فإنّ النّص يُماثل بنويا الجُملة ويُناظرها كما يُناظر المركّب الاسمي. وبهذا ينتظم النّص في بنية يسبقها ربض قبلي، وتنتهي بربض بعدي.

للنّص فئتان من الأرباض النصّية: أرباض مشتركة يتقاسمها النّص والجملة مثل الأرباض القبليّة كالنّداء من أجل الاسترعاء والمبتدأ لغرض التّوجيه، وأرباض خاصّة يغلب تواردها مع النّص؛ لأنّ أرباض النّص تختلف من حيث طبيعتها ووظيفتها باختلاف الأنماط الخطابيّة؛ إذْ إنّ لكلّ نمط خطابي أرباضا تخصّه وتؤدّي وظائف لا تؤدّيها في أنماط خطابيّة أخرى، وأرباض النّص عموما ثلاث زمر: فواتح تسبق النّص، وخواتم تليه، وأحشاء تتخلّله (المتوكّل، 2008، ص ص114-116)، وإذا ركّزنا على المتن المتضمّن كلام رسول الله ﷺ وقطعنا النّظر عمّا ورد في سنده من أقوال الرّواة، نتوصّل إلى تحديد أرباض النّص كما يلي:

4-1- الفواتح: تتقدم النّص وتؤدّي وظائف: الإعلان أو التّمهيد والتّوطئة، مثل عبارات التّحايا، والبدء، والتّقديم، والاستهلال في القصيدة. (المتوكّل، 2008، ص116)، وما يعتبر فاتحة الحديث القدسيّ هو الجملة «أنّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل»، ويروز ربضيتها إمكانيّة الاستغناء عنها في النّص والبدء مباشرة بالقول «سُئل موسى أيّ النّاس أعلم؟»، فتؤدّي الدّور التّمهيدي للنّص وتشكّل فعلا خطابيا قائم الذّات.

وفي الوقت نفسه؛ إذا تجاوزنا عن الصّرفة (أنّ) باعتبارها للتّقوية فقط، أو لوصل كلام النّاقل (ابن عباس) بالكلام المنقول للرّسول ﷺ، فإنّه يمكننا ردّ الحد (موسى) إلى صدارة الكلام بوصفه مبتدأ، وتُصبح بداية النّص هكذا: (موسى، قام خطيبا في بني إسرائيل)، وبهذا الشّكل يمثّل الحدّ (موسى) ربضا قبلياً مشتركا يؤدّي الوظيفة التّوجيهيّة، ويكون هو أيضاً فعلاً خطابيّاً مستقلاً عن الأفعال الخطابيّة الأخرى.

4-2- الأحشاء: تتخلل النّص وتنقسم إلى حوافظ تضمن استمرار الخطاب مثل الاستفهامات غير الحقيقيّة، ونواقل تؤشّر إلى الانتقال من محور إلى محور أو من موضوع إلى آخر داخل الخطاب نفسه مثل الرّوابط. (المتوكّل، 2008، ص116)، وجاءت الحوافظ والنّواقل في أحشاء النّص كما يلي:

أ- **الحوافظ:** نجد من الحوافظ الاستفهامات الواردة في بطن النّص، الموجّهة من النّبيّ موسى إلى الخضر عليه السلام في قوله: «ما صنعت؟»، وهو استفهام غير حقيقي؛ لأن موسى يعلم ما صنعَ الخضر؛ فقد خرق السفينةَ أمامه، ولكن أراد إنكار فعله ورفضه وعدم تقبّله؛ لأنّ أصحاب السّفينة قد صنعوا لهم معروفاً إذ نقلوهم بغير أجر. وكذلك في قوله: «أقتلت نفساً زاكية بغير نفس؟»، فموسى عليه السلام يدرك أن الخضر قد قتلَ الطّفل وانتهى الأمر، فبدلاً من أن يسأله سؤالاً آخر من قبيل: لماذا قتلته؟ ليعلم سبب الفعل، سبقه إلى ذلك شدّة إنكار الفعل أولاً؛ لأن الغلامَ في نظره نفسٌ زكيّةٌ بريئةٌ لا يحق فيه القتل، فجاء الاستفهام غير حقيقي يُراد به شدّة إنكار تصرّف الخضر.

ويأتي بعد ذلك جواب الخضر على ردود فعل النّبيّ موسى عليه السلام السّابقة في شكل سؤال أيضاً بقوله: «ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً؟»؛ وتكرّر مرتين، وهو استفهام غير حقيقي يراد به التّقرير؛ لأنّه يحمل المخاطَب سيّدنا موسى عليه السلام على الاعتراف والإقرار والإثبات بأنّه لا يستطيع فعلاً الصّبر مع ما يفعله الخضر. وكلّ هذه الاستفهامات حافظت على استمرار الخطاب وامتداده.

ب- النّواقل: نجد في ما يخصّ النّواقل الكثير من الرّوابط اللفظية الموزّعة في ثنايا النّص وتؤشّر إلى الانتقال من محور إلى محور أو من موضوع إلى آخر داخل الخطاب نفسه، كما يلي.

1- نواقل الانتقال من محور إلى محور: وقع هذا الانتقال بالنّواقل الآتية:

- بواسطة الجمل الاعتراضيّة: وهي: «...-وربّما قال سفيان أيْ رَبّ وَكَيفَ لي بِهِ-...-وَرُبّما قَال فَهُو ثَمَّهْ-...-وَأَوْمَأَ سُفْيَانُ بِأَطْرافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئاً-...-أَوْمَأَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ سُفْيَانُ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئاً إِلَى فَوْق-...»، حيث تم الانتقال فيها في كلّ مرّة من المحاور المقاليّة

الموجودة في النّص إلى المحور المقامي الموجود خارج النّص وهو الرّاوي (سفيان بن عيينة) لإيراد توضيحاته الإشاريّة المتعلّقة بالموضوع ذاته.

– بواسطة الصّرفة (إذا) الفجائيّة المقترنة بالفاء الاستئنافيّة، في الشّاهد: «فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسى»، حيث تمّ الانتقال فجأةً من محور موسى ﷺ ومحور يوشع بن نون إلى محور الخضر ﷺ.

2– نواقل الانتقال من موضوع إلى آخر: حدث هذا الانتقال بالنّواقل الآتية:

– بواسطة الصّرفة (حتّى) التي تفيد إرادة انتهاء الغاية الزّمانية أو المكانيّة، ويكون ما بعدها جزاءً لما قبلها، حيث ينقضي الأمر به (ابن هشام، 2005، ج1، ص123)، ووجدت في الشّواهد الآتية: «ثُمّ انْطَلَقَ هُو وَفَتَاهُ يُوشَعُ بنُ نُون حَتّى إذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُما»، «فَارْتَدّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً حَتّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ»، «فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَومَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مْنَ الغَدِ»، «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا».

وتمّ الانتقال بها من موضوع الانطلاق سيراً والارتداد تقصّياً عند النّبيّ موسى ﷺ وفتاه إلى موضوع وصولهما وانتهائهما إلى مكان الصّخرة، أو إلى يوم الغد، أو إلى مكان أهل القرية على التّرتيب في الشّواهد، فما كان بعد الصّرفة (حتى) هو الغاية التي انتهى إليها ما قبلها تدريجيا من حيث الزّمان والمكان.

– بواسطة الصّرفة (لمّا) المقترنة بالفاء الاستئنافيّة، وتسمّى (لمّا) حرف وجود لوجود فيقع الشّيء بعد وقوع غيره (المرادي، 1992، ص594)، وتسمّى أيضا التّعليقيّة؛ لأنّها تعلّق الجملة الثّانية بالأولى، مثل: «فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ»، وتجسّد الانتقال بها من موضوع ركوب السّفينة إلى موضوع وقوع العصفور عليها؛ فتعلّق الموضوع الثّاني بالأوّل، وكذلك في الشّاهد: «فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ البَحر مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ»، أين وقع الانتقال من موضوع الخروج من البحر إلى موضوع المرور بالغلام، فلم يوجد المرور به إلاّ بوجود الخروج من البحر.

– بواسطة الصّرفة (إذْ) الفجائيّة في الشّاهد: «إِذْ أَخَذَ الفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحاً»، حيث أُنتقل فجأة من موضوع محادثة الخضر للنّبيّ موسى ﷺ حول حركة العصفور على حرف السّفينة إلى موضوع آخر هو قيام الخضر بأخذ الفأس ونزع اللوح من السّفينة.

4–3– الخواتم: ينتهي بها النّص وتؤدّي وظائف التّلخيص أو الاستنتاج أو التّعقيب، أو مجرّد الإنهاء، مثل عبارات التّوديع، والانتهاء، والختم، والهوامش والملاحق، والتّكملة. (المتوكّل 2008، ص ص116–117)، وتمثّل الجملة: «قال النّبيّ ﷺ: وَدِدْنا أنّ مُوسى كَان صبرَ، فقصّ

اللهُ علينا مِن خَبَرِهما»، خاتمةً للحديث القدسيّ، وما يروز ربضيتها هو استقلالها عن صلب النّص، وإمكانيّة الاستغناء عنها، وهي عبارة ختم تؤدّي وظيفة التّعقيب النهائي من رسول الله ﷺ على القصّة رمّتها وتحديداً على مدى صبر النّبيّ موسى عليه السلام في مرافقته الخضر.

5- استراتيجيّة الوظيفة التّواصليّة: يعدّ اللساني (رومان جاكبسون) أوّل من تكلّم عن عناصر الدّارة التّواصليّة اللسانيّة في الخطاب اللفظي، باعتبارها عوامل تُنجِزُ ظلَّها في وظائف مختلفة، وبالموازاة ألحّ على ضرورة حضور الشّعريّة في كل تواصل لفظي مهما كانت أشكاله التّعبيريّة. (بومزبر، 2007، ص ص09-11)؛ أي أنّ جاكبسون ركزّ على الأنظمة التّواصليّة البشريّة ذات الطّبيعة اللفظية فقط، وهي ذات النّسق اللغوي الصّرف دون الأنساق الأخرى كالإشارة والرّسم والموسيقى.

واستثمر اللسانيّون -الوظيفيّون على الخصوص- من بعده هذه المقولة، حيث تكلّم (المتوكّل) عن استراتيجيّة الوظيفيّة التّواصليّة، وفرّق بين التّواصل والتّخاطب، كما فرّع التّواصل من حيث النّسق والنّمط على النّحو الآتي.

5-1- بين التّواصل والتّخاطب: التّخاطب هو عمليّة اتّصال تتمّ بين متكلّم ومخاطب في مقام معيّن عبر قناة معيّنة قد تكون لغة (ملفوظة/مكتوبة) أو إشارة أو صورة أو غير ذلك.

والتّواصل فرعٌ من التّخاطب؛ لأن التّخاطب نوعان: المفضي إلى تواصل، وغير المفضي إلى تواصل، حيث يحصل التّواصل حين يفهم المخاطب تماماً خطاب المتكلّم من حيث فحواه ومقصده معاً، ولا يحصل التّواصل إنتاجاً أو تلقياً؛ بسبب امتناع كعدم تقاسم المتخاطبين اللغة كأداة تواصل، أو بسبب اضطراب عرضي كخلل في المقومات البنويّة للخطاب أو في بعده الإحالي أو في مطابقته للمقام، أو اضطراب مرضي كخلل نفسي أو عقلي لدى أحد المتخاطبين. (المتوكّل، 2011، ص ص15-16)، والحديث القدسيّ الذي بين أيدينا هو تخاطب يتمّ بين الرّسول ﷺ والصّحابة المخاطبين وقتئذ؛ بالتّلقي المتزامن لخطاب ملفوظ، وكذلك النّاس أجمعين من بعدهم كمتلقّين بالتّلقي المتباعد لخطاب ملفوظ/مكتوب منقول إليهم.

وأُسْعِفَت القناة اللغوية أثناء نقل الحديث بقناة غير لغوية تمثّلت في الحركات الإشاريّة المواكبة للرّاوي (سفيان)، ومنها: «وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئاً»، و«أومأ بيده هكذا»، و«وأشار سفيان كأنّه يمسح شيئاً إلى فوق».

وبالنّظر إلى طرفي المركز الإشاري المتكلّم والمتلقّي المؤشّر لهما أعلاه؛ فإن هذا الحديث القدسيّ قد أفضى إلى عمليّة التّواصل؛ لأنّ المتلقّي يفهم فحواه ومقصده، ولا توجد أسباب امتناع

التّخاطب فالمتلقّي يمتلك أداة التّواصل مع المنتج، كما لا توجد الاضطرابات المرضيّة أو العَرضيّة للخطاب. لكن لو نظرنا إلى التّخاطب القائم بين الشّخصيات التي تضمّنها النّص، أمكننا ملاحظة نوع آخر من التّخاطب، هو الذي يفضي إلى تواصل سلوكي في المقام، ونقصد بالتّواصل السلوكي أن يحافظ المتكلّم أو المتلقّي على مقتضى سلوك التّخاطب إلى غاية تحقيق الهدف النّهائي من التّخاطب.

ويتمّ ذلك بأن يُبقي المتخاطب (متكلّم أو متلقّي) على الوضعيّة التّخاطبيّة المناسبة لنجاح التّخاطب (فلا يغادر دون سابق إشعار مثلا، أو كأن يحافظ على وضعيّة الجلوس أو الوقوف أو المشي أو المرافقة أو غير ذلك)، وبأن يلتزم بشروط التّخاطب التي عُقدت بينهما منذ بداية التّخاطب (كالتّدبر والانتباه وعدم المقاطعة)، ولا يتمّ التّواصل السّلوكي المقامي إلاّ بعد تحقق التّواصل اللغوي، وبهذا يخرج التخاطب من حدود التّواصل اللغوي البحت إلى ما هو أعلى منه وهو التّواصل السّلوكي.

إنّ هذا هو ما وقع فعلاً بين محورين رئيسيين استقطبا أطول سلسلة محوريّة واستأثرا بكم كبير من معلومات الخطاب؛ هما النّبيّ موسى والخَضِرُ عليهما السلام، حيث سعى المحور الأوّل جاهداً لأن يلتقي بالمحور الثّاني ويرافقه لأخذ العلم عنه، وبعد مشقّة الرّحلة وكلفة النّصب والجوع وجده وتخاطب معه، والتمس منه مُراده مظهراً التزامه: «أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً... سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً».

وتحقق بعدها التّواصل السّلوكي (مرافقة موسى للخضر) تحت شرط الخضر بألاّ يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا، حسب ما جاء في الآية: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ الكهف70، لكن لم يلبث هذا التّواصل طويلاً حتّى انقضى كليّةً بينهما بسبب إخلال النّبيّ موسى عليه السلام ببند الاتّفاق المنصوص عليه بدايةً؛ لأنّه لم يصبر على تصرّفات الخضر واشتدّ نكيره لها وحكم على ظاهرها، فعاتبه الخضر مرتين بقوله: «ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً؟»، وهو ما يحمل ضمنيّا التّذكير بشرط المرافقة، وجاءت الثّانية أشدّ من الأولى نبراً، كأنّه يقول له: (إن عدت الثّالثة أعاقبك بالهجر).

واعتذر موسى عليه السلام في الأولى بالنّسيان «لا تُؤاخذني بما نسيت»، واستحيى في الثّانية من تكرار المخالفة: «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»، لكن في الثّالثة كأنّه تعمّد تدخله، فترك الخضر التّواصل السّلوكي معه بقوله «هذا فراق بيني وبينك»، بعد أن أُعذر موسى عليه السلام مرتين.

ونلاحظ هنا أنّ التّواصل السّلوكي (المرافقة) بين المتكلّم والمتلقّي فشل وامتنع؛ بسبب الإخلال بشرط عدم المقاطعة والسّؤال على أيّ تصرّف للمتكلّم حتّى يذكر له منه، وهذا رغم تحقّق التّواصل اللغوي وإبقائه قائماً إلى غاية بيان تأويل ما لم يستطع عليه النّبيّ موسى ﷺ صبراً حيث لم تستمرّ مرافقة موسى للخضر كوضعيّة للتّخاطب إلى غاية تحقيق المتلقّي غايته وهي اتّباعه والتعلّم منه؛ وتحقّقت غاية أخرى هي التأدّب مع العلماء والصّالحين والتّواضع في طلب العلم وفي تحصيله وهي البؤرة التي تعيدنا إلى بؤرة الخطاب الأولى وهي نسبة النّبيّ موسى ﷺ العلم إلى نفسه حين سُئلَ عمّن هو أعلم منه، ولم ينسبه إلى الله. وهو ما جعل الرّسول محمّد ﷺ يتحسّر على توقّف هذا التّواصل بين النّبيّ موسى والخضر ﷺ، وتمنّى لو صبر موسى حتّى يُعلم من أخبار الخضر وحكمها الربّانية، حين قال: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسى كَانَ صَبَرَ، فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»، أو قال حسب رواية (سفيان): «يَرْحَمُ اللهُ مُوسى لَوْ كَانَ صَبَرَ، يَقُصُّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا».

ويمكن اعتبار عامل النّسيان في التّخاطب أحد العوامل العقليّة التي إن لم تمنع التّواصل السّلوكي فإنّها تعطّله وتؤخّره، وتكرّر هذا العامل بلفظ (نسي/ أنسى) في هذا التّخاطب عدة مرات: «أرأيتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخرةِ فإنّي نَسيتُ الحوتَ وما أَنْسانيهِ إلَّا الشَّيطانُ أنْ أَذكُرهُ»، «لَا تُؤاخذْني بمَا نَسيتُ وَلَا تُرهقْني منْ أمْري عُسْرًا»، «فَكَانَت الأُولَى مِنْ مُوسى نِسْيَانًا»، وكما جاء في القرآن أيضاً: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ الكهف61، فقد لحق هذا العارض النّبيّ موسى ﷺ كما لحق فتاه (يوشع بن نون) الذي يرافقه لخدمته وطلب العلم وأدّى إلى زيادة المشقّة في الوصول إلى هدفهما في البداية، ثمّ فراق الهدف (الخضر) للنّبيّ موسى ﷺ مباشرة بعد ثلاث إعذارات متتالية.

لذا، نقترح هنا أن يُضاف قسم آخر إلى أقسام التّخاطب؛ ليصبح التّخاطب ثلاثة أقسام: تخاطبٌ غير مفضٍ إلى تواصل، تخاطبٌ مفضٍ إلى تواصل أنساقي فقط (بنسق اللغة أو بالإشارة أو بالصّورة أو بغيرهم)، وتخاطبٌ مفضٍ إلى تواصل أنساقي وتواصل سلوكي معاً؛ حيث إنّ الأخير يرتبط بالمقام ويشترط التلقّي المتزامن؛ أي حضور المتلقّي مع المتكلّم في الموقف التّواصلي ذاته، مع ضرورة استجابتهما الإيجابيّة لمقتضيات التّخاطب السّلوكية، وقد يشوبه اضطراب مرضي نفسي أو عقلي كالنّسيان مثلاً، أو اضطراب عرضي كخرق البنود المتّفق عليها في التّخاطب.

5-2- نسق التّواصل: ينقسم التّواصل من حيث أنساقه إلى نوعين: تواصل أحادي يُتوسّل فيه بنسق تخاطبي واحد، مثل: الخطاب اللغوي، أو الإشارة أو الصّورة الخاليتان من أي تعليق.

وتواصل مركّب تتضافر فيه أنساق متعددة، مثل: الخطاب اللغوي المدعوم بالإشارة والإيماء، أو المدعوم بالصّورة والحركة والصّوت والموسيقى كالأغاني والأفلام والخطابات الإشهاريّة. (المتوكّل 2011، ص17-18)، ويُصنّف هذا الحديث القدسيّ من حيث نسق التّواصل إلى القسمين معاً كما يلي:

يعدّ هذا الحديث تواصلاً أحادياً؛ لأنّ الرّسول ﷺ التزم فيه بالخطاب اللغوي المحض لدى المتلقّي المتزامن، وهو تواصل مركّب لدى المتلقّي المتباعد؛ لأنّ الرّاوي (سفيان بن عُيَينة) أضاف للنّص حركات إشاريّة وإيماءات نُقلت مع الخطاب الأصلي إلينا، وهي إشارته إلى شكل الطّاق وهو القوس الذي أحدثه الحوت عند جريه إلى البحر تسرّباً، ولم يُنقَل لنا بأي عضوٍ تمت هذه الإشارة ثمّ إيمائه بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئاً ليبيّن كيف قلع الخضر رأس الغلام، وأخيراً إيمائه بيده كأنّه يمسح شيئاً إلى فوق، ليوضح كيف أقام الخضر الجدار المائل الذي كاد ينقضّ.

ولعلّ الإشارة أهم نسقٍ يُمْكن أن يُضاف إلى الخطاب اللغوي في ذلك الزّمان، بعكس ما نجده اليوم؛ إذْ يمكن تدعيم الخطاب اللغوي للحديث القدسيّ بأنساق كثيرة كشريط سينمائي مثلاً يتضمّن نصّاً مكتوباً بخط ولون متميزين، وموسيقى مؤثّرة، وصوتاً لراوي الحديث يسرد الأفعال الخطابيّة من قصد وفحوى، أو أصوات المتحاورين تجسّد النّقلات والمقاطع الحواريّة، وصوراً للذّوات المعبّر عنها في الخطاب، تتعالق معها حركات وإشارات تترجم الأفعال الحمليّة من وقائع وأحداث.

وأدّت الإشارة في هذا الحديث وظائف بلاغيّة في المستوى العلاقي هي التّبيين والتّوضيح انصبّت في المرّة الأولى على فعل إحالي (الطّاق) الذي يحيل إلى محور ثانوي جديد ومنقطع هو جرية الحوت التي أمسكها الله عنه، وارتبطت في المرّة الثّانية والثّالثة بفعلين حمليّين هما: قتل الخضر الغلامَ وبناؤه الجدارَ، على التوالي.

5-3- نمط التّواصل: تبنّى (المتوكّل) فكرة أن يتمّ التّواصل بنمطين: خطاب مباشر وخطاب موسّط، حيث ينقسم الأخير إلى ثلاثة: خطاب ملقّن وخطاب منقول وخطاب مترجم نسقياً أو أنساقيّاً.

ويأخذ التّواصل في الحديث القدسيّ جميع الأنماط السّابقة عبر مراحل تكوينه وبثّه ونقله باستثناء الخطاب الملقّن؛ لأنه خاص بتعليم اللغات. وسنتناول هذه الأنواع وإسقاطاتها على الحديث القدسيّ بالتّفصيل في معيار الوسائط من التّنميط الوظيفي البنوي الموسّع للنّص.

6- التّنميط الوظيفي البنوي الموسّع للخطاب: عرّف (المتوكّل) (2011، ص ص54-56) الخطابَ بأنه: «كل ما يشكّل في حد ذاته وحدة تواصليّة قائمة الذّات»، وبيّن أن هذا التّعريف تترتّب عنه طروح جديدة هي:

- الوحدة الدّنيا للخطاب هي الفعل الخطابي الذي قد يتحقّق في مركّب اسمي أو في جملة أو في عبارة (جملة مضافا إليها أحد أرباضها القبليّة أو البعديّة) أو في نص كامل. حيث تعدّ كلها مجرّد أطر بنويّة تتحقّق فيها وحدات البنية التّحتيّة التّداوليّة والدّلاليّة، وليست مقولات عميقة كما ساد في بقية الأنحاء، ويقوم الفعل الخطابي على ركن ثابت هو القوّة الإنجازيّة (خبر، استفهام أمر، ...) وركن متغير هو الفحوى الذي يتضمّن إحالة وحملا، إذْ لا فحوى بدون قوّة إنجازيّة، في حين يمكن ورود القوّة الإنجازيّة بدون فحوى معين مثل: (- آه! - هيهات! - ويحك!)؛

- تؤول مختلف الأنماط الخطابيّة، مهما تباينت معايير تنميطها، إلى بنية خطابيّة ثابتة واحدة قوامها أربعة مستويات، مستوى علاقي (تداولي) ومستوى تمثيلي (دلالي) ومستوى صرفي تركيبي ومستوى فونولوجي، يتضمّن كل مستوى منها طبقات يعلو بعضها بعضا ويحكم بعضها بعضا، وتتضمن هذه الطبقات سمات (إنجازية ووجهية وإحالية) ووظائف (دلالية وتداولية وبلاغية وتركيبية) تشكّل اختلاف الأنماط الخطابيّة؛ أي للبنية الخطابية العامّة ثوابت ولها متغيرات تكمن في القيم التي تأخذها سماتها ووظائفها وعنها تتولد الأنماط الخطابيّة.

وقد اهتمت العديد من التخصّصات الأدبية واللغوية بموضوع الخطاب، أهمها: البلاغة والشّعريات والسّيميائيات والتّداوليات وتحليل الخطاب والنّقد الأدبي ولسانيات النّص واللسانيات الوظيفيّة، وصنّفوا أنماط الخطاب وفق ثلاثة معايير كبرى هي: المجال والقصد والآليّة والقناة. مع إمكان تضافر أكثر من معيار في النّمط نفسه، والتّمييز داخل هذه الأنماط بين أجناس أو أصناف فرعيّة (قصة، رواية، قصيدة،...).

ويرى (المتوكّل) أن الخطاب يُنعت من حيث المجال بالأدبي أو العلمي أو السّياسي أو الايديولوجي أو الاشهاري أو الاعلامي أو غير ذلك، ومن حيث القصد يمكن أن يكون الخطاب إخباريا أو إقناعيا أو تضليليا أو تفسيريا أو يكون بالعكس يرمي إلى التعمية والإلغاز، ومن حيث الآلية يُميّز بين السّردي والوصفي والحجاجي، أمّا من حيث القناة (أو النسق التّواصلي المستخدم) فالخطاب إما لغوي أو صوري (رسم، شريط...) أو إشاري أو يزاوج بين أكثر من قناة واحدة.

(2012، ص77)، ثمّ اقترح إضافة معيار الكيفية الذي يصف الخطاب من حيث الشّفافية والكاتمية، وأقرّ بأنّ قائمة المعايير تظل مفتوحة.

ونَصِفُ العملية التّخاطبيّة والتّواصليّة في الأحاديث القدسيّة وفي هذا الحديث تحديداً بأنّها جدّ معقّدة، فهي متعددة الخطابات والأطراف المتخاطبة، والأنساق والأنماط التّواصليّة، وسنتناول في هذا المبحث ما أمكننا من المعايير المذكورة لتنميط خطاب الحديث القدسيّ.

6-1- معيار المجال: الحديث القدسيّ الذي بين أيدينا يتّصف بالمجال الدّيني، مما يشير إلى استخدام القالب الذّاتي بكثرة، حيث حمل النّص سلسلة من الأحداث وقعت بين النّبيّ موسى والخضر عليهما السلام، فاشتغل النّص على جوانب معيّنة من المجال الدّيني تتعلق بأخلاق العالم والمتعلّم، من قبيل الاعتراف بمحدودية حجم علم البشر مقارنة بسعة علم الله، والحثّ على التّواضع والتّأدب في أخذ العلم وفي نسبته إلى الله العليم الحكيم، وإثبات أن الحياة العقلية للمرء تحتاج إلى فراسة وبصيرة روحية لكشف الحقائق النّهائية للأمور؛ لأن مظاهرها تختلف بطبيعتها عن الواقع.

6-2- معيار القصد: هدف الحديث القدسيّ موضوع الفحص تفسيري وإقناعي أيضاً: تفسيري؛ لأنه يفسّر آيات قرآنية؛ من الآية رقم (60) إلى الآية رقم (78) من سورة الكهف وإقناعي؛ لأنّه يحاول الدّفاع عن دعاوى ابتدائيّة، ويلغي دعاوى إبطاليّة، يتبيّن ذلك في ما يأتي:

أ- الدعاوى الابتدائيّة: وأهمّها:

- إثبات الحثّ على طلب العلم والاستزادة منه، ومعرفة حق العالم والتأدّب معه، وتحذير المرء من ادّعاء العلم لنفسه دون غيره أو التّفاخر به، ووجوب ردّ العلم إلى الله في ما لا يعلم؛

- إثبات الحكم بظاهر الأمور حتى يتبيّن خلافها، والنّهي عن المنكر واستقباح الإساءة للمحسن وطلب الأجرة على العمل عند الحاجة (مواقف النّبيّ موسى من تصرّفات الخضر عليهما السلام)؛

- إثبات وجوب اختيار أخفّ الضّررين لتحقيق مصالح النّاس كفساد جزءٍ من المال من أجل صلاح بقيّته (خرق السّفينة)؛

- إثبات لزوم تجنّب العجلة في التّفاعل السّلبي مع ظاهر الوقائع؛ لأنّه قد يكون في باطنها وحقيقتها الخير العظيم، فعسى أن يكره المرء شيئاً وهو خيرٌ له؛

– إثبات أنّ الله يُطْلِعُ من علمه من البشر ما شاء ويخفي منه ما شاء، وأنّ حكماً ربّانية في منعه وعطاءه؛ لا يدرك كنهها إلاّ ذو ممارسة إيمانيّة عميقة.

الدّعاوى الإبطاليّة: وقد ذُكر جزءٌ منها في شروح السّنة مثل: (الألباني، 2010، ص272) و(عياض، 1998، ص378)، لكنّنا ننسّق أهمّها على النّحو الآتي:

–إبطال ادّعاء (نوفا البكالي) بأنّ موسى الخضر ليس موسى بني إسرائيل؛

– إبطال دعوى الصوفيّة بأنّ للدّين ظاهراً وباطناً وقالوا إن الخضر ﷺ عنده علم الباطن وموسى ﷺ عنده علم الظاهر، وهذا كذب صريح؛ لأنّ الدّين كلّه ظاهر وباطن ولا فرق بينهما؛

– إبطال القول بعدم نبوة الخضر وأنّه ولي من أولياء الله الصّالحين وصفي من أصفيائه؛ لأنّه قد تلقّى الوحي من الله تعالى: ﴿...وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي...﴾ الكهف82؛

– إبطال تزكية النّفس والعجب بحالها، واعتراضها على ما لا يُفهم من أسرار الله؛

– إبطال مقولات معيّنة من قبيل: أنّ النّبيّ موسى ﷺ هو أعلم النّاس، أو أن يَبِينَ حجمُ علمه إلى جنب علم الله، أو أنّه يعلم العلم الذي عليه الخضر ﷺ، أو أنّه يستطيع الصّبر معه.

6–3– معيار الآليّة: المتن المدروس يجمع بين الآليات التّخاطبيّة الثّلاث (السّرد والوصف والحجاج)، تمّ تشغيلها كما يلي:

6–3–1– آلية السّرد: القطع السّردية هي الغالبة في الحديث، حيث أُنجزت آلية السّرد بالمحمولات الفعليّة بصيغ الماضي المبني للمعلوم أو المجهول للدّلالة على زمن المضي فالأحداث المرويّة وقعت في عهد النّبيّ موسى ﷺ، ومنها: (قام، فسُئِل، فعتب، فقال، وأخذ، فجعله، ثم انطلق، أتيا، وضعا، فرقد، واضطرب، فخرج، فسقط، فاتّخذ، فأمسك، فانطلقا، لقينا، نسيت، فارتدّا انتهيا، فسلّم، فردّ، يمشيان، مرّت، كلموهم، فعرفوا، فحملوهم، ركبا، جاء، فوقع، فنقر، فنزع، خرجا مروا، يلعب، فقلعه، استطعما، فأبوا، فوجدا).

6–3–2– آلية الوصف: توقف السّرد في هذه القصّة أحياناً فسكنت حركة الأحداث وتخلّلته مقاطع وصفيّة، انتقل فيها المتكلّم إلى وصف الذّوات أو الأحداث، وتحقّقت في البنية السّطحيّة بالأدوات الآتية:

– وُظِّفت المحمولات الفعليّة بصيغتي الماضي والمضارع، ثابتة أو مقترنة بالنّفي بالأدوات (لم، لا، ما، لن): لمّا وصفَ اللهُ لموسى ﷺ طريقة الوصول إلى الخضر ﷺ: «تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلهُ في مِكْتَلٍ حَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ». وعندما وصف الخضر علمه وعلم موسى بالنّسبة إلى علم الله: «قَالَ: يَا مُوسى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ»، «قال: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاّ مَثَلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحر». وحين وصف استحالة صبر موسى معه «قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً»، وعند وصف موسى أفعال القوم المكرمين والقوم المانعين والغلام وسلوك الخضر معهم: «قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوَلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِم فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً»، «قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً»، «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكُراً»؛

– وُظِّفت الأفعال المساعدة المقترنة بالمحمولات الفعليّة أو الاسميّة عندما وصف المتكلّم حالة موسى ﷺ: «فَكَانَت الأُولَى مِنْ مُوسى نِسْيَانًا»، ومشهد الحوت وهو يتّخذ سبيله نحو البحر «فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً وَلَهُمَا عَجَباً»، وحين وصف موسى ﷺ غايته «ذلك ما كُنّا نبغ»؛

– وُظِّفت المحمولات غير الفعليّة من أسماء ومصادر في وصف موسى ﷺ: «قام خَطيبًا»، وفي وصف الخضر ﷺ: «هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ»، «فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ»، وسلوك الخضر: «لقد جئت شَيْئاً إِمْراً..شيئاً نُكُراً»؛

– وُظِّف التّشبيه، عند وصف المتكلّم أثر جري الحوت: «فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ»، ولمّا وصف النّاقل (علي بن عبد الله) إشارات النّاقل (سفيان بن عيينة): «كأنّه يمسح شيئاً إلى فوق»، «كأنّه يقطف شيئاً».

6-3-3- آلية الحجاج: تضمّن الحديث القدسيّ أجزاءً حجاجية شملت طبقة المحادثة في شقّها الإبطالي، وسرت على الطّبقات التي تسفلها فحدّدت أيضاً قيمة مخصّصات طبقة النّقلة وطبقة الفحوى، وخصوصاً القوى الإنجازيّة والوظيفتين التّداوليتين (بؤرة إبطال، بؤرة تعويض). فقد استبطن أفعال إبطال اقتناعات قديمة وأفعال دفع بإثباتات جديدة تلائم مواقف الدّعاوى الابتدائيّة أو الإبطاليّة المثارة بين النّبيّ موسى والخضر ﷺ، وفضلاً عن وسائل الحجاج الذّاتيّة المتعلقة بأخلاق طرفي المركز الإشاري (المتكلّم، المخاطب) التي عرفناها في الفصل الثّالث؛ فقد وظّفت إواليات حجاجيّة أخرى جعلت المخاطب يذعن لها، ومنها: الحوار والقياس والاستدلال والتّقوية.

أ- **الحوار**: احتضن الخطاب أربع قطع حواريّة، كان فيها النّبيّ موسى عليه السلام محوراً رئيسياً ثابتاً، كما يلي:

- القطعة الأولى تحاورَ النبي موسى عليه السلام مع رجل إسرائيلي سأله عن أعلم النّاس فأجابه بأنّه هو، ولم يردّ العلم إلى الله عز وجل؛

- القطعة الثّانية كلّمه الله عز وجل معاتباً بوجود عبدٍ هو أعلم منه (من موسى) فطلب السّبيل إلى لقياه فدلّه الله على علامة يجده بها هي فقدان الحوت؛

- القطعة الثّالثة تحاور مع فتاه عندما طلب منه الغداء، فأخبره الفتى بفقد الحوت؛

- القطعة الرّابعة، تحاور مع الخضر، وهي آخر وأطول قطعة، وفيها لمسنا الإلحاح في المحاورة من طرف النّبيّ موسى عليه السلام لاسترعاء انتباه الخضر عليه السلام ولإنجاح مفاوضته معه حول قبوله مرافقته له ليتعلم منه، منها: «فَسَلَّمَ مُوسَى»، «قال: أَنَا مُوسَى»، «قَالَ: نَعَمْ أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً»، «قال: هَلْ أَتَّبِعُكَ؟»، «[قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً]». ثمّ إلحاحه جِدَالاً؛ بسبب شدة نكيره لتصرفات الخضر في قوله: «ما صنعتَ؟...لقد جئتَ شيئاً إمراً»، «أقتلتَ...لقد جئتَ شيئاً نُكُراً»، «قومٌ...لم يُضيّفونا عمدتَ إلى حائطهم!»، «لو شئتَ لاتّخذتَ عليه أجراً».

ووجدنا فيها أيضاً الالحاح في المحاورة من طرف الخضر الذي كان يُرْجِعُ الحوار في كلّ مرّة إلى نقطة بدايته في قضيتين: الأولى هي محدوديّة علمه وعلم موسى عليه السلام إلى جنب علم الله «قَالَ: يَا مُوسى إِنّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ»، «قَال لَهُ الخِضْرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاّ مَثَلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحر». أمّا الثّانية فهي عدم مقدرة موسى عليه السلام على الصّبر معه: «قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً»، «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنّكَ لنْ تستَطيعَ معيَ صبراً»، وهذه العبارة الأخيرة تكرّرت مرّتين.

ب- القياس: يتقاطع القياس مع كل تشبيه أو مقاربة بمحسوس؛ لأن المحسوس هو الأقرب إلى نفس المتلقّي وذهنه، ويعرفه بحواسه، ومن شواهد ذلك تشبيه مقدار علم الخضر وعلم موسى عليهما السلام إلى علم الله بمقدار نقطة الماء في نقرة العصفور إلى ماء البحر كلّه، وأيضاً المقاربة بإشارات النّاقل (سفيان بن عيينة) حين أشار بيده إلى شكل جرية الحوت المثبتة، وإلى كيفية قطع الخضر رأسَ الغلام، وإلى كيفية إقامة الخضر الجدارَ المائل.

ج- الاستدلال: يُنَوَّهُ أنّه في الوقت الذي ينعدم فيه الحجاج السّماعي والحجاج التّجريبي في الحديث، نجد الحجاج الاستدلالي يسيطر بقوّة؛ لأنّ الخطاب قائم على تفسير نص قرآني ويتقاطع معه في الكثير من الآيات تمّ التّأشير لها بتسطير خط أسفل منها في نص المتن أعلاه، وهي كلّها حجج مرجعيّة يستدل بها المتكلّم لإثبات صدق قضاياه، وتأكيد الدّعاوى المرفوعة في خطابه.

ويمكننا اعتبار أنّ كلّ النّص المتضمّن متن كلام الرّسول ﷺ قد جاء حجّةً استدلاليةً للصّحابي (ابن عباس) يستشهد بها في دعواه الإبطاليّة للدّعوى التي نقلها إليه الصّحابي (سعيد بن جبير)، والمنسوبة لرجل قاصٍّ من الكوفة يُدعى (نوفا البكالي)، ومفادها أن موسى صاحب الخضر ليس هو النبي موسى بني إسرائيل عليه السلام، فنقل إلينا هذا النص الاستدلالي المتضمن فحوىً خطاباياً يدور حول شخصية النّبيّ موسى عليه السلام، وأفعالاً إحاليةً تحيل صراحة إلى هذه الذّات، ويفسّر أيضاً الآيات من سورة الكهف التي استبطنت القصّة التي رأى فيها (نوفا) أنّها لا تنطبق على موسى بني إسرائيل.

د- التّقوية: هي استراتيجيّة حجاجيّة يلجأ إليها المتكلّم لإقناع مخاطَبه بالدّفوع الملقاة له انصبّت على الحدود والمحمولات والجمل في الدفوع الإبطاليّة التي تضمّنت القوّة الإنجازيّة إخبار طلبي أو إنكاري، وتم تسطيحها بتضافر صرفي-تركيبي والتّنغيم المتصاعد أو المتنازل، وتدرّجت سلّميتها في الخطاب بحسب رد فعل المخاطب؛ حيث انخفضت درجتها عند شكّه فيها أو تردده في قبولها، وارتفعت عند إنكاره لها أو تماديه في إنكاره.

وتُصنّف درجات التّقوية بحسب رد فعل المخاطَب؛ حيث يقول (العمري): «على ضوء مراعاة مقتضى الحال صنّفت البلاغة العربية، في ما بعد، المخاطَبين الذين يُلقى إليهم الخبر إلى ثلاثة أصناف: مخاطب خالي الذهن، ومخاطب شاك متردّد، ومخاطب جاحد منكر، وتتصاعد درجة تأكيد الخطاب حسب هذا التّرتيب» (2002، ص35)، وهذا الكلام يُثبت أن هذا التدرّج في سلم التّقوية ليس جديداً مبتكراً من النّظرية الوظيفيّة التّداوليّة؛ بل هو مُقترضٌ بلاغي؛ ويأتي في خطاب الحديث القدسيّ على النّحو الآتي:

1- الدّرجة الصفر: وهي في الدّفوع الابتدائيّة من الخطاب أين تنعدم من المؤكّدات، وكثرت في القطع السّردية حين لا يتردد المخاطب في قبولها.

2- الدّرجة الأولى: تردد المخاطَب في قبول الدّفوع الإبطالية، فتم تقوية القوّة الإنجازيّة الإخبار الطلبي بمؤكّد واحد، يشهد على ذلك ما يلي:

- ✓ توظيف الأداة التّركيبيّة (إنّ): تحيّزت في الفعل الإحالي لتقوية معاني وصف الحدود الآتية: الحد (يوشع): «فَإِنّي نَسِيتُ الحُوتَ»، والحد (الخضر): «إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ»، والحد (موسى): «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً»، وهذه تكرّرت ثلاث مرّات؛
- ✓ توظيف الأداة الصّرفيّة (قد): تسلّطت على الفعل الحملي: «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»، لتقوية معنى بلوغ موسى الدرجة التي يعذر فيها الخضر بأنّه فعلاً لا يستطيع معه صبراً.

3- الدرجة الأعلى: أنكر المخاطب القضية؛ فرصد له مؤكدين لتقوية القوة الإنجازية الإخبار، يشهد لذلك توظيف الوسيلتين اللغويتين: [التركيبية (اللام) + الصرفية (قد)]: اللتين تسلطتا على حيّز الفعل الحملي في الجمل: «لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً»، لتقوية معنى التّعب الذي لقيه موسى عليه السلام وفتاه، «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً»، «لقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكُراً»، لتقوية معنى شدّة نكران تصرّفات الخضر. وتوقفت السّلمية عند هذه الدّرجة؛ لأنّ التّقوية لم تحقق الدّرجة العليا في الخطاب بأكثر من مؤكّدين.

نلاحظ أن القيمة (الحجاج) التي ظهرت في الأدوات السّابقة (الحوار والقياس والاستدلال والتّقوية) أخذها الجزء الإبطالي من مخصّص طبقة المحادثة في الحديث القدسيّ، وتبعاً لعلاقة الاحتواء الريّاضيّة؛ فإنها امتدت إلى الطّبقات المنضوية تحتها (النّقلة، الفحوى، الفعل الإحالي) كما عملت على توجيه وتحديد الخصائص الصرفية–التركيبية لهذا النمط الخطابي.

ويميل هذا النص بقوة –مثل سابقه في هذا البحث– إلى السّرد والوصف أكثر من الحجاج رغم أنه من الخطابات الذّاتيّة الدّينيّة التي يُتوقّع فيها سيطرة آلية الحجاج. وقد قلّت فيه أدوات التّقوية، كما لم نسجل الأدوات الأخرى مثل: الصّرفية (لا شكّ، نوني التّوكيد الخفيفة والثّقيلة) والتّركيبيّة (القسم).

6-4- معيار الوسائط: المعيار المتداول هنا هو معيار القناة الذي يقصد به المتوكّل النّسق التّواصلي المستخدَم، لكن من الميسور ملاحظة أن هذا المعيار يتماشى معه بالموازاة معيار آخر يتعلق بالذّوات المشاركة في العملية التّخاطبيّة، فإذا كانت العملية تتم بين متكلم ومخاطب فقط فهذا خطاب مباشر، وإن كانت العملية تتضمّن وسيطاً بينهما فإننا أمام خطاب موسط الذي بدوره ينقسم إلى عدة أقسام: الملقّن، المنقول، المترجم (ترجمة نسقيّة أو أنساقيّة).

وهذه الأنواع الأخيرة من الخطابات تحدّث عنها (المتوكّل) في كتابه الخطاب الموسّط (2011)، لكن لم يجمعها في معيار واحد واكتفى بإيراد قسمٍ منها في معيار القناة، وهذا القسم

يتعلق بالخطاب المترجم ترجمة نسقيّة أو أنساقيّة فقط؛ لذا نرى باستبدال هذا المعيار بمعيار أشمل نقترح أن نسمّيه معيار الوسائط؛ يكون قميناً بتنميط الخطاب من حيث الوسائط الفاعلة بين الذّوات المشاركة في التّخاطب من جهة، وأجدر بتوسيع معيار القناة ليشمل القناة والوسائط الموظّفة في الخطاب معاً من جهة أخرى، وهذا ما سنقوم به في ما سيأتي:

6-4-1- الخطاب المباشر: الخطاب المباشر هو الخطاب الذي يتم التّواصل فيه بين ذاتين متحققتين (متكلم ومخاطب) أو مجردتين (كاتب وقارئ، مؤسسة وجمهور،...) لا ثالثة لهما. (المتوكّل، 2011، ص19)؛ أي خطاب يتم بين ذاتين دون واسطة.

بناءً على حدّ الأحاديث القدسيّة بأنّها كلام الله على لسان نبيّه محمّد ﷺ؛ أي أنّ المعنى فيها من الله واللفظ من عند الرّسول ﷺ؛ فإنَّ الخطاب المباشر يظهر في النّص المفحوص على حالتين: الحالة الأولى عندما يكون الحديث في بدايته معنىً فقط، فإنّ منتج الخطاب هو الله ﷻ والمتلقّي المباشر هو الرّسول ﷺ، والحالة الثّانية عندما يكتمل الخطاب لفظاً ومعنىً، يصبح الرّسول ﷺ المنتج الثّاني للخطاب، والمتلقّي هم المستمعون له وقتئذ. لكن كيف تلقّى الرّسول ﷺ ذلك الوارد العظيم من معاني الحديث القدسيّ؟ هل بطريق الوحي مثل تلقّيه القرآن أو بدون وحي؟

يقول الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «ولا تنحصر تلك الأحاديث القدسيّة في كيفية من كيفيات الوحي، بل يجوز أن تنزل بأية كيفية من كيفياته كرؤيا النّوم والإلقاء في الرّوع وعلى لسان الملك». (القاسمي، 2004، ص92)؛ يعني أن الرّسول ﷺ تلقّى معاني الحديث القدسيّ من ذلك الجناب الجليل ﷻ بطريق الوحي مثل تلقّيه القرآن، لذا حتى نحدّد نوع الخطاب الذي تلقاه (مباشر/ غير مباشر)؛ يجدر بنا أن نتعرّف أوّلاً عن كيفيات الوحي.

لقد جمع الله ﷻ كيفيات الوحي في آية واحدة هي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الشورى51. ومن خلال هذه الآية الكريمة يتّضح أن خطاب الله لنبيه ﷺ جاء بثلاث طرق: الوحي، التّكليم من وراء حجاب، إرسال رسول، ما يهمّنا في الخطاب المباشر هو الطّريقان الأول والثّاني، أمّا الثّالث فيتعلق بوجود وسيط في الخطاب، لذا سنعود إليه في المبحث الموالي المتعلق بالخطاب الموسط.

ويتبيّن أنّ لفظ الوحي في الآية الكريمة ليس المقصود به الوحي بالإطلاق الذي يشمل جميع هذه الطرق، وإنما الوحي بمعناه الخاص الذي يستثني الطريقين المواليين في الآية، وبالتالي

ينحصر في ما سواهما وهي الرّؤيا الصّادقة كما ذكر ابن حجر، فيقوم الخطاب المباشر عندئذ عليها وعلى طريق التّكليم من وراء حجاب، كما يلي:

أ- الرّؤيا الصّادقة: (يُنظر: (ابن الأثير، 1974، ج11، ص275)، و(الأشقر، 1989 ص63))، فعن عائشة ﵂ أنّها قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبح». أخرجه البخاري (138). وهي الرّؤيا الصّالحة التي تأتي للأنبياء في المنام، ومثالها قوله تعالى: ﴿...إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...﴾ الصّافات102، فهذا خطاب مباشر عام بأنساق تواصليّة مختلفة؛ لأنّ الرّسول ﷺ هنا لا يتلقّى الخطاب كنسق لغوي عن طريق السّمع فحسب، بل أيضاً بأنساق تواصليّة أخرى، تتحقّق بالمشاهدة في المنام التي تقتضي رؤيته صوراً لأحداث ووقائع، تكون بمثابة أوامر وتوجيهات ربّانية له.

ب- التّكليم من وراء حجاب: (يُنظر: (الأشقر، 1989، ص63)، و(السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص300))، وهو تكليم مباشر من الله ﷻ لنبيه الكريم، حيث يسمع النّبيّ الصّوت ولا يرى المتكلّم، وقد يحدث في اليقظة كما حصل في مخاطبته له ليلة المعراج، وهو فوق السّماوات حول فرض الصّلاة وغيرها، أو يحدث في المنام كما في حديث ابن عبّاس أنَّ النبي ﷺ قَالَ: «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ -أي: في المنام- فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ وَسَعْدَيْكَ قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لَا أَدْرِي...»، رواه الترمذي (3234)، وصحّحه الألباني في صحيح التّرمذي. فهذا خطاب مباشر بنسق لغوي تلقّاه النّبيّ في المنام، ويختلف عن الرّؤيا الصّادقة في كون الأخيرة تتعدّد أنساقها التّواصليّة كم ذكرنا.

نلتفتُ الآن إلى كيفيّة تشغيل الجهاز الواصف لنموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع، فحين يتعلق الأمر بالخطاب المباشر يُشغّل الجزء الأوّل فقط من الجهاز، كما يلي:

- في عملية الإنتاج، يتولى المولّد الأوّل نقل البنية التّحتيّة التّداوليّة-الدّلاليّة المصوغة انطلاقا من مخزون المكوّن المفهومي المنتج إلى بنية سطحيّة تتحقّق في خطاب؛

- في عملية التلقّي، يقوم القالب المحلّل الأول بتفكيك الخطاب المنتج، بمعونة مخزون المكوّن المفهومي المحلّل عبر البنية السّطحيّة حتّى الوصول إلى البنية التّحتيّة المنطلق. (المتوكّل، 2011، ص ص82-83)، هذا نظرياً، لكن في المرحلة الأولى التي يكون فيها الله ﷻ

هو المنتج والرّسول ﷺ هو المتلقّي، لا يمكننا إسقاط ما ذكره (المتوكّل) على وصف ظاهرة الإنتاج أو التلقّي في هذه العلاقة الربّانيّة، خوفاً من الوقوع في ما يسمّى بالتنطّع الهالك فاعله، ولا نودّ الخوض في تفاصيل هذه المسألة الغيبيّة، إلاّ بما ظهر منها وصرّح بها العلماء والأئمّة والمفسّرون كما تقدّم.

ويمكن في المرحلة الثّانية أن نخاطب بشريّة رسول الله ﷺ باعتباره المنتج الثّاني للخطاب أمّا المتلقّي فهم المستمعون له وقتئذ، فإن نصّ الحديث القدسيّ في صورته النّهائيّة يدخل إلى الجهاز قصد نقله، فيخضع للمسطرة العامّة المتّبعة في تشغيل الجهاز، حيث يتّم لدى المنتج توليد البنية التّحتيّة1 للنّص إلى بنية سطحيّة1 بواسطة المولّد1 انطلاقا من مخزون المكوّن المفهومي المتمثّل في معاني الحديث القدسيّ المتلقاة.

ويكون هذا التّوليد على جهة الالتزام بالمعنى الأصل وإضافة المبنى الموافق لسياق المقام ليخرج إلى خطاب1، يقوم المتلقّي حينئذ بتحليله في المحلّل1 وإخضاعه إلى آليات المحوّل، حيث يُنقَل خرج المحوّل إلى بنية تحتيّة2 ثم بنية سطحيّة2 في خطاب مطابق للأوّل أو مشابه له بحسب مستوى الاستماع والتلقّي.

6-4-2- الخطاب الموسّط: هو ناتج تواصل يتمّ بين ذاتين عن طريق ذات ثالثة تتوسّط بين منتج الخطاب ومتلقّيه، تُشكّل جسر عبور بينهما، تقوم وساطتها بدور التّلقين أو النّقل المحض أو التّرجمة، فيكون الخطاب الذي يمر عبرها خطابا موسّطا ملقنا، أو خطابا موسطا منقولا، أو خطابا موسطا مترجما. (المتوكّل، 2011، ص ص19-20 وص86)، حيث تقوم الوساطة في الخطاب الموسط عبر لغتين مختلفتين أو داخل اللغة نفسها عبر النّسق التّواصلي الواحد نفسه أو من نسق تواصلي إلى نسق تواصلي آخر.

يتعلّق الخطاب الموسّط الملقّن بتعليم اللغات حيث يلعب دور الوسيط بين لغة متعلَّمة ولغة مكتسبة، والانتقال بين قدرتين لغويتين تحكمهما ملكة لسانيّة واحدة وتربطهما كليّات لسانيّة متقاسمة، ويتيح المقارنة بين اللغتين من حيث وجوه الائتلاف ووجوه الاختلاف والانتقال السّريع والسّليم بينهما. (المتوكّل، 2011، ص ص30-31)، وهذا النّوع من الخطابات غير وارد في النّص المفحوص، لكن نجد المنقول والمترجم كما يلي:

6-4-2-1- الخطاب الموسّط المنقول: تحكم الخطاب الموسّط المنقول سلّميتان قطبا الأولى الاستقلال والإدماج، وقطبا الثّانية المحافظة والتّصرف. (المتوكّل، 2011، ص20)؛ أي أنّ الخطاب الموسّط المنقول خطابان: (مستقل) لا تدخل للنّاقل فيه فحوى أو بنية، و(مدمج) تتفاوت فيه درجات تدخل النّاقل من المحافظة إلى التّصرف. ونجد في المدونة أن الخطاب

الموسّط المنقول ظهر في شكلين: المنقول بواسطة الملَك، والمنقول بواسطة الرّواة من الصّحابة والتّابعين وغيرهم.

6-4-2-1-1- المنقول بواسطة الملَك: بالعودة إلى الآية رقم (51) من سورة الشورى فإنّ الطّريق الثّالث لنقل الوحي كان بإرسال رسول، ويقصد بالرّسول روح القدس جبريل عليه السلام والذي كان ينقل الوحي من الله ﷻ للرّسول محمّد ﷺ بأربع كيفيّات: يأتيه في هيئته الحقيقيّة، أو في هيئة رجل، أو كصلصلة الجرس، أو ينفث في روعه.

أ- **النّفث في الرُّوع:** (يُنظر: (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص215) و(السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص299))، وهو ما يقذفه الله في قلب الموحَى إليه مما أراد الله تعالى، قال النّبيّ ﷺ: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي أَنّه لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ وَلاَ يَحْمِلَنّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَن تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ»، رواه الحاكم في المستدرك (4/2) من حديث أبي أمامة وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (2085). وقال (المناوي): «(في رُوعِي) بضم الرّاء؛ أي: ألقى الوحي في خلَدي وبالي، أو في نفسي، أو قلبي، أو عقلي، من غير أن أسمعه ولا أراه». (1972، ج2، ص571)؛ أي أن الله ألقى الوحي في وعي الرّسول ﷺ بواسطة روح القدس جبريل عليه السلام من غير أن يراه.

ب- **شبه صلصلة الجرس:** (يُنظر: (ابن الأثير، 1974، ج11، ص281)، و(السيوطي الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص298)، و(البغوي، 1983، ج13، ص322))، فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل النّبيّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فقال ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»، رواه البخاري (2) ومسلم (2333).

وقال (القرطبي): «وقوله (وهو أشده عليَّ) إنّما كان أشدّ عليه لسماعه صوت الملك الذي هو غير معتاد... ولأنه كان يريد أن يحفظه ويفهمه مع كونه صوتا متتابعا مزعجاً، ولذلك كان يتغير لونه، ويتفصّد عرقه، ويعتريه مثل حال المحموم، ولولا أن الله تعالى قواه على ذلك، ومكّنه منه بقدرته، لما استطاع شيئا من ذلك، ولهلك عند مشافهة الملك؛ إذ ليس في قوى البشر المعتادة تحمل ذلك بوجه». (1996، ج6، ص172)؛ وتعني الصلصلة صوت الحديد إذا حرّك، وقد كان

هذا النّوع من الوحي أشدّه على رسول الله ﷺ؛ فهو بتعبير وظيفي أشدّ أنواع الخطاب الموسّط على النّبيّ ﷺ بوصفه المتلقّي الأوّل له، حيث يتلبّث به الوسيط (المَلَكُ) حتى تعتريه حالة الحُمّى والتّعرق وزيادة الثّقل، ممّا ليس في مجال تحمّل القوى البشرية المعتادة.

ج- متمثّلاً رجلاً: (يُنظر: (الأشقر، 1989، ص64)، و(السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص299))، يتمثّل جبريل هنا في هيئة رجل، فيخاطب الرّسول ﷺ حتّى يَعيَ عنه ما يقول له، وهذه أخفّ الأحوال على الرّسول ﷺ، وقد حدث هذا في اللقاء الأوّل في غار حراء. وأيضاً حين جاءه فجلس أمامه وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان، وهنا رآه الصّحابة أيضاً.

د- على صورته الحقيقيّة: (يُنظر: (الأشقر، 1989، ص64))، وقد رآه النّبيّ ﷺ مرّتين: عن مسروق أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ التّكوير23، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ النجم13، فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، أخرجه مسلم (177)، حيث يرى النّبيّ ﷺ هنا الملَك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه.

وهناك من يضيف طريقاً آخر للوحي وهو الإلهام الربّاني، وقد ينسبه غيرهم إلى طريق الرّؤيا الصّادقة أو إلى طريق النّفث في الرّوع، لكن هذا النّوع من الوحي لا يتحقّق فيه نص من السّنة أو القرآن، بل مجرّد اجتهاد من بعض العلماء فقط. وموضوع الوحي واسع؛ قد يخرجنا الخوض فيه عن المقصود بالبحث، لذا نكتفي بهذا القدر الذي يُسعفنا في صياغة المحصّلة الآتية:

لا يسعنا في هذا المقام؛ مقام الخطاب الموسّط المنقول بواسطة الملَك، إلاّ أن نقول إنّه خطاب ربّاني مقدّس تمّ نقله إلى النّبيّ ﷺ بأمانة وحرص شديدين عن طريق وسيط هو الرّوح الأمين جبريل عليه السلام، وهو (مستقل) لا تَدَخُّلَ للنّاقل فيه فحوىً أو بنيةً. ولا يوجد في الحديث القدسيّ الذي بين أيدينا ما يدلّل على الكيفيّة التي تلقّاه بها الرّسول ﷺ من ربّه، من بين جميع الكيفيّات السّابقة، لذا فنحن أمام احتمالين في النّهاية: إمّا تلقّاه بخطاب مباشر أو بخطاب موسّط، وقد يكون بنسق لغوي أو بأنساق تواصليّة أخرى كالصّورة والصّوت، وهي أنساق لا تكون إلاّ للأنبياء وفيها ما لا يتحمّله البشر العاديون.

ويبثّ الله ﷻ معاني الحديث القدسيّ إلى رسوله الكريم مباشرةً بطرق الرّؤيا الصّالحة أو التّكليم من وراء حجاب، أو بواسطة الملك جبريل عليه السلام بطرق الإلقاء في الرّوع أو بلسانه حين يأتيه

بهيئته الحقيقيّة أو بهيئة رجل ما أو بالصّوت الذي كصلصلة الجرس، ثم يُنشىء الرّسول ﷺ لتلك المعاني ألفاظها ومبانيها المناسبة، فتخرج في شكل خطاب جديد، ويصبح الرّسول ﷺ هو الباثّ الثّاني بعد خالقه الله ﷻ. ويمكننا في هذه المرحلة الثّانية التّعامل مع الحديث القدسيّ في صورته النّهائية، على أساس أن المنتج الثّاني للخطاب هو الرّسول ﷺ، والمتلقّي كل من سمع الحديث أو قرأه، والنّاقل هم الرّواة الثّقات للحديث.

6-4-2-1-2- المنقول بواسطة الرّواة: الخطاب الموسّط المنقول بواسطة الرّواة هو الخطاب النّهائي للحديث القدسيّ المنتَج من رسول الله ﷺ والمنقول من طرف روّاة ثقات، فصار بعد النّقل ذا شكل آخر، نناقش في ما يلي السّلميتين اللتين تحكمان هذا الشّكل.

جاءت رواية الحديث من حيث السّلمية الأولى (الاستقلال/ الإدماج) خطاباً ناقلاً لكلام الرّسول ﷺ، مستقلاً بنويا عن الخطاب الأصلي المنقول، وتُؤسّل إلى ذلك بالنّقطتين (:) اللتين سبقتا الخطاب النّاقل للرّاوي الأول (أبي بن كعب)، والشولتين ("...") اللتين تضمنتا الخطاب النّاقل للرّواة، والمزدوجتين («...») اللتين رصدتا نص الخطاب المنقول عن الرّسول ﷺ؛ وهذا يعني أنّ هناك فصلاً واستقلالاً بين الخطابين، لكن هذا لم يعفه من تدخّل الرّواة فيه بإضافة جمل اعتراضيّة بقصد الشّرح والتّوضيح والبيان، ولم تمس تلك الجمل مضمون الخطاب الأصل وشكله بشكل مؤثّر، لذا نعتبرها مدمجة في الخطاب الأصل إدماج تصرّف، وليس إدماج محافظة أو إدماج صهر.

وقد وقع تصرّف في النّص الأصلي من حيث السّلمية الثّانية (المحافظة/ التّصرف)، عند نقله عبر سلسلة من النّاقلين، مشكّلة من سبعة (07) رُوّاة ثقات للحديث القدسيّ، هم على التّرتيب من المتأخّر إلى المتقدّم: (البخاري، علي بن عبد الله، سفيان بن عُيَينة، عمرو بن دينار، سعيد بن جبير، ابن عبّاس، أُبيّ بن كعب). حيث تجلى هذا التّصرف في: الإضافات، الاختصار، الحذف كما يلي:

أ- **الإضافات:** أضاف النّاقل (علي بن عبد الله) إلى خطابه النّاقل شكّه في الخطاب الذي سمعه عن (سفيان بن عيينة)، ورائز ذلك جُمله الاعتراضيّة: "...-وربّما قال سفيان أي ربّ وكيف لي به-..."، "...-وربّما قال فهو ثَمَّهْ-...". كما أضاف تأكيده لفعل حملي يتعلّق بما سمعه عن (سفيان) من خلال بؤرة مقابلة للحصر في قوله: "فلمْ أسمع سفيانَ يذكر (مائلاً) إلاّ مرّةً"، ثم نقل إلينا بأمانة إضافات النّاقلين (ابن عباس) و(سفيان)، وشروح (سفيان) وإشاراته الحركيّة وحواره معه عن كيفيّة حفظه لهذا الحديث.

أضاف النّاقل (سفيان) جملة خارجة عن الخطاب الأصلي، وهي قوله: "...قال النّبيّ ﷺ: «يرحمُ اللهُ مُوسى لَوْ كانَ صبرَ، يَقُصُّ اللهُ علَيْنا مِن أَمْرِهِمَا»..."، رغم وجود جملة مماثلة لها في الخطاب الأصل وهي: "...قال النّبيّ ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسى كَانَ صَبَرَ، فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»..."، وبقطع النّظر عن عدم اتّضاح أيّة الجملتين صحّت عن النّبيّ ﷺ في الخطاب المنقول إلينا؛ إلاّ أنّهما تحملان فحوى خطابياً واحداً، والظّاهر أنّ النّاقل (علي بن عبد الله) من شدّة تحرّيه عن الخطاب الأصل ميّز بين الجملة التي نسبها للنّاقل (سفيان)، وبين الجملة التي وردت في الخطاب الأصل من أحد النّاقلين الذين سبقوهما.

وأضاف النّاقل (ابن عباس) كذلك إلى الخطاب المنقول كلامه: "وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِراً وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ".

ب- الاختصار: في قوله "إلى قوله أمراً" وهذا الكلام يختصر الجملة {[قال: ستجدني إنْ شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً]}، ولأنّ هذه الجملة قد وردت كاملة في أسانيد أخرى للحديث المرويّة دائماً عن (سفيان)؛ فقد أضفناها في متن الحديث بين معقوفتين، لتوضيح الاختصار والكلام المختصر، ودون الخوض في نسبة الاختصار إلى ناقلٍ معيَّن؛ فإنّنا نعتبره من قبيل الإدماج المتصرّف في الخطاب الموسّط المنقول.

ج- الحذف: في الجملة «فَوَجَدَا فيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ [فَأَقَامَهُ]، مَائِلاً»، أصاب الحذف الجملة [فأقامه] وقد جعلناها بين معقوفين للتّمييز بين الخطاب المنقول وما أضفناه نحن بغرض بيان موضع الحذف والنّص المحذوف، وبرجوعنا إلى أسانيد أخرى للحديث نفسه مرويّة عن (سفيان بن عيينة)، عثرنا على هذه الجملة؛ هذا يعني أنّها سقطت سهواً عند نقلها أو تدوينها وعلى أي حال نعتبر هذا الحذف بالنّسبة إلينا تصرّفاً أصاب الخطاب الأصل، خاصّة إذا كانت الجملة المحذوفة متضمَّنة في الآية: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ الكهف77.

وبقطع النّظر عن مسألة نسبة الحذف إلى ناقل معيّن -لأنّه يصعب تحديد ذلك- فإنّ الحذف في النّهاية هو من عملية النّقل التي يشترك فيها عدد من النّاقلين، وهو إدماج تصرّف للخطاب الموسّط المنقول.

لقد بيّنت السلّميتان السّابقتان أنّ نقل الخطاب الأصلي للرّسول ﷺ كان نقلاً مدمجاً بتدخّلات الرّواة إدماج تصرّف، حيث رصدنا ابتعاداً طفيفاً عن الخطاب الأصلي المنقول، لكن لم يُفض إلى صهره تماماً في خطاب النّقل، ولم يمس بفحواه العام وقصده الإنجازي.

إنّ الذّوات المشاركة في عملية النّقل دائماً هي ثلاث ذوات كما يحصل في كل خطاب موسّط: الذّات المنتجة للخطاب [أ]، والذّات [ب] التي تقوم بتحليله ثم نقله، والذّات [ج] المنقول إليها الخطاب والتي تعيد تحليله. (المتوكّل، 2011، ص98)، وتُضبطُ هذه الذّوات المشاركة في الحديث القدسيّ وبنية تواصلها اللغوي كما يلي:

– يصوغ المنتج [أ] (وهو النّبيّ ﷺ) البنية التّحتيّة1 التي تشكل دخلا للمولّد الذي ينقلها إلى البنية السّطحيّة1، كل ذلك بمعونة المكوّن المفهومي1 والمكوّن السّياقي1. ثم ينتقل النّاقل الأول [ب] (وهو أُبيّ بن كعب) عبر المحلّل1 إلى البنية التّحتيّة1، وهو يعتمد لثقته مكوني الإنتاج المفهومي1 والسّياقي1 المنسوبين للرّسول ﷺ، على أساس أن زمن التّلقي قريب جداً من زمن الإنتاج؛ وفي مرحلة التّحويل تجري المسطرة المعتاد إجراؤها حيث تنقل البنية التّحتيّة1 عبر المكوّن المحوّل إلى البنية التّحتيّة2.

– تتم العملية نفسها مع النّاقل [ج]، إلاّ أنّ عملية انتقاله إلى البنية التّحتيّة2 عبر المحلّل2 تعتمد إما مكوني الإنتاج المفهومي2 والسّياقي2، أو يتوسل بمكونيه المفهومي3 والسّياقي3 الخاصّين به حسب علاقة زمن التّلقي بزمن الإنتاج.

ويكمن الفرق بين الخطاب المستقل والخطاب المدمج بمختلف أشكاله في عملية تسطيح البنية التّحتيّة2؛ أي في مرحلة توليد البنية السّطحيّة2 عبر المولّد2. (المتوكّل، 2011، ص ص98–99)، فأمامنا الآن سبعة (07) روّاة لهذا الحديث القدسيّ، قد يكون خطاب كل واحد منهم إمّا مستقلاً أو مدمجاً، ففي الخطاب المستقل الذي نتوقعه أن يكون عند النّاقل (أبي بن كعب) بحكم مزامنة تلقّيه لإنتاج الحديث؛ تخضع البنية التّحتيّة1 للنص لآليات التّحليل والتّحويل إلى البنية التّحتيّة2 عبر المحلّل1 والمحوّل على جهة الاستقلال والالتزام الحرفي دون توسع أو تحييد كما يستمد المولّد2 فحواه من المولّد1 عن طريق الاستنساخ التّوليدي حيث يُمدُّ جسر بين المولّدين يضمن الاتّصال بينهما، فينقل البنية التّحتيّة2 إلى بنية سطحيّة2 تماثل البنيّة السّطحيّة1 .

ونقول تماثل ولا نقول تطابق؛ لأن الرّواة يعتريهم الخطأ، والحديث ليس محفوظا كحفظ الله تعالى للقرآن العظيم، حيث ينشأ الخطاب الثّاني مماثلا للخطاب الأصل، ويصبح هو كذلك قابلاً للنّقل والتّحليل والتّحويل والتّوليد من جديد عبر راوٍ آخر. أمّا في الخطاب المدمج الذي يمكن أن نتوقعه في أي ناقل من بقية الرّواة بحكم بعد زمن التّلقي عن زمن الإنتاج، فإن المولّد2 يُعْمِل آلياته الخاصّة في نقل البنية التّحتيّة2 إلى بنية سطحيّة2 تتفاوت درجات اختلافها عن البنية السّطحيّة1 بحسب درجات التّصرّف والمحافظة كما سبق بيانها.

6-4-2-2- الخطاب الموسّط المترجم: انطلق (المتوكّل) من المفهوم السّائد للتّرجمة وهو كل عملية نقل (بشرية/آليّة، فوريّة/بعديّة) لنص لغوي ما من لغة إلى أخرى، وقام بتوسيعه وتأطيره بالخطاب الموسّط، فاعتبر التّرجمة بالنّظر إلى طبيعة نسق التّواصل (أو قناته)، نوعان: ترجمة أنساقية تتم بين نسقين تواصليين مختلفين (لغة وصورة، لغة وإشارة،...)، وترجمة نسقية تتم داخل النّسق اللغوي نفسه بين لغتين (بَيْنِيَّةٌ) أو داخل اللغة نفسها (عَيْنِيَّةٌ). (2011، ص22)، ونتناول في ما يأتي مدى ورود كلّ من التّرجمة الأنساقيّة والتّرجمة النّسقية في الحديث القدسيّ.

6-4-2-2-1- التّرجمة الأنساقيّة: حسب التّعريف السّابق فإنّ التّرجمة الأنساقيّة هي عملية النّقل من نسق تواصلي إلى نسق تواصلي آخر (من لغة إلى إشارة أو صورة أو صوت أو العكس)، ونجد هذا النوع من النّقل الأنساقي عند راوي الحديث (سفيان بن عيينة).

دعّم الرّاوي (سفيان) الخطاب الأصل بإشارات حركيّة لتحقيق وظيفة بلاغيّة هي التّبيين والتّوضيح، هذه الإشارات هي إيماءات بأحد أعضائه كاليد والأصابع، فقد أشار في البداية إلى شكل الطّاق بقوله هكذا -والكلام منقطع هنا- ولا نعلم إن كان أشار بيده أم بغيرها، ثم أومأ بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئاً للإشارة إلى كيفية قتلِ الخَضِرِ الغلامَ، ثم أومأ في الثّالثة بيده كأنّه يمسح شيئاً إلى فوق، إشارة إلى بناء الجدار من طرف الخَضِرِ.

وإنْ كنّا نعتبر هذه الإشارات من قبيل تدخّلات النّاقل لإدماج الخطاب المنقول في الخطاب النّاقل؛ إلاّ أنّ هذه الحركة تُقرأ من منظور آخر بأنّها ترجمة أنساقيّة، ذلك أنّ المتلقّي المتزامن قد لا يَفهم من النّاقل قصده لظروف معيّنة، قد تتعلّق بالمقام كأن يكون بعيداً عن المتكلّم لكثرة الحاضرين مثلاً، أو تتعلّق ببنية الخطاب كأن يصادفه لفظ غريب مثل (الطّاق)، أو فعل حملي عجز الحمل أو التّركيب أن يصفه كطريقة قلع رأس الغلام من طرف الخضر وطُرُقُها عديدة كما هو معلوم، أو كيفيّة تسوية الجدار الذي يريد أن ينقضّ، فيتدّخل النّاقل (سفيان) ليدعّم التواصل اللغوي، ويوظّف له نسقاً تواصلياً آخر هو الإشارة بيده وأصابعه، فأصبح بذلك مترجماً ترجمةً أنساقيّة.

ويُعَدُّ (الجاحظ) من أوائل من سبق إلى بيان أهميّة توظيف الإشارة في الخطاب اللغوي حيث جعل علامات البلاغة في وضوح الدّلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة، واشترط لبلاغة المعنى توافق الإشارة مع اللفظ وعدم تنافرهما، والإشارة عنده تُشارك اللفظ وكثيراً ما تنوب عنه ومبلغها أبعد من مبلغ الصّوت. (الجاحظ، 1969، ج1، ص77-78)؛ حيث إنّ الحركات الإشاريّة المضافة في للنّص تجعلنا أمام خطاب لفظي منطوق منتج لغوياً، وأراد (سفيان) ترجمته إلى خطاب إشاري (غير لغوي).

يشغل الشّق الأوّل من الجهاز، في هذه الحالة، وفقا لمسطرتي الإنتاج والتّحليل حيث تصاغ البنية التّحتيّة1 التي يتولّى توليدها المولّد1 فينقلها إلى البنية السّطحيّة1 التي تتحقّق في خطاب يتولىّ المحلّل1 إرجاعه إلى البنية التّحتيّة1 منطلق الإنتاج اعتمادا على المعلومات المرصودة في المكوّن المفهومي1 والمكوّن السّياقي1 حين يكون التلقّي تلقّياً متزامناً أو على المعلومات المتوافرة في المكوّن المفهومي2 والمكوّن السّياقي2 حين يتعلق الأمر بتلقٍ متباعدٍ. وترسل البنية التّحتيّة1 إلى المكوّن المحوّل الذي ينقلها إلى البنية التّحتيّة2 التي يتم إدخالها إلى المولّد2 فتعالج وتنقل إلى البنية السّطحيّة2 للخطاب الإشاري الهدف.

ويعتبر (هنخفلد) و(ماكنزي) أن البنية التّحتيّة لمختلف الأنساق التّواصليّة بنية واحدة، هي البنية اللغويّة، تتحقّق تحقّقات مختلفة اختلافَ الأنساق. (المتوكّل، 2011، ص96)، وبذلك فإن الجهاز يُشغّل في شقّه الثّاني بطريقة اعتياديّة كما سبق حتّى الوصول إلى مستوى البنية السّطحيّة2 التي تُرسل إلى المكوّن الإنطاقي (أو الخرج) الذي يحققها في شكل إشاري، وفق التّرسيمة الآتية التي نسمّيها بالتّحقق الإنطاقي للبنية التّحتيّة.

الشّكل قم 12: التّحقق الإنطاقي للبنية التّحتيّة

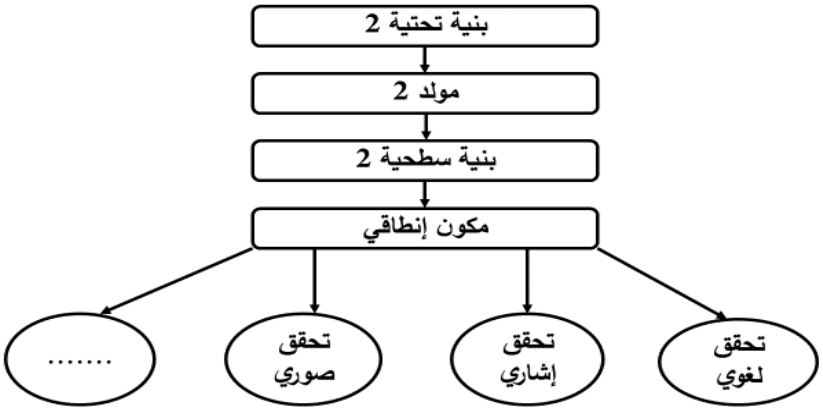

المصدر: (المتوكل، 2011، ص97).

6-4-2-2-2- التّرجمة النّسقيّة: تقدَّمَ أن التّرجمة النّسقيّة تتّم داخل النّسق اللغوي نفسه بين لغتين (بَيْنِيَّةٌ)، أو داخل اللغة نفسها (عَيْنِيَّةٌ).

وتُعرَّف التّرجمة البينيّة بأنّها عملية نقل خطاب ما من لغة إلى لغة، يقوم بها ملقّن في حالة تعليم اللغات، ومترجم في حالة التّرجمة البينيّة، ولا يقتصر هذا الانتقال من لغة إلى لغة ثانية مختلفة عنها، بل يحصل أيضاً من مستوى لغوي إلى مستوى لغوي آخر داخل اللغة نفسها، مثل: الانتقال من إحدى الدّوارج العربية إلى العربية الفصيحة أو العربية الفصحى أو العكس ترجمة أو تعلما. كما يمكن أن تتم التّرجمة البينيّة ثنائيةً من لغة إلى لغة، أو متعدّدةً من لغة إلى أكثر من

لغة واحدة أو العكس. (المتوكّل، 2011، ص ص87–89)، وهذا النّوع من التّرجمة لا يمكن أن يكون في النّص؛ لأن عمليات بث النّص ونقله وتلقّيه كلها كانت بلغة واحدة ومستوى لغوي واحد ويتعلق الأمر باللغة العربية الفصحى.

وتعرّف التّرجمة العينيّة بأنّها العمليّة التي تنقل نصا ما إلى نص آخر من المستوى اللغوي نفسه داخل اللغة نفسها، ولها أربع ممارسات: التّلخيص والشّرح والتّفسير والتّأويل. وينتج عنها نوعان من الخطاب: خطابٌ فوقيٌّ: وهو خطاب عن خطاب يروم تفسيره أو تأويله. وخطابٌ بديلٌ: وهو الذي يسمّى مقتضباً حين يلخّص النّص الأصلي بإيراد فحواه موجزاً، ويسمى مرادفاً حين يستهدف شرح النّص الأصلي شرحا يفترض فيه أنه أقرب إلى الفهم من النّص الأصلي. (المتوكّل 2011، ص ص27–28)، وقبل الخوض في التّرجمة العينيّة لخطاب الحديث القدسيّ تستوقفنا العمليات الثّلاث المتشابهة وهي: الشّرح والتّفسير والتّأويل؛ لأنها كلها تستهدف نقل خطاب ما إلى خطابٍ ثانٍ يكون أقرب إلى الفهم، إذْ يتوجب علينا التّفريق بينها قبل المرور إلى المباحث المتعلّقة بأنواع الخطابات النّاشئة عن التّرجمة العينيّة في الحديث القدسيّ.

يكون الشّرح لكل أنماط الخطاب في حين يكاد يختصّ التّفسير بالخطاب الدّيني، وينزع التّفسير إلى الرّبط والتّوحد مع النّص الأصلي لمحكوميته بسياقه وظروف إنتاجه ومقاصد مؤلفه ويتقاسم الشّرح والتّفسير خاصيّة الموضوعيّة؛ أي الالتصاق بالخطاب المروم شرحه أو تفسيره، أمّا التّأويل فهو إسقاط لسياق المُؤَوِّل ومعارفه وما يتوسّل به من آليات التّأويل على النّص الأصلي إسقاطا منتهاه محو المؤلف وإحلال المؤول محلّه، حيث تتعدّد التّأويلات بتعدّد المؤولين، والتّأويل لا يلتزم بالموضوعيّة بالضّرورة. (المتوكّل، 2011، ص92)، يترتّب على هذا أن يوظف المفسّر والشّارح المكوّن المحوّل للمعلومات الواردة عليه من مكوني الإنتاج المفهومي والسّياقي، مثل خلفية منتج للخطاب المعرفيّة وسياقه التّاريخي والاجتماعي وظروف الإنتاج وعلاقة الخطاب بخطابات أخرى، على سبيل الالتزام، أما المؤول فيستخدم معارفه الخاصة وسياقه الآني مغفلا ظروف إنتاج الخطاب الأصل رغم إمكانية حضورها في عملية التّأويل.

ونلحظ تَحقُّقَ التّرجمة العينيّة في النّص، حيث أفضت إلى خطاب بديل مقتضب تضمَّنَ عملية التلخيص، وخطاب بديل مرادف قام على عملية الشرح، وخطاب فوقي شكّل ممارسة التّفسير كما يلي:

أ– **الخطاب البديل المقتضب:** يقوم الخطاب المقتضب على عملية التّلخيص التي تُنجز على هيئتين: تلخيص اختزال يختزل فحوى الخطاب الأصل، وتلخيص اجتزاء يجتزأ من الخطاب الأصل قطعاً تُعد ممثلة لأهمّ ما ورد فيه. (المتوكّل، 2011، ص90)، ووُجد هذا النّوع من

الخطاب في الحديث القدسيّ حين قام واحد من النّاقلين باستعمال أسلوب التّلخيص لجزءٍ منه في هيئة اختزال، حيث اختزل فحوى الخطاب الأصل المرصود في العبارة {[قال: ستجدني إنْ شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً]}، بقوله (إلى قوله أمراً).

وقد تقدّم طَرْقُ هذه الفكرة من باب الإدماج المتصرّف في الخطاب الموسّط المنقول وسمّيناها اختصاراً، وهي في الوقت نفسه أوردت فحوى النّص موجزاً، فهي عملية تلخيص اجتزاء أنتجت خطاباً يقوم مقام البديل المقتضب للخطاب الأصل.

ب- الخطاب البديل المرادف: يقوم الخطاب المرادف على عملية الشّرح، فاستهدف شرح النّص الأصلي شرحا يفترض فيه أنه أقرب إلى الفهم من النّص الأصلي.

شرح (سفيان بن عيينة) في جملته الاعتراضيّة "-رجعا يقصّان آثارَهُما-" العبارة التي سبقتها في خطاب رسول الله «فارتدّا على آثارِهِمَا قصصاً»، وهذه الجملة تُنسب إليه؛ لأنّها ثابتة عنه حتّى في الأحاديث التي رواها عنه ناقلون آخرون غَيْرَ (علي بن عبد الله)، من مثل (محمد بن أبي عمر المكّي) وغيره الواردين في أسانيد أخرى للحديث.

ج- الخطاب الفوقي: تضمّن ممارسة التّفسير من قبل سيّد الخلق ﷺ لآيات بيّنات من الذّكر الحكيم، وهي كما يلي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً(60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً(61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً(62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً(63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً(64) فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً(65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً(66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً(67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً(68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً(69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً(70) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً(71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً(72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً(73) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً(74) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً(75) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً(76) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ

لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً(77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(78)﴾ الكهف60-78 (برواية حفص).

ننوّه إلى أنّ الجمل المؤشّر لها بسطر أسفل منها هي التي تتناصّ مع الحديث القدسيّ حيث وردت فيه حرفياً كما هي في القرآن. وقد استشهد جلُّ المفسّرين بالحديث القدسيّ موضوع الفحص لتفسير هذه الآيات من سورة الكهف، وعلى رأسهم: (ابن كثير، القرطبي، الجلالين السّعدي،..)، وهذا يدلّ على أن الحديث القدسيّ هو نصٌّ تفسيريٌّ بامتياز.

تدخل نصوص الآيات إلى الجهاز قصد تفسيرها فتخضع للمسطرة العامّة المتّبعة في تشغيل الجهاز على أساس أن منتج النّص هو الله ﷻ، وأن المتلقّي هو الرّسول ﷺ بصفته مفسّراً، وأن البنية التّحتيّة للنّص بعد تحليله تخضع لآليات المحوّل على جهة الالتزام الحرفي مع التّوسع، فينقل خرج المحوّل إلى خطابٍ ثانٍ قابل للتّحليل من جديد.

6-5- معيار الكيفيّة: اقترح (المتوكّل) معيار الكيفيّة لتنميط الخطابات؛ انطلاقاً من تحيين واستثمار ما اطّلع عليه لدى المفكّرين اللغويين الأصوليين الذين اعتنوا بدرجات تجلي الدّلالة في الخطاب وأقاموا سلّمية لالتباس الخطاب.

فقد رأى الأصوليون أن الخطاب يتدرّج في الالتباس تصاعدياً من (الظّاهر) وهو الشفّاف الذي لا التباس فيه، إلى (المحتمل) الذي تكون إحدى قراءاته أقرب من الأخرى، إلى (المجمل) وهو متعدّد القراءات دون مرجّح لإحداها، إلى الأعلى درجة وهو (الخفي) (أو المتشابه) وهو الذي لا يزول التباسه ولا يمكن أن يؤوّل بحال. ويكمن الالتباس في فحوى الخطاب فتتعدّد معانيه أو في الإحالة، فيكون إمّا (عامّا) يحيل على أكثر من ذات واحدة أو (مطلقا) محيلا على أية ذات دون تحديد. (المتوكّل، 2012، ص78)، وحسب معيار الكيفيّة يُنمّط الخطاب إلى شفّاف وكاتم كما يلي:

6-5-1- الخطاب الشَّفَّاف: هو الذي ينعدم من الظّواهر الأربع الآتية: الالتباس، الطيّ الانعراج، التداخل الخطابي. (المتوكّل، 2012، ص80)، والخطاب الذي بين أيدينا ليس شفّافاً إذْ يحمل الظّواهر السّابقة.

6-5-2- الخطاب الكاتم: بمفهوم المقابلة نقول هو الذي تتوفّر فيه واحدة -على الأقل- من الظواهر الأربع السّابقة، وهكذا ينشأ داخله أربعة أنماط فرعيّة هي: الخطاب الملتبس، الخطاب المطوي، الخطاب المنعرج، الخطاب المتداخل.

6-5-2-1- الخطاب الملتبس: الالتباس بمفهومه العلمي المحض هو تحمُّل خطاب ما (جملة، مركّب اسمي، نص...) لأكثر من قراءة واحدة، ومكمنه في المستوى العلاقي كتعدّد إحالات الفعل الإحالي الواحد بإحالة عامة (مقابل خاصّة) أو مطلقة (مقابل مقيّدة)، أو في المستوى الدّلالي كتضمّن الخطاب مفردةً تحمل أكثر من معنى دون قرينة ترجيح. (المتوكّل 2012، ص80)، ونسجّل في النّص الالتباس العلاقي والالتباس الدّلالي المذكورين عند (المتوكّل)، كما نقترح التباساً آخر اصطلحنا عليه اسم الالتباس السّماعي على النّحو الآتي:

أ- **الالتباس العلاقي:** من بين مظاهر الالتباس العلاقي في النّص الالتباس في الإحالة الذي نَشعر به في العبارات الآتية:

- «حتّى إذا أَتَيَا الصّخرة وضعا رُؤُوسَهُمَا»، نلاحظ أنّ المحمولين الفعليين (أتيا، وضعا) في زمن المُضي، وبصيغة الماضي الموافقة للمثنّى الظّاهر في ألف التّثنية التي تحيل إلى ذاتين هما النّبيّ موسى عليه السلام ومرافقه يوشع بن نون، لكن اللفظة (رؤوسهما) خالفت الوضع وجاءت بصيغة الجمع ممّا يحدث الالتباس العلاقي. وهنا مَن لا يعرف أسرار العربية يتوهم وقوع خطإ أثناء نقل الخطاب أو تدوينه، خاصّة أنّ الأحاديث النَّبويّة عرضةٌ لأخطاء الرّواة وليست محفوظةً كحفظ الله لكتابه العزيز، لكنّ حقيقة الأمر أن ذلك أسلوب من أساليب العرب الجماليّة في التّعبير عن المثنّى بلفظ الجماعة، قال سبويه: «وسألت الخليل عن: ما أحسن وجوههما، فقال: لأن الاثنين جميع» (1999، ج2، 48)، وهي واردة في القرآن الكريم أيضاً لاستثقال الجمع بين تثنيتين في ما هو كالكلمة الواحدة مثل: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾التحريم04، أو لتحقيق غرض تعظيم الأمر مثل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾الحجرات09.

- «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت بهما سفينة كلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلمّا ركبا في السّفينة...فلمّا خرجا من البحر مرُّوا بغلامٍ...»، نشعر بالالتباس العلاقي هنا؛ بسبب التأرجح الإحالي بين الإحالة على المثنّى بالألف في (انطلقا يمشيان، بهما، ركبا، خرجا)، والإحالة على الجماعة باللاصقة واو الجماعة في (مرُّوا) وضمير الجمع (هم) في (كلّموهم، يحملوهم، فحملوهم)، وهذه الإحالة الأخيرة هي الصّادقة حيث يتوفّر فيها شرط المطابقة؛ لأنها فعلاً تحيل إلى جماعة تتكون من ثلاثة أشخاص هم: النّبيّ موسى عليه السلام والفتى يوشع بن نون، والرّجل الصّالح الخضر.

تتوفر لدينا في الإحالة الأولى قراءتان؛ القراءة الأولى للسبب الذي ذكرناه آنفاً، ويتعلق بتحقيق جماليّة أسلوبيّة في التّعبير عن الجماعة بلفظ المثنّى، والقراءة الثّانية -وهي الأقرب لدينا- أن يكون الدّاعي هو حمل المتلقّي على التّركيز على ذاتين فقط هما: موسى والخضر عليهما السلام

باعتبارهما المحورين الرئيسيين في الخطاب ويُسيطران على جلّ أحداث القصّة، والتجاوز عن الشّخص الثّالث وهو يوشع بن نون باعتباره تابعاً للنّبيّ موسى ﷺ يخدمه ويتعلّم منه فقط، فهو محور ثانوي لا أثر له في السّلسلة الحدثية، وظاهرة تحمل الخطاب الواحد لقراءتين (تشاكلين) تتطابق مع ظاهرة ازدواج التّشاكل في السّيميائيات.

ب- الالتباس الدّلالي: لا يوجد التباس دلالي، فالرّسول أبرعُ النّاس في الوصول إلى نجاح العملية التّخاطبيّة والتّواصليّة؛ إذْ لا يترك لفظة غامضة أو تحتمل معانٍ متعددة إلاّ وضع لها قرينة التّرجيح المناسبة.

يشهد على ذلك الجملة: «فارتدّا على آثارهما قصصاً»، تلتبس المفردة (قَصَصٌ) مع جمع (قِصة) لكن سرعان ما يُدرك المتلقي أن المقصود ليس ذاك حين يعود إلى السّياق المقالي (فارتدّا على آثارهما)؛ أي رجع موسى ﷺ وفتاه يتتبّعان آثار سيرهما إلى غاية المكان الذي فقدا فيه الحوت وهو الصّخرة التي ناما عندها؛ بمعنى أنّ (القَصَصَ) هنا هو التّتبع والتحرّي والاقتفاء والبحث، فكان هذا السّياق هو قرينة ترجيح المعنى الثّاني على الأوّل. ورغم أنّ المتلقّي يُنكر وجود الالتباس الدّلالي هنا، إلاّ أنّنا نجد واحداً من النّاقلين للحديث قد وقع في نفسه شكّ بأن متلقّيه التبست عليه المفردة السّابقة فأضاف يشرحها بجملته الاعتراضيّة: "-رجَعا يقُصّان آثارَهُما-" لزيادة وضوح الحديث وشفافيته.

ج- الالتباس السّماعي: إذا كان الالتباسان العلاقي والدّلالي يحدثان عند عملية إنتاج الخطاب، فإنّنا نرى بوجود نوعٍ آخر من الالتباس لم يُشر إليه (المتوكّل)، هو الالتباس السّماعي الذي نعتقد أنّه يخرج عن عملية الإنتاج ويقع عند تلقّي الخطاب أو نقله، ويتحقّق في المكوّن الإنطاقي وليس كسابقَيه المتحقّقين في البنية التّحتيّة الوظيفيّة من المكوّن النّحوي، وقد وقع هنا في التّلقي وتحديداً عند سماع الخطاب، وتحقّق عند النّاقل (علي بن عبد الله) في موقفين.

الموقف الأوّل حين قال: «قال: أيْ ربّ ومن لي به؟»، حيث التبس عليه ما سمعه من الرّاوي قبله وهو (سفيان بن عُيينة)، فأضاف بيان نوع الالتباس بقوله: "-وربّما قال سفيان أيْ ربّ وكيف لي به؟-"، ونلاحظ أن كلاًّ من الفعلين الخطابيين تضمّن القوّة الإنجازيّة الاستفهام، الأوّل أحال إلى الذّات (مَنْ)، والثّاني أحال إلى الواقعة (كيف)، ورغم أنّ هذا الالتباس أصاب الفعل الإحالي إلاّ أنّه حافظ على فحوى الخطاب المتمثّل في أسباب الوصول إلى الخضر.

الموقف الثّاني حين قال: «حيثُما فقدت الحوت فهو ثَمَّ»، فالتبس عليه القولُ سماعاً من النّاقل (سفيان)، فأضاف شكّه بقوله: "-وربّما قال فهو ثَمَّهْ-"، أصاب الالتباس السّماعي الوحدتين المعجميتين (ثَمَّ/ ثَمَّهْ)، وكلتاهما ظرفٌ يشير إلى المكان البعيد، الفرق بينهما يكمن في التّذكير

والتّأنيث فقط كما هو واضح، حيث حافظ الالتباس على فحوى الخطاب المتمثّل في الإشارة إلى مكان وجود الخضر.

ولو أردنا إسقاط الالتباس المسجّل في هذا الحديث القدسيّ على سلّمية الالتباس عند الأصوليين التي وردت سابقاً، فإنّ هذا الحديث ملتبس في درجة (المحتمل)؛ لأنّ المتلقي يستطيع احتمال وتقريب وتغليب إحدى قراءاته عن الأخرى كما فعلنا في فرع الالتباس العلاقي، في حين لا أثر للالتباس الدّلالي، أمّا الالتباس السّماعي فلا يتعلّق بعملية إنتاج الخطاب؛ يعني لا يوجد في الخطاب الأصل المنقول بل في الخطاب النّاقل للرّاوي الأخير، وكوننا متلقّين لهذا الخطاب فقد نُقل إلينا التباس الرّاوي كما هو، وكان لا بدّ من التّلميح إليه، وعموماً فإنّ جميع الالتباس الوارد في الخطاب لم يكن قادحاً له؛ بل جاء لإمتاع المتلقّي جمالياً أو تحفيز معرفته الخلفيّة للوصول إلى القصد الخطابي.

6-5-2-2- الخطاب المطوي: تخضع آليات الخطاب (السّردية، الوصفيّة، الحجاجيّة) لشرط (التمام) الذي يقتضى أن يُلِمَّ السارِدُ في سرده بكل مراحل الواقعة موضوع السّرد، وأن يذكر المُحَاجّ جميع عناصر حجاجه (دعاوى وحجج ونتائج). ومن غير النّادر أن يخرق هذا الشّرط بطريقتين: أن يقفز على حلقات من السّلسلة السّردية أو السّلسلة الحجاجيّة أو تُجَمّع حلقات إحدى السّلسلتين في فعل خطابي واحد. (المتوكّل، 2012، ص ص81-82)؛ يعني أنّ هذا الخطاب سُمّي مطوياً؛ لأنّه يتضمّن عملية طي لمقاطع سردية أو وصفيّة أو حجاجيّة، بواسطة القفز على الجمل بأن تُحذف من النّص ولا تُذكر، أو بواسطة التّجميع بأن تُجمع مجموعة من الأفعال الخطابية في فعل خطابي واحد.

أ- **القفز:** يرتبط القفز بالحذف وهو كثير في النّص ومنه:

- قول أحد النّاقلين: "-إلى قوله أمراً-"، وأراد بذلك القفز على باقي الجمل المتواصلة في الحوار الجاري بين الخضر والنّبيّ موسى وتتضمّن ردّ موسى عليه السلام: [قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً] وهي محذوفة من النّص، ولعلّ سبب هذا القفز هو علم المخاطب بذلك حين يعود إلى الآيات القرآنية التي سردت القصّة وأوردت الحوار نفسه في سورة الكهف.

- قول النّاقل (ابن عباس): (كذب عدو الله) وتحمل بؤرة مقابلة تتضمّن بؤرة إبطال، إبطال ادّعاء (نوفا البكالي) بأنّ موسى الخضر ليس موسى بني إسرائيل، لكن قفز على الجملة التي تتضمّن بؤرة تعويض، ولتكنْ: (إنّه هو نفسه) فلم يذكرها، واستغنى عن تعويض الإبطال بإيراد حجّته القويّة وهي نقل حديث رسول الله ﷺ في هذا الصّدد.

– قول منتج الخطاب: «فرقدَ مُوسى واضْطربَ الحوتُ فخرجَ فَسقطَ في البحرِ»، وتجاوز عن ذكر حالة الفتى المرافق له، لكن المتلقّي يفهم من خلال السّياق المقالي أن الفتى (يوشع بن نون) بقي يقظاً ورأى كيف أنّ الحوت اضطرب لمّا بعث الله فيه الحياة، ثم خرج من المكتّل وجرى نحو البحر، لكن لم يشأ أن يوقظ نبيّه، ولمّا استيقظ موسى عليه السلام نسي أن يخبره وواصلا سيرهما.

– قول (يوشع): «أرأيت إذْ أوينا إلى الصّخرة فإنّي نسيتُ الحوت...»، هنا يسرد له أحداث نسيانه ذكر الحوت وكيف أنّه رآه يتّخذ سبيله في البحر، لكن هذا الكلام سبقه طلب النّبيّ موسى عليه السلام: «قال لفتاه: آتنا غداءنا...»، ولم يبيّن لنا منتج الخطاب كيف تمّ الردّ على هذا الطّلب كأنْ يقدّم له الفتى غداءهما فيأكلان منه، أو يتجاوزا عنه ويَعْجِلَا إلى العودة أدراج سبيلهما للقاء الخضر، فحذف المتكلّم هذه الأفعال الخطابيّة المحتملة لقلّة شأنها وضعف أهميّتها بالنّظر إلى الواقعة التي كان النّبيّ موسى عليه السلام يترقّب وقوعها وهي فقدان الحوت.

ب– التّجميع: يظهر التّجميع في الكثير من العبارات في النّص، نأخذ منها ما يلي:

– «قال: قومٌ أتيناهم فلم يُطعمونا ولم يُضيّفونا عمدتَ إلى حائطهم لو شئت لاتّخذت عليه أجراً»، هذا القول للنّبيّ موسى عليه السلام وهو يحاور الخضر هو فعل خطابي واحد، لكن جمع خمسة (05) أفعال خطابيّة هي: (إتيان موسى والخضر عليهما السلام لأهل هذه القرية، رفض القوم إطعامها رفض القوم ضيافتهما، مبادرة الخضر في بناء حائطهم، عتاب موسى للخضر؛ لأنّه لم يتّخذ أجراً مقابل البناء)، هذه الأفعال سبق ورود أغلبها في سلسلة الأحداث المسرودة لكن القول الأخير للنّبيّ موسى عَمَدَ إلى تجميعها، ومع هذا التّجميع تنتهي جميع فُرص موسى في مرافقة الخضر فيفترقا.

– «سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً»، وتدلّ على أنّ الخضر شرع في تقديم الإجابة النّهائية والمجمّعة لردود ثلاثة أسئلة متفرّقة في الخطاب للنّبيّ موسى عليه السلام والنّاتجة عن إنكاره تصرّفات الخضر وعدم صبره عليها، وكان الخضر في كلّ مرّة لا يجيبه بل يذكره بشرط الصّبر اللاّزم لتمام مرافقته له.

إنّ جميع الأفعال الخطابيّة الموجودة في مقاطع سرد تصّرفات الخضر العجيبة (خرق السّفينة، قتل الغلام، بناء الجدار)، وما تعلّق بها من ردود أفعال النّبيّ موسى عليه السلام المتضمّنة القوّة الإنجازيّة الاستفهام، جُمعت كلها في ردّ نهائي للخضر يبرّرها؛ هو بمثابة فعل خطابي واحد يجمع أفعال خطابيّة متعدّدة.

إنّ الحديث موضوع الدّرس خطاب مطويٌّ؛ لأنّ آليتيه الخطابيتين السّردية والحجاجيّة خالفتا شرط التّمام، وتطلّبتا توظيف الطّي ليكون استراتيجيّة حجاجيّة وتقنيّة من تقنيات السّرد؛ وذلك

بتجميع الأفعال الخطابيّة، والقفز على بعض حلقات السّلسلة السّردية، وهذا الطّي لم يُعِبْ الخطاب بل أضاف له متعة في التلقّي وفجّر الطّاقة التّأويليّة للمستمع والقارئ.

6-5-2-3- الخطاب المنعرج: إنّ من شَفَّافية الخطاب أن يكون مباشرا يُلْقَى إلى مخاطب واحد، وقد ينعرج الخطاب فيُلقّى إلى مخاطبين اثنين مخاطب صريح ومخاطب ضمني، كما يلحق الانعراج فحوى الخطاب نفسه في المقامات التي يكون فيها الفحوى المقصود تبليغه غير الفحوى الحرفي. (المتوكّل، 2012، ص82)، والتمسنا في نصّنا الانعراج في المخاطَب فوجدنا المخاطَب دائماً صريحاً وواحداً، وظهر الخطاب مباشراً وشفّافاً من هذه النّاحية، لكن من جهة الفحوى الخطابي وقع الانعراج.

انعرج خطاب الحديث القدسيّ على مستوى الفحوى الخطابي في الأفعال الخطابيّة ذات حمولة تصرفّات الخضر الغريبة (خرق السّفينة النّاقلة لهم بغير نَوَلٍ، قتل الغلام بغير نفسٍ، بناء جدار القوم مانعيّ الضّيافة بغير أجرٍ)، فأيُّ إنسان عاديّ حين يسمع بهذه التّصرّفات التي سردناها مختصرةً يُنكرها فما بالك إذا شاهدها، وكان الذي يُشاهدها رجل صالحٌ أو نبيٌّ كحال سيّدنا موسى عليه السلام، سيحكُمُ دون شك بأنّ تصرّفات هذا الرجل مُنكرة؛ لأنّه قتل غلاماً بريئاً دون سببٍ بَيّنٍ، ومتناقضةً أيضاً؛ لأنّ الذين أَكْرَموهُ خرقَ سفينتهم والذين منعوهُ بنى لهم الجدارَ مجاناً وهذا هو المعنى الحرفي الذي يقع عليه ذهن المتلقّي سماعاً أو مشاهدةً أو قراءةً.

ويكون المعنى الحقيقي المقصود حينئذ لا يعلمه إلاّ اثنان: الله عزّ وجلّ ثم الخضر المُكلّف بهذه الأفعال؛ والخضر مجرد عبد من عباد الله مأمورٌ من اللهِ بهذه المهام الاستثنائيّة التي ظاهرها ليس كباطنها، فظاهرها منكرٌ لكن باطنها حقٌّ وخيرٌ للنَّاس؛ لذلك أقرّ للنّبيّ موسى منذ البداية أنّه لن يستطيع معه صبراً، وأنّه على علمٍ من علمِ الله علَّمه الله إيّاه لا يعلمه موسى عليه السلام.

وأورد الخضر هذه المعاني الخفيَّة في ما بعد، وفق ما أتى بيانها في سورة الكهف: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً(79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً(80) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً(81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(82)﴾ الكهف79-82، فبيّنت هذه المعاني أن ظاهر الوقائع التي شاهدها النّبيّ موسى عليه السلام وأنكرها لم تطابق أبداً الحقيقة التي أوحاها الله تعالى للخضر وأمر بها.

ويتّضح أنّ النّبي موسى عليه السلام –وهو مَن هو مِن النبوّة والعلم والمقام الرّفيع– لمّا عاتبه ربّه إذْ لم يردّ العلم إلى العليم الحكيم في بداية القصّة، قد وقف على قلّة ومحدوديّة علمه أمام علم غيره وعلم الله في نهايتها؛ يشهد على ذلك حكمه على ظاهر تصرّفات الخضر انطلاقاً من عدم علمه ببواطنها، وكذلك لحاق عَرَض النّسيان به، حيث أقرَّ بذلك: «لا تُؤاخذني بما نسيتُ» كما أقرَّ فتاه من قبلُ: «فإنّي نسيتُ الحوت»، ونُسب نسيان الحوت إليهما معاً في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا...﴾ الكهف61.

وتلقّى موسى عليه السلام في السّياق نفسه من الخضر كلمات رُشدٍ تذكّره بنقص علمه وسعة علم الله في موقفين، الأول: «يَا مُوسى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ»، الثّاني: «يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحر».

ويمكن أن تعدّ مختلف الصّور البلاغيّة (استعارة، كناية...) نوعا من التّعبير المنعرج العادل عن أسلوب المباشرة. (المتوكّل، 2012، ص85)، والصّور البلاغيّة موجودة في هذا الحديث القدسيّ؛ لكن ليس بذلك المستوى من الكثافة والتّنوع الذي لمسناه في الحديثين المفحوصين في الفصلين السّابقين من هذا العمل. فهنا مثلاً لا نجد الاستعارة والمقابلة والطّباق والجناس، بل تركّز الانعراج على التّشبيه والكناية فقط.

برزت كلّ التّشبيهات في النّص مرسلة، توسّلت بأداتي التّشبيه (مثل، كأنّ)، ومجملة لم يُذكر فيها وجه الشّبه، وهي في قول منتج الخطاب: «فصار مثل الطاق»، يُشبّه أثر جري الحوت بالطّاق وهو القوس، وفي قول النّاقل (علي بن عبد الله): «كأنّه يقطف شيئاً»، يشبّه إيماءة أطراف أصابع النّاقل (سفيان بن عيينة) بحركة القطف، وقوله أيضاً: «كأنّه يمسح شيئاً إلى فوق»، يشبّه إشارة يد (سفيان) بحركة المسح إلى أعلى. وهذه التّشبيهات الثّلاثة قرّبت المحسوس من المحسوس.

وقرّبت هذه التّشبيهات غير المحسوس من المحسوس في قول الخضر: «يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحر»، المشبّه هو مقدار ما نقص علم موسى وعلم الخضر من علم الله، والمشبّه به مقدار ما نقص العصفور من ماء البحر. لكن هذا التّشبيه لا يُقبل في معناه الحرفي؛ لأنّ الله مُختصّ في صفاته بالكمال، ولا يدخل النّقصُ عِلمَه أبداً ولا ينبغي ذلك؛ إلاّ إذا حملنا هذا التّركيب التّشبيهي ككلّ محمل الكناية؛ فيُكنّى به على أنّ نسبة علمهما في جنب علم الله متناهية في القلّة حتّى تكاد تنعدم، أو لم يُنقص علمهما من علم

الله كما لم يأخذ هذا العصفور من البحر؛ لأنّ نقطة الماء التي أخذها لا تكاد تَبينُ في عظمة ماء البحر حتّى كأنّه لم يأخذ شيئاً.

ويتناسبُ هذا وينسجم مع خاتمة سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ الكهف109، ومن الكناية أيضا: «فَأَمْسَكَ اللهُ عَن الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ»، المعنى الحرفي أنّ الله تعالى أوقف عن الحوت جريه نحو الماء، لكن المعنى المكنّى به هو أنّ الله ﷻ بقدرته ثَبَّتَ آثار جري الحوت في اليابسة نحو البحر لتكون علامةً يهتدي بها موسى عليه السلام إلى مكان الخضر.

وهكذا، رصدنا ظاهرة الانعراج في هذا الخطاب في المكوّن النّحوي من المستوى العلاقي بالتّأشير إلى تشكيل المزاوجة بين الفحوى الخطابي الحرفي والفحوى الخطابي المقصود تبليغه وإلى وجود الصّور البلاغية من خلال آليتي التّشبيه والكناية.

6-5-2-4- الخطاب المتداخل: يمكن أن يتداخل خطابان اثنان مصدرهما متكلمان اثنان في خطاب واحد، تحصل هذه الظّاهرة في الخطاب المنقول بالخصوص، ولا توجد حاليا مسطرة تكفل رصد هذه الظّاهرة. (المتوكّل، 2012، ص83)، وبالنّسبة لنا فقد تطرّقنا لهذا النّمط من الخطاب في مبحث الخطاب الموسّط المنقول، حيث رصدنا وجود ظاهرة التّداخل والنّقل في الحديث القدسيّ تبعاً لِتَدَخُّلِ سبعة (07) رُوّاة نقلوا الخطاب الأصل وتداخل خطاب بعضهم فيه كما سبق أن بيّنّا.

ونرى في المحصّلة أنّ الحديث القدسيّ الذي عملنا على تنميطه وفق معيار الكيفية تبيّن أنّه خطابٌ في أعلى درجات الكاتميّة، نظراً لتراكم دواعي الكتم فيه الموزعة في أربعة أنماط فرعيّة عائدة إلى مبدإ انعكاس أكثر من عنصر تحتي علاقي أو تمثيلي في بنية صرفيّة -تركيبيّة واحدة. فهو إذن خطابٌ مُلتبسٌ ومَطويٌّ ومُنعرجٌ ومُتداخلٌ، لكن هذه ليست بالسّمة القادحة أو المعيبة فيه بل على العكس تماماً؛ لأنّ المخاطَبَ يُحسُّ بمتعةٍ أثناء تلقّيه الخطاب، ويجد نفسه يُعملُ ذهنه بما يحويه من معارف سابقة وطاقاتٍ مرصودة للتّأويل والتّحليل من أجل كنّه مضامينه ومقاصده، ولا يبرحه حتى يتأثّر بها ويقتنع بها ويُبادر لها، ويُدرك تماماً مدى عظمةِ هذا النّص، عظمَةَ صاحبه رسول الله ﷺ.

واستبطن الحديث القدسيّ الذي بين أيدينا مخصّصات ووظائف ومكوّنات في مستوياته الأربعة (العلاقي، التّمثيلي، الصّرفي-التّركيبي، الفونولوجي)؛ حيث إنّ التّأشير لها في مستوى

البنية التّحتيّة سمح في البداية بكشف التّحقق الصّرفي–التّركيبي لخصائص نمط الخطاب، ثم مَكَّن من تنميط خطاب الحديث القدسيّ تنميطاً وظيفياً بنوياً.

وقد تضمّنت هذه المؤشّرات ثوابت رتّبت الحديث القدسيّ مع البنية الخطابيّة العامّة الواحدة كما اشتملت على متغيّرات ضبطت خصائصه السّطحيّة وحددت قيمه التّحتيّة، وميّزته عن بقية الخطابات من حيث معايير المجال والقصد والآلية والكيفيّة والوساطة؛ حيث إنّ وساطته مثلاً تمّت بالنّقل بواسطة الرّواة والملك جبريل ﷺ، كما تمّت بالتّرجمة الشّارحة النّسقية والأنساقيّة الضّامنة للانتقال داخل النّمط الخطابي نفسه.

7- استراتيجيّة تلقّي الخطاب: نتحدث هنا عن قطبي التّلقي: ثنائيّة (متزامن/ متباعد) وثنائيّة (سليم/ مضطرب).

7-1- التّزامن والتّباعد في التّلقّي: نقصد بالتّلقّي المتزامن التّلقّي الذي يتّم إبّان البثّ نفسه كما يحصل في الحوارات والمحادثات والمهاتفات مثلا، أمّا التّلقّي المتباعد، فالمقصود به التّلقّي الذي يتّم خارج زمن البثّ (الإنتاج) متأخرا عنه لاحقا به وهو ما يحصل حين قراءة خطاب ما أنتج في زمن آخر قد يقترب وقد يبعد (رواية، قصيدة، مؤلف علمي أو فلسفي...). (المتوكّل، 2011 ص83)، يُفيدنا هذا التّقسيم بين التّلقّي المتزامن والتّلقّي المتباعد في الكشف عن علاقة كل منهما بسياق الإنتاج وسياق التّلقّي.

يُجمع في التّلقّي المتزامن بين المنتج للخطاب ومتلقّيه سياق واحد به يتّم الإنتاج والتّلقّي معا فيصبح من الممكن أن يشغل المكوّن السّياقي1 بمفرده دون ما حاجة لتشغيل المكوّن السّياقى2 أمّا في حال التّباعد بين زمني الإنتاج والتّلقّي فإنّنا نكون أمام اختيارات ثلاثة: أوّلها، أن يلتزم المتلقّي التزاما بسياق الإنتاج فلا يشغّل إذّاك إلاّ المكوّن السّياقى1، وثانيهما، أن يلغى المتلقّي سياق الإنتاج ويعتمد سياقه الخاص فلا يشغل إلا المكوّن السّياقي2، وثالثها، أن يراوح بين سياقي الإنتاج والتّلقّي فيتم تشغيل كلا المكوّنين السّياقيين1 و2. (المتوكّل، 2011، ص84)، ويظهر التّلقّي المتزامن للحديث القدسيّ عند الراوي (أبيّ بن كعب) الذي سمع عن رسول الله مباشرةً في المقام واللحظة نفسهما اللتين تكلّم فيها النّبيّ، حيث يجمعهما سياق واحد في الإنتاج والتّلقّي، فيصبح من الوارد تشغيل المكوّن السّياقي1 لوحده.

فيكون هذا التّلقّي أقرب من التّلقّي المتباعد في استكشاف البنية التّحتيّة للخطاب في مستواها التّداولي (في القوّة الإنجازيّة أو في مخصصات طبقات الفعل الخطابي ووظائفه التّداولية أو البلاغيّة أو في السّمات الإحاليّة) أو في مستواها الدّلالي (في المعجم أو في الوظائف الدّلالية أو في مخصّصات المحمول الجهّية والزّمنيّة). أمّا التّلقّي المتباعد فيبرز لدى جميع الرّواة الذين جاؤوا

من بعد (أبيّ بن كعب)، حيث يزيد بُعد التّلقّي في كل مرّة عن زمن الإنتاج الأوّل، وكلّ الرّواة هم أهل ثقة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما صُنِّفَ الحديث بأنه حديث صحيح أصلاً؛ ولهذا فكلٌّ منهم يجتهد في الالتزام بسياق الإنتاج؛ أي بالمكوّن السّياق1 فقط.

هذا في الغالب، وفي حالات أقل يمكن أن يجمع النّاقل بين سياق الإنتاج وسياقه الخاص في التّلقّي فيُشغل المكوّن السّياقي1 والمكوّن السّياقي2، مثلما وجدنا حالة الرّاوي (سعيد بن جبير) حيث شغّل سياقه الخاص الذي يتضمّن فرضيّة الشّك الواردة في هويّة الشّخصيّة (موسى) المذكور في الحديث مستنداً على قول (نوفا البكالي) بأنّ موسى الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل بل موسى آخر. وأيضاً حالة الرّاوي (ابن عباس) الذي فنّد الفرضية المطروحة بعد أن شغّل سياقه الخاص المتضمّن معرفته بكذب (نوفا البكالي)، وصدق الرّاوي (أبي بن كعب) الذي أخذ الحديثَ عن رسول الله مباشرةً.

7-2- السّلامة والاضطراب في التّلقّي: نقول عن عملية تواصل ما إنها سليمة إذا تمّ الانتقال من البنية التّحتيّة1 إلى البنية السّطحيّة1 ثمّ من البنية السّطحيّة1 إلى البنية التّحتيّة1 دون إشكال. (المتوكّل، 2011، ص84)؛ أي إذا لم يعق عمليتي التّوليد والتّحليل أيّ عائق.

ويمكن أن يشوب العوق عملية التّحليل باضطراب آليات المحلّل، وقد يحصل بوجه عام في المخزون المعتمد في التّحليل من المكوّن المفهومي (1 أو 2)، أو من المكوّن السّياقي (1 أو 2). (المتوكّل، 2011، ص85)، وقد تكمن العوائق التي تمسّ عملية إنتاج الخطاب ما يلي:

- عناصر البنية التّحتيّة1 إما في شقّها التّداولي أو الدّلالي؛
- عناصر المكوّن المفهومي للمنتج نفسه كأن تكون المعارف التي يختزنها (لغوية وغير لغوية) غير كافية أو غير مضبوطة الكفايةَ والضّبطَ اللّذَين يكفلان إنتاج خطاب قائم؛
- عناصر المكوّن السّياقي المقاميّة أو المقاليّة، كعدم مطابقة المقام للمقال الذي يُرصد على أساس عدم تجانس بين المعلومات المتوافرة في المكون السّياقي1 وصياغة البنية التّحتيّة1؛
- المولّد نفسه حين يحصل عدم التّلاؤم بين ما يسخره هذا المكوّن من آليات والمعلومات الوافدة عليه إما من البنية التّحتيّة1 أو من المكوّن السّياقي1.

وبالنّسبة للحديث القدسيّ؛ فلا مجال للحديث عن مواطن الخلل لدى منتج الخطاب الرّسول ﷺ؛ لأنّه معصوم من الخطأ وكلامه كلّه حجّة، ولكن قد يصيب الاضطراب عملية التّحليل لدى أي واحدٍ من النّاقلين من بعده، فهم غير معصومين ويعتريهم الخطأ والنّسيان؛ حيث إنّ الخلل في آليات المحلّل وما وقع في المخزون المفهومي2 والمخزون السّياقي2 هو ما أنتج مجموعة

الاضطرابات العرضّيّة في التّلقّي من قبيل الإضافات والحذف والاختزال والشّرح التي سبق الحديث عنها.

ورغم أنّها لا تؤثّر بشكل جوهري في مضمون الخطاب الأصل، إلاّ أن ما يهمنا من ذلك هو أن توظيفنا للجهاز المقترح، باعتباره مجموعة من آليات التّوليد والتّحليل والتّحويل، قد سمح لنا برصد عملية إنتاج خطاب الحديث القدسيّ بوجهه المباشر أو الموسط كما رصد عملية تحليله وفهمه في حالة سلامته أو اضطرابه، وأتاح بالتّالي إمكانية تدارك تلك الاضطرابات العرضيّة حتى يكتسب الخطاب سلامته ويتمّ التّواصل المستهدف بنجاح أكثر.

إن الجهاز الواصف لنموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع جاء في شكل نسق من القوالب المولّدة والمحلّلة والمحوّلة، لنقل البنية التّحتيّة للخطاب المصدر إلى البنية التّحتيّة للخطاب الهدف وخُصِّص فحوى هذه القوالب في الحديث القدسيّ باللغة المنطوقة/المكتوبة مدعّمة بالإشارة.

وقد رصد القدرة على إنتاج الخطاب المباشر وعلى فهمه، ووصف القدرة على عمليّات التّحويل التي يستلزمها إنتاج الخطاب الموسّط، ووصف التّواصل القائم في النّص بمختلف أنساقه اللغوية وغير اللغوية وأنماطه وقنواته؛ وتلاءم مع إنجازات مستعملي الحديث القدسيّ إنْ في إرساله أو تلقّيه أو نقله المحض أو ترجمته النّسقية العينيّة بالشّرح من داخل اللغة نفسها، أو ترجمته الأنساقيّة بالشّرح أيضاً بواسطة الإشارة.

خلاصة: بعد هذه الدّراسة التّطبيقيّة التي وضعت أحد النّصوص الطّوال للأحاديث القدسيّة تحت مشرط ومحكّ جهاز واصف لنموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع المبتكر من طرف (المتوكّل)؛ نقول أنّ هذه التّجربة لا تخلو من صعوبات وحذر؛ لأنّها تعلّقت بخطاب يتضمّن خصوصيّة فائقة فهو خطاب إلهي وخطاب نبوي معاً، تخلّلته عمليّات نقل خاصّة من طرف الملك جبريل عليه السلام، ثم من طرف الصّحابة والتّابعين رضوان الله عليهم.

وتعلّقت في المقابل بنموذج نحوي وظيفي يركز على الخطاب من حيث مسائل دقيقة وحسّاسة، يصفه من خلال معايير متنوعة تستهدف استراتيجيّته التّواصليّة والتّخاطبيّة من حيث النّسق والنّمط، واستراتيجيّة تنميطه البنوي الوظيفي من حيث مقاصده وآلياته ووسائطه خلال بثّه أولاً ثم نقله ثمّ تعديله بالإضافة والاختصار والحذف، ومن حيث نسقه وأنساقه التي يفكك بموجبها إلى أنساق وإلى أجزاء خطابيّة أخرى كالخطاب البديل والخطاب الفوقي، ومن حيث كيفيته في الشّفافيّة والكاتميّة والالتباس.

وفي انتظار رؤية أخرى أوسع لتنميط هذا النوع من الخطابات تُضاف لتدعيم نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع؛ لا ننكر أن هذه الصّعوبات جعلت الباحث يعود ليفيد أكثر من التّراث العربي القديم وخاصّة في علوم التّفسير وعلوم الحديث وشروحه قبل الخوض في التّنظير الوظيفي وإجرائيّته.

وأبانت هذه الدّراسة أن هذا النّموذج النّحوي يضيء جوانبَ لم تُطرق في النّماذج الوظيفية السّابقة. فالمكوّن النّحوي الذي حظي بتفصيل وافر في النّماذج السّابقة وخصوصاً في نموذج نحو الطّبقات القالبي تحاشاه نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع كثيراً ولم يذكره حتى في التّرسيمة التي تصف جهازه الواصف، وعَمَدَ إلى التّركيز على بقية المكوّنات؛ كالمكوّن السّياقي وما يتعلق بالإطار الخارجي لنمط كل من الخطاب والتّخاطب والتّواصل ونسقها، كما ركّز على عملية إنتاج الخطاب وفهمه ونقله وتحويله وتوليده من طرف المتخاطبين، إلاّ أنه لم يخرج عن المبادئ العامّة للنّظرية الوظيفيّة التّداوليّة. مما يجعل الجهد المبذول على مستوى التّنظير أو الإجراء في نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسّع ينضاف فعلاً لتكميل وتوسعة ما ورد في نموذج نحو الخطاب الوظيفي.

الخاتمة

وَضَعَ البحثُ في شقّه النّظري النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة في إطارها الابستيمولوجي ووصف منطلقاتها الكبرى، ثم أَخضَعَ في شقّه التّطبيقي ثلاثة أحاديث قدسيّة طِوال تحت مشرط ثلاثة نماذج نحوية من آخر ما أحدثته النّظريّة المذكورة؛ لاستكناه مكنونات لغة هذا المتن وخطابه من جهة؛ ومساءلة النّظريّة في أبعادها الوصفيّة والتفسيريّة والإجرائيّة من جهة أخرى، وبعد رحلة مع هذه المتغيّرات آن للبحث أن يعرض نتائجه واقتراحاته على النحو الآتي.

أولاً: النّتائج النظريّة

– قَامَتْ النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة بذاتها مستقلّة عن التّيّارات اللّسانيّة الحديثة الكبرى كالبنويّة والتّوليديّة التّحويليّة والتّبليغيّة، إلّا أنّها استفادت منها، فاستدركت النّقص وطوّرت نفسها من داخلها، وأثبتت جدواها وصمودها أمام تكاثر النّظريّات اللّسانيّة من جهة، ونزوعها للزّوال من جهة أخرى، وقدّمت عدّة نماذج أبرزها الثلاثة الأخيرة منها وهي: النّموذج الأول: (نحو الطّبقات القالبي، النموذج الثاني: (نحو الخطاب الوظيفي)، النموذج الثالث: (نحو الخطاب الوظيفي الموسّع).

– تَفَاوَتَتْ نماذج النّظريّة في مدى نضجها العلمي ومدى كفايتها الوصفيّة والتّفسيريّة والإجرائيّة، إلّا أنّها متكاملة وتتدرج في إطار برنامج علمي واسع مطامحه عميقة ومتشعّبة، ومع ذلك نرى بتميّز النموذج الأول بوصفه أحسنها تمثيلاً لخصائص اللّغة العربيّة وأغناها استثماراً للموروث العربي والذّهنيّة العربيّة الحديثة.

– لَحِقَتْ نماذج النّظريّة الكثير من التّعديلات؛ بسبب سعيها لتحقيق الكفايات اللّغوية والإجرائيّة، فإذا كان النّموذج الأول يرصد الطّاقات اللّغوية في القالب النّحوي والطّاقات غير اللّغويّة في أربعة قوالب (المعرفي والمنطقي والاجتماعي والإدراكي)؛ فقد صيغ النّموذجان الثّاني والثّالث على أربعة مكوّنات أركان تشتغل في علاقة قالبية يتّخذ خَرَجُ بعضها دَخَلًا لبعض، هي: المكوّن النّحوي (المركزي) الذي يرصد الطّاقات اللّغوية للخطاب، ويشتغل مع ثلاثة مكوّنات خارجيّة مواكبة له ترصد الطّاقات غير اللّغويّة، وهي: المكوّن الإنطاقي، والمكوّن المفهومي الذي يختزل القالبين المعرفي والمنطقي، والمكوّن السّياقي الذي يجمع القالبين الاجتماعي والإدراكي.

– تَفَوَّقَ النّموذج الأوّل من حيث مراسيّته على النّموذج الثّاني بسبب وضوحه وولوجه الدّراسات النّصيّة مبكّراً، لذلك **نَنْصَحُ به** في المقاربات الوظيفية العربية، حيث يجد الدّارس صعوبة في تطبيق النّموذج الثّاني لغموضه وعموم أدوات القياس في جهازه الواصف، وقد يُعينُه على

استيعابها تطبيقه لإوّاليات التّحليل الموضوعة في النّموذج الأوّل، مع ضرورة مراعاته طبيعةَ المخصّصات والسّمات التي تمّ تغيير مواضعها بين طبقات النّموذجين ومستوياتهما، وأبرزها: مخصّصات النّداء، النّفي، التّعجب، التّقوية، الإلحاح في المحاورة، وسمات السّماع والتّجريب والاستدلال، وأصناف الوقائع الحركيّة وغير الحركيّة.

– عَدَّلَ النموذج الثّاني كثيراً في النّموذج الأوّل، حيث اعتبر الوحدة الدّنيا للخطاب هي الفعل الخطابي بعدما كان الجملة، واختزل المستوى الإبلاغي وأدرج طبقاته في المستوى العلاقي للتّقليل من كلفة آليّات التّمثيل، وجعل طبقات المستوى التّداولي هي: المحادثة، النّقلة، الفعل الخطابي، الفحوى الخطابي بعدما كانت: الاسترعاء، الإنجاز، الوجه، وتناول المستوى الدّلالي في طبقتين: القضيّة والواقعة بعدما كان في ثلاث طبقات: التّأطيريّة، التّسويريّة، الوصفيّة. ثم وزّع السّمات الوجهيّة بين طبقة القضيّة في المستوى الدّلالي، وطبقة الفحوى في طبقة الفعل الخطابي من المستوى التّداولي، بعدما كان يمثل لها جميعاً في الطّبقة الوجهيّة من المستوى التّداولي.

– أَغْفَلَ النّموذج الثّاني التّأشير للسّمات المكانيّة في المستوى الدّلالي، رغم ورودها في النّموذج الأوّل في الطّبقة التّأطيريّة؛ ونحن **نُنَبّه** إلى عدم تجاوز قيمة السّمات المكانيّة في العمليّة التّواصليّة للخطاب؛ خصوصاً وأنّها تتضافر مع السّمات الزّمنيّة لتحقيق المركز الإشاري في النّص، وتكفل تحديد الإطار المكاني الذي تتحقّق فيه الوقائع والذّوات المحال إليها.

– تَحَاشَى النّموذجُ الثّالثُ المكوّنَ النّحويَّ كثيراً، ولم ينوّه له حتّى في ترسيمة جهازه الواصف، رغم أنّه حظي بتفصيل وافر في النّموذجين الأوّل والثّاني، وفي المقابل أنارَ جوانبَ لم تُدرج في النّموذجين السّابقين؛ حيث تطرّق إلى المكوّن السّياقي وما يتعلّق بنمط الخطاب والتّخاطب والتّواصل ونسقها، واستطلع عمليّات إنتاج الخطاب وفهمه ونقله وتحليله وتحويله وتوليده من طرف المتخاطبين؛ إلاّ أنّه لم يخرج عن المبادئ العامّة للنّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة، مما يجعله حقيقةً نموذجاً موسّعاً يُضاف لتكميل النّموذج الثّاني.

– يَجِدُ الدّارس نفسه حين يُقارب الخطاب بأيّ نموذج من نماذج النّظريّة يكرّر الكثير من العناصر بين المستويات والطّبقات، منها المحمولات الفعليّة كإحدى إوّاليّات التّحليل المعادة في كل مرّة، وقد حاول (المتوكل) إيجاد وصفة لتبرير ذلك بخلق مَبدإٍ سمّاه ظاهرة الضّم، وهي أن تشترك سمات تحتيّة عديدة في الصّرفة نفسها، إلّا أّن هذا المبدأ غير كافٍ تماما لتغطية تلك العيوب وينبغي إعادة مراجعة تلك الإوّاليّات بكيفيّة تسمح بمساءلة الخطابات دون تكرار وإعادة ذكر.

– تَأَثَّرَتْ هذه النّظريّة ببعض النّظريّات الوصفيّة التي غالت في الصيّاغة والتّحليل الرّياضيين للّغة محدثةً حالةً من الغموض. و(المتوكل) –كسابقيه من الوظيفيين– يلجأ إلى وضع

ترسيمات تجريدية تشبه المعادلات الرّياضية لتمثيل تحليلات الجمل، ويعمد إلى ترميز مكوّناتها من علاقات ووظائف ومخصّصات بشكلٍ يزيد من نفور القارئ ويُصَعِّبُ فهمه لها، وكثيرٌ منها ليس من ورائه طائل، إذْ يمكن فهم قصدها بالشّرح دون الرّجوع إلى ذلك الزّخم من الرّموز والاختصارات التي هي مجال العلوم الدّقيقة، ومفاهيم الوظيفيّة لا ترقى إلى دقّة هذه العلوم وإنْ أخذت منها، وإنْ كان لا بدّ؛ فليُفتح المجال متى كانت العلاقة واضحة بين هذه العلوم كحوسبة اللّغة وإحصاء ظواهرها.

– اِسْتَنْبَطَنَتْ هذه النظريّة كمّاً هائلاً من المصطلحات والمفاهيم الجديدة، وتعدّدت مصادرها ففيها ما كان من اصطلاح منظّريها، وفيها ما أُقتُرِض من التّراث العربي، أو من النّظريّات الوظيفيّة السّابقة، أو من العلوم الأخرى؛ كالمنطق والرّياضيّات وفلسفة اللّغة العادية وعلم النفس المعرفي، ولا يمكن للدّارس أن يلمّ بها في وقت واحد أو في كتاب واحد، بل يتطلب منه الأمر العودة إلى الكثير مما أُلِّف فيها عبر عقود من الزّمن، وتعامله معها يشعره بشيء من الغربة تجاهها، بعدَ أن أَلِفَ المصطلحات والمفاهيم التّراثية؛ من نحو وصرف وبلاغة ردحا من الزّمن ممّا لا يسمح له استبدالها بسهولة. فضلاً على وجود حالات من التّداخل المصطلحي، وعلى سبيل المثال دون الحصر؛ مصطلح البنية الذي أُطلق في كتابات (المتوكل) بصورة تعكس تداخله مع مصطلح المستوى (بنية تركيبيّة، مستوى تركيبي)، وكذلك إطلاق مصطلح المكوّن على المكوّنات الأساس للنّموذج، مثل المكوّن النّحوي، ثم يُطلق أيضا على ما بداخل المكوّن النّحوي كبنيته السطحيّة فيقال بنية مكونيّة أو المكوّن البنوي، كما يطلق مكوّن تداولي ومكوّن دلالي داخل البنية التحتيّة التي تسمّى أيضا بنية منطقية ووظيفيّة...الخ، والأَولى ضبطها وإطلاقها على وجه منطقي كعلاقة احتواء الكلّ للجزء بترتيب النّموذج ثم المكوّن ثم البنية ثم المستوى ثم الطّبقة، وغير ذلك من الأوجه والعلاقات، لذا **نَقْتَرِحُ** إعادة النظر في الجانب المصطلحي للنظرية وتمحيص طريقة عرض مفاهيمها على النحو الذي ذكرنا.

ثانياً: النتائج التطبيقيّة

– أَثْبَتَتْ هذه النّظريّة قدرتها على إحراز الكفاية الوصفيّة والتّفسيريّة والإجرائيّة على الخطاب الدّيني ممثّلا في الأحاديث القدسيّة، وتبدّى أن تطبيق أنظومة مساطرها مناسب جدًّا لتحليل هذا النوع من الخطابات، حيث نجحت انطباقيّة نماذجها على هذا المتن؛ لتوفّرها على آليّات وإوّاليّات كشَفت الأسرار التّداوليّة ورصَدت السّمات الوظيفيّة الموجودة فيه، واستجابت أجهزتها الصّورية لوصف قدرة مستعمل اللّغة على إنتاج هذا الخطاب وتأويله وفهمه وتحليله وتحويله وتوليده وتفسير مختلف الظّواهر اللّغوية والخطابيّة المرتبطة به، وأتاحت من التحليل ما أتاحته الفروع

الحديثة لعلوم اللّغة، كما لامست ما جادت به فروعها القديمة كالنّحو والصّرف والبلاغة، مما يؤكّد امتداد المنحى اللّساني الوظيفي العربي في الفكر اللّساني العربي التّراثي.

– جَاءَ المركز الإشاري في الأحاديث الثّلاثة معقّدا وليس بسيطاً؛ لأنّ الخطاب تمّ بوَسَاطَة بين المتكلّم والمخاطب، وارتفعت فيها آليّات الاستلزام الحواري بسبب وجود القوى الإنجازية المستلزمة وتنوّع الأسلوب (تقريري، إنشائي، تفاعلي). وأثبت النّموذج الأوّل أنّ الحركات الإشارية الصّادرة عن منتج الخطاب أو ناقله تكون لاسترعاء انتباه المخاطب، في حين أثبت النموذج الثّالث أنّها عبارة عن خطاب آخر (فوقي) تقوم بدور التّرجمة الشّارحة للخطاب الأصلي.

– لَاءَمَتْ المقاطع الحجاجيّة حالة الرّسول ﷺ وهو يبلّغ النّاس بالحجّة ترغيبا وترهيبا فزخرت بأفعال إبعاد لتفريغ الذّهن من الاقتناعات القديمة، وأفعال دفع لملئه بالإثباتات المقصودة فجاءت في دعاوى ابتدائيّة وأخرى إبطاليّة، ولإنجاحها أُستعين بوسائل حجاجيّة جعلت المخاطب يذعن لها، كوسيلة الإيضاح بعد الإبهام ووسيلة الحوار الذي غُذِّي بآليّات المراجعة والإلحاح ووسيلة القياس بالصّور الأقرب إلى حواسّ النّاس ومداركهم، وبآليّات السّمات الوجهيّة ممثّلة في التّجريب والاستدلال والتّقوية.

– وُظِّفَتْ التّقوية بِعَدِّها استراتيجيّة حجاجيّة في الأحاديث الثّلاثة لتأكيد فحاوى قضاياها وإقناع المخاطَب بالدّفوع الملقاة له، وتدرّجت سلّميتها في الخطاب بحسب ردّ فعل المخاطب تجاه الدّفوع؛ حيث انخفضت درجتها عند شكّه فيها أو تردّده في قبولها، وارتفعت عند إنكاره لها أو تماديه في إنكاره، وقد استحوذت التّقوية على الحديث الأول؛ لأنّه كان حجاجياً بالدّرجة الأولى مقارنة مع الحديثين الثّاني والثّالث اللّذَين غلب عليهما السّرد والوصف أكثر من الحجاج، وانصبّت على الدّفوع الإبطالية التي تضمّنت القوّة الإنجازيّة (إخبار طلبي أو إنكاري) والوظيفتين التّداوليّتين (بؤرة إبطال، بؤرة تعويض).

– تَجَلَّى في الأحاديث القدسيّة بقوّة الحجاج الاستدلالي الذي استند على تناصّها مع القرآن الكريم، واستحضار بؤر من آياته وإعادة توظيفها في الفحوى. وقد كانت هذه الحجج المرجعيّة مُدرجة في النموذج الأول بوصفها سمات وجهيّة علميّة، في حين انعدم الحجاج السّماعي الذي يستقيه المتكلّم من آراء غيره؛ لأنّ كلام الرّسول ﷺ وحي يوحى ليس في حاجة إلى آراء غيره لصدق قضيّته، كما لم نعثر على الحجاج بالتّجريب الذي يرتبط بتجربته الشّخصية إلّا في الحديث الأوّل.

– اِنْعَكَسَتْ البنية التّحتيّة للأحاديث الثّلاثة صورياً في البنية السّطحية التي أوَت مستويين: مستوى صرفي–تركيبي مشَكّل بمجموعة إوّاليّات (صرفات حرّة كالأدوات أو مربوطة كاللّواصق

التّصريفات، التّراكيب)، ومستوى فونولوجي يختزن وسائل مقطعيّة وتطريزيّة، والتّنغيم (متصاعد متنازل، مركّب) والنّبر (قويّ، ضعيف). ورغم إدراج (المتوكل) المكوّن الإنطاقي والمستوى الفونولوجي؛ إلّا أنّ توصيفه لهما بقي سطحياً لا يتناسب مع حجم فروع علم الأصوات وعمق فروعه، ولم يظهر أثر واضح لتوظيف هذا العلم في المنحى الوظيفي الذي يتبنى ريادته؛ لذا **نَقْتَرِحُ** أن تُعمّق النّظريّة بمباحث أخرى تمسّ هذا الجانب تنظيراً وتطبيقاً.

– اِسْتَوْجَبَتْ المقاصد الإقناعيّة والتّربويّة للأحاديث الثّلاثة حضور آليّة الحجاج للدّفاع عن دعاوى معيّنة أو إبطالها، وزاد الحديث الثّالث عنها بالقصد التّفسيري لآيات من سورة الكهف، وهو سياق إنتاجه العام، وتجمع آليّاتها الخطابيّة بين السّرد والوصف والحجاج بدرجات متفاوتة، وعلى العموم أفرز تلاحم الآليّات الثّلاث صوراً عرضت لوقائع متحرّكة وممتعة ومؤثّرة في المخاطب تعلّقت بالحقائق الغيبيّة المرتبطة بيوم القيامة.

– وَجَّهَ المجال الدّيني الأحاديث الثّلاثة نحو بناء التّوحيد والعقيدة الإيمانيّة للمتلقي من خلال سرد وقائع من علم الغيب آتية لا محالة ووصفها، فتخلّلها قوى الإخبار والاستفهام والأمر دون النّهي؛ لأنّ الغرض لم يتوجّه إلى بيان الأحكام والنّواهي الشّرعية. وأشار المجال إلى استخدام الحجاج، وتصنيف الأحاديث من حيث الوجه ضمن فئة الخطابات الذّاتيّة وليست الموضوعيّة بسبب ظهور الأنا المتكلّمة لمُصدِره في الخطاب؛ ولأنّ الفحوى يحمل وجهات نظر المتكلّم وينقل مواقفه وانفعالاته، مما أدّى إلى اتّساع مساحة القيم الاسترعائيّة والإنجازيّة والوجهيّة.

– بَيَّنَ معيارُ الكيفيّة أنّ الحديث القدسي خطابٌ في أعلى درجات الكاتميّة الموزّعة في أربعة أنماط فرعيّة تعود إلى مبدإ انعكاس أكثر من عنصر تحتي علاقي أو تمثيلي في بنية صرفية–تركيبية واحدة، فهو (ملتبس)؛ يحتمل تغليب إحدى قراءاته عن الأخرى، و(مطويٌّ)؛ لأنّ آليّتيه الخطابيّتين السّردية والحجاجية خالفتا شرط التّمام، و(منعرج)؛ لمزاوجته بين الفحوى الخطابي الحرفي والفحوى الخطابي المقصود تبليغه، و(متداخل)؛ لأنّ خطاب الرّواة تداخل مع خطاب منتجه. لكن هذه ليست بالسّمة القادحة أو المعيبة فيه، بل بالعكس فالمتلقّي يُحسُّ بمتعةٍ وجماليّة أثناء تلقّيه له، حيث تُحَفَّزُ معارفه الخلفيّة وتُعملُ طاقاته الذّهنيّة المرصودة للتأويل والتّحليل من أجل الوصول إلى مقاصده الخطابيّة، ولا يبرحه حتى يتأثّر ويقتنع بها ويُبادر لها.

– **نَقْتَرِحُ** معياراً جديداً لتنميط الخطابات نسمّيه معيار الوسائط، يكون بديلاً لمعيار القناة الذي اقترحه النّموذج الثّالث للنّظرية ليُضاف إلى بقيّة المعايير (الآلية، القصد، القناة، الكيفية، المجال، الوجه)، حيث يكفل هذا المعيار تنميط الخطاب من حيث الوسائط الفاعلة بين الذّوات المشاركة في التّخاطب من جهة، وأجدر بتوسيع المعيار ليشمل القناة والوسائط الموظّفة في الخطاب معاً من جهة أخرى. حيث تمكنّا بهذا المعيار من تنميط الحديث الثّالث عبر مرحلتين: الأولى؛ خطاب الله ﷻ للرّسول ﷺ: هو خطاب مباشرٌ (الرّؤيا الصّادقة، التّكليم من وراء حجاب) أو موسّطٌ منقول بواسطة جبريل عليه السلام، وقد تكون بنسق لغوي أو بأنساق تواصليّة غير لغويّة لا تكون إلاّ للأنبياء. الثّانية؛ خطاب الرسول ﷺ للنّاس: مباشرٌ ذو نسق أحادي إلى المتلقّي المتزامن، وموسطٌ ذو نسق مركّب إلى المتلقّي المتباعد في شكلٍ منقول بواسطة سبعة رواة ثقات. وجاء الخطاب النّاقل مستقلاً بنويا عن الخطاب الأصل، لكنّه لم يمسّ بفحواه العام وقصده الإنجازي، ولم يُفض إلى صهره تماماً فيه، وابتعد عنه قليلاً بسبب تدخل النّاقلين بعمليات إدماج تصرّفٍ (إضافة، اختصار، حذف)، وهي ناتجة عن اضطرابات عرضيّة أصابت النّاقلين لأنّهم غير معصومين، وتُفسّر بوقوع خلل في آليات المحلّل وفي المخزونين المفهومي والسّياقي، لكنّها تُحقّق التّواصل المستهدف بنجاح، وتُتيح استدراكها حتى يكتسب الخطاب سلامته. كما أنّه خطاب موسّط مترجم؛ تَحقّقَت فيه ترجمة أنساقيّة تمّت بين نسق اللّغة ونسق الإشارة الحركيّة عند الرّواة، لتحقيق وظيفة بلاغيّة هي التّبيين والتّوضيح، كما تحقّقت فيه ترجمة نسقيّة عينيّة حين نقلته إلى نص ثان من المستوى اللّغوي نفسه وداخل اللّغة نفسها، وأفضت إلى خطاب بديل مقتضب حيت تضمَّنَ عملية تلخيص، وخطاب بديل مرادف لمّا قام على عملية شرح، وخطاب فوقي إذْ شكّل ممارسة التّفسير.

– **نَقْتَرِحُ** إعادة تقسيم التّخاطب إلى ثلاثة أقسام: تخاطب غير مفضٍ إلى تواصل وتخاطب مفضٍ إلى تواصل أنساقي فقط وتخاطب مفضٍ إلى تواصل أنساقي وتواصل سلوكي معاً؛ حيث إنّ الأخير يرتبط بالمقام والوضعيّات التخاطبيّة ويشترط التّلقّي المتزامن، والتّجاوب السّلوكي مع مقتضيات التّخاطب لطرفي الخطاب. حيث رصدنا في الحديث الثّالث تحقّق التّواصل اللّغوي بين المحورين الرئيسيّين (موسى والخضر عليهما السلام) دون التّواصل السّلوكي (النسيان وخرق بنود الاتّفاق ثم انقطاع المرافقة بينهما).

– **نَقْتَرِحُ** نوعاً آخر من الالتباس لم يُشَر إليه في أعمال (المتوكل) التي حصَرت الالتباس في نوعين فقط هما: العلاقي والدلالي، وهما يحدثان في المكون النحوي عند عمليّة إنتاج الخطاب حيث نرى بوجود الالتباس السّماعي الذي نعتقد أنّه يخرج عن عمليّة الإنتاج ويقع عند تلقّي الخطاب أو نقله، ويتمّ رصده في المكوّن الإنطاقي وليس المكوّن النّحوي، وقد وقع في الحديث الثّالث عند تلقّيه من أحد الرّواة الذي التبس عليه ما سمعه أثناء نقله.

– أَثْبَتَ التّنميط الموسع للخطاب في النّموذج الثّالث للنّظرية من هذا الفصل أنّ الخطاب غدَا يستوعب أنماطاً عديدة وليس من الجائز حصره في المكتوب والمنطوق؛ مما يُنبّه إلى أنّ تعريف (المتوكّل) للخطاب بأنه: «كل ملفوظ/ مكتوب يشكّل في حد ذاته وحدة تواصليّة تامّة»؛ لم يعد كافياً للوصف؛ لذا **نَقْتَرِحُ** تعديله كالآتي: «الخطاب هو وحدة تواصليّة تامّة تتمّ عبر قناة واحدة على الأقل من مجموعة القنوات التّواصليّة»، حيث تشمل هذه القنوات أربعة أنساق هي: نسق اللغة (مكتوبة/ منطوقة)، نسق الإشارة الإرادية كحركات أعضاء الجسم خالصة أو متوسّلة أدوات ماديّة معيّنة، وغير الإراديّة كاحمرار الوجه، نسق الصّورة (مرسومة باليد، مطبوعة، رقمية، ثابتة، متحركة،...)، نسق الصّوت (فني كالموسيقى، عادي كالأصوات الطبيعيّة). وعبارة (على الأقل) تُبيّن أنه يمكن تضافر أكثر من قناة تواصليّة كاللغة المنطوقة مع الإشارة الإراديّة مثلاً.

– وفي الأخير؛ ليس هذا البحث سوى جهد المُقِلّ والعبد الضّعيف، وهو في نهايته يبقى يتطلّع إلى أعمال أخرى تسدّ ثغراته وتُفيد من اقتراحاته، وتُثري قضايا النّظريّة وتُمحّص كفايتها الإجرائية، فإن أصبنا فهي رميةٌ من الله وتوفيق منه، وإن أخطأنا فحسبنا أجر الاجتهاد، والحمدُ لله ربّ العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع المطبوعة باللغة العربية

* القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

- الآمدي، سيف الدين. **الإحكام في أصول الأحكام**. بيروت: دار الكتب العلمية. دون تاريخ.
- ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري. 1974. **جامع الأصول في أحاديث الرسول**. تحقيق (عبد القادر الأرناؤوط). دمشق: مكتبة دار البيان.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل. (1996). **الأصول في النحو**. ط3. تحقيق (عبد الحسين الفتيلي). بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (2002). **الخصائص**. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء الدمشقي. **تفسير القرآن العظيم**. مصر: دار إحياء الكتب العربية. دون تاريخ.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**. تحقيق (الألباني محمد ناصر الدين). الرياض: مكتبة المعارف. دون تاريخ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**. تحقيق (عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي). القاهرة: دار المعارف. دون تاريخ.
- ابن هشام الأنصاري، عبد الله. (1966). **أوضح المسالك**. ط6. تحقيق (محمد محيى الدين عبد الحميد). بيروت: دار إحياء التراث العربى.
- ابن هشام الأنصاري، عبد الله. (2005). **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**. تحقيق (محمد محي الدين عبد الحميد) بيروت: المكتبة العصرية.
- أبو الدهب، أشرف طه. (2002). **المعجم الإسلامي: الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية**. القاهرة: دار الشروق.
- أديب صالح، محمد. 1968. **لمحات في أصول الحديث والبلاغة النبوية**. دمشق: المكتب الإسلامي.
- أرمينكو، فرانسواز. (1986). **المقاربة التداولية**. ترجمة (علوش سعيد). الرباط: مركز الإنماء القومي.

- إسماعيلي علوي، حافيظ. (2004). *قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية*. **مجلة عالم الفكر. المجلد 33. العدد2.**

- إسماعيلي علوي، حافيظ. (2009). **اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقِي وإشكالاته**. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

- إسماعيلي علوي، حافيظ. (محرر). (2011). **التداوليات: علم استعمال اللغة**. الأردن: عالم الكتب الحديث.

- الأشقر، عمر سليمان. عبد الله. (1989). **الرسل والرسالات**. ط4. في سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة رقم4. الكويت: دار النفائس.

- الألباني، ناصر الدين. (2010). **صحيح الأحاديث القدسية**. جمع وتعليق (رمضان أحمد). القاهرة: دار ابن حزم.

- الأوراغي، محمد. (1990). **اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم**. الرباط: دار الكلام.

- الأوراغي، محمد. (2010). **نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة**. الرباط: دار الأمان.

- البخاري، محمد أبو عبد الله بن إسماعيل. (1987). **صحيح البخاري**. تحقيق (البغا مصطفى ديب). بيروت: دار ابن كثير.

- البغوي، الحسين بن مسعود. 1983. **شرح السنة**. ط2. تحقيق (الشاويش زهير، الأرناؤوط شعيب). بيروت: المكتب الإسلامي.

- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن. (1984). **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

- البوشيخي، عز الدين. (1998/1997). **قدرة المتكلم التواصلية وإشكال بناء الأنحاء**. أطروحة دكتوراه غير منشورة. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة مولاي إسماعيل. مكناس. المغرب.

- البوشيخي، عزالدين. (2005)، **إسهامات الأستاذ أحمد المتوكل في البحث اللساني العربي المعاصر**، النحو الوظيفي واللغة العربية ندوة تكريمية للأستاذ أحمد المتوكل، المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عين الشق بالدار البيضاء.

- البوشيخي، عزالدين. (2009). **نموذج مستعمل اللغة الطبيعية ونحو الخطاب الوظيفي**. بحث مقدم في ندوة المنحى الوظيفي في اللسانيات العربية وآفاقه. سلسلة الندوات 20. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة مولاي إسماعيل: مكناس. المغرب.

- البوشيخي، عزالدين. (2012). **التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية**. لبنان: ناشرون.

- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة. (1996). **سنن الترمذي**. تحقيق (الألباني محمد ناصر الدين). الرياض: مكتبة المعارف.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1998). **البيان والتبيين**. ط7. تحقيق (عبد السلام محمد هارون). القاهرة: مكتبة الخانجي.

- الجرجاني، ركن الدين محمد علي. **الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة**. منشورات محمد علي بيضون: دار الكتب العلمية. دون تاريخ.

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. (1991). **أسرار البلاغة في علم البيان**. تحقيق (محمود محمد شاكر) جدة: دار المدني.

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. (2004). **دلائل الإعجاز**. ط5. قراءة وتعليق (محمود محمد شاكر). القاهرة: مكتبة الخانجي.

- الجرجاني، علي بن محمد الشريف. (2007). **التعريفات**. تحقيق (تونسي نصر الدين). القاهرة: شركة القدس.

- الحباشة، صابر. (2007). **التداولية من أوستن إلى قوفمان**. سورية: دار الحوار.

- الحموز، عبد الفتاح. (2012). **نحو اللغة العربية الوظيفي**. الأردن. عمان: دار جرير.

- الخطيب، محمد. **أصول الحديث وعلومه**. ط4. بيروت: دار الفكر. بدون تاريخ.

- الراجحي، شرف الدين علي. 2008. **من المسائل النحوية في مسند الإمام أحمد**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- الرازي، محمد فخر الدين بن ضياء الدين. (1981). **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. بيروت: دار الفكر.

- الرافعي، مصطفى صادق. (1973). **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ط9، بيروت، دار الكتاب العربي.

- الزركشي، بدر الدين بن محمد بن عبد الله. (1988). **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق (محمد أبو الفضل ابراهيم). بيروت: دار الجيل.

- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. (1998). **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. تحقيق (عادل أحمد عبد الموجود، ومعوّض علي محمد). الرياض: مكتبة العبيكان.

- الزهري، نعيمة. (1997). **الأمر والنهي في اللغة العربية**. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.

- الزهري، نعيمة. (2005). **ورقة تعريف بالأستاذ الدكتور أحمد المتوكل**. مقدمة في ندوة تكريمية للدكتور أحمد المتوكل: النحو الوظيفي واللغة العربية. كلية الآداب بجامعة عين الشق. الدار البيضاء: مطبعة إيناكيب.

- الزهري، نعيمة. (2011). الإنشاء وأساليبه بين ألفية ابن مالك والنحو الوظيفي. بحث في: إسماعيلي علوي، حافيظ. (محرر). **التداوليات علم استعمال اللغة**. الأردن. إربد: عالم الكتب الحديث.

- الزهري، نعيمة. (2014أ). **تحليل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي**. الرباط: دار الأمان.

- الزهري، نعيمة. (2014ب). **التعجب في اللغة العربية: من الفكر اللغوي العربي القديم إلى النحو الوظيفي**. الرباط: دار الأمان.

- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد. (2000). **مفتاح العلوم**. تحقيق (عبد الحميد هنداوي). لبنان: دار الكتب العلمية.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق (مركز الدراسات القرآنية). السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. دون تاريخ.

- الشاذلي، أبو السعود حسنين. (1989). **الأدوات النحوية وتعدد معانيها الوظيفية**. مصر. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- الشاوش، محمد. (2001). **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص**. تونس. جامعة منوبة: المؤسسة العربية للتوزيع.

- الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (2004). **استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية**. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

- الضوّي، صفاء أحمد العدوي. (1999). **إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجة**. الإمارات العربية المتحدة: مكتبة دار اليقين.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (2003). **جامع البيان في تأويل القرآن**. تحقيق (التركي عبد الله بن عبد المحسن). القاهرة: عالم الكتب.

- العدوي، مصطفى. (1989). **الصحيح المسند من الأحاديث القدسية**. مصر: دار الصحابة للتراث.

- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. تحقيق (ابن باز عبد العزيز). بيروت: دار المعرفة. بدون تاريخ.

- العمري، محمد. (2002). **في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً**. ط2. المغرب. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

- الفاسي الفهري، عبد القادر. (1985). **اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية**. المغرب. الدار البيضاء: دار توبقال.

- الفاكهي، عبد الله بن أحمد. (1993). **شرح كتاب الحدود في النحو**. ط2. تحقيق (الدميري المتولي رمضان). القاهرة: مكتبة وهبة.

- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. (1978). **القاموس المحيط**. ط3. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- القاسمي، جمال الدين. (2004). **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**. تحقيق (مصطفى شيخ مصطفى). بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون.

- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي. (1998). **إكمال المعلم بفوائد مسلم**. تحقيق (يحي إسماعيل). مصر. المنصورة: دار الوفاء.

- القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر. (1996). **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**. تحقيق (ديب متو محي الدين؛ وبديوي يوسف علي؛ والسيد أحمد محمد؛ وبزال محمود إبراهيم). دمشق: دار الكلم الطيب.

- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. (1980). **الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع**. ط5، شرح وتعليق (خفاجي عبد المنعم). بيروت: دار الكتب العلمية.

- القطان، مناع. (2000). **مباحث في علوم القرآن**. ط11، القاهرة: مكتبة وهبة.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. (1999). **المقتضب**. تحقيق (حسن حمد). بيروت: دار الكتب العلمية.

- المتوكل، أحمد. (1977). *قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني*. **مجلة كلية الآداب. عدد1**. الرباط.

- المتوكل، أحمد. (1981). **اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام الحواري**. في سلسلة البحث اللساني والسيميائي. الرباط: منشورات كلية الآداب.

- المتوكل، أحمد. (1985). **الوظائف التداولية في اللغة العربية**. الدار البيضاء: دار الثقافة.

- المتوكل، أحمد. (1986). **دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي**. الدار البيضاء: دار الثقافة.

- المتوكل، أحمد. (1987أ). **من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية**. الدار البيضاء: دار الثقافة.

- المتوكل، أحمد. (1987ب). **من قضايا الرابط في اللغة العربية**. الرباط: منشورات عكاظ.

- المتوكل، أحمد. (1988أ). **قضايا معجمية: المحمولات الفعلية المشتقة في اللغة العربية**. الرباط: اتحاد الناشرين المغاربة.

- المتوكل، أحمد. (1988ب). **الجملة المركبة في اللغة العربية**. الرباط: منشورات عكاظ.

- المتوكل، أحمد. (1989). **اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري**. الرباط: منشورات عكاظ.

- المتوكل، أحمد. (1993أ). **الوظيفية والبنية: مقاربة وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية**. الرباط: المنشورات عكاظ.

- المتوكل، أحمد. (1993ب). **آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي**. الرباط: منشورات كلية الآداب.

- المتوكل، أحمد. (1995). **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: البنية التحتية أو التمثيل الدلالي-التداولي**. الرباط: دار الأمان.

- المتوكل، أحمد. (1996). **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي-التركيبي**. الرباط: دار الأمان.

- المتوكل، أحمد. (2001). **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص**. الرباط: دار الأمان.

- المتوكل، أحمد. (2003). **الوظيفة بين الكلية والنمطية**. الرباط: دار الأمان.

- المتوكل، أحمد. (2005أ). **التركيبات الوظيفية: قضايا ومقاربات**. الرباط: دار الأمان.

- المتوكل، أحمد. (2005ب). **مفهوم الكفاية وتعليم اللغات**. بحث في سلسلة الندوات 15. المغرب. مكناس: منشورات كلية الآداب.

- المتوكل، أحمد. (2006). **المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي: الأصول والامتداد**. الرباط: دار الأمان.
- المتوكل، أحمد. (2008). **مسائل النحو العربي في قضايا النحو الوظيفي**. بيروت: دار الكتاب الجديد.
- المتوكل، أحمد. (2010). **الخطاب وخصائص اللغة العربية**. الرباط: دار الأمان.
- المتوكل، أحمد. (2011). **الخطاب الموسّط: نحو مقاربة وظيفة موحّدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات**. الرباط: دار الأمان.
- المتوكل، أحمد. (2012). **اللسانيات الوظيفية المقارنة: دراسة في التنميط والتطور**. الرباط: دار الأمان.
- المتوكل، أحمد. (2013). **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية**. الرباط: دار الأمان.
- المتوكل، أحمد. (2016). **المنهج الوظيفي في البحث اللساني**. الرباط: دار الأمان.
- المدني، محمد. **الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية**. تصحيح وتعليق (النوادي محمود أمين). القاهرة: دار الريان للتراث العربي. دون تاريخ.
- المرادي، أبو محمد الحسن بن قاسم. (1992). **الجنى الداني في حروف المعاني**. تحقيق (قباوة فخر الدين؛ وفاضل محمد نديم). بيروت: دار الكتب العلمية.
- المسدي، عبد السلام. (1984). **قاموس اللسانيات**. تونس: الدار العربية للكتاب.
- المسدي، عبد السلام. (1986). **اللسانيات وأسسها المعرفية**. تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع.
- المصري، ابن أبي الإصبع. (1963). **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**. ط2. تحقيق (حنفي محمد شرف). القاهرة: مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف. (1972). **فيض القدير بشرح الجامع الصغير**. ط2. بيروت: دار المعرفة.
- المهيري، عبد القادر؛ والشاوش، محمد؛ والشايب، محمد؛ وكمون، عبد الحميد؛ والشريف، محمد صلاح الدين. (1990). **أهم المدارس اللسانية**. تونس: منشورات المعهد القومي لعلوم التربية.
- الموسى، نهاد. (1987). **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**. عمان: مكتبة وسام.
- النجار، نادية رمضان. (2013). **الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي**. مصر. جامعة حلوان: منشورات كلية الآداب.

- النووي، الحافظ يحي بن شرف. (1971). **شرح النووي على صحيح مسلم**، ط2، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- أوستين، جون لانكشو. (2008). **نظرية أفعال الكلام العامة**. ترجمة (قنيني عبد القادر). المغرب. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

- أيوب، عبد الرحمن. (1969). **اللغة والتطور**. مصر. معهد البحوث والدراسات العربية: مطبعة الكيلاني.

- بعيطيش، يحي. (2002). *الوظائف التداولية في رواية ريح الجنوب*. **مجلة علامات في النقد. عدد43. مجلد11**. صفحات443-478.

- بعيطيش، يحي، 2006/2005، **نحو نظرية وظيفية للنحو العربي**. أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة منتوري بقسنطينة، الجزائر.

- بلخير، عمر. (2003). **تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية**. الجزائر. منشورات الاختلاف: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

- بلخير، عمر. (2012). **مقدمات في الحجاج والنص**. الجزائر. جامعة مولود معمري بتيزي-وزو: منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر.

- بلخير، عمر. (2013). **مقالات في التداولية والخطاب**. الجزائر. تيزي-وزو: دار الأمل.

- بلعيد، صالح. (1994). **الإحاطة في النحو: النحو الوظيفي**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- بلعيد، صالح. (2004). **مقالات لغوية**. الجزائر: دار هومة.

- بلعيد، صالح. (2005). **في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث**. الجزائر: دار هومة.

- بلعيد، صالح. (2014). **في المناهج اللغوية والمنهجية**. جامعة مولود معمري بتيزي-وزو: منشورات مخبر االممارسات اللغوية في الجزائر.

- بلعيد، صالح. (2016). *هل تطبيق نظام APA التوثيقي اختيار أم إجبار؟*. **مجلة الممارسات اللغوية. عدد 38**. الصفحات 11-28. الجزائر. جامعة تيز-وزو: منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر.

- بوجادي، خليفة. (2009). **في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم**. الجزائر. العلمة: بيت الحكمة للنشر والتوزيع.

- بومزبر، الطاهر. (2007). **التواصل اللساني والشعرية: مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون**. الجزائر: منشورات الاختلاف.

- تشومسكي، نوام. (1993). **المعرفة اللغوية**. ترجمة (فتيح محمد). القاهرة: دار الفكر العربي.

- تمام، حسان. (1998). **اللغة العربية معناها ومبناها**. ط3. القاهرة: عالم الكتب.

- تمام، حسان. (2005). **الخلاصة النحوية**. ط2. القاهرة: عالم الكتب.

- تون فان دايك. (2000). **النص والسياق**. ترجمة (قنيني عبد القادر). المغرب. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

- جدير، أحمد. (2005). **شهادة**. في ندوة تكريمية للأستاذ أحمد المتوكل: النحو الوظيفي واللغة العربية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عين الشق. الدار البيضاء. المغرب.

- جدير، محمد. (2007). **مقاربة وظيفية لرواية ضحايا الفجر لميلود حمدوشي**. الرباط: مطبعة أبي رقراق.

- جون سيرل. (2006). **العقل واللغة والمجتمع**. ترجمة (الغانمي سعيد). الجزائر: منشورات الاختلاف.

- حمو الحاج، ذهبية. (2005). **لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب**. الأردن. إربد: دار الأمل.

- خرما، نايف؛ وحجّاج، علي. (1988). *اللغات الأجنبية: تعليمها وتعلمها*. **مجلة سلسلة عالم المعرفة**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- خطابي، محمد. (2006). **لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب**. ط2. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- دك الباب، جعفر. (1980). **الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني: نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث**. دمشق: مطبعة الجليل.

- دك الباب، جعفر. (1996). **النظرية اللغوية العربية الحديثة**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

- دلاش، الجيلالي. (1992). **مدخل إلى اللسانيات التداولية**. ترجمة (يحياتن محمد). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- دي بوجراند، روبرت. (2007). **النص والخطاب والإجراء**. ط2. ترجمة (تمام حسان). القاهرة: عالم الكتب.

- دي سوسير، فرديناند. (1985). **دروس في اللسانيات العامة**. ترجمة (القرمادي صالح؛ والشاوش محمد؛ وعجينة محمد). تونس: الدار العربية للكتاب.

- ديبر، آن ماري؛ وريكاناتي، فرانسواز. (1989). **المقاربة التداولية إلى اللغة**. ترجمة (علواش سعيد). بيروت: مركز الإنماء القومي.

- ديكرو، أزوالد؛ وسشايفر، جان ماري. (2007). **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**. ط2. ترجمة (عياشي منذر). بيروت: المركز الثقافي العربي.

- روبول، آن؛ وموشلار، جاك. (2003). **التداولية اليوم علم جديد في التواصل**. ترجمة (دغموس سيف الدين؛ والشيباني محمد). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

- سامسون، جفري. (1997). **مدارس اللسانيات: التسابق والتطور**. ترجمة (محمد زياد كبة). الرياض: جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع.

- سيبويه، أبو بشير عمرو بن عثمان. (1999). **الكتاب**. تحقيق (عبد السلام محمد هارون). بيروت: دار الكتب العلمية.

- شاهر، الحسن. (2001). **علم الدلالة السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية**. عمان: دار الفكر.

- صالح، محمد أديب. (1968). **لمحات في أصول الحديث والبلاغة النبوية**. دمشق: المكتب الإسلامي.

- صحراوي، مسعود. (2003). *المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي*. **مجلة الدراسات اللغوية. المجلد الخامس. العدد الأول**. السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

- صحراوي، مسعود. (2005). **التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي**. بيروت: دار الطليعة.

- طه، عبد الرحمن. (1998). **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- عباس، حسن. (1980). **النحو الوافي**. القاهرة: دار المعارف.

- عرفان، عبد القادر. (2001). **موسوعة الجامع الصحيح للأحاديث القدسية مع شرحها وما صح من أحاديث الملائكة الكرام والجان**. بيروت: دار الفكر.

- علوان، محمد؛ وعلوان، نعمان. (1998). **من بلاغة القرآن الكريم: المعاني البيان البديع**. ط2، الدار العربية للنشر والتوزيع.

- عودة، خليل أبو عودة. (1994). **بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين**. ط2. الأردن. عمان: دار البشير.

- غلفان، مصطفى. (1998). **اللسانيات العربية الحديثة: دراسة تحليلية نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية**. المغرب. جامعة عين الشق بالدار البيضاء: منشورات كلية الآداب.

- غلفان، مصطفى. (2005). **أعمال أحمد المتوكل اللسانية من التراث إلى الحداثة**. في ندوة تكريمية للأستاذ أحمد المتوكل: النحو الوظيفي واللغة العربية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عين الشق بالدار البيضاء. المغرب.

- غلفان، مصطفى. (2013). **اللسانيات العربية أسئلة المنهج**. الأردن: دار ورد.

- فضل، صلاح. (1996). **بلاغة الخطاب وعلم النص**. القاهرة: شركة لونجمان.

- فوكو، ميشال. (1984). **نظام الخطاب**. ترجمة (بسيلة محمد). بيروت: دار التنوير.

- مانغونو، دومينيك. (2008). **المصطلحات المفاتيح تحليل الخطاب**. ترجمة (يحياتن، محمد). بيروت: الدار العربية للعوم ناشرون.

- متولي، أحمد مصطفى. (2013)، **الأحاديث القدسية وشروحها**، القاهرة: دار ابن الجوزي.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (2004). **المعجم الوسيط**. ط4. إخراج (إبراهيم مصطفى وآخرون). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

- مسلم، أبو الحسين بن حجاج القشيري، (1993)، **صحيح مسلم**، تحقيق (عبد الباقي محمد فؤاد). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- مليطان، محمد الحسين. (2014). **نظرية النحو الوظيفي: الأسس والنماذج والمفاهيم**. الرباط: دار الأمان.

- مومن، أحمد. (2015). **اللسانيات النشأة والتطور**. ط5. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- مونقاقو، دومنيك. (2005). **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**. ترجمة (يحياتن محمد). الجزائر: منشورات الاختلاف.

- ميلز، سارة. (2004). **الخطاب**. ترجمة (بغول يوسف). الجزائر. قسنطينة. منشورات جامعة منتوري.

- نحلة، محمود أحمد. (2002). **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**. مصر: دار المعرفة الجامعية.

- يليق، عزالدين. (1986). **موازين القرآن والسنة للأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة**. ط2. بيروت: دار الفتح.

- يليق، عزالدين. 1986. **موازين القرآن والسنة للأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة**. ط2. بيروت: دار الفتح.

– يول، جورج. (2010). **التداولية**. ترجمة (العتابي قصي). بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

–ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**. بيروت: دار إحياء التراث العربي. دون تاريخ.

–المباركفوري، صفي الرحمن. (1999). **منة المنعم في شرح صحيح مسلم**. الرياض: دار السلام.

–أوستين، جون لانجشو. (1991). **نظرية أفعال الكلام العامة**. ترجمة (قينيني عبد القادر). الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

ثانيًا– المصادر والمراجع غير المطبوعة (المنشورة إلكترونياً)

– موقع نحو الخطاب الوظيفي: http://home.hum.uva.nl/fdg/Events_index.asp

ثالثاً– المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الأجنبية:

- Chomsky, Noam. (1980). **Roles and Representations**. Columbia University Press.

- Dik, Simon Charles. (1978). **Functional Grammar**. Amsterdam: North-Holland.

- Dik, Simon Charles. (1980). **Studies in Functional Grammar**. London: Academic Press.

- Dik, Simon Charles. (1989). **The Theory of Functional Grammar**. Part 1. **The structure of the clause**. Dordrecht: Foris.

- Dik, Simon Charles. (1997a). **The Theory of Functional Grammar**. Part 1. **The structure of the clause**. Second Revised Edition. Edited by Kees Hengevled. Berlin: Mouton de Gruyter.

- Dik, Simon Charles. (1997b). **The Theory of Functional Grammar**. Part 2. **Complex and derived constructions**. Edited by Kees Hengevled. Berlin: Mouton de Gruyter.

- Hengevled, Kees; Mackenzie, J. Lachlan. (2008). **Functional Discourse Grammar: A Typologically-Based Theory of Language Structure**. Oxford: Oxford University Press.

- Hymes, D. (1973). **Towards Linguistic Competence**. Traduit en Français par (Mugler. F). In: D Hymes (1984). Paris: Hatier-Credif.

فهرس الجداول والأشكال

الرقم	عنوان الجدول	الصفحة
01	اختلاف الحديث القدسي عن القرآن الكريم	16
02	تباين الحديث القدسي عن الحديث النبوي	18
03	المستوى الوظيفي للجملة عند رواد نظرية الوجهة الوظيفية للجملة	37
04	التمثيل لنسق التعدية ونسق الصيغة	40
05	أهم النظريات الوظيفية التداولية الحديثة	51
06	وجوه الاختلاف بين النظريات الوظيفية والنظريات غير الوظيفية	53
07	الاختلاف بين نماذج: النحو المعيار والنحو القالبي ونحو الخطاب الوظيفي	118

الرقم	عنوان الشكل	الصفحة
01	علاقة الاتجاه الوظيفي بالاتجاه التداولي	26
02	أشهر النظريات الوظيفية والنظريات التداولية	27
03	مجالات وأنساق ووظائف النحو النسقي	41
04	النظريات الوظيفية التداولية الحاضرة في الحقل اللساني	56
05	تعدّد نماذج النظرية الوظيفية التداولية	69
06	النموذج النواة	101
07	النموذج المعيار	103
08	نموذج نحو الطبقات القالبي	106
09	نموذج نحو الخطاب الوظيفي	110
10	نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسع	113
11	الوظائف التداولية الأحادية والمزدوجة	205
12	التحقق الإنطاقي للبنية التحتية	255

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
شكر وتقدير	–
المقدمة	01
الفصل التمهيدي: تحديدات مفاهيميّة أوّليّة	30-12
مدخل	12
1- الأحاديث القدسية	12
1-1- مفهوم الأحاديث القدسية	12
1-2- الحديث القدسي بين القول والتنزيل	13
1-3- جمع الأحاديث القدسية الصحيحة	15
1-4- اختلاف الحديث القدسي عن القرآن الكريم	16
1-5- تباين الحديث القدسي عن الحديث النبوي	18
2- النظرية	19
2-1- مفهوم النظرية	19
2-2- شروط النظرية	19
3- الوظيفية	20
3-1- مفهوم الوظيفية	20
3-2- الفرق بين النظرية الوظيفية والنظرية الصورية	20
4- التداولية	21
4-1- مفهوم التداولية	21
4-2- العلاقة بين النظرية الوظيفية والنظرية التداولية	23
5- النظرية الوظيفية التداولية	28
خلاصة	30
الفصل الأول: الإطار الابستيمولوجي للنظريّة الوظيفيّة التّداوليّة	70-31
مدخل	31
أولاً- انعطاف اللسانيات الحديثة والمعاصرة نحو الاتجاه الوظيفي	31
1- التوجه الوظيفي للسانيات البنوية	32

1-1- نظرية الوجهة الوظيفية للجملة	33
1-2- نظرية النحو النسقي	37
2- التوجه الوظيفي للسانيات التوليدية التحويلية	42
2-1- نظرية الدلالة التوليدية	43
2-2- نظرية التركيبات الوظيفية	46
3- التوجه الوظيفي لنظريات قائمة الذات	47
3-1- نظرية الأدوار والإحالة	47
3-2- نظرية النحو الوظيفي	51
ثانياً- الفرق بين النظريات الوظيفية والنظريات غير الوظيفية	52
ثالثاً- المفاضلة بين النظريات الوظيفية	57
رابعاً- تأسيس النظرية الوظيفية التداولية وانتقالها إلى اللسانيات العربية	59
خامساً- مشروع (المتوكل) في النظرية الوظيفية التداولية	61
سادساً- انفتاح النظرية الوظيفية التداولية على الدراسات النصية	67
خلاصة	70
الفصل الثاني: الفرش الوصفي للنظرية الوظيفية التداولية	120-71
مدخل	71
أولاً- المنطلقات المنهجية للنظرية الوظيفية التداولية	71
1- أداتية اللغة	72
2- وظيفة اللغة	72
3- نسق استعمال اللغة	76
4- سياق استعمال اللغة	77
5- مواقف مستعمل اللغة	78
6- القدرة اللغوية	79
7- تحكم الوظيفة في البنية	81
8- إسهام الوظيفة في تطور اللغة	83
9- الكليات اللغوية	86
10- اكتساب اللغة	87

ثانياً– موضوع الدرس في النظرية الوظيفية التداولية	88
ثالثاً– مطامح النظرية الوظيفية التداولية	90
1– الكفاية اللغوية	90
1–1– الكفاية التداولية	91
1–2– الكفاية النفسية	92
1–3– الكفاية النمطية	94
2– الكفاية الإجرائية	96
2–1– الكفاية الحاسوبية	97
2–2– الكفاية التطورية	98
رابعاً– نمذجة النظرية الوظيفية التداولية	100
1– النموذج النواة (سنة 1978)	101
2– النموذج المعيار (سنة 1989)	103
3– نموذج نحو الطبقات القالبي (سنة 2003)	105
4– نموذج نحو الخطاب الوظيفي (سنة 2008)	109
5– نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسع (سنة 2011)	113
خامساً– المقارنة بين نماذج النظرية الوظيفية التداولية	117
خلاصة	120
الفصل الثالث: الحديث القدسي في ضوء نحو الطبقات القالبي	170–121
مدخل	121
أولاً– الخطاب المختار للفحص ومعناه العام	121
ثانياً– اشتغال نحو الطبقات القالبي على الخطاب المنتقى للدراسة	123
1– المستوى الإبلاغي	124
1–1– طبقة المركز الإشاري	125
1–2– طبقة نمط الخطاب	126
1–2–1– الوجه التخاطبي	126
1–2–2– الغرض التخاطبي	127
1–2–3– الآليات التخاطبية	127

1-3- طبقة أسلوب الخطاب	131
1-3-1- التقريرية	131
1-3-2- الإنشائية	131
1-3-3- التفاعلية	136
2- المستوى العلاقي	138
2-1- الطبقة الاسترعائية	139
2-1-1- الاسترعاء بالتراكيب الإشارية	140
2-1-2- الاسترعاء بالتراكيب الندائية	140
2-1-3- الاسترعاء بالتكرار اللفظي	142
2-1-4- الاسترعاء بالإلحاح الحواري	143
2-2- الطبقة الإنجازية	144
2-3- الطبقة الوجهية	148
2-3-1- السمات الوجهية الذاتية	148
2-3-2- السمات الوجهية المرجعية	153
2-4- طبقة الوظائف التداولية	155
2-4-1- الوظائف التداولية الداخلية	155
2-4-2- الوظائف التداولية الخارجية	158
3- المستوى التمثيلي	158
3-1- الطبقة التأطيرية	159
3-2- الطبقة التسويرية	162
3-2-1- السمات التسويرية الكمية الجهية	162
3-2-2- السمات التسويرية الكمية للذوات	164
3-3- الطبقة الوصفية	165
3-3-1- السمات الجهية الكيفية التامة	165
3-3-2- السمات الجهية الكيفية غير التامة	165
3-4- طبقة الوظائف الدلالية	167
3-4-1- المحمولات الدالة على الوقائع الحركية	167

3-4-2- المحمولات الدالة على الوقائع غير الحركية	168
خلاصة	170
الفصل الرابع: الحديث القدسي في ضوء نحو الخطاب الوظيفي	171-220
مدخل	171
أولاً- المدونة المعيّنة للمعالجة ومعناها العام	171
ثانياً- إعمال نحو الخطاب الوظيفي على مدونة الفحص	174
1- المستوى التداولي	175
1-1- طبقة المحادثة	176
1-1-1- مخصص نمط المحادثة	176
1-1-2- مخصص أسلوب المحادثة	177
1-2- طبقة النقلة	179
1-2-1- زمرة النقلات الفرع	180
1-2-2- زمرة النقلات الأصل	180
1-3- طبقة الفعل الخطابي	181
1-3-1- أنواع الأفعال الخطابية	181
1-3-2- مخصصات الأفعال الخطابية	181
1-3-3- الوظائف البلاغية	183
1-3-4- القوى الإنجازية	187
1-3-5- مؤشري المتكلم والمخاطب	190
1-4- طبقة الفحوى الخطابي	192
1-4-1- الأفعال الإحالية	192
1-4-2- الأفعال الحملية	201
1-4-3- الوظائف التداولية	204
1-4-3-1- الوظائف الأحادية	205
1-4-3-2- الوظائف المزدوجة	207
2- المستوى الدلالي	209
2-1- طبقة القضية	210

2-2- طبقة الواقعة	211
2-2-1- السمات الجهية الكمية	212
2-2-2- السمات الجهية الكيفية	214
2-2-3- السمات الكمية للذوات	216
2-2-4- السمات الزمنية	217
خلاصة	220
الفصل الخامس: الحديث القدسي في ضوء نحو الخطاب الوظيفي الموسع	269-221
مدخل	221
أولاً- المتن المنتقى للدراسة ومعناه العام	221
ثانياً- إجراء نحو الخطاب الوظيفي الموسع على المتن المحدد للمعالجة	224
1- المكون السياقي	226
1-1- السياق العام	227
1-2- السياق المقالي	228
1-3- السياق المقامي	229
2- المكون المفهومي	229
3- المكون الإنطاقي	231
4- أرباض النص	232
4-1- الفواتح	232
4-2- الأحشاء	233
4-3- الخواتم	234
5- استراتيجية الوظيفية التواصلية	235
5-1- بين التواصل والتخاطب	235
5-2- نسق التواصل	237
5-3- نمط التواصل	238
6- التنميط الوظيفي البنوي الموسع للخطاب	239
6-1- معيار المجال	240
6-2- معيار القصد	240

6-3- معيار الآلية	241
6-3-1- آلية السرد	241
6-3-2- آلية الوصف	241
6-3-3- آلية الحجاج	242
6-4- معيار الوسائط	245
6-4-1- الخطاب المباشر	246
6-4-2- الخطاب الموسط	248
6-4-3-1- الخطاب الموسط المنقول	248
6-4-3-2- الخطاب الموسط المترجم	254
6-5- معيار الكيفية	258
6-5-1- الخطاب الشفاف	258
6-5-2- الخطاب الكاتم	258
6-5-2-1- الخطاب الملتبس	259
6-5-2-2- الخطاب المطوي	261
6-5-2-3- الخطاب المنعرج	263
6-5-2-4- الخطاب المتداخل	265
7- استراتيجية تلقي الخطاب	266
7-1- التزامن والتباعد في التلقي	266
7-2- السلامة والاضطراب في التلقي	267
خلاصة	269
الخاتمة	270
قائمة المصادر والمراجع	277
فهرس الجداول والأشكال	289
فهرس الموضوعات	290
الملخص	-

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تَمْحيص الكِفايات اللُّغوية والإجرائيّة للنظريّة الوظيفيّة التّداوليّة؛ بِتَمْرير أُنْظُومَةِ مَسَاطِرِها بِمِحَكِّ اِنْطِباقِيَّتها على الخطابات الدِّينية، حيث تَمّ اختبار ثلاثة أحاديث قدسيّة طِوال تحت مِجْهر النّماذج الثّلاثة الأخيرة للنّظريّة وهي: نَحْوُ الطَّبقاتِ القَالَبِي ونحو الخطاب الوظيفي ونحو الخطاب الوظيفي المُوَسَّع، بالاعتماد على المنهج الوصفي.

تَوصّلنا إلى نَجَاعَةِ النَّظريّة في مُقارَبة هذا النّوع من الخطابات؛ مع تَفَاوُتٍ ملحوظ بين النّماذج في اِسْتِجلاءِ سماتِ المُسْتَوَيَيْن التّداولي والدّلالي من البنية التّحتيّة وَوَظائفهما، وكيفيّة انعكاسها في المُسْتَوَيَيْنِ الصّرفي–التّركيبي والصّوتي من البنية السّطحيّة في المُكَوِّنِ النّحوي من الخطاب.

الكلمات المفاتيح: الأحاديث القدسيّة؛ النّظريّة الوظيفيّة التّداوليّة؛ الكفايات اللّغويّة والإجرائيّة؛ البنية التّحتيّة؛ البنية السّطحيّة؛ المكون النحوي.

Abstract:

The purpose of this research is to study the competences and performances according to the pragmatic-functional theory and the possibility of its application on religious discourse. The study is based on three long Hadiths Qudsis, according to the last three models of the theory: grammar of classes and categories, functional discourse grammar and expanded functional discourse grammar, using the descriptive method.

The obtained result proves that this theory is successfully applicable on this type of discourse but with some differences concerning characteristics and functions of the pragmatic and the semantic levels of deep structure, and the modality of their morphosyntactic and phonetic effects of surface structure on the grammatical component of discourse.

Keywords: Hadiths Qudsis; pragmatic-functional theory; competences and performances; deep structure; surface structure; grammatical component.